سعيد حوّى



المجلد العاشر

ويشتمل على :-

تفسير السور من بداية سورة الذاريات إلى نهاية سورة القلم

وهي تمثل :-

المجموعات من الأولى حتى الخامسة من قسم المفصل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

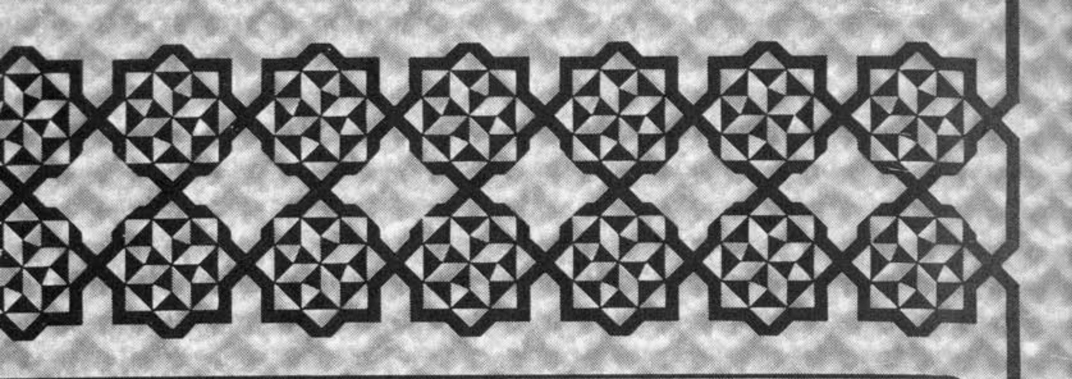
القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤

حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤

بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

الطبعة الأولى

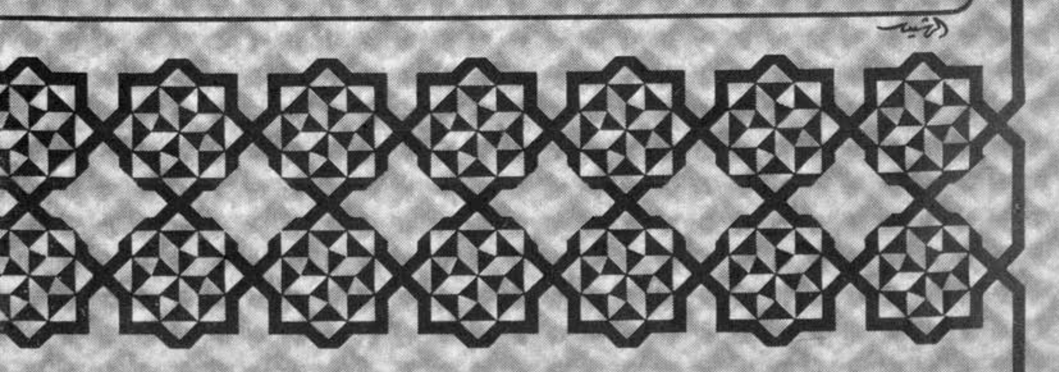
١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م



الْقِسْمُ ٱلرَّابِعُ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْقُرْآن

قِسْمُ ٱلْمُفَصَّل

وَيَتَضَمَّنُ ٱلسُّوَرَ مِنْ بِدَايَةِ سُورَةِ ٱلذَّارِيَاتِ إِلَى نِهَايَةِ ٱلْمُصْحَفِ



كلمة في قسم المفصّل :

(عن مروان بن الحكم قال : قال لي زيد بن ثابت : مالك تقرأ في المغرب بقصار المفصّل ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بطولى الطوليين » رواه البخاري وأحمد والنسائي . بمناسبة هذا الحديث قال الشوكاني في تفسير المفصّل : قال في الضياء : (هو من سورة محمد إلى آخر القرآن ، وذكر في القاموس أقوالاً عشرة من الحجرات إلى آخره ، أو من الجاثية ، أو القتال ، أو قاف ، أو الصافات ، أو الصف ، أو تبارك ، أو إنا فتحنا لك ، أو سبح اسم ربك الأعلى ، أو الضحىٰ ، ونسب بعض هذه الأقوال إلى من قال بها ، قال : وسمي مفصّلاً لكثرة الفصول بين سوره أو لقلة المنسوخ) .

وطولى الطوليين الواردة في الأثر : الأعراف ، والثانية : الأنعام . قال في الفتح : الطوليين الأعراف والأنعام في قول ، وتسميتهما بالطوليين إنما هو لعرف فيهما ، لا أنهما أطول من غيرهما ... وبمناسبة الحديث الشريف : « وعن سليمان بن يسار عن أبي هريرة أنه قال : ما رأيت رجلاً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان لإمام كان في المدينة ، قال سليمان : فصليت خلفه فكان يطيل الأولين من الظهر ويخفف الآخرتين ، ويخفف العصر ، ويقرأ في الأولين من المغرب بقصار المفصّل ، ويقرأ في الأولين من العشاء من وسط المفصّل ، ويقرأ في الغداة بطوال المفصل » رواه أحمد والنسائي .

بمناسبة هذا الحديث قال الشوكاني : (ويقرأ في الأولين من العشاء من وسط المفصّل) قد تقدم في حديث معاذ أن النبي ﷺ أمره بالقراءة بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى ، وهذه السور من أوساط المفصّل ، وزاد مسلم أنه أمره بقراءة اقرأ باسم ربك الذي خلق ، وزاد عبد الرزاق الضحى ، وفي رواية للحميدي بزيادة والسماء ذات البروج ، والسماء والطارق ، وقد عرفت أن قصة معاذ كانت في صلاة العشاء ، وثبت أنه كان ﷺ يقرأ في صلاة العشاء بالشمس وضحاها ونحوها من السور . أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وحسّنه من حديث بريدة وأنه قرأ فيها بـ (والتين والزيتون) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي من حديث البراء ، وأنه قرأ بـ (إذا السماء انشقت) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة) اهـ . كلام الشوكاني في تفسير وسط المفصّل وقال الشرنبلالي في مراقي الفلاح : (والمفصّل هو السُّبع السابع (أي : من القرآن) قيل أوله – عند الأكثرين – من سورة الحجرات ، وقيل من سورة محمد ﷺ ، أو من الفتح ، أو من (قٓ) ، فالطوال من مبدئه إلى

البروج ، وأوساطه منها إلى (لم يكن) ، وقصاره منها إلى آخره ، وقيل طواله من الحجرات إلى عبس ، وأوساطه من كورت إلى الضحى ، والباقي قصاره) .

وقال الشرنبلالي : (وسمّي المفصّل به لكثرة فصوله ، وقيل لقلة المنسوخ فيه) .

وفسّر الطحاوي كثرة الفصول بقوله : (أي : لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة) وقال في تفسير قلة المنسوخ فيه بقوله : (فهو من التفصيل بمعنى الإحكام وعدم التغيير) .

....

مما نقلناه ندرك أن اسم المفصّل للسبع السابع من القرآن متعارف عليه بين الصحابة وبين الفقهاء خلال العصور ، كما ندرك أن تحديده قضية خلافية ، وقد رأينا في بداية تفسيرنا لسورة (قٓ) أن ابن كثير يرجّح أن ابتداءه من سورة (قٓ) . وقلنا هناك : إننا نرجح أن يكون ابتداؤه من سورة الذاريات ، وذكرنا لماذا رجّحنا ذلك ، ولاحظنا مما نقلناه هنا أن هناك اتفاقاً بين المؤلفين على أنه سمي مفصّلاً لأحد سببين : إما لكثرة فصوله ، أو لقلة المنسوخ فيه ، ورأينا أن الطحاوي ضعّف القول الثاني إذ قال قبله : (وقيل لقلة المنسوخ فيه) وإنما تستعمل كلمة (قيل) للتدليل على ضعف القول ، فيبقى القول الأول هو القول المرجح عند الطحاوي من أنه سمّي مفصّلاً لكثرة فصوله ، وفسّر كثرة الفصول بكثرة الفصل بين سوره بالبسملة .

أقول : وهو وجه مما تحتمله كلمة كثرة الفصول ، إذ ما قبل المفصّل يوجد خمسون سورة بما في ذلك سورة الفاتحة ، بينما توجد من الذاريات حتى نهاية القرآن أربعة وستون سورة ، إلا أنني أحتمل أن يكون الشارح الذي شرح المفصّل بكثرة الفصول أراد (الفصل) بالمعنى الاصطلاحي عند العلماء ؛ فإنه المتبادر إلى الذهن عندما يقال الفصول ، إذ هي جمع فصل والفصل في اصطلاح العلماء قديماً وحديثاً هو : ما دون الباب في تقسيمات المؤلفين ، فقد اصطلحوا على أن الكتاب أعم من الباب ، والباب أعمّ من الفصل ، والذي أرجحه أن الشارح الأول إنما أراد بالفصل ما اصطلحوا عليه ، والذي يرجح هذا أن المتأمل للمفصل يحسّ بشكل واضح بتعدد فصوله من خلال تعدد أنواع البدايات للسور ، ومن خلال التشابه بين بداية وبداية ، ومن ثَمَّ فإنني أفهم بأن المراد بالفصل هو ما أسميته في هذا التفسير باسم المجموعة ، وإن لم يكن واضحاً عند السابقين هذا التحديد الدقيق لمعنى الفصل في المفصل ، فالذي أراه

في هذا الموضوع أن تسمية المفصّل تسمية مأثورة ، وقد فسّر السابقون الكلمة بكثرة الفصول لمعنى غامض أحسوه في هذا القسم ، هذا المعنى الغامض هو الذي تفسره هذه الطريقة التي اعتمدتها في تقسيم القرآن إلى أقسام ، وكل قسم يضم مجموعات ، كل مجموعة تشكل فصلاً من فصول هذا القرآن ، وسمِّي هذا القسم الرابع من القرآن (بالمفصّل) لكثرة هذه المجموعات فيه ، وكما قلنا من قبل فإن ما مَرّ معنا قبل المفصّل كان سورة البقرة وتسع مجموعات ، بينما نجد أن المفصّل وحده كما سنرى خمس عشرة مجموعة ، يضم سور كل مجموعة إلى بعضها أنها تفصل في البقرة من بدايتها إلى نقطة فيها ، ثم تأتي المجموعة الثانية والثالثة وهكذا لتفصّل كل منها تفصيلاً جديداً .

....

وعندما نعرض مجموعات المفصّل سنذكر عند كل مجموعة الأسباب التي حملتنا على اعتبارها مجموعة ، وقد رأينا فيما مَرّ طريقتنا في التدليل على القسم وعلى المجموعات ، ولا شك أن ما مَرّ معنا من قبل يشكّل بالنسبة للمرحلة القادمة من التفسير نقاط علام ، فقد رأينا مثلاً أن السور المبدوءة بقَسَم تشكّل بداية مجموعة ، وسنرى بدايات جديدة لمجموعات في هذا القسم ، والذي نحب أن نذكّر به بهذه المناسبة هو :

....

إنك تلاحظ أن سوراً كثيرة في هذا القِسْم مبدوءة بقَسَم ، ثم يأتي بعد القَسَم أو الأَقْسام سورة أو سور ، ثم يظهر القَسَمُ مرة ثانية ، وأحياناً تجد بعد القَسَم سوراً تتشابه بداياتها ، وأحياناً تجد بداية تتكرر ، ولكن فيما بين البداية والبداية سور ليست مبدوءة بهذه البداية ، كما ترى ذلك في زمرة المسبّحات ، إن ذلك كله يلفت النظر للبحث عن قاعدة كلية تنتظم هذه الدورة ، وإننا نتصور أن ما اتجهنا إليه في هذا التفسير كان هو التفسير لهذه الظاهرة وأمثالها ، والمعاني مع بعض نقاط العلام التي نستأنس بها هي التي تقدم الدليل على صحة السير .

....

يتألف هذا القسم من خمس عشرة مجموعة . وكل مجموعة تفصّل في معان من سورة البقرة من بدايتها إلى شيء منها ، وكل سورة في مجموعة لها محورها من سورة البقرة ، فهي تفصّل في هذا المحور ، وفي امتداده في سورة البقرة ، وهو شيء قد رأيناه كثيراً ، ورأينا الدليل عليه مرة بعد مرة .

وسنرى أن عامة محاور سور هذه المجموعات تفصّل في مقدمة سورة البقرة والمقطعين الأولين من القسم الأول منها ، وهذا يشير إلى أهمية هذه المعاني بالنسبة لمجموع المعاني القرآنية ، حتى اقتضت في كل مجموعة من هذا القسم تفصيلاً على كثرة المجموعات ، كما أنها قد فصّلت في كل مجموعة من قسم المثاني ، أو قسم المئين ، أو قسم الطِّوال .

....

ولنبدأ عرض مجموعات هذا القسم .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المفصَّل
وتشمل سور :
الذاريات ، والطور ، والنجم ،
والقمر ، والرحمن ،
والواقعة

كلمة في المجموعة الأولى من قسم المفصّل

تتألف المجموعة الأولى من قسم المفصّل من سور ست هي :

الذاريات ، والطور ، والنجم ، والقمر ، والرحمن ، والواقعة . وقد دلنا على بدايتها ونهايتها أنها مبدوءة بسور ثلاث تبدأ بالقَسَم : (الذاريات ، والطور ، والنجم) وأنها تنتهي بسورة مبدوءة بـ (إذا) هي سورة الواقعة ﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ وسنرى في هذا القسم أن أكثر من مجموعة تنتهي بسورة بدايتها (إذا) . فمثلاً سنرى أن سورة ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ نهاية مجموعة ؛ بدليل أن ما بعدها سورة مبدوءة بقَسَم ﴿ **والعاديات ضبحاً** ﴾ وتلك علامة على بداية مجموعة ، ثم إنه بعد سورة الواقعة تأتي سورة الحديد ، وهي بداية لزمرة المسبّحات ، ومن مجيء كلمة (سبّح - يسبّح) في هذه الزمرة ، ومجيء سورة أو سور بعدها ، ثم العودة إليها ، ما يشير إلى أن السور التي تبدأ بكلمة (سبّح - يسبّح) هي بداية مجموعة ، وسنرى ذلك من خلال المعاني .

فمن خلال السور المبدوءة بالقَسم ، ومن السورة المبدوءة بـ (إذا) ، ومن خلال أن ما بعد سورة الواقعة بداية مجموعة ، عرفنا بداية هذه المجموعة ونهايتها .

....

وقد مرّت معنا من قبل سورة الصافات مبدوءة بقَسم ، ورأينا أنها تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ورأينا سورة الأنبياء وبدايتها قوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم** ﴾ وهي تفصّل في قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ .

وفي هذه المجموعة تأتي سور ثلاث مبدوءة بقَسَم ، ثم تأتي بعدها سورة بدايتها تشبه بداية سورة الأنبياء ﴿ **اقتربت الساعة** ﴾ ومضمونها أن النذر لم تنفع الكافرين ؛ لذلك كانت لازمتها ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر** ﴾ . وهذا يشير إلى أن السور الأربع الأولى في هذه المجموعة تفصّل في مقدمة سورة البقرة . وبعد مقدمة سورة البقرة تأتي آيات تدعو إلى توحيد الله وعبادته ؛ شكراً على آلائه ، وتتحدى الكافرين في أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وتذكر ما أعده الله للكافرين من عذاب ، وتبشّر المؤمنين ، وتقيم الحجّة على الكافرين ، وذلك في المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة . وتأتي سورة الرحمن والواقعة فتفصّلان في هذا كله ، لذلك كانت لازمة سورة الرحمن : ﴿ **فبأي**

آلاء ربكما تكذبان ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً** ... ﴾ لاتخفى ، وتأتي بعد ذلك سورة الواقعة لتفصّل في أصناف الناس يوم القيامة ، وتقيم الحجة على الكافرين وصلة ذلك بقوله تعالى ﴿ **ثمّ إليه ترجعون** ﴾ لا تخفى .

والخلاصـــة :

إن ما مَرّ معنا من قبل يساعدنا كثيراً على تحديد أن هذه السور الست تشكّل مجموعة متكاملة ، فإن السور الثلاث الأولى منها مبدوءة بقَسم ﴿ **والذاريات** ﴾ ﴿ **والطور** ﴾ ﴿ **والنجم** ﴾ وذلك علامة على أنها تفصّل في الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ، كما فصّلت زمرة (الٓمٓ) العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة في هذه المقدمة .

وكما فصّلت سورة الأنبياء المبدوءة بـ ﴿ **اقترب للناس حسابهم** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ فإن سورة القمر مبدوءة بـ ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ تفصّل في المحور نفسه ، وعلى هذا فالسور الأوائل الأربعة من هذه المجموعة تفصّل في مقدمة سورة البقرة .

وتأتي سورة الرحمن والواقعة لتفصّلا فيما بعد المقدمة من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً** ﴾ فسورة الرحمن التي تبدأ بقوله تعالى ﴿ **الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان** ... ﴾ تفصّل في التعريف على صنع الخالق ، وسورة الواقعة تكمّل التفصيل لذات المقطع . وسنرى تفصيلات ذلك وأدلته بشكل موسع أثناء الكلام عن السور ومحاورها .

....

ونلاحظ أن سوراً كثيرة قد تفصّل في محور واحد ، ولكننا نجد أن كل سورة تفصّل بشكل جديد ، وعلى طريقة عرض جديدة ، وفيها - فيما يتعلق بالتفصيل - شيء جديد ، ولها جرسها الخاص ، وتأثيرها الخاص ، وذلك بعض مظاهر الإعجاز .

وسنرى في هذه المجموعة بشكل بارز صلة أوائل السورة اللاحقة بأواخر السورة السابقة ، وهو شيء ركّز عليه الذين تكلموا عن الوحدة القرآنية من قبل ، فكتب في ذلك

السيوطي وغيره ، وليس هناك من مجموعة في القرآن تظهر فيها هذه الصلات بوضوح كهذه المجموعة والتي بعدها .

ففي هذه المجموعة نجد مثلاً أن سورة الطور تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ ، وأن سورة النجم بعدها تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **والنجم** ﴾ ونجد أن آخر سورة في هذه المجموعة – وهي سورة الواقعة – تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ وأن سورة الحديد بعدها تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **سبَّح لله ما في السموٰات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ ولقد رأينا من قبل كيف أن سورة الفاتحة كانت فقرتها الثالثة : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم ...** ﴾ ثم جاء أول سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ولقد تنبه بعض المفسرين لهذا الضرب من الصلات حتى كتبوا فيه كتباً .

ولنبدأ عرض سور المجموعة الأولى من قسم المفصّل .

☆ ☆ ☆

سورة الذاريات

وهي السورة الحادية والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الأولى من قسم
المفصل ، وآياتها ستون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي السورة :

١ - قدّم الألوسي لسورة الذاريات بقوله : (مكية كما روي عن ابن عباس ، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهما - ولم يحك في ذلك خلاف - وهي ستون آية بالاتفاق كما في كتاب العدد ، ومناسبتها لسورة (قٓ) أنها لما ختمت بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق ، وأن الجزاء لواقع ، وأنه قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل) .

٢ - ومن تقديم صاحب الظلال لسورة الذاريات نقتطف ما يلي : (هذه السورة ذات جو خاص . فهي تبدأ بذكر قوى أربعة .. من أمر الله .. في لفظ مبهم الدلالة ، يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله - تعالى - على أمر : ﴿ **والذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً * فالجاريات يسراً * فالمقسِّمات أمراً * إن ما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع** ﴾ .

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسِّمات .. مدلولاتها ليست متعارفة ، وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلقي في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة .

وما يكاد القَسَم الأول ينتهي حتى يعقبه قَسَم آخر بالسماء : ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ . يقسم بها الله تعالى على أمر : ﴿ **إنكم لفي قول مختلف** ﴾ . لا استقرار له ولا تناسق فيه ، قائم على التخرصات والظنون ، لا على العلم واليقين .

هذه السورة : بافتتاحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمراً واضحاً في سياقها كله .. ربط القلب البشري بالسماء ؛ وتعليقه بغيب الله المكنون ؛ وتخليصه من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والفرار إليه كلية ، استجابة لقوله في السورة : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾ .. وتحقيقاً لإرادته في عباده : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ .

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق

القلب بالسماء في شأنه ، لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ .. ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ .. وإما تعريضاً - كقوله يصوّر حال عباده المتقين مع المال - : ﴿ **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ .. ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقري ضيوفه) .

كلمة في سورة الذاريات ومحورها :

إذا كانت سورة القمر تفصّل - بما لا يقبل الجدل على حسب نظريتنا - في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ...** ﴾ فإن السور الثلاث : الذاريات والطور والنجم تفصّل في قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **الّمّ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ومن ثم نجد بشكل بارز في السور الثلاث كلاماً عن التقوى والمتقين ، ففي سورة الذاريات - وهي محلّ الكلام هنا - نجد قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل مايهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ واضحة . ونجد في سورة الذاريات : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين ...** ﴾ . وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون ...** ﴾ واضحة .

ذكرنا هذين المثالين لصلتهما الواضحة بمحور السورة الذي حددناه وذكرناه ، وإلّا فالسورة كلها تصبّ في تفصيل المحور كما سنرى .

تتألف سورة الذاريات من مقدمة ، ومقطع واحد ، وخاتمة . المقدمة ست آيات ، والخاتمة خمس آيات ، والمقطع يتألف من فقرتين ، وتتألف الفقرة الثانية من عدة مجموعات .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وتمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٦) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **والذاريات ذرواً** ﴾ : فالذاريات هي الرياح سميت كذلك لأنها تذرو التراب وغيره ﴿ **فالحاملات وقراً** ﴾ : المراد بالحاملات : السحاب ، وسميت كذلك لأنها تحمل المطر ، والوقر : الثقل ﴿ **فالجاريات يسراً** ﴾ : قال ابن كثير : فأما الجاريات يسراً فالمشهور عن الجمهور أنها السفن تجري يسراً في الماء ، جرياً سهلاً . ﴿ **فالمقسّمات أمراً** ﴾ : قال النسفي : (الملائكة ؛ لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرهما ، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك ، أو تتولى تقسيم أمر العباد ...) وفي الآيات الأربع قَسَم من الله عز وجل على وقوع المعاد ﴿ **إن ما توعدون لصادق** ﴾ أي : لخبر صدق ، أي : لوعد صادق ، والموعود البعث ، ويحتمل أن يكون المراد الوعيد فيكون المعنى : إن وعيد الله صادق ، قال الألوسي : أي : إن الذي توعدونه أو توعدون به ، ﴿ **وإن الدين** ﴾ وهو الحساب والجزاء على الأعمال . ﴿ **لواقع** ﴾ أي : لكائن لا محالة . أقسم تعالى بالرياح ، فبالسحاب الذي تسوقه ، فبالفلك التي تجريها بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسّم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتيارات البحر ومنافعها وغير ذلك على صدق وعده في شأن اليوم الآخر ، وعلى كينونة الحساب والجزاء .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور سورة الذاريات هو الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، وقد

ختمت الآيات الخمس الأولى بقوله تعالى : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ في هذا النص مدح وبشارة لأهل الايمان بالفلاح ، وذلك وعد من الله عز وجل لهم ، وقد جاءت مقدمة سورة الذاريات وفيها قَسَم على أنّ وعد الله للمؤمنين صادق ، وأن الجزاء على الأعمال كائن ، وصلة ذلك بمحور السورة لا تخفى ، وهذه الآيات تشكل مقدمة السورة ؛ فهي مدخل للمعاني التي ستأتي بعدها ، والتي تفصّل في موعود الله عز وجل لأهل التقوى ، وعقاب الله للذين لا يتحققون بالتقوى .

الفقرة الأولى من المقطع

وتمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٢٣) وهذه هي :

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير :

﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ أي : ذات الجمال والبهاء ، والحسن والاستواء ، أو ذات الطرائق الحسنة ، أو ذات النجوم ، أو ذات المجرات مجرة بعد مجرة . قال النسفي : (هذا قسم آخر) وجوابه : ﴿ **إنكم لفي قول مختلف** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إنكم أيها المشركون المكذّبون للرسل لفي قول مختلف ، أي : مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع) ، وعلى هذا القول الذي يفيد أن الخطاب للمشركين ، فالآية تبيّن أن الكافرين إذ كفروا لا يمكن أن يجتمعوا على شيء ؛ لأن الحق وحده هو الذي يمكن أن يجتمع عليه الخلق . وقال قتادة : إن الخطاب في الآية للناس جميعاً ، واختلافهم هو في كون بعضهم مؤمنين بالقرآن وبعضهم غير مؤمنين ، ﴿ **يؤفَك عنه من أُفك** ﴾ : قال الحسن البصري : يصرف عن هذا القرآن من كذّب به ، قال النسفي : (أي : يصرف عنه من صُرِف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم ، أو يصرف عنه من صرف في سابق علم الله ، أي : عَلم الله فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق) ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ قال ابن عباس : أي : لعن المرتابون ، قال ابن كثير : (وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خطبته : هلك المرتابون ، وقال قتادة : الخراصون أهل الغرّة والظنون) ، قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **قُتل الخراصون** ﴾ أي : الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وأصل الخرص : الظن والتخمين ، ثم تجوز به عن الكذب لأنه في الغالب يكون منشأ له ، وقال الراغب : حقيقة ذلك أن كل مقول عن ظن وتخمين يقال له : خرص ، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل خارص الثمرة في خرصه ، وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً ، وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر به كما في قوله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ الآية انتهى .

وفيه بحث . وحقيقة القتل معروفة ، والمراد ــ بقُتِل ــ الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقي ، وعن ابن عباس في تفسيره باللعن قال ابن الأنباري : وإنما كان القتل بمعنى اللعن هنا لأن من لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك) .

﴿ **الذين هم في غمرة** ﴾ أي : في جهل يغمرهم ﴿ **ساهون** ﴾ أي : غافلون عما أُمروا به ، قال ابن كثير : قال ابن عباس رضي الله عنه وغير واحد : أي : في الكفر والشك غافلون لاهون . ﴿ **يسألون** ﴾ فيقولون : ﴿ **أيان يوم الدين** ﴾

أي : متى يوم الجزاء وتقديره : أيان وقوع يوم الدين ، قال ابن كثير : (وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً) قال الله تعالى : ﴿ **يوم هم على النار يفتنون** ﴾ : أي : يحرقون ويعذّبون ﴿ **ذوقوا فتنتكم** ﴾ أي : حريقكم وعذابكم ، قال الألوسي : (وأصل الفتن : إذابة الجوهر ليظهر غشه ، ثمّ استعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك) قال النسفي : (أي : تقول لهم خزنة النار ذوقوا عذابكم وإحراقكم) ﴿ **هذا الذي كنتم به تستعجلون** ﴾ في الدنيا أي : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، هذا حال أحد الشقين المختلفين الشق المصروف المرتاب ، المغمور بالجهل والغفلة ، المستبعد لليوم الآخر ، وأما الجانب الآخر وهم المتقون فهذه حالهم . ﴿ **إن المتقين** ﴾ في معادهم ﴿ **في جنات وعيون** ﴾ بخلاف ما عليه أولئك الأشقياء من العذاب والنّكال والحريق والأغلال ﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم** ﴾ أي : قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به . قال ابن كثير : (فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم من النعيم والسرور والغبطة) ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك** ﴾ أي : قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿ **محسنين** ﴾ أي : قد أحسنوا العمل ، قال ابن كثير : (ثم إنّه تعالى بيّن إحسانهم في العمل فقال جلّ وعلا : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ أي : كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل ، والهجوع : النوم ، فهؤلاء هجوعهم قليل في ليلهم) ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ قال النسفي : وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم (فما أكثر غفلة الغافلين) والسّحر : السدس الأخير من الليل . ﴿ **وفي أموالهم حق للسائل** ﴾ أي : لمن يسأل لحاجته ﴿ **والمحروم** ﴾ أي : الذي يتعرض ولا يسأل حياءً . قال ابن كثير : لما وصفهم بالصلاة ثنّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة ، وفسر ابن كثير الحق بأنه : جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم . ﴿ **وفي الأرض آيات** ﴾ قال النسفي : (تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها ، وفيها المسالك والفجاج للمتقلّبين فيها ، وهي مجزأة : فمن سهل ، ومن جبل ، وصلبة ، ورخوة ، وسبخة ، وفيها عيون متفجرة ، ومعادن ، ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال ، متباينة الهيئات والأفعال) . ﴿ **للموقنين** ﴾ قال النسفي : أي للموحدين الذين سلكوا الطريق السوي الواضح الموصل إلى المعرفةِ ، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيقاناً على إيقانهم) . ﴿ **وفي أنفسكم** ﴾ قال النسفي : (أي في حال ابتدائها وتنقلها

من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركّز فيها من العقول ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة ،والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها . دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خلقت له ، وما سوّى في الأعظم من المفاصل للانعطاف والتثني ، فإنه إذا جسا منها شيء جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل فتبارك الله أحسن الخالقين ، وما قيل إن التقدير أفلا تبصرون في أنفسكم ضعيف ؛ لأنه يفضي إلى تقديم ما في حيز الاستفهام على حرف الاستفهام) . ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ أي : أفلا تنظرون نظر من يعتبر ﴿ **وفي السماء رزقكم** ﴾ أي : في المطر ؛ لأنه سبب الأقوات ﴿ **وماتوعدون** ﴾ قال النسفي : أي : الجنة ، فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش ، وقال : أو أراد أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدونه في العقبى كله مقدور مكتوب في السماء ، والتفسير الأول هو الذي اقتصر عليه ابن كثير . ﴿ **فوَرَب السماء والأرض إنه** ﴾ أي : الموعود ﴿ **لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ أي : مثل نطقكم ، قال ابن كثير : (يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه فلا تشكّوا فيه ، كما أنكم لا تشكون في نطقكم حين تنطقون) ، قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **إنّه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ (أي مثل نطقكم ، كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكّوا في حقيّة ذلك ، وهذا كقول الناس إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع) .

كلمة في السياق :

١ - إن فهم قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك** ﴾ يتوقف عليه شيء كثير في فهم السياق الخاص والعام للسورة ، لقد رأينا أن قتادة ذكر أن الخطاب في هذا النص للكافرين ، وأن الضمير في كلمة (عنه) يعود إلى القرآن ، وأن القول المختلف هو : في القرآن ، وعلى هذا القول فإن السياق يقرر اختلاف الكافرين في القرآن ، وانصرافهم عنه ، وإذ يتقرر ذلك فإن الله عز وجل يبيّن استحقاق الكافرين المرتابين الجاهلين الغافلين للقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة . وأما المتقون فإن لهم الجنات والعيون بسبب إحسانهم الموصوف في السورة . وصلة ذلك بمحور السورة واضح ، من حيث إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون**

الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، إذ المجموعة تتحدث عن اضطراب قول الكافرين في القرآن ، وانصرافهم عنه ، وعن شكهم وعن غفلتهم وعن جهلهم ، كما تحدثت عن تفصيلات في موضوع الصلاة والإنفاق ، وما يستحق أصحاب ذلك عند الله ، وأما صلة مقدمة السورة بهذه الفقرة فمن حيث إن المقدمة قررت مجيء اليوم الآخر ، والفقرة الأولى بيّنت اختلاف الناس في القرآن الذي يتحدث عن اليوم الآخر ، فانقسم الناس - كأثر عن ذلك - إلى قسمين : كافر وتقي ، هذا ما جزاؤه ؟ وهذا ما جزاؤه ؟ .

وواضح أن الربط بين المقدمة والفقرة الأولى كان على اتجاه قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك** ﴾ في أن الضمير في (عنه) يعود إلى القرآن ، أما النسفي فإنه يربط بين آيات الفقرة الأولى وآيات المقدمة بما يلي : (أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاكّ ، ومنهم جاحد ، ثم قال : ﴿ **يؤفك** ﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من هو مأفوك) . وعلى هذا القول فالفقرة من بدايتها تتحدث عن اليوم الآخر ، واختلاف الناس فيه ، وانصراف بعض الناس عنه ، وما يستحقون بسبب ريبهم وشكهم وغفلتهم واستبعادهم وقوعه من عقاب ، بينما المتقون المحسنون يستحقون الثواب ، وإذ يتقرر ذلك فإن الله عز وجل يذكّر المؤمنين بالآخرة بآياته التي يرونها في الأرض وفي الأنفس ، مما يستدلون به على هذا اليوم الآخر ، وبهذا تعرف صلة قوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ... ﴾ بما قبله من سياق السورة ، وعلى هذا :

فالفقرة الأولى كالمقدمة في كونها تتحدث عن اليوم الآخر ، وما للمؤمنين به العاملين له من أجر ، وما على الكافرين به من وزر ، وماذا في الكون والأنفس من آيات تدل على اليوم الآخر ، وعلى هذا فالصلة بين ما مَرّ من آيات السورة واضحة ، والصلة بين السورة وبين محور السورة واضحة ؛ فمحور السورة الذي يصف المتقين ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ تفصّل فيه هذه الآيات ، فقد فصّلت الآيات في صفات المتقين ، وبيّنت أن أهل اليقين بالآخرة يرون في الأرض وفي أنفسهم من الآيات الكثير الكثير .

هذان مذهبان في فهم آيات الفقرة الأولى ، قد عرفناهما وعرفنا معهما صلة آياتها بمقدمة السورة وبمحورها ، وعندي اتجاه آخر أعرضه فيما يلي :

٢ - إن من حمل قوله تعالى : ﴿ **إنكم لفي قول مختلف** ﴾ على اختلافهم في القرآن لا دليل له من السياق ، لأن القرآن لم يذكر في السياق أصلاً ، ومن قال : إن القول المختلف هو في شأن اليوم الآخر فله وجهه ؛ لأن المقدمة تتحدّث عن اليوم الآخر ، ولكن إرجاع الضمير في (عنه) إلى اليوم الآخر بعيد ؛ لأن الظاهر أن الضمير يعود على القول المختلف ، لا على اليوم الآخر المذكور في المقدمة ، ولذلك لم يطمئن قلبي لهذين التفسيرين ، ومن ثَمَّ فإنني أفهم الآيات على الشكل التالي : ﴿ **والسماء ذات الحبك إنكم** ﴾ أيها الكافرون ﴿ **لفي قول مختلف** ﴾ أي : متناقض مضطرب لأنكم على باطل ، والباطل مضطرب متناقض ، ولا يجمع الناس إلّا الحق ، والقرآن هو الحق ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ ﴿ **يؤفَكُ عنه من أفك** ﴾ أي : يؤفك كأثر عن القول المختلف المضطرب من أفك ، إنّ عقوبة التناقض والاضطراب في القول أن يصرف الله بعض الناس ، ولكن يصرفهم عن أي شيء ؟ هنا يبقى الإطلاق على إطلاقه أي : يصرفهم عن القرآن والإيمان ، فصار المعنى : بسبب هذا القول المختلف : يصرف مَنْ صرف عن الحق في شأن القرآن واليوم الآخر ، فإذا عرف ماذا يترتّب على القول المختلف من انصراف عن الحق كله يأتي قوله تعالى : ﴿ **قُتل الخرَّاصون * الذين هم في غمرة ساهون * يسألون أيّان يوم الدين * يوم هم على النار يفتنون * ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون** ﴾ . فبيّن بهذه الآيات ما يستحقه المرتابون الغافلون المستبعدون لليوم الآخر ، أي : الذين صفاتهم عكس صفات المتقين ، فالمتقون كما وصفتهم أوائل سورة البقرة لا يرتابون في القرآن ، ولا يرتابون في الغيب ، ولا يرتابون في الوحي ، ولا يرتابون في اليوم الآخر ، وهؤلاء عكس ذلك تماماً ، فإذا اتضح ما لهؤلاء من عذاب ، ذكر الله عز وجل المتقين المحسنين بما يعطينا زيادة تفصيل على أوصافهم في سورة البقرة ، وبما يفسر فلاحهم فقال : ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ...** ﴾ . وصلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة وبسياق السورة واضح على ما ذكرناه ، فإذا وصل السياق إلى ذلك يكون قد استقر في القلب والعقل أن الحال الصحيح هو حال المؤمنين المتقين المحسنين العاملين للآخرة الموقنين بها ، ومن

ثَمَّ يبيّن الله عز وجل أن هؤلاء الموقنين بالآخرة ، تشهد لهم أنواع الآيات ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ .

٣ – نلاحظ أن مقدمة سورة الذاريات ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **إن ما توعدون لصادق** ﴾ ، وقد جاء في الفقرة الأولى قوله تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ ونلاحظ أن السورة تختم بقوله تعالى : ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون** ﴾ ، وهكذا نجد موضوع وعد الله باليوم الآخر يتردد في أوائل السورة ووسطها ونهايتها ، مما يشير إلى أن موضوع اليوم الآخر هو المعنى الرئيسي في السورة ، فمحور السورة الأخص هو : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ، وإن كانت السورة تتعرض لما هو أوسع من ذلك مما له علاقة بالمحور .

٤ – عرضنا ما مَرَّ من السورة على أنه مقدمة وفقرة ، والواقع أن الفقرة اللاحقة مرتبطة ارتباطاً كاملاً بالفقرة الأولى ؛ لأن قصة إبراهيم وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام الآتية قصصهم كلها آتية في سياق عرض آيات من آيات الله للموقنين كما سنرى ، فهي امتداد للفقرة الأولى ، ولذلك قلنا إن الفقرتين تشكلان مقطعاً واحداً .

٥ – نلاحظ أن الخطاب في المجموعة اللاحقة يتوجه إلى رسول الله ﷺ : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ كما أن محور السورة يتوجه إلى رسول الله ﷺ : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ...** ﴾ وهي ملاحظة نسجّلها لمجرّد الإشعار بوجود الصلات الكثيرة بين سورة الذاريات ومحورها من سورة البقرة .

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٢٤) إلى نهاية الآية (٥٥) وهذه هي :

المجموعة الأولى من الفقرة الثانية

هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ

سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

المجموعة الثالثة من الفقرة الثانية

وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

المجموعة الرابعة من الفقرة الثانية

وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ

ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

المجموعة الخامسة من الفقرة الثانية

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

المجموعة السادسة من الفقرة الثانية

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

ملاحظة في السياق :

نلاحظ أن قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام - وهي القصة الأولى في السياق - منتهية بقوله تعالى : ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ مما يشير إلى أن السياق يتحدّث عن آيات أخرى للموقنين غير الآيات التي تحدثت عنها نهاية الفقرة الأولى ، وسنرى أن القصص اللاحقة كلها من هذا النوع ، وعلى هذا النسق .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **هل أتاك حديث ضيف** ﴾ أي : ضيوف ﴿ **إبراهيم المكرمين** ﴾ قال ابن كثير : (أي الذين أرصد لهم الكرامة ، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب

الضيافة للتّنزيل) وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل ، وقال النسفي : الضيف للواحد والجماعة .. وجعلهم ضيفاً ؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام ، أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك . وعند النسفي أن تسميتهم بالمكرمين لأنهم عند الله كذلك ، أو لأن إبراهيم عليه السلام خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجّل لهم بالقرى . وابتداء الآية بخطاب رسول الله ﷺ تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإن عرفه بالوحي ، ذكره النسفي . وذكر النسفي صلة قصة إبراهيم عليه السلام بما قبلها فقال : (وانتظامها بما قبلها باعتبار أنه عز وجل قال : ﴿ **وفي الأرض آيات** ﴾ وقال في آخر هذه القصة : ﴿ **وتركنا فيها آية** ﴾) . ا هـ .

ثمّ حدّثنا الله عز وجل عما جرى بين إبراهيم عليه السلام وضيوفه فقال : ﴿ **إذ دخلوا عليه** ﴾ أي : على إبراهيم عليه السلام ﴿ **فقالوا سلاماً** ﴾ أي : نسلم عليك سلاماً ﴿ **قال سلام** ﴾ أي : عليكم سلام ، وفي هذا المقام يذكر المفسرون قضية مرتبطة بالنحو حول أيهما أقوى ، سلام الملائكة أو سلام إبراهيم ؟ فيقولون : إن ردّ إبراهيم عليه السلام كان بصيغة الرفع ، بينما سلامهم كان بصيغة النصب ، فردّ إبراهيم أبلغ في التحية . قال النسفي : والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيّوه به ، أخذاً بأدب الله ، وهذا أيضاً من إكرامه لهم ، وقال ابن كثير : الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فردّه أفضل من التسليم ... فالخليل اختار الأفضل . ﴿ **قوم منكرون** ﴾ قال النسفي : أي : أنتم قوم منكرون فعرّفوني من أنتم ﴿ **فراغ إلى أهله** ﴾ أي : انسل خفية في سرعة ، قال النسفي : فذهب إليهم (أي : إلى أهله) في خفية من ضيوفه ، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفه ... ﴿ **فجاء بعجل سمين** ﴾ أي : من خيار ماله ﴿ **فقرّبه إليهم** ﴾ ليأكلوا فلم يأكلوا ﴿ **قال ألا تأكلون** ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل ، أو حثّهم عليه ، قال ابن كثير : تلطّفٌ في العبارة وعرضٌ حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتيّ سمين مشويّ فقرّبه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على مسامعهم بصيغة الجزم بل قال ﴿ **ألا تأكلون ؟** ﴾ على سبيل العرض والتلطّف ، كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل . فلما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام خاف قال تعالى : ﴿ **فأوجس** ﴾ أي : أضمر ﴿ **منهم خيفة** ﴾ قال

النسفي : (أي : خوفاً ؛ لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك) ﴿ **قالوا لا تخف وبشّروه بغلام عليم** ﴾ بعد أن أعلموه أنهم رسل الله ، والمبشّر به إسحاق عليه السلام ، والبشارة تضمّنت شيئين أن المبشّر به سيكبر ويُعطى العلم ﴿ **فأقبلت امرأته في صرّة** ﴾ أي : في صيحة ﴿ **فصكّت وجهها** ﴾ أي : فلطمت ببسط يديها وجهها ، وقيل فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿ **وقالت عجوز عقيم** ﴾ أي : أنا عجوز عقيم ، فكيف ألد ؟ ﴿ **قالوا** ﴾ أي : الملائكة ﴿ **كذلك** ﴾ أي : مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿ **قال ربك** ﴾ أي : إنما نخبرك عن الله تعالى ، والله قادر على ما تستبعدين ﴿ **إنه هو الحكيم** ﴾ في فعله ﴿ **العليم** ﴾ فلا يخفى عليه شيء ، قال ابن كثير : أي : عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **فما خطبكم** ﴾ أي : فما شأنكم وما طلبتكم وفيم أرسلتم ﴿ **أيها المرسلون** ﴾ وإنما سألهم لعلمه أنهم لا ينزلون إلا بأمر الله رسلاً في بعض الأمور ، فأحب أن يعلم هل أرسلوا بالبشارة خاصة أو لأمر آخر أولهما ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ أي : قوم لوط ﴿ **لنرسل عليهم حجارة من طين** ﴾ أي : حجارة السجيل ، والسجيل في الأصل : طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى صار في صلابة الحجارة ﴿ **مسوّمة** ﴾ أي : معلّمة ﴿ **عند ربك للمسرفين** ﴾ قال ابن كثير : أي : مكتّبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه . قال النسفي : سمّاهم مسرفين كما سمّاهم عادين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم ، حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم ﴿ **فأخرجنا من كان فيها** ﴾ أي : في القرية ﴿ **من المؤمنين** ﴾ يعني : لوطاً عليه السلام ومن آمن به ﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ أي : غير أهل بيت وهم أهل بيت لوط سوى امرأته ، قال النسفي : (وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد ، لأن الملائكة سمّوهم مؤمنين ومسلمين هنا) ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **وتركنا فيها** ﴾ قال النسفي : (أي : في قراهم) ﴿ **آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ أي : علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم قال ابن كثير : (أي : جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال ، وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم) أقول : يفهم من كلام ابن كثير أن البحر الميت تشكّل على أثر ما حلّ بقرى لوط ، قد يكون الأمر كذلك ، وقد يكون البحر موجوداً من قبل ، وعلى أثر الخسف الذي حصل لقرى لوط ، امتد رواقه حتى غمرها ، والأمر يحتاج إلى تحقيقات متعددة لترجيح أحد هذين

الاحتمالين ، والقرآن لم ينص صراحة على هذا الموضوع .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن النسفي قال عن هذه القصة وصلتها بما قبلها ما يلي : (واتصالها بما قبلها باعتبار أنه تعالى قال ﴿ **وفي الأرض آيات** ﴾ وقال في آخر هذه القصة ﴿ **وتركنا فيها آية** ﴾ فالسياق إذن يعرض علينا آية جديدة ، وفي قوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ **وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ ما يشير إلى أن الموقنين هم الذين يخافون العذاب الأليم ، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً باليوم الآخر ، كما ذكر محور السورة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ .

٢ - الملاحظ أنه بعد قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام تأتي الآن أربع مجموعات :

مجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وفي موسى** ... ﴾ .

ومجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وفي عاد** ... ﴾ .

ومجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وفي ثمود** ... ﴾ .

ومجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وقوم نوح** ... ﴾ . .

والنسفي يرى أن هذه المجموعات معطوفة على قوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ﴾ وعلى هذا فإن السياق يكون على الشكل التالي : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ... ﴾ .

وفي ما فعله الله بقوم لوط آية ، وفي قصة عاد آية ، وفي قصة لوط آية ، وفي قصة نوح وقومه آية ، وكل هذه الآيات يراها الموقنون الذين يخافون العذاب الأليم ، فيدفعهم ذلك إلى القيام بحق الله عز وجل رجاء موعوده .

٣ - الملاحظ أن قوله تعالى ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ﴾ لم يأت قبله ما يشعر بأنه معطوف عليه ، فهل في الأقسام السابقة عليه ما له علاقة بهذا الموضوع ، كأن يكون في قوله تعالى ﴿ **والذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً * فالجاريات يسراً * فالمقسمات أمراً** ﴾ إشعار بأن هذه آيات للموقنين ، وفي قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ إشعار بأن هذه آيات للموقنين ، ثم جاء قوله تعالى ﴿ **وفي الأرض**

آيات للموقنين ﴾ معطوف على ما ذكر في هذه الأقسام من مضمون وجود الآية فيها ، فيكون السياق على الشكل التالي :

في الرياح ، والسحاب ، والسفن ، وتقسيم الأرزاق ، ومجرات السماء ، آيات للموقنين باليوم الآخر ، وفي الأرض كذلك آيات ، وفي قصة قوم لوط آية ، وفي قصة موسى مع فرعون آية ، وفي قصة عاد آية ، وفي قصة ثمود آية ، وفي قصة قوم نوح آية ، وفي بناء السماء وسعتها آية ، وفي تمهيد الأرض آية ، وكلها تدل على الله ، ويأتي بعد ذلك قوله تعالى ﴿ **ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين** ... ﴾ ودلّ السياق على أن من اجتمع له اليقين باليوم الآخر ، والخوف من عذاب الله كان تقياً ، وعكسه من كان خرّاصاً ساهياً ، ومن ثَمَّ بدأت السورة بتأكيد مجيء اليوم الآخر ، ودلّت على المزالق التي تبعد عن هذا الإيمان .

٤ – فالسورة تفصّل في صفات الموقنين باليوم الآخر ، كما تؤكد وقوع ما وعد الله عز وجل به في أوائل سورة البقرة ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وكل ذلك من ضمن سياق السورة الخاص الذي سيتضح لنا شيئاً فشيئاً .

٥ – بعد قوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ يأتي قوله تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وصلته بما قبل ذلك في السورة ﴿ **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ واضحة ؛ إذ الآيتان توضحان أن رزقكم عند الله فلا تبخلوا ؛ وأن جزاءكم عند الله فلا تبخلوا ، وجاء هذا بعد ذكر آيات الله في الأرض وفي الأنفس ليزداد اليقين بالله وقدرته .

وفيما بين قوله تعالى ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ... ﴾ وما بين المعطوف عليها بقوله تعالى ﴿ **وفي موسى** ... ﴾ جاء قوله تعالى ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم** ... ﴾ لتكون القصة مؤدّية أكثر من خدمة ، ففيها كلام عن القيام بحق الضيوف ، وهو نوع إنفاق ، وفيها كلام عن قدرة الله التي تعطي العقيم نسلاً ، وفيها تحذير من المخالفة ، وذلك كله يخدم في أكثر من اتجاه : إن في تفصيل المحور ، أو في

سياق السورة الخاص ، إذا اتضح هذا كله فلننتقل إلى تفسير ما تبقى من مجموعات الفقرة .

تفسير المجموعة الثانية

﴿ **وفي موسى** ﴾ قال النسفي : معطوف على ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ﴾ أو على قوله تعالى ﴿ **وتركنا فيها آية** ﴾ ... فالتقدير إذن : وفي موسى آية : ﴿ **إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين** ﴾ قال النسفي : أي بحجة ظاهرة وهي اليد والعصا وقال ابن كثير : أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ **فتولى** ﴾ أي : فأعرض فرعون ﴿ **بركنه** ﴾ قال النسفي : (أي بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه ، والركن : ما يركن إليه الإنسان من مال وجند) قال ابن كثير : (أي فأعرض فرعون عما جاء به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً) ﴿ **وقال ساحر أو مجنون** ﴾ قال ابن كثير : أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً ﴿ **فأخذناه وجنوده** ﴾ أي : هو من كان يتعزز به ، ويتكبر بسببه ﴿ **فنبذناهم في اليمّ** ﴾ أي فألقيناهم في البحر ﴿ **وهو** ﴾ أي : فرعون ﴿ **مليم** ﴾ أي : وهو ملوم كافر جاحد معاند قال النسفي : (أي آت بما يلام عليه من كفره وعناده) .

تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **وفي عاد** ﴾ آية ﴿ **إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾ أي : المفسدة التي لا تنتج شيئاً قال النسفي : (هي التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر) ﴿ **ما تذر من شيء أتت عليه** ﴾ قال ابن كثير : أي ممّا تفسده الريح ﴿ **إلا جعلته كالرميم** ﴾ أي : كالشيء الهالك البالي ، وقد فسر النسفي الرميم بقوله : هو كل ما رمّ ، أي : بلي وتفتّت من عظم أو نبات أو غير ذلك ، والمعنى : ما تترك من شيء هبّت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلّا أهلكته .

تفسير المجموعة الرابعة

﴿ **وفي ثمود** ﴾ قال النسفي : (آية أيضاً) ﴿ **إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين** ﴾ قال ابن جرير : يعني إلى وقت فناء آجالكم . وقال النسفي : تفسيره قوله تعالى ﴿ **تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام** ﴾ قال ابن كثير : وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ **فعتوا عن أمر ربهم** ﴾ أي : فاستكبروا

عن امتثال أمر ربهم ﴿ **فأخذتهم الصاعقة** ﴾ أي : العذاب ، قال النسفي : وكل عذاب مهلك : صاعقة ﴿ **وهم ينظرون** ﴾ قال النسفي : لأنها كانت نهاراً يعاينونها ﴿ **فما استطاعوا من قيام** ﴾ أي : من هرب ولا نهوض ﴿ **وما كانوا منتصرين** ﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه قال النسفي : (أي) ممتنعين من العذاب ، أو لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب لأن معنى الانتصار المقابلة .

تفسير المجموعة الخامسة

﴿ **وقوم نوح** ﴾ قال النسفي : أي : وفي قوم نوح آية ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ **إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ أي : كافرين .

كلمة في السياق :

بعد أن عرض الله عز وجل علينا هذه النماذج من آياته المعطوفة على آياته في الأرض والأنفس ، يعرض علينا ثلاث آيات أخرى ليست معطوفة على ما قبلها في الإعراب ، ولكنها من حيث المعنى استمرار لعرض الآيات .

تفسير المجموعة السادسة

﴿ **والسماء بنيناها بأيد** ﴾ أي : بقوة ﴿ **وإنا لموسعون** ﴾ هذه السماء باطّراد ، فهي دائماً في توسع أو قد جعلناها واسعة ، وفي الآية معجزة كونية سنراها في الفوائد ﴿ **والأرض فرشناها** ﴾ قال ابن كثير : أي : جعلناها فراشاً للمخلوقات ، وقال النسفي : أي : بسطناها ومهّدناها ﴿ **فنعم الماهدون** ﴾ نحن ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾ وهذه معجزة كونية أخرى سنراها في الفوائد ﴿ **لعلكم تذكّرون** ﴾ قال ابن كثير : أي : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ، وقال النسفي : أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتتذكّروا ؛ فتعرفوا الخالق وتعبدوه ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾ قال النسفي : (أي : من الشرك إلى الإيمان بالله ، أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن ، أو مما سواه إليه) وقال ابن كثير : أي : الجاؤا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿ **إني لكم منه نذير مبين** ﴾ أي : واضح النذارة ﴿ **ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر** ﴾ أي : لا تشركوا به شيئاً ﴿ **إني لكم منه نذير مبين** ﴾ قال النسفي : (التكرير للتوكيد ، والإطالة في الوعيد أبلغ) .

ومجيء قوله تعالى ﴿ **ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ...** ﴾ بعد ذكر عدد من آيات الله يفيد أن رؤية الآيات تقتضي الفرار إلى الله ، وعدم الشرك به ، أي : تفيد أنه يترتب على فهمنا لهذه الآيات ووجودها أن نفر إلى الله ، ولا نشرك به ، ولكن مَنْ من الناس يفعل ذلك ؟ لا شك أن القليل وحده هو الذي يفعل ذلك ، والكثير الكثير يرفض النذارة ، ومن ثَمَّ تأتي المجموعة السابعة :

تفسير المجموعة السابعة

﴿ **كذلك** ﴾ أي : كتكذيب هؤلاء لك ، ورفضهم نذارتك ، وتسميتك ساحراً أو مجنوناً ﴿ **ما أتى الذين من قبلهم** ﴾ أي : من قبل هؤلاء الكافرين من أمتك ﴿ **من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ فلغة الكفر في كل العصور واحدة ، قال الله عز وجل ﴿ **أتواصَوْا به** ﴾ أي : أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول ، حتى قالوه جميعاً ، متفقين عليه ﴿ **بل هم قوم طاغون** ﴾ أي : لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان ، والطغيان هو الحامل عليه ﴿ **فتول عنهم** ﴾ أي : فأعرض عنهم قال النسفي : (أي) فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عناداً ﴿ **فما أنت بملوم** ﴾ قال النسفي : فلا لوم عليك في إعراضك عنهم بعد ما بلّغت الرسالة ، وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة ﴿ **وذكّر** ﴾ قال النسفي : وعظ بالقرآن ﴿ **فإن الذكرى** ﴾ أي : التذكير ﴿ **تنفع المؤمنين** ﴾ قال النسفي : بأن تزيد في عملهم ، وقال ابن كثير : أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة .

فبعد أن رتّب الله عز وجل على رؤية الآيات ضرورة الفرار إليه وترك الشرك ، تحدّث عن إعراض الكافرين ، وأمر بناءً على ذلك رسوله ﷺ أن يعرض عنهم ، وأن يذكّر المؤمنين ، ثم تأتي بعد ذلك خاتمة السورة .

خاتمة السّورة

وتمتدّ من الآية (٥٦) إلى نهاية الآية (٦٠) وهذه هي :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون** ﴾ قال ابن كثير : أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم . وقال ابن جريج : (أي) إلا ليعرفوني . أقول : فمن لم يعرفه ولم يعبده فإنه يكون قد عطّل الحكمة التي من أجلها خلق ، وقد جاءت هذه الآية بعد ما عرض الله عز وجل علينا من آياته ما يشير إلى أن آيات الله في الكون وفي التاريخ تقتضي معرفة له ، وتقتضي عبادة ، ثم قال تعالى : ﴿ **ما أريد منهم من رزق** ﴾ أي : ما خلقتهم ليرزقوني ، ولا ليرزقوا أنفسهم ، أو يرزقوا واحداً من عبادي ﴿ **وما أريد أن يطعمون** ﴾ سبحانه وتعالى ، فهو المنزّه عن كل افتقار ﴿ **إن الله هو الرزّاق** ﴾ لخلقه ﴿ **ذو القوّة** ﴾ أي : ذو القدرة الكاملة ﴿ **المتين** ﴾ أي : الشديد القوة ... فإذا كان الأمر كذلك فإن الذي لا يعبده ظالم ، ومن ثَمَّ فإنه يستحق العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ **فإن للذين ظلموا** ﴾ أي : لم يعبدوا الله ولم يقبلوا نذارة رسوله ﴿ **ذَنُوباً** ﴾ أي : نصيباً من عذاب الله ﴿ **مثل ذَنُوب أصحابهم** ﴾ أي : مثل نصيب أصحابهم ونظائرهم من القرون المهلكة ﴿ **فلا يستعجلون** ﴾ أي : بنزول العذاب ، قال ابن كثير : (أي فلا يستعجلون ذلك ، فإنه واقع لا محالة) ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون** ﴾ قال ابن كثير : (يعني : يوم القيامة) وهل (يوعد) في الآية آتية من الوعد ، أو الوعيد ؟ قولان في الآية . وقد رجّح الألوسي في كلمة (توعدون) الآتية في أوائل السورة أنها من الوعيد ، وقد استأنس لذلك بختام سورة (قٓ) ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أن السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **والذاريات ذرواً * ... إن ما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع** ﴾ ونلاحظ أن السورة تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون** ﴾ ونلاحظ أنه ورد في الفقرة الأولى

قوله تعالى : ﴿ **ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون** ﴾ ونلاحظ أن فيما قبل الآية الأخيرة من السورة ورد قوله تعالى ﴿ **فإن للذين ظلموا ذَنُوباً مثل ذَنُوب أصحابهم فلا يستعجلون** ﴾ ونلاحظ أنه في نهاية الفقرة الأولى ورد قوله تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ وفي أواخر السورة جاء قوله تعالى : ﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ مما يدل على ارتباط أول السورة بآخرها ، وأوائل السورة وأواخرها بأواسطها .

٢ - لنعرض ملخّصاً لسير السورة : بدأت السورة بتقرير أن وعد الله في شأن الآخرة صدق ، وأن محاسبة الناس ومجازاتهم واقعة ، ثم بيّن تناقض أقوال الناس التي يترتب عليها صرفهم عن الحق ، ثم تحدّث عن الشاكين الغافلين المستبعدين لليوم الآخر وما لهم عند الله عز وجل ، ثم بيّن ما للمتقين جزاء إحسانهم ، وما هو الإحسان ، ثم عرضت السورة آيات الله في الآفاق والأنفس والتاريخ ، ثم رتبت على ذلك أن دعت الناس إلى الفرار إلى الله وتوحيده ، وبيّنت أن حكمة خلق الخلق هي عبادة الله ، وحذّرت الرافضين والكافرين من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ولأن كثيرين من الناس يحول بينهم وبين عبادة الله طلب الرزق ، فقد بيَّن الله عز وجل أن الرزق مضمون ، وحتى لا يتوهم متوهم أن لله مصلحة في الأمر بالعبادة قال : ﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ .

٣ - خدمت السورة محورها من سورة البقرة بأن بيّنت حال المرتابين وأسباب ريبهم ، وفصّلت في صفات المتقين ، وفصَّلت في الأساس الذي تنبثق عنه العبادة ، والفرار إلى الله عز وجل وهو يتمثل في آيات الله التي تدل عليه ، وفي اليوم الآخر ، وفي الخوف من عذاب الله في الدنيا ، وهذه المعاني هي أرضية التقوى ، والملاحظ أنّه قد أصاب كلاً من آيات المحور شيء من التفصيل من ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ إلى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ إلى ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ إلى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ إلى ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ إلى ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ إلى ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . فقد فصّلت السورة في هذه المعاني على تفاوت في التفصيل ، وفصّلت في الأرضية التي تقوم عليها هذه المعاني ، وفي الكلمة الأخيرة عن السورة زيادة بيان فلننقل بعض الفوائد :

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً * فالجاريات يسراً * فالمقسّمات أمراً ...** ﴾ قال ابن كثير : (قال شعبة بن الحجاج ... عن أبي الطفيل أنه سمع علياً رضي الله عنه ، وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء فقال يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى ﴿ **والذاريات ذرواً** ﴾ ؟ قال علي رضي الله عنه : الريح ، قال ﴿ **فالحاملات وقراً** ﴾ ؟ قال رضي الله عنه : السحاب ، قال ﴿ **فالجاريات يسراً** ﴾ ؟ قال رضي الله عنه : السفن ، قال ﴿ **فالمقسّمات أمراً** ﴾ ؟ قال رضي الله عنه : الملائكة) .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حبكاً حبكاً » يعني بالحبك : الجعودة ، وعن أبي صالح ﴿ **ذات الحبك** ﴾ الشدة ، وقال خصيف ﴿ **ذات الحبك** ﴾ ذات الصفاقة ، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ﴿ **ذات الحبك** ﴾ حبكت بالنجوم) . أقول : من مثل هذه الأقوال يمكن أن نفهم أن المراد بالحبك في الآية المجرات .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال الحسن البصري ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ كابدوا قيام الليل فلاينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً ، ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً ، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم ، مكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال رجل من بني تميم لأبيّ : يا أبا أسامة : صفة

لا أجدها فينا ، ذكر الله تعالى قوماً فقال : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل مايهجعون** ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم ، فقال له أبيّ رضي الله عنه طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى إذا استيقظ . وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول : « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام » وقال معمر في قوله تعالى ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ : كان الزهري والحسن يقولان : كانوا كثيراً من الليل ما يصلون ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ ما ينامون) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال مجاهد وغير واحد : يصلون ، وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : « هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » . وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه : ﴿ **سوف أستغفر لكم ربي** ﴾ قالوا : أخّرهم إلى وقت السحر) .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ قال ابن كثير : (أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم ، أما السائل فمعروف ، وهو الذي يبتدىء بالسؤال وله حق ، كما روى الإمام أحمد ... عن فاطمة بنت الحسين ابن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري به . ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وروي من حديث الهرماس بن زياد مرفوعاً ، وأما المحروم

فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ، يعني : لا سهم له في بيت المال ، ولا كسب له ، ولا حرفة يتقوّت منها ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه ، وقال الضحاك : هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله تعالى له ذلك ، وقال أبو قلابة : جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل ، فقال رجل من الصحابة رضي الله عنهم : هذا المحروم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما ، وعطاء بن أبي رباح : المحروم : المحارف ، وقال قتادة والزهري : المحروم : الذي لا يسأل الناس شيئاً . قال الزهري : وقد قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي يجيء وقد قسم المغنم فيرضخ له . وقال محمد بن إسحاق حدثني بعض أصحابنا قال : كنا مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في طريق مكة ، فجاء كلب فانتزع عمر رضي الله عنه كتف شاة فرمى بها إليه ، وقال : يقولون : إنه المحروم ، وقال الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم ، واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان ، وقد ذهب ماله ، سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها . وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا ، فجاءه قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية ﴿ **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ وهذا يقتضي أن هذه مدنية ، وليس كذلك ، بل هي مكية شاملة لما بعدها) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ قال ابن كثير : (روى مسدد عن الحسن البصري قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » ورواه ابن جرير - بسنده - عن الحسن مرسلاً) .

٧ - من مظاهر إعجاز القرآن عدم اختلافه ، ومن ذلك أنك تجد سورة تبرز معنى ، فتأتي سورة أخرى فتتحدّث عنه ، ومن الربط بين المعنيين تستشعر أن مثل هذه الدّقة يستحيل أن تكون في كتاب بشري ، فمثلاً في قصة إبراهيم - في سورة الذاريات - يوجد قوله تعالى : ﴿ **فأقبلت امرأته في صرَّة** ﴾ قال ابن كثير : أي في

صرخة عظيمة ورنّة ، وقال الله عز وجل في سورة هود : ﴿ **قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً** ... ﴾ فالصرّة الواردة في سورة الذاريات يفسّرها ما ذكر الله عز وجل على لسانها في سورة هود على رأي ابن عباس ومجاهد وعكرمة وكثيرين من المفسرين .

٨ - نادراً من الناس من يحسن التفريق بين ماهية الإسلام ، وماهية الإيمان ؛ لأن النصوص الواردة في ذلك متعدّدة ، ولا يحسن كل إنسان توجيهها ، قال تعالى في سورة الذاريات : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ فههنا الإسلام هو الإيمان ، بينما رأينا في سورة الحجرات قوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ... ﴾ فههنا تفريق بين الإسلام والإيمان ، فكيف يجمع بين ما ورد في سورة الحجرات ، وما ورد في سورة الذاريات ؟ أقول : الإسلام الكامل والإيمان الكامل مترادفان ، لأن الإيمان الكامل ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، والإسلام الكامل إسلام القلب والجوارح لله بدينه وشريعته ، وقد يوجد - أحياناً - تصديق ولا عمل ، وقد يوجد عمل والإيمان الذوقي غير مستقر ، وقد يوجد عمل ولا إيمان ، ومن ثَمَّ يختلف في هذه الصور مفهوم الإيمان عن مفهوم الإسلام ، وقد عبّر ابن كثير عما ذكرناه تعبيراً لطيفاً فقال بمناسبة آيتي سورة الذاريات : (احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال) .

٩ - بمناسبة الكلام عن عاد وهلاكها بالريح العقيم قال ابن كثير : (وقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ») .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾ نقول : إن من القفزات العلمية الكبيرة في تاريخ العلوم الكونية نظريات أينشتاين اليهودي ، الذي طرح - لأول مرة في تاريخ البشرية - نظرية عن سعة الكون لم يُسبق إليها ، حتى صار بعضهم يطلق كلمة الكون الأينشتايني للتعبير عن الكون الواسع ، ومع كلامه عن سعة الكون كان يقول : إنّ الكون ثابت الأبعاد ، ثمّ كان أن صنعت المجاهر الضخمة

فأكّدت سعة الكون بما لم يكن يخطر على قلب بشر من قبل ، ولكن تبيّن أن الكون في حالة توسع مطّرد ، فقد لوحظ من خلال الرصد أن مجرات الكون تنطلق بعيداً عن مركز الكون بسرعة هائلة ، ولقد قالوا : إن النظرية الوحيدة من نظريات أينشتاين التي نقضها العلماء هي نظريته في ثبات الكون (راجع العدد الذي يتحدث عن أينشتاين من سلسلة اقرأ) والملاحظ أن قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾ قد استعمل فيه اسم الفاعل (موسع) واسم الفاعل في اللغة العربية يفيد - في بعض الحالات - الاستمرار ، ومن ثَمَّ فإن الآية هنا تشير إلى سعة الكون من ناحية ، كما تشير إلى موضوع تمدّد الكون وتوسّعه المطرد ، وفي ذلك ما فيه من إعجاز وسع به هذا القرآن الزمان والمكان ، فالذين يريدون أن يعطّلوا العمل بهذا القرآن بسبب تقدم العلوم عليهم أن يراجعوا أنفسهم قبل فوات الأوان .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ قال ابن كثير : (أي جميع المخلوقات : أزواج ، سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات ، ولهذا قال تعالى ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أي : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له) .

أقول : في عصرنا اتضح معنى الزوجية بشكل أوسع حتى شمل الحيوان والنبات والجماد والمجرات ، فما من ذرة إلا وعنصر الزوجية فيها موجود ، والآية قالت : ﴿ **ومن كل شيء** ﴾ فكان فيما اكتشفه الإنسان حتى الآن في هذا الموضوع معجزة من معجزات القرآن .

١٢ - إن على الدعاة إلى الله أن يفطنوا إلى دقائق في التربية والدعوة تعرضها علينا نصوص الكتاب والسنة ، لأن التفطّن لذلك يختصر لنا الطريق ، فمثلاً ختمت سورة (قَ) بقوله تعالى ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ فالذي لا يخاف وعيد الله له خطاب آخر ، أما الذي يخاف وعيد الله ، فيكفي أن نذكّره بالقرآن ، حتى يثوب ، ومن ثَمَّ فعلى المؤمنين أن يذكّر بعضهم بعضاً بالقرآن إذا رأوا انحرافاً من أنفسهم عنه ، وفي قوله تعالى في سورة الذاريات : ﴿ **فذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ ما يدل على أن التذكير لا بدّ أن ينتفع به المؤمن ، ومن ثَمَّ فلا يصح أن يقول أحد منا : لا فائدة من الكلام فيسكت ، سواء مع إخوانه ، أو مع المسلمين ، فالمسلمون بفضل الله لازال

في قلوبهم إيمان ، والذين قبلوا حمل دعوة الله هم مظنّة الخير ، وعلى الواحد منا أن يذكّر حيثما وجد فرصة ، فلا بدّ أن تترك الذكرى أثرها في نفس المؤمن إن لم يكن حالاً فمآلاً ، إن من أخطر أمراض المسلمين أن ينتشر بينهم الشعور بأنه لا فائدة من التذكير أو العمل .

إن على كل مسلم أن يرث عن رسول الله ﷺ صفة التذكير ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ورسولنا عليه الصلاة والسلام أمرنا بالتبليغ ، والناس أمامنا قسمان : مؤمنون وكافرون ، والكافرون قسمان : قسم ليس لوعيد الله في قلبه محل ، وقسم لازال لوعيد الله في قلبه محل ، فأما المؤمن فلا شك أن الذكرى تنفعه ، وأما من كان في قلبه محل لوعيد الله فربما انتفع بالتذكير في القرآن ، هذا عمر كان كافراً فأسلم على أثر قراءته لشيء من القرآن ، كما تذكر بعض الروايات ، وأما من ليس في قلبه محلّ للخوف من وعيد الله ، فهذا نقطة البداية في حقه أن تقيم عليه الحجة بوجود الله ثم تسير .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ قال صاحب الظلال : (إن معنى العبادة - التي هي غاية الوجود الإنساني ، أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى - أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وإن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً . وإن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . عبداً يَعبد . ورباً يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله .. كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوعٍ للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله

دون سواه) أ . هـ . مع تصرف بسيط .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - عن ربه عز وجل - : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك » ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : حسن غريب . وقد روى الإمام أحمد عن سلام بن شرحبيل سمعت حبة وسواْة ابني خالد يقولان : أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملاً أو يبني بناءً — وقال أبو معاوية يصلح شيئاً — فأعنّاه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه ») .

كلمة أخيرة في سورة الذاريات :

١ - في هذا الكون مظاهر من الإبداع والجمال لا تتناهى ؛ لأن الله عز وجل من أسمائه البديع ، فهو بديع السموٰات والأرض ، وفي هذا القرآن مظاهر من الإبداع لا تتناهى ؛ لأنه كلام الله البديع . إنك لتجد الإبداع في كل شيء في هذا القرآن : في العرض ، والأسلوب ، والتفصيل ، والكلمة ، والآية ، والمعنى ، والجرس ، والسياق ، وتأمّل سورة الذاريات لتجد مظاهر الإبداع لا تتناهى ، وذلك شأن القرآن كله .

٢ - بدأت السورة بالحديث عن اليوم الآخر ، لتصل إلى الحديث عن آيات الله التي لا يعرفها إلا من أيقن باليوم الآخر ، لتصل إلى ضرورة الفرار إلى الله الذي لا يفعله إلا من عرف آيات الله في الكون والأنفس والتاريخ ، ومن مثل هذا تجد الترابط بين معاني السورة على أشدّه .

٣ - وقد تحدّث محور السورة من سورة البقرة عن المتقين ، وفصّلت سورة الذاريات في التقوى وأسبابها ، وعاقبة أهلها ، ودلّت على الطريق إليها .

٤ - وقد جاءت سورة الذاريات بعد سورة (قٓ) التي انتهت بذكر التذكير والوعيد ، قال تعالى في سورة (قٓ) : ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ ،

وها هي ذي سورة الذاريات تبدأ بالوعيد وتنتهي بالوعيد : ﴿ **والذاريات ذرواً** * ... **إن ما توعدون لصادق** ﴾ هذه بداية السورة ، وهذه نهايتها : ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون** ﴾ ، وفي سياق سورة الذاريات جاء قوله تعالى : ﴿ **فذكّر فإن الذكّرى تنفع المؤمنين** ﴾ ، فما بين معانى سورة الذاريات ، وما بين خاتمة سورة (قٓ) روابط كثيرة .

إنك عندما تتأمل صلات سورة الذاريات بما قبلها ، وصلاتها بما بعدها ، وصلاتها بمحورها من سورة البقرة ، ثمّ إذا تأمّلت سياقها الخاص ، وما حوته من معجزات ، ثمّ وثمّ ، فإنّك تجد مظاهر من الإبداع والإعجاز لا تتناهى .

☆ ☆ ☆

سورة الطور

وهي السورة الثانية والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الأولى من قسم المفصل
وآياتها تسع وأربعون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الطور :

١ - قال الألوسي في تقديمه لسورة الطور : ((مكية) كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم ، ولم نقف على استثناء شيء منها ، وهي تسع وأربعون آية في الكوفي والشامي ، وثمان وأربعون في البصري ، وسبع وأربعون في الحجازي ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها اشتمال كل على الوعيد ، وقال الجلال السيوطي : وجه وضعها بعد الذاريات تشابههما في المطلع والمقطع ، فإن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين ، وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار ، ولا يخفى ما بين السورتين الكريمتين من الاشتراك في غير ذلك) .

٢ - وقال صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة : (هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتتدسس إليه وتختبىء هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان .. حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام !

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، والمعنى والمدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطاً لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !) .

كلمة في سورة الطور ومحورها :

تبدأ السورة بمقدمة تتحدث عن مجيء يوم القيامة ، وبعض ما يحدث فيه ، وتعرض أنواعاً من العذاب الذي ينزل بالمكذبين ، ثم تتحدّث عن المتقين وما لهم ، وعما استحقوا بسببه هذا النعيم المقيم ، ثم تأمر السورة رسول الله ﷺ بالتذكير ، وتردّ على مطاعن الكافرين وتصوراتهم ، ثم تسير السورة حتى تنتهي بالأمر بالصبر والتسبيح بحمد الله ، وككل سورة من سور القرآن فإن للسورة سياقها الخاص بها ، ثمّ هي في الوقت نفسه تفصّل في محورها من سورة البقرة ، وهو الآيات الأولى منها : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة**

هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ فهي تكمّل البناء الذي بدأته سورة الذاريات ، فلئن كانت سورة الذاريات قد أمرت رسول الله ﷺ بالتذكير ، وبيّنت أن الذكرى تنفع المؤمنين ، فهذه تأمره بالتذكير المطلق ، وتحدّد له معالم يُناقش بها الكافرين ، وإذا كانت سورة الذاريات قد ذكرت الحكمة من خلق الخلق وهي العبادة ، فهذه السورة تأمر بأنواع من العبادة ، وإذا كانت سورة الذاريات قد وصفت المتقين بأنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، فهذه السورة تأمر بالتسبيح بحمد الله في قيام الليل ، وعند الأسحار ، وإذا كانت سورة الذاريات أجملت في تفصيل نعيم أهل الجنة ، وبما استحقوا هذا النعيم ، فإن سورة الطور تفصّل في ذلك ، كما أنها تفصّل في عذاب الكافرين ، وفي ما استحقوه ، وكل ذلك يأتي ضمن سياق السورة الخاص :

فالسورة تبدأ بالقَسَم على أن عذاب الله آتٍ ، وتبيّن كيف يعذّب الكافرون وينعّم المتقون ، وإذا كان أمام الإنسان ما أمامه ، فليذكّر رسول الله ﷺ هذا الإنسان ، وليناقش الكافرين ، وإذا كان الكفار مع وجود الآيات يكفرون ، فليتركهم رسول الله ﷺ لمصيرهم ، وليصبر ، وليسبح بحمد الله في ليله ونهاره .

إن فلاح المتقين يظهر في شيئين : في الخلاص من العذاب ، وفي تذوّق النعيم ، والسورة تبيّن هذا وهذا ، ولقد ركّزت سورة الذاريات على الصلاة والإنفاق من صفات المتقين ، وتركّز سورة الطور على الإيمان من صفات المتقين : ﴿ **والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ وركّزت على الخوف والعبادة كطريقي نجاة : ﴿ **إنا كُنَّا قبل في أهلنا مشفقين * فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كُنَّا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾ .

وهكذا نجد تفصيلاً بشكل ما للآيات الأولى من سورة البقرة : سواء في ذلك قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فسورة الطور تناقش الذين لا يهتدون بكتاب الله : ﴿ **أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ .

- أو قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فسورة الطور تبيّن عذاب المكذبين ، وتناقشهم ، وتبيّن أنّ كلّ النعيم الذي يناله المتقون هم وذرياتهم بسبب الإيمان .

- أو قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . فسورة الطور تأمر رسول الله ﷺ أن يذكّر ، وهو الذي أنزل عليه القرآن ﴿ **فذكّر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون * قل تربّصوا فإني معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون ...** ﴾ ، وتأمر رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن أن يقابل مواقف الكافرين والمكذّبين : ﴿ **فذرهم ... واصبر ...** ﴾ .

- أو قوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ . فسورة الطور تذكر أن سبب النجاة : ﴿ **إنا كنا قبلُ في أهلنا مشفقين** ﴾ .

- أو قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . فسورة الطور تبيّن مظاهر فلاحهم ، وأي فلاح أكبر من الفوز بالجنة ، والخلاص من النار . وكما أن سورة الطور تفصّل بشكل رئيسي في الآيات الأولى لمقدمة سورة البقرة ، فهي تفصّل في ارتباطات هذه الآيات وفي امتداداتها .

فالسور الثلاث : الذاريات ، والطور ، والنّجم ، تفصّل بشكل رئيسي في الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، وسورة القمر بعد ذلك تفصّل بشكل رئيسي في الآيتين السادسة والسابعة من مقدمة سورة البقرة ، ولكنّ كلاً من هذه السور تفصّل في ارتباطات محورها وفي امتداداته ، ولذلك فإنّ كلاً من السور الأربع تتحدّث عن الكافرين والمتقين ، كما أن السور الثلاث فيها أوامر بالعبادة التي هي أحدى المعاني البارزة في المقطع الذي يأتي بعد مقدمة سورة البقرة .

....

ولقد قلنا من قبل إن السورة وهي تفصّل في محورها ، تشدّ إلى هذا المحور من معاني سورة البقرة ما هو ألصق به ، أو ما هو الألصق بمعنى من معانيه ، فمع رؤيتنا سوراً كثيرة تفصّل في محور واحد ، ففي كل مرّة نجد تفصيلاً جديداً ، ونجد ربطاً للمحور على طريقة جديدة .

....

ومع أن لسورة الطور سياقها ، ومع أنّها تفصّل في محورها ، فإن لها صلاتها بما قبلها وما بعدها ، وخاصّة في أواخر السورة التي سبقتها ، فالملاحظ أن سورة

الذاريات ختمت بقوله تعالى : ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعَدون** ﴾ بينما نجد سورة الطور مبدوءة بالكلام عن عذاب الله الواقع بالكافرين : ﴿ **والطور * وكتاب مسطور * في رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع * يوم ...** ﴾ فنهاية سورة الذاريات تذكر الويل للكافرين من اليوم الموعود ، وبداية سورة الطور فيها قَسَم على وقوع هذا اليوم ، وهي في الوقت نفسه تذكر الويل : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع * يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً * فويل يومئذ للمكذبين * الذين هم في خوض يلعبون * يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعّاً * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **أفسحر هذا** ﴾ وتذكّر أنه في أواخر سورة الذاريات جاء قوله تعالى : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ وها هي ذي سورة الطور فيها : ﴿ **فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ .

....

إنّ هذا لمظهر من مظاهر التكامل بين سور القرآن ، وهو مظهر من مظاهر وحدة المجموعة الواحدة من سور القسم ، والأمر أوسع من هذا بكثير ، إنّه القرآن الذي لا تنقضي عجائبه . هذا وتتألف سورة الطور من ثلاث مجموعات وسنعرض كل مجموعة على حدة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى من سورة الطور

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٦) وهي مقدمة السورة وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

التفسير :

﴿ **والطور** ﴾ قال ابن كثير : (هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى ... وما لم يكن فيه شجر لا يسمّى طوراً ، وإنما يقال له جبل) وهل المراد به هنا جبل بعينه ؟ قال النسفي : (هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى بمدين) .
﴿ **وكتاب مسطور** ﴾ قال ابن كثير : (قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **في رق** ﴾ قال النسفي : هو الصحيفة ، أو الجلد الذي يكتب فيه ﴿ **منشور** ﴾ أي : مفتوح لا ختم عليه ، أو لائح لا خفاء فيه ، لأنه لا باطل فيه ، ولا يخشى أن يكتشف فيه الباطل حتى يكتم ، أو يخفى ، فلا ينشر ﴿ **والبيت المعمور** ﴾ قال النسفي : (وهو بيت في السماء حيال الكعبة ، وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة ... وقيل الكعبة لكونها معمورة بالحجّاج

والعمار) ولنا عودة إلى الموضوع في الفوائد . ﴿ **والسقف المرفوع** ﴾ قال النسفي : أي السماء أو العرش ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ أي : المملوء ، أو الموقد ، قال ابن كثير : (وقال قتادة : المسجور : المملوء واختاره ابن جرير) ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾ قال ابن كثير : هذا هو المقسَم عليه ، أي لواقع بالكافرين ، أي لنازل بهم ﴿ **ما له من دافع** ﴾ أي : لا يمنعه مانع قال ابن كثير : (أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك) فصار معنى الآيتين : إن عذاب ربك لواقع غير مدفوع ، ثمّ بيّن متى يكون ذلك فقال : ﴿ **يوم تمور السماء موراً** ﴾ أي : تضطرب اضطراباً شديداً . قال النسفي : (أي تدور كالرحى مضطربة) ولنا عودة إلى هذا في الفوائد ﴿ **وتسير الجبال سيراً** ﴾ قال النسفي : (أي في الهواء كالسحاب ؛ لأنها تصير هباءً منثوراً) وقال ابن كثير : أي تذهب فتصير هباءً منبثّاً ، وتنسف نسفاً ﴿ **فويل يومئذ للمكذبين** ﴾ قال ابن كثير : أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ **الذين هم في خوض يلعبون** ﴾ أي : الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل والكذب ﴿ **يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّاً** ﴾ قال ابن كثير : أي يوقفون ويساقون إلى نار جهنم دفعاً ، قال النسفي : والدّعّ الدفع العنيف ﴿ **هذه النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ أي : في الدنيا ، قال ابن كثير : أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً ﴿ **أفسحر هذا** ﴾ كما كنتم تقولون عنه في الدنيا ﴿ **أم أنتم لا تبصرون** ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، يعني : أم أنتم عمي عن المخبر عنه وهو النار ، كما كنتم عمياً عن خبر الوحي في الدنيا ، وهذا تقريع وتوبيخ ﴿ **اصلوها** ﴾ قال ابن كثير : أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ **فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم** ﴾ أي : سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه ، قال ابن كثير : (أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها ، أم لم تصبروا ، لا محيد لكم عنها ، ولا خلاص لكم منها) وعلّل لاستواء الصبر وعدمه بقوله ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ قال ابن كثير : أي ولا يظلم الله أحداً ، بل يجازي كلاً بعمله ، وعلّل النسفي لاستواء الحالين بقوله : (لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ، ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع) .

كلمة في السياق :

ما مَرّ معنا هو مقدمة السورة التي أنذرت الكافرين المكذّبين باليوم الآخر

واستعملت لهذا الإنذار أشدّ أنواع التوكيد، وذلك لإيجاد الاستعداد للتقوى، ومن ثَمَّ تأتي المجموعة الثانية لتتحدّث عن المتقين .

المجموعة الثانية

وتمتدّ من الآية (١٧) إلى نهاية الآية (٢٨) وهذه هي :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

التفسير :

﴿ **إن المتقين في جنات ونعيم** ﴾ وهذا ضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ **فاكهين بما آتاهم ربهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي يتفكهون بما آتاهم الله من النّعيم من أصناف الملاذّ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك) وقال

النسفي : (أي متلذذين بما آتاهم ربهم) ﴿ **ووقاهم ربهم عذاب الجحيم** ﴾ قال ابن كثير : (أي وقد نجاهم من عذاب النار وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها ، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة ، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ويقال لهم ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون** ﴾ أي : أكلاً وشرباً هنيئاً ، أو طعاماً وشراباً هنيئاً ، وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿ **متكئين** ﴾أي : في حال أكلهم وشربهم ﴿ **على سرر مصفوفة** ﴾ قال النسفي : أي موصول بعضها ببعض . قال ابن كثير : أي وجوه بعضهم إلى بعض ﴿ **وزوجناهم بحور عين** ﴾ أي : وقرنّاهم بحور عظام الأعين حسانها . قال ابن كثير : (أي وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حساناً من الحور العين) والحور : جمع حوراء ، والعين : جمع عيناء ، وهي الواسعة العين حسنُتها ﴿ **والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم** ﴾ أي : أولادهم ﴿ **بإيمان** ﴾ هذا شرط ، أما بدون الإيمان فليس إلّا النّار ﴿ **ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ أي : يلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء ، وإن قصّرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء ﴿ **وما ألتناهم** ﴾ أي : وما نقصناهم ﴿ **من عملهم من شيء** ﴾ أي : من ثواب عملهم من شيء ، قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن فضله وكرمه ، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم ؛ لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك) . ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ أي : مرهون ، فنفس المؤمن مرهونة بعمله وتجازى به ، قال ابن كثير : أي : (مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً) ، قال ابن كثير : (لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذريّة إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد) ﴿ **وأمددناهم** ﴾ أي : وزودناهم في وقت بعد وقت ﴿ **بفاكهة ولحم مما يشتهون** ﴾ وإن لم يقترحوا ، قال ابن كثير : (أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى ، مما يستطاب ويشتهى) ﴿ **يتنازعون فيها كأساً** ﴾ أي : خمراً أي يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم ، بتناول هذا الكأس من يد هذا ، وهذا من يد هذا ﴿ **لا لغو فيها** ﴾ أي : في شربها ﴿ **ولا تأثيم** ﴾ قال ابن كثير : (أي لا يتكلّمون فيها بكلام لاغٍ أي هذيان ولا إثم ، أي فحش ،

كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا) ، وقال النسفي : (أي لا يجري بينهم ما يلغي ، يعني : لا يجري بينهم باطل ، ولا ما فيه إثم لو فعله فاعل في دار التكليف ، من الكذب والشتم ونحوهما كشاربي خمر الدنيا ، لأن عقولهم ثابتة فيتكلّمون بالحِكَم والكلام الحسن) ﴿ **ويطوف عليهم غلمان** ﴾ أي : مملوكون ﴿ **لهم** ﴾ أي : مخصوصون بهم ﴿ **كأنهم** ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿ **لؤلؤ مكنون** ﴾ أي : محفوظ في الصدف ؛ لأنه رطبٌ أحسن وأصفى ، أو مخزون ؛ لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة ، قال ابن كثير : (هذا إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة ، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم ، وحسن ملابسهم) ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ أي : يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله ، وما استحق به نيل ما عند الله ، قال ابن كثير : (أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم) ﴿ **قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين** ﴾ أي : إنا كنا في الدنيا في أهلنا أرقاء القلوب من خشية الله ، أو خائفين من نزع الإيمان ، وفوت الأمان ، أو من ردّ الحسنات والأخذ بالسيئات ، قال ابن كثير : (أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه وعقابه) ﴿ **فمنَّ الله علينا** ﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿ **ووقانا عذاب السموم** ﴾ السموم في الأصل : هي الريح الحارة التي تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿ **إنا كنا من قبل** ﴾ أي : من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه ، يعنون في الدنيا ﴿ **ندعوه** ﴾ قال النسفي : (أي نعبده ولا نعبد غيره) ، وقال ابن كثير : (أي نتضرّع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا) ﴿ **إنه هو البَرُّ** ﴾ أي : المحسن ﴿ **الرحيم** ﴾ أي : العظيم الرحمة الذي إذا عُبِد أثاب ، وإذا سُئل أجاب . وبهذا انتهت المجموعة الثانية .

كلمة في السياق :

١ – في المجموعة الأولى عرض الله عز وجل علينا حال الكافرين في الدنيا : التكذيب ، والخوض ، واللعب ، وفي المجموعة الثانية عرض الله عز وجل علينا حال المتقين في الدنيا : الإشفاق من عذاب الله ، والعبادة لله ، والدعاء له ، وفي المجموعة الأولى عرض الله ما أعده للكافرين من عذاب ، وفي المجموعة الثانية عرض الله عز وجل ما أعدّه لأهل التقوى من ثواب وجزاء .

٢ - نلاحظ أن سورة الذاريات ذكرت من خصائص المتقين الإحسان ، وقيام الليل ، والاستغفار في الأسحار ، والإنفاق في سبيل الله ، وفي سورة الطور عرضت السورة من خصائص المتقين الإشفاق من عذاب الله ، والدّعاء . والإشفاق من عذاب الله أثر عن الإيمان بالغيب ، وهكذا نجد سورة الطور تفصّل في محور السورة من سورة البقرة بشكل يكمّل تفصيل سورة الذاريات .

٣ - بعد عرض ما للكافرين من عذاب ، وما للمتقين من ثواب ، وأسباب ذلك ، تأتي الآن مجموعة ثالثة تطالب رسول الله ﷺ بالتذكير والصبر والتسبيح ، وفي المجموعة مناقشة شاملة للكافرين الذين يتنكّبون طريق التقوى ، فيكذبون ويخوضون ويلعبون ويرتابون ، فلنر المجموعة الثالثة والأخيرة في السورة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وتمتدّ من الآية (٢٩) إلى نهاية الآية (٤٩) أي : إلى نهاية السورة وهذه هي :

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ

فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ملاحظة في السياق :

١ – نلاحظ أن المجموعة تتوجّه بالخطاب إلى الذي أنزل عليه القرآن ، فتأمره بالتذكير ، وتنفي عنه التهم ، وتناقش الكافرين مناقشة شاملة ، ثم تأمره بعد إقامة الحجة بالصبر ، والتسبيح بحمد الله ، وصلة ذلك بمجموعتي السورة السابقتين واضحة ، فهي مناقشة للمكذبين ، وتثبيت للمتقين .

٢ – تبدأ المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ... ﴾ فلننتبه إلى ما يلي : استقر القسم الثالث من أقسام القرآن على قوله تعالى في سورة (قٓ) ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ وفي سورة الذاريات جاء قوله تعالى : ﴿ **وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ وفي سورة الطور يأتي قوله تعالى : ﴿ **فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ... ﴾ ثم تأتي المناقشة الشاملة ، ومن هذا التكامل نرى الصلات المتشابكة بين السور المتعاقبة ، فبعد أن بيّنت سورة (قٓ) من يستأهل التذكير ، وبيّنت سورة الذاريات انتفاع المؤمنين به ، تأتي سورة الطور لتأمر بالتذكير ، وتعلّم طريق إقامة الحجة ، وذلك يفيد أنه لا بدّ من إقامة الحجة على الكافرين ، وهذا مظهر من مظاهر التكامل بين سور القرآن .

٣ – قلنا إن السور الثلاث (الذاريات ، والطور ، والنجم) تفصّل في الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، التي مضمونها التقوى ، وقد رأينا كيف أن سورة

الذاريات أعطتنا في التقوى تفصيلاً ، وجاءت سورة الطور فأعطتنا تفصيلاً ، وستأتي سورة النجم لتعطينا تفصيلاً ، ومع التفصيل فإن سياق السور الثلاث يربّي على التقوى بالمواعظ ، وإقامة الحجة ، ويهدم كل ما يحول دونها .

٤ - في سورة الطور عرض الله عز وجل علينا حال الكافرين يوم القيامة فكان في ذلك ترهيب يدفع نحو التقوى ، ثم كان في المجموعة الثانية ترغيب يدفع نحو التقوى ، وتأتي المجموعة الثالثة لتهدم كل تكأة يتّكأ عليها الكافرون في هروبهم من التقوى ، ولتأمر رسول الله ﷺ بما ينبغي فعله للتحقق بالتقوى ، وما ينبغي فعله في مقابل مواقف الكافرين .

٥ - في الآيات الخمس الأولى من مقدمة سورة البقرة نجد خطاباً لرسول الله ﷺ ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ والملاحظ أن الخطاب في المجموعة الثالثة يتوجّه لرسول الله ﷺ : ﴿ **فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ ثمّ يسير السياق ليقول : ﴿ **أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون** ﴾ لاحظ الصلة بين الآيات وآية المحور .

التفسير :

﴿ **فذكّر** ﴾ قال النسفي : (أي فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم) ، وقال ابن كثير : يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلّغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكّرهم بما أنزل الله عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور : ﴿ **فما أنت بنعمة ربك** ﴾ أي : برحمته إياك وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل ﴿ **بكاهن ولا مجنون** ﴾ كما زعموا أي لست - بحمد الله - بكاهن كما يتقوّل الجهلة من الكفار ، والكاهن : هو الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقّاها من جند السماء ، ولا بمجنون : وهو الفاقد العقل . والكهانة والصرع هما التفسيران اللذان يفسّر بهما الكافرون ظاهرة الوحي وما يرافقها ، وهو تفسير مردود علمياً وعقلياً ؛ فالكهانة لا يصدر عنها مثل هذا القرآن ، والصرع ظاهرة مرضية لا يرافقها انبثاق نص كالنص القرآني ، وأنواع الجنون الأخرى وغيبوباتها كلها ظواهر مرضية ، لا ينبثق عنها ما كان يترتب على ظاهرة الوحي من معان من شأن الغيوب ، والهداية ، والعلوم والقرآن ، ولكون ما قالوه ظاهر البطلان فقد نفاه النص القرآني دون أن يتوقّف عنده ؛ مما يشير إلى أنه لا يحتاج إلى تدليل . ولما كان التفسير الثالث لظاهرة القرآن عند الكافرين هو أن

يكون محمد ﷺ شاعراً متقوِّلاً على الله فإن الآية اللاحقة تتحدّث عن ذلك ﴿ **أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون** ﴾ أي : حوادث الدهر ، أي ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء ، قال ابن كثير : (والمنون : الموت ، يقولون : ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه) .

ملاحظة :

يلاحظ أن الحرف (أم) يتكرر إحدى عشرة مرة في هذه المجموعة ، وهو يفيد كما قال النسفي : (وأم في أوائل هذه الآيات منقطعة بمعنى بل والهمزة) فهي تعرض أقوالهم بصيغة فيها إنكار عليهم ، وتكاد تكون الآيات مستقصية لكل أقوال الكافرين قديماً وحديثاً ، ولمواقفهم وتصوراتهم التي تصرفهم عن الإيمان .

....

ولنعد إلى السياق : فبعد أن ذكر الله عز وجل تربصهم الموت برسوله ﷺ ردّ عليهم بقوله : ﴿ **قل تربصوا فإني معكم من المتربّصين** ﴾ أي : فإني أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ، قال ابن كثير : في الآية : (أي انتظروا فإني منتظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة) ثم قال تعالىٰ : ﴿ **أم تأمرهم أحلامهم** ﴾ أي : عقولهم ﴿ **بهذا** ﴾ أي : بهذا القول المتناقض ، وهو قولهم : كاهن ومجنون وشاعر ، قال ابن كثير : أي أعقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿ **أم هم قوم طاغون** ﴾ أي : بل هم قوم طاغون ، أي مجاوزون الحدّ في العناد ، مع ظهور الحق لهم ، قال ابن كثير : (أي ولكن هم قوم طاغون ضلّال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك) فليست أقوالهم هذه أثراً عن عقل ؛ بل هي أثر عن طغيان نفس ، ثم جمع الله حصيلة أقوالهم السابقة وردّ عليهم بما يهدمها . إن حصيلة أقوالهم السابقة هي أن محمداً ﷺ قد اختلق القرآن من عند نفسه ، ونسبه إلى الله عز وجل ، والجواب : أن الأمر لو كان كذلك لما صعب على أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ، أمَا والبشر جميعاً عاجزون عن ذلك فليس الأمر كما زعموه ﴿ **أم يقولون تقوَّله ؟** ﴾ أي : اختلقه وافتراه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ، يعنون القرآن ، قال تعالى : ﴿ **بل لا يؤمنون** ﴾ قال ابن كثير : أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ، وقال النسفي : (هذا ردٌّ عليهم ، أي ليس الأمر كما زعموا بل (لا يؤمنون) ، فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع

علمهم ببطلان قولهم ، وأنه ليس بمتقوِّل لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب) ﴿ **فليأتوا بحديث** ﴾ أي : مختلق ﴿ **مثله** ﴾ أي : مثل القرآن ﴿ **إن كانوا صادقين** ﴾ في أن محمداً ﷺ تقوّله من تلقاء نفسه ، لأنه بلسانهم وهم فصحاء ، قال ابن كثير : (أي إن كانوا صادقين في قولهم تقوّله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاؤوا بمثله ، ولا بعشر سور من مثله ، ولا بسورة من مثله) .

....

قال صاحب الظلال : (إن في هذا القرآن سراً خاصاً ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً ، ولكنه على كل حال موجود . وهذا العنصر الذي ينسكب في الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟! .

ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ... ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل .

وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري . وهو يخاطب الفطرة خطاباً خاصاً غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقلب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية وكل سر فيه .

وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها . مما لا يعهد إطلاقاً في أعمال البشر التي لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذي لا زيادة فيه ولا نقص ، ولا تفريط فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذي لا تعارض

فيه ولا تصادم سواء في ذلك الأصول والفروع .

فهذه الظواهر المدركة ... وأمثالها ... مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره ... مما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور . وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ، ويحترم الحقيقة التي تطالعه بقوة وعمق ووضوح ، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم ... ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾) .

....

رأينا أن الأقوال السابقة للكافرين في رسول الله ﷺ والقرآن ، سببها الطغيان والكفر ، وإذ يتقرر هذا يعرض الله عز وجل بقية أقوالهم ومواقفهم التي هي كفر وأثر عن الطغيان ، ومن ثَمَّ يختم عرض هذه الأقوال بقوله تعالى : ﴿ **وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم** ﴾ مما يفيد أن كفرهم قد وصل إلى حد نسيان الله حتى في حالة معاينة العذاب ، فهم لا يرون في ذلك إلا ظاهرة من ظواهر الكون ، وقد عرض الله عز وجل هذه الأقوال بصيغة الإنكار عليهم ؛ مما يدل على بطلانها بديهة .

....

﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون** ﴾ قال ابن كثير : (أي أُوجدوا من غير موجد ، أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أي لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذي خلقهم ، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً) ، وقال النسفي : (أي أم أحدثوا وقدّروا التقدير الذي عليه فطرتهم من غير شيء ، أي من غير مقدّر ؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق ، وقيل أخلقوا من أجل لا شيء فلا جزاء ولا حساب أم هم الخالقون فلا يأتمرون) ﴿ **أم خلقوا السموٰات والأرض** ﴾ فهم الأرباب ، ومن ثَمَّ فلا يعبدون خالقهما ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ هذه هي علة مواقفهم أنهم لا يتدبرون فيصلون إلى اليقين ، فيبنون عليه البناء الصحيح .

....

قال ابن كثير بين يدي هاتين الآيتين : (هذا المقام في إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية) .

أقول : وفي ختم الآيتين السابقتين بقوله تعالى : ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ التي تشير من خلال اتجاهنا في هذا التفسير إلى قوله تعالى في محور السورة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ نفهم أن الموضوع مرتبط بقضية اليوم الآخر ، فإن عدم يقينهم باليوم الآخر أوصلهم إلى مواقف تجعلهم يقولون إنهم خلقوا من غير شيء ، أو هم الخالقون لأنفسهم ، أو الخالقون للسموٰات والأرض ، ومن ثَمَّ يتكبرون عن العبادة والتقوى ، وطاعة رسول الله ﷺ ، ويتعاملون ويتكلمون كأنهم أرباب ، وهذا الذي نراه في عصرنا على أشده ، إذ نرى الإنسان الكافر يعتبر نفسه غير مكلَّف ، وغير مسؤول أمام الله ، ويتعامل ويتكلم كأنه رب ، وفي قوله تعالى : ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء عندهم ريب ، وهذا يحول بينهم وبين التقوى ، إذ شرط التقوى عدم الريب في أمور بعينها ، كما ورد في المحور : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ولنعد إلى السياق :

....

﴿ **أم عندهم خزائن ربك** ﴾ قال النسفي : (أي) من النبوة والرزق وغيرهما ؛ فيخصوا من شاؤوا بما شاؤوا . وقال ابن كثير : أي أهم يتصرّفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن . ﴿ **أم هم المصيطرون** ﴾ قال النسفي : (أي) الأرباب الغالبون حتى يدبّروا أمر الربوبية ، ويبنوا الأمور على مشيئتهم ، وقال ابن كثير : (أي المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك ؛ بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعّال لما يريد) .

أقول : وعلى هذا فالآية فيها إنكار على اعتراضهم على الله ، واستغنائهم عنه وادّعائهم العملي أو النظري أنهم أرباب ــ وهو محور الفلسفة الوجودية في عصرنا – وإذا كان الأمر في كل ما مَرّ ليس كما قالوا ، وإذ كانوا هم أنفسهم لا يجرؤون أن يدَّعوا ذلك دعوى نظرية كلامية ، فلم يبق لانصرافهم عن التقوى والعبادة مبرِّر ، فهل لهم مبررات أخرى ؟ وإذا كانت فما هي ؟ هذا ما ستذكره الآيات اللاحقة :

﴿ **أم لهم سُلَّم** ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿ **يستمعُون فيه** ﴾ كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم من علم الغيب ؛ فيتصرفون بناءً على ذلك على خلاف أمر رسول الله ﷺ بسبب وحي آخر عن الله ﴿ **فليأت مستمعهم بسلطان مبين** ﴾ أي :

بحجة واضحة تصدِّق استماع مستمعهم ، فإذا لم يكن ذلك موجوداً فما عليهم إلا أن يتّبعوا رسول الله ﷺ وهذا القرآن ، قال ابن كثير في الآية : (أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، وليس لهم سبيل إلى ذلك ، فليسوا على شيء ولا لهم دليل) ، ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات ، وجعلهم الملائكة إناثاً ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ... ﴿ **أم له البنات ولكم البنون** ﴾ قال النسفي : سفّه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون ، وهم حكماء عند أنفسهم . أقول : في ذكر هذا المعنى هنا تدليل على فساد اتجاهاتهم المنكرة ، التي لا أصول لها من عقل أو نقل ، وفي ذلك ردع لهم لينزجروا عمّا هم فيه ، ويقبلوا على ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من تقوى وعبادة ، ثم قال تعالى : ﴿ **أم تسألهم أجراً** ﴾ على التبليغ والإنذار ﴿ **فهم من مغرم مثقلون** ﴾ فزهّدهم ذلك في اتباعك ، وإذ كنت لا تسألهم أجراً على الهداية ، فأي حجة لهم في انصرافهم ؟ قال النسفي : (المغْرَم : أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه) ، والمثقل : هو من يحمل ما يشق عليه ﴿ **أم عندهم الغيب** ﴾ قال النسفي : أي اللوح المحفوظ . ﴿ **فهم يكتبون** ﴾ قال النسفي : (أي ما فيه حتى يقولوا لا نبعث ، وإن بعثنا لم نعذب) أي وبالتالي **فهم** لا يعملون للآخرة ﴿ **أم يريدون كيداً** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول ﷺ ، وفي الدين غرور الناس ، وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ **فالذين كفروا هم المكيدون** ﴾ أي : هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ، ويحيق بهم مكرهم ... أو هم المغلوبون في الكيد ، أي إذا كان مجرد الكيد هو السبب في مواقفهم فحتى هذا سيعود وباله عليهم ، **فما فائدة** سيرهم في طريقهم وتنكّبهم عن طريق التقوى ؟ ﴿ **أم لهم إله غير الله** ﴾ قال النسفي : (أي يمنعهم من عذاب الله) قال ابن كثير : وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله . ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ قال ابن كثير : (نزّه الله عز وجل نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون) ثم قال تعالى : ﴿ **وإن يروا كِسفاً** ﴾ أي : قطعة ﴿ **من السماء ساقطاً** ﴾ عليهم يعذّبون به ﴿ **يقولوا سحاب مركوم** ﴾ أي : رُكم بعضه على بعض ، فهو متراكم قال النسفي : يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب مركوم يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب ، قال ابن كثير : (وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا**

بل نحن قوم مسحورون ﴾) أقول : وهذا يفيد أنهم وصلوا إلى درجة من الطغيان والكفران ما عادوا معه ينتفعون بشيء ، ومن ثَمَّ قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **فذرهم** ﴾ قال ابن كثير : أي دعهم يا محمد ﴿ **حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون** ﴾ وذلك يوم القيامة ، عند النفخة الأولى ، نفخة الصعق ﴿ **يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون** ﴾ . ﴿ **وإن للذين ظلموا** ﴾ أي : لهؤلاء الكافرين المشركين ﴿ **عذاباً دون ذلك** ﴾ أي : قبل ذلك في الدار الدنيا ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب ؛ لعلهم يرجعون ويُنيبون فلا يفهمون مايراد بهم ؛ بل إذا جلّي عنهم عادوا إلى أسوأ مما كانوا ، كما جاء في بعض الأحاديث : « إن المنافق إذا مرض وعوفي ، مَثلُه في ذلك كمثل البعير لا يدري فيما عقلوه ، ولا فيما أرسلوه » وفي الأثر الإلهي : كم أعصيك ولا تعاقبني . قال الله تعالى : يا عبدي ، كم أعاقبك وأنت لاتدري) .

كلمة في السياق :

رأينا أن المجموعة الأولى في السورة تحدثت عن ما أعد الله من عذاب للكافرين ، وأن المجموعة الثانية تحدثت عن المتقين وعما أعد الله لهم ، وجاءت المجموعة الثالثة فأمرت رسول الله ﷺ بالتذكير ، وبيّنت له معالم إقامة الحجة ، ثم تأتي بعد ذلك أوامر معطوفة على الأمر بالتذكير ، مما يشير إلى أن التذكير ينبغي أن ترافقه معان بعينها .

بدأت المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **فذكّر** ﴾ والآن يأتي قوله تعالى : ﴿ **واصبر ...** ﴾ فلنر ذلك :

﴿ **واصبر لحكم ربك** ﴾ قال النسفي : (أي بإمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقة) ﴿ **فإنك بأعيننا** ﴾ أي : برعايتنا ، قال النسفي : أي بحيث نراك ونكلؤك . وقال ابن كثير : (أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم ، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا ، والله يعصمك من الناس) .

قال صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ : (ويا له من تعبير ! ويا له من تصوير ! ويا له من تقدير ! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله . حتى بين التعبيرات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام : ﴿ **وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى** ﴾ ... وقيل له : ﴿ **وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني** ﴾ ... وقيل له : ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾ . وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لمحمد - ﷺ - : ﴿ **فإنك بأعيننا** ﴾ وهو تعبير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقي ظلاً فريداً أرق وأشف من كل ظل ... ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش في هذه الظلال) .

....

﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ أي : للصلاة ، أو من أي مكان قمت ، أو من منامك ﴿ **ومن الليل فسبّحه** ﴾ قال ابن كثير : أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ أي : وإذا أدبرت النجوم آخر الليل فسبحه قال النسفي : (أي في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت) والمراد أن يقول : سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات ، وقيل التسبيح : الصلاة إذا قام من نومه ﴿ **ومن الليل** ﴾ صلاة العشائين ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ صلاة الفجر .

كلمة في السياق :

١ - دلت الآيتان الأخيرتان بسبب كونهما معطوفتين على قوله تعالى : ﴿ **فذكّر** ﴾ على أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر وعبادة ، وخصّ بالذكر التسبيح بحمد الله في الصلاة وغيرها ، لما يتركه ذلك في النفس من تسليم ، والملاحظ أن الذين يشتغلون بالدعوة إلى الله دون أن تكون لهم أورادهم لا يستطيعون الاستمرار ، وإذا استمروا فإنتاجهم قليل ، فلا بدّ أن يجتمع للداعية التذكير والصبر والعبادة .

٢ - نلاحظ أن السورة تألّفت من ثلاث مجموعات واضحة التمايز ، وواضحة الصلات ، وكلها تخدم قضية التقوى ، التي هي المضمون الرئيسي لمحور السورة من سورة البقرة .

الفوائد :

١ - قدّم ابن كثير لتفسير سورة الطور بما يلي : (قال مالك : عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجاه من طريق مالك ، وروى البخاري عن زينب

بنت أبي سلمة عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ورسول الله صلى الله عليه وآله و، يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال ابن كثير : (ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم » يعني : يتعبّدون فيه ، ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه ، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة والله أعلم . وروى ابن جرير عن خالد ابن عرعرة أن رجلاً قال لعلي : ما البيت المعمور ؟ قال : بيت في السماء يقال له الضراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم لا يعودون فيه أبداً . وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري ، وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك ثم رواه ابن جرير عن عاصم عن علي ابن ربيعة قال : سأل ابن الكواء علياً عن البيت المعمور ؟ قال : مسجد في السماء يقال له الضراح ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . ورواه من حديث أبي الطفيل عن علي بمثله . وقال العوفي عن ابن عباس : هو بيت حذاء العرش ، تعمره الملائكة يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه . وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف . وقال قتادة والربيع بن أنس والسدي : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خرَّ لخرَّ عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال ابن كثير : (وقال الجمهور هو هذا البحر ، واختلف في معنى قوله : المسجور فقال بعضهم : المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله : ﴿ وإذا البحار سُجّرت ﴾ أي : أضرمت فتصير ناراً تتأجج ، محيطة بأهل الموقف . ورواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب ، وروي

عن ابن عباس ، وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبيد الله بن عمير وغيرهم ، وقال العلاء ابن بدر : إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ، ولا يسقى به زرع ، وكذلك البحار يوم القيامة ، كذا رواه عنه ابن أبي حاتم ، وعن سعيد بن جبير ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ يعني : المرسل ، وقال قتادة : المسجور المملوء ، واختاره ابن جرير ، ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء ، وقيل المراد به الفارغ) .

أقول : قوله تعالى : ﴿ **والبحر المسجور** ﴾ يفسّره قوله تعالى في سورة التكوير ﴿ **وإذا البحار سُجّرت** ﴾ وكلام بعض المفسرين يدل على أن ذلك يكون قبيل نفخة الصعق ، وإنّما ذكرت هذا لأن كلام ابن كثير هنا في قوله تعالى : ﴿ **وإذا البحار سُجّرت** ﴾ يوحي بأن هذا التسجير سيكون في الموقف ، فأردت أن أبيّن أن هذه القضية خلافية بين المفسرين ، ومن ثَمَّ فالقَسَم بالبحر المسجور إما أن يكون به حالياً إذ هو مملوء ماءً ، أو بالبحر إذ تحدث له حالة قبيل يوم القيامة فيصبح ناراً تتأجج .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾ قال ابن كثير : (قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا : خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة ، فمرّ بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ **والطور** ﴾ حتى بلغ ﴿ **إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع** ﴾ قال : قَسَمٌ ورب الكعبة حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه ، وروى الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن عن الحسن أن عمر قرأ ﴿ **إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع** ﴾ فربا لها ربوة أعيد منها عشرين يوماً) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فويل يومئذٍ للمكذبين * الذين هم في خوض يلعبون** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهذا الوصف ينطبق ابتداءً على أولئك المشركين ومعتقداتهم المتهافتة ، وتصوراتهم المهلهلة ؛ وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات التي وصفها القرآن وحكاها في مواضع كثيرة ، وهي لعب لا جد فيه ، لعب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب في الماء ، غير قاصد إلى شاطىء أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامي ... وهذه حقيقة لا يدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر المشهورة

- سواء في معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم - في ظل التصور الإسلامي للوجود الإنساني ثم للوجود كله ... إن سائر التصورات - حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنساني - تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة . تلك الحقيقة التي تعرض في التصور الإسلامي - وبخاصة في القرآن - عرضاً هادئاً ناصعاً قوياً بسيطاً عميقاً . يلتقي مع الفطرة التقاءً مباشراً دون كدّ ولا جهد ولا تعقيد ؛ لأنه يطالعها بالحقيقة الأصيلة العميقة فيها ، ويفسر لها الوجود وعلاقتها به ، كما يفسّر لها علاقة الوجود بخالقه .

وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة ؛ وألاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة ... وأمامي التصور القرآني يبدو واضحاً ناصعاً سهلاً هيناً ميسراً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا لف ولا تعقيد ولا التواء . وهذا طبيعي ، فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته ... أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة !

إنه عبث ، وخلط ، وخوض ، حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة المطابقة ، التي يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات المتخبطة الناقصة . المستحيلة الاكتمال والنضوج !) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **متكئين على سرر مصفوفة** ﴾ قال ابن كثير : (وقال ابن أبي حاتم حدثنا صفوان بن عمرو أنه سمع الهيثم بن مالك الطائي يقول إن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليتكىء المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يمله ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه » . وعن ثابت قال : بلغنا أن الرجل ليتكىء في الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه ، وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم ، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رآهن من قبل ذلك فيقلن قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيباً) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ...** ﴾ قال ابن كثير : (روى الثوري عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم

عينه ثم قرأ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري به ، وكذا رواه ابن جرير ، ورواه البزار عن ابن عباس مرفوعاً فذكره ثم قال : وقد رواه الثوري عن عمرو بن مرة عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً . وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ قال : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً . وروى الحافظ الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال : إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان** ... ﴾ الآية .

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية يقول : والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم ، وهذا راجع إلى التفسير الأول ، فإن ذلك مفسر أصرح من هذا ، وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد ، وهو اختيار ابن جرير) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى عن خمر الآخرة : ﴿ **يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم** ... ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن عباس : اللغو : الباطل ، والتأثيم : الكذب . وقال مجاهد : لا يستبون ولا يؤثمون ، وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها كما تقدم ، فنفى عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة ، المتضمن هذياناً وفحشاً ، وأخبر بحسن منظرها ، وطيب طعمها ومخبرها فقال : ﴿ **بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾ وقال : ﴿ **لا يصدّعون عنها ولا ينزفون** ﴾ وقال ههنا : ﴿ **يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾ .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ... إنا كنا من قبل ندعوه** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن مسروق عن عائشة أنها قرأت

هذه الآية : ﴿ **فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾ فقالت : اللهم منّ علينا وقنا عذاب السموم ، إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون** ﴾ قال ابن كثير : (روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه : إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم : احتبسوه في وثاق ، وتربّصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾) .

١١ - عند قوله تعالى : ﴿ **أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ﴿ **أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموٰات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن رحمة ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟** ﴾ كاد قلبي أن يطير ، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق عن الزهري به ، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركاً ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ قال ابن كثير : (وسبح بحمد ربك ، قال الضحاك : أي إلى الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما ، وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة ، ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك . وقال أبو الجوزاء : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ أي : من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال رب اغفر لي - أو قال ثم دعا - استجيب له ، فإن عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته » وأخرجه البخاري في

صحيحه وأهل السنن من حديث الوليد ابن مسلم به ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ قال : من كل مجلس ، وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ قال : إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك .

وروى ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له ، وروى عبد الرزاق في جامعه عن أبي عثمان الفقير أن جبريل علّم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . قال معمر : وسمعت غيره يقول هذا القول كفارة المجالس ، وهذا مرسل وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوي بعضها بعضاً بذلك ، فمن ذلك : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك » رواه الترمذي وهذا لفظه ، والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن جريج ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال : إسناده على شرط مسلم إلا أن البخاري علّله . قلت : علّله الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطني وغيرهم ، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج على أن أبا داود قد رواه في سننه من طريق غير ابن جريج إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه ، ورواه أبو داود واللفظ له والنسائي والحاكم في المستدرك من طريق الحجاج ابن دينار عن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله ﷺ يقول بآخر عمره إذا أراد أن يقوم من المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » فقال رجل : يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ، قال : « كفارة لما يكون في المجلس » وقد رُوي مرسلاً عن أبي العالية فالله أعلم ، وهكذا رواه النسائي والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ مثله سواء ، ورُوي مرسلاً أيضاً فالله أعلم . وكذا رواه أبو داود عن عبد الله ابن عمرو أنه قال : « كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفّر بهن عنه ، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم بهن كما يختم بالخاتم : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » وأخرجه الحاكم من

حديث أم المؤمنين عائشة وصححه ومن رواية ابن مطعم ، ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلهم عن النبي ﷺ) .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ قال ابن كثير : (قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيبوبة . وقد روى ابن سبلان عن أبي هريرة مرفوعاً « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر رواه أبو داود . ومن هذا الحديث حكي عن بعض أصحاب أحمد القول بوجوبهما وهو ضعيف لحديث « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل عليّ غيرهما ؟ قال : « لا إلا أن تطوّع » وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ، وفي لفظ لمسلم : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها ») .

كلمة أخيرة في سورة الطور :

١ - ذكرت سورة الطور صفتين من صفات المتقين هما : الإشفاق من عذاب الله ، والدعاء ، وذلك نوع تفصيل لمحورها من سورة البقرة .

٢ - أمرت سورة الطور رسول الله ﷺ وهو الذي أُنزل عليه القرآن بالتذكير ، والصبر ، والتسبيح ، وبذلك نعرف أن بناء التقوى يحتاج إلى دعوة وإقامة حجة ، كما يحتاج من الداعية إلى صبر وعبادة ، ولذلك صلة بالمحور .

٣ - وقد رأينا من قبل صلة أواخر سورة الذاريات ببداية سورة الطور ، والملاحظ أن سورة الطور تنتهي بذكر النجوم ﴿ **ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم** ﴾ وأن سورة النجم تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ ، والمجموعة الثالثة من سورة الطور تتوجه بالخطاب للنذير ﴿ **فذكّر** ﴾ ﴿ **واصبر** ﴾ ﴿ **وسبّح** ﴾ وتأتي سورة النجم لتعمّق الثقة بالنذير ﴿ **والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى** ﴾ فالصلات بين سورة الطور وما قبلها وما بعدها قائمة .

٤ - ومع هذا كله فإن لسورة الطور وحدتها وسياقها الخاص ، فقد تحدّثت السورة في مجموعتيها الأولى والثانية ، عما أعدّه الله للكافرين والمتقين ، ثمّ أمرت الرسول ﷺ أن يذكّر ليقيم الحجة على الكافرين ، ولينير الطريق للمتقين ، ولما كان

التذكير يحتاج إلى صبر وإلى تسبيح فقد انتهت السورة بالأمر بذلك .

٥ - قلنا : إن السور الثلاث : الذاريات والطور والنجم كلها تفصّل في محور واحد ، وسنرى كيف أن كلاً منها قد فصّل بما يكمّل تفصيل الآخرين ، وقد أشرنا عدّة إشارات إلى الصلات بين سورة الذاريات والطور ، وههنا نضيف :

لقد وردت في سورة الذاريات : ﴿ **إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك** ﴾ فالكافرون أقوالهم مختلفة ، متناقضة ، وبسبب هذه الأقوال فإن المصروفين يصرفون عن الحق ، والملاحظ أن سورة الطور فصّلت في أقوالهم المتناقضة التي بسببها يصرف المصروفون عن الحق : وهي الزعم بأن محمّداً ﷺ كاهن ، أو مجنون ، أو شاعر ، فهذه اتجاهات متناقضة ، وكلّ منها يُصرَف بسببه عن الإيمان بعض الناس ، وهناك آخرون يرون لأنفسهم عقولاً يطغون بسببها ، فهذا وضع آخر يصرف بسببه المصرفون ، وهناك ناس يزعمون أن محمّداً ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه ، وبسبب ذلك يصرفون عن الحق ، وهناك آخرون غافلون عمّن خلقهم وعمّن خلق الخلق ، وبعضهم لا يرى أن لهذا الكون خالقاً ، فبسبب ذلك يُصرفون عن الحق ، وهناك آخرون غافلون عن العناية المحيطة بهم فبسبب ذلك يصرفون عن الحق ، وهناك ناس تعميهم السيطرة والسلطان فيصرفون بسبب ذلك عن الحق ، وهناك ناس يصرفون عن الحق بسبب غفلتهم عن الوحي ، وهناك ناس يصرفون عن الحق بسبب تصورات خاطئة في موضوع الألوهية ، وهناك ناس يصرفون عن الحق بسبب الحقد والكيد للإسلام وأهله ، كل ذلك ذُكر في سورة الطور ، وله صلة بما ذكر في سورة الذاريات ، ولكنّه جاء في سياق سورة الطور ، ليقيم الحجة على كل أصناف الكافرين ، وجاء بصيغة التذكير انسجاماً مع السياق ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون ... أم تأمرهم ...** ﴾ .

....

فالتكامل بين سور المجموعة قائم ، وسيتضح معنا هذا الموضوع كلما سرنا في عرض سور المجموعة ، فلنر سورة النجم .

☆ ☆ ☆

سورة النجم

وهي السورة الثالثة والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الأولى من قسم المفصل
وآياتها اثنتان وستون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال صاحب الظلال في تقديمه لسورة النجم : (هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منغمة ، يسري التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفّاة . ويلحظ هذا التنغيم في السورة بصفة عامة ، ويبدو القصد فيه واضحاً في بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه ، إلى جانب المعنى المقصود الذي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني ، مثل ذلك قوله : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ ... فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال : ومناة الثالثة فقط يتعطّل إيقاع القافية . ولكل كلمة قيمتها في معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة (إذن) في وزن الآيتين بعدها : ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذن قسمة ضيزى !** ﴾ فكلمة (إذن) ضرورية للوزن . وإن كانت - مع هذا - تؤدي غرضاً فنياً في العبارة ... وهكذا) .

كلمة في سورة النجم ومحورها :

في سورة الذاريات ورد قوله تعالى في وصف المتقين : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ وفي سورة الطور ورد قوله تعالى في وصف المتقين : ﴿ **إنا كُنّا قبل في أهلنا مشفقين * فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾ وفي سورة النجم يرد قوله تعالى : ﴿ **ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ ثمّ يأتي قوله تعالى معرّفاً المحسنين : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلّا اللّمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ . في السورتين السابقتين ذكر ما عليه المتقون ، وفي سورة النجم يذكر ما يجتنبه المتقون ، وفي ذلك مظهر من مظاهر التكامل بين السور الثلاث التي تفصّل في محور واحد ، ونلاحظ أن ما فصّلته سورة الذاريات في قضية المتقين عرضته بما يربّي عليه ، وما فصّلته سورة الطور عرضته بما يحقق فيه ، وما تفصّله سورة النجم تعرضه بما يدفع نحوه ، والمحور واحد ، وكل سورة تضيف إلى البناء شيئاً جديداً ، وتضعه ضمن سياق يحمل عليه ويحقق فيه .

لقد رأينا سورة (طه) من قبل ، ورأينا أن محورها هو الآيات الأولى من سورة البقرة وهو نفسه محور سورة النجم والسورتين قبلها ، ولذلك فإننا نجد معاني مشتركة بين سورة (طه) وسورة (النجم) ، ففي سورة (طه) يحدثنا الله عز وجل عن موسى بقوله : ﴿ **لنريك من آياتنا الكبرى** ﴾ وفي سورة النجم يحدثنا الله عز وجل عن محمد ﷺ بقوله : ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ وتختتم سورة (طه) بقوله تعالى : ﴿ **قل كل متربِّص فتربّصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى** ﴾ وفي سورة النجم يرد قوله تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ .

....

ورأينا سورة الروم من قبل ، ورأينا أن محورها كذلك هو الآيات الأولى من سورة البقرة فهو محور سورة النجم نفسه ، ونلاحظ أن هناك معاني مشتركة بين سورة الروم وسورة النجم ، ومن ذلك أننا نرى في سورة الروم قوله تعالى : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ ونجد في سورة النجم قوله تعالى : ﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم ...** ﴾ وهذا كله يؤكد أن محور سورة النجم هو الآيات الأولى من البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بماأُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

....

ونلاحظ أن السور الثلاث : الذاريات والطور والنجم كل منها تحدّث عن شيء من عالم الغيب ، وكل منها تحدّث عن اليوم الآخر ، والسورتان الأخيرتان ناقشتا الكافرين نقاشاً طويلاً ، رأينا ذلك في سورة الطور ، وسنراه في سورة النجم ، وذلك مظهر من مظاهر التكامل في السور الثلاث ، ومظهر من مظاهر الارتباط بالمحور ، لأن الإيمان بالغيب ، والإيمان باليوم الآخر من أركان التقوى ، ومن أمهات ما ذكر في آيات سورة البقرة الأولى .

تتألف سورة النجم من ثلاث مجموعات واضحة المعالم :

المجموعة الأولى وتمتد حتى نهاية الآية (١٨) .

المجموعة الثانية وتمتد حتى نهاية الآية (٣٢) .

المجموعة الثالثة وتمتد حتى نهاية السورة ، أي : حتى نهاية الآية (٦٢) . فلنر تفسير السورة .

....

المجموعة الأولى

وهي مقدمة السورة وتمتدّ حتى نهاية الآية (١٨) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

التفسير :

﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ أي : إذا رمي به الشياطين ، أو إذا انفجر فتناثر كما يحدث لبعض النجوم مما سنراه في الفوائد ، أو النجم إذا انتثر يوم القيامة ﴿ **ما ضلّ** ﴾ عن الحق ﴿ **صاحبكم** ﴾ أي : محمد ﷺ ﴿ **وما غوى** ﴾ في اتباع الباطل ، قال ابن كثير : (هذا هو المقسَم عليه وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد ، تابع للحق ، ليس بضال ، والضالّ هو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم) ، والغاوي : هو العالم بالحق ، المنحرف عنه قصداً إلى غيره ، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى ، وعن مشابهة اليهود في كونهم يعلمون الشيء ويكتمونه ، ويعملون بخلافه ، فهو ــ صلاة الله وسلامه عليه ، وما بعثه الله به من الشرع العظيم ــ في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ قال ابن كثير : (أي مايقول قولاً عن هوى وغرض) ﴿ **إن هو إلّا وحي يوحى** ﴾ قال ابن كثير : أي إنما مأأمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وقال النسفي : (أي وما آتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه ، إنما هو وحي من عند الله يوحى إليه) ﴿ **علّمه شديد القوى** ﴾ أي : علّم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور ﴿ **ذو مِرَّة** ﴾ أي : ذو قوة ، أو ذو منظر حسن ﴿ **فاستوى** ﴾ قال ابن كثير : يعني جبريل ، قال النسفي : (أي فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ... وذلك أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جُبِل عليها فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق ...) ومن ثَمَّ قال : ﴿ **وهو** ﴾ أي : جبريل عليه السلام ﴿ **بالأفق الأعلى** ﴾ أي : أفق السماء ﴿ **ثم دنا** ﴾ جبريل من رسول الله ﷺ ﴿ **فتدلّى** ﴾ أي : فزاد في القرب ؛ إذ التدلّي هو النزول بقرب الشيء ﴿ **فكان قاب قوسين** ﴾ أي : مقدار قوسين عربيتين ، قال ابن كثير : أي فاقترب جبريل إلى محمد ﷺ لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أي بقدرهما إذا مُدا ... ﴿ **أو أدنى** ﴾ أي : أو أقرب على تقديركم قال ابن كثير : (قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه ...) ﴿ **فأوحى** ﴾ جبريل ﴿ **إلى عبده** ﴾ أي : إلى عبد الله محمد ﷺ ﴿ **ما أوحى** ﴾ قال النسفي : تفخيم للوحي الذي أوحي إليه ﴿ **ما كذب الفؤاد** ﴾ أي : فؤاد محمد ﷺ ﴿ **ما رأى** ﴾ أي : ما رآه ببصره من صورة جبريل ، يعني : أنه رآه بعينه ، وعرفه بقلبه ، ولم يشك في ما رآه ﴿ **أفتمارونه** ﴾ أي :

أفتجادلونه ﴿ **على ما يرى** ﴾ أي : على الذي يراه ، قال الألوسي : (أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة) ﴿ **ولقد رآه** ﴾ أي ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام ﴿ **نَزْلة أخرى** ﴾ أي : مرّة أخرى أي نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورته فرآه عليها ، والأولى كانت في الأرض ، والثانية كانت ليلة المعراج ﴿ **عند سدرة المنتهىٰ** ﴾ الجمهور على أنها شجرة في السماء السابعة ، والمنتهىٰ : بمعنى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء كأنها في منتهىٰ الجنة وآخرها ، وقيل لم يجاوزها أحد ... وقيل تنتهي إليها أرواح الشهداء ﴿ **عندها** ﴾ أي : عند السدرة ﴿ **جنة المأوى** ﴾ أي : الجنة التي يصير إليها المتقون ، وقيل : تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ أي : رأى جبريل إذ يغشى السدرة ما يغشى ، قال النسفي : (وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها فقد علم بهذه العبارة أنّ ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف ...) قال ابن كثير : قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغربان وغشيها نور الرب ، وغشيها ألوان لا أدرى ما هي ؟ وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها ﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ قال : فراش من ذهب ... وقال ابن كثير : وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان أغصان السدرة لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً فرآها رسول الله ﷺ ، ورأى ربه بقلبه ﴿ **ما زاغ البصر** ﴾ أي : بصر رسول الله ﷺ ، أي ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، قال النسفي : أي ما عدل عن رؤية العجائب التي أُمر برؤيتها ومُكّن منها ﴿ **وما طغى** ﴾ أي : وما جاوز ما أُمر برؤيته . قال ابن كثير : وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلّا ما أُمر به ، ولا سأل فوق ما أُعطي ... ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ أي لقد رأى من آيات ربه الآيات التي هي كبراها وعظماها حين رقي به إلى السماء ، فأري عجائب الملكوت . وبهذا انتهت المجموعة الأولى من السورة وفي الفوائد كلام عن بعض ما اختلف فيه منها .

كلمة في السياق :

أكدت المجموعة الأولى من السورة – وهي مقدمة السورة – عصمة رسول الله ﷺ في أمر الوحي ، وأمر رؤية الغيب ، وأمر السلوك ، وأكّدت رؤيته لعالم الغيب الذي يدعو إليه ، واستهجنت المجموعة أن يجادَل رسول الله ﷺ في أمر يراه ، وهو

الصادق الأمين ، الثابت القلب ، الثابت البصر ، وفي ذلك نفي للتهمة عن الوحي وعن الرسول ﷺ ، وتأكيد لوجود عالم الغيب ، وفي كل ذلك تفصيل للمرتكزات التي تقوم عليها التقوى التي هي إيمان واتّباع كتاب ، ولذلك صلاته بمحور السورة من سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فصلة ما مرّ من سورة النجم بقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك** ﴾ لا تخفى . وبعد أن أكدت المجموعة الأولى عصمةَ رسول الله ﷺ ، وعصمةَ الوحي ، وأكدت أن مضمون الرسالة حق ، واستهجنت أن يمارىٰ رسول الله ﷺ فيما يراه تأتي الآن المجموعة الثانية ، لتناقش المشركين في ما هم عليه ، وتدعو إلى الالتزام بمضمون رسالة رسول الله ﷺ . وتبدأ المجموعة بمناقشتهم في أمر اللات والعزى ومناة ، وفي قولهم : إن الملائكة بنات الله – تعالى الله عن ذلك – ، بعد أن قدّمت لذلك بالكلام عن محمد ﷺ ، وأنه رأى من الغيب ؛ فرأى الملائكة ، ورأى ما رأى من أمر السماء مما أفاد من الابتداء أن قوله هو الحق ، وقولهم هو الباطل ، لأنه لا يستند إلى رؤية أو علم ، بل هو محض الظن ، فلنر المجموعة الثانية :

. . . .

المجموعة الثانية

وتمتد من الآية (١٩) إلى نهاية الآية (٣٢) وهذه هي :

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ

أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

التفسير :

﴿ **أفرأيتم اللات** ﴾ قال ابن كثير : وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة ، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ، ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحيار العرب بعد قريش ﴿ **والعزىٰ** ﴾ قال ابن كثير : وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ﴿ **ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ قال ابن كثير : وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة المكرمة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ، ويهلّون منها للحج إلى الكعبة ... قال ابن كثير : (وقد كانت بجزيرة العرب ، وغيرها طواغيت أُخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة ، التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها) وفي الآية

تقريع للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ، قال النسفي في تفسير الآية : (أي أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عز وجل ، هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة ؟) ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذن قسمة ضيزى** ﴾ أي : جائرة . قال النسفي : (كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله ، مع وأدهم البنات ، وكراهتهم لهن فقيل لهم ذلك) وقال ابن كثير : (أي أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿ **قسمة ضيزى** ﴾ أي : جوراً وباطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ؟) ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب ، والافتراء ، والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ **إن هي** ﴾ أي : ما الأصنام ﴿ **إلا أسماء** ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات ، لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها ، وأشد منافاة لها ﴿ **سميتموها** ﴾ أي : سميتم بها ﴿ **أنتم وآباؤكم** ﴾ أي : من تلقاء أنفسكم ﴿ **ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ أي : من حجة ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾ أي : إلا توهم أن ما هم عليه حق ﴿ **وما تهوى الأنفس** ﴾ أي : وما تشتهيه أنفسهم . قال ابن كثير : أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم ورياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ﴿ **ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ قال النسفي : أي الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به ، وقال النسفي : أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ، ولا انقادوا له ﴿ **أم للإنسان ما تمنى** ﴾ أي : أبل للإنسان ما تمنّى ، والاستفهام للإنكار أي ليس للإنسان ما تمنى . قال ابن كثير : (أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ... ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ودّ شيئاً يحصل له) ﴿ **فلله الآخرة والأولى** ﴾ قال ابن كثير : أي إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف في الدنيا والآخرة ، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن) فإذا كان هذا شأن الله ، وإذا كان شأن الإنسان العجز عن تحقيق أمنياته فلا ينبغي أن يكون الإنسان إلا عبداً لله وحده ﴿ **وكم من مَلَك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى** ﴾ قال ابن كثير : (فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين فكيف ترجون – أيها الجاهلون –

شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ؛ بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟) وقال النسفي : (يعني أن أمر الشفاعة ضيق ، فإن الملائكة مع قربهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم شيئاً قط ، ولا تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتهم) . ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمّون الملائكة** ﴾ أي : ليسمّون كل واحد منهم ﴿ **تسمية الأنثى** ﴾ لأنهم إذا قالوا : الملائكة بنات الله ، فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿ **وما لهم بذلك من علم** ﴾ قال ابن كثير : أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع ﴿ **إن يتّبعون إلا الظنّ** ﴾ وفي العقائد لا بد من القطع واليقين ﴿ **وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ أي : لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، قال النسفي : أي إنما يعرف الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم .

كلمة في السياق :

نلاحظ في ما مر معنا من المجموعة الثانية أن الله عز وجل أقام الحجة على المشركين ، وبيّن أن ما هم فيه مبني على ظن ، وأن الظن لا تبنى عليه العقائد ، فهدم بذلك كل أساس تقوم عليه العقائد الباطلة وما يبني عليها البانون من تصورات فاسدة ، كدعوى أن الملائكة بنات الله ، وما بنوا عليه من شفاعة الملائكة لهم ؛ لأنهم عبدوهم ، وكما أقام الله الحجة على المشركين في دعواهم وما بنوا عليها ، بيّن سبحانه أنه وحده الإله ، والرب ، والمالك المطلق ، والمتصرف المطلق ، وبعد أن استقرت هذه المعاني يصدر الله عز وجل أمراً لرسوله ﷺ بالإعراض عمّن هذه شأنه .

....

﴿ **فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا** ﴾ أي : فأعرض عمن رأيته معرضاً عن ذكر الله ، أي : القرآن ، قال ابن كثير : أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق واهجره ﴿ **ولم يرد إلا الحياة الدنيا** ﴾ فهي همّه ، ومبلغ علمه ، وهذا شأن أكثر الخلق ﴿ **ذلك مبلغهم من العلم** ﴾ أي : الدنيا وما فيها وشؤونها منتهى علمهم ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ أي : هو أعلم بالضال والمهتدي ومجازيهما ، قال ابن كثير : (أي هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده ،

وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذي لا يجور أبداً ، لا في شرعه ولا في قدره) .

كلمة في السياق :

وهكذا عرفنا أن أصل كل شر هو عدم الإيمان بالآخرة ، وأن أصل الإعراض عن اتّباع كتاب الله هو طلب الدنيا ، وجعلها الهدف الوحيد ، كما عرفنا أن كل ما مَرّ معنا من مواقف خاطئة سببها ذلك الأصل ، لأن كل الأدلة والحقائق والعلوم تثبت المضمون الذي جاءت به دعوة رسول الله ﷺ ، وتثبت أن الرسول حق ، والقرآن حق ، وصلة ذلك كله بمحور السورة من سورة البقرة واضح : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين** ... ﴾ فما يعرض أحد عن هذا الهدى إلّا الكفرة ، ولا كفر إلا بسبب اتّباع الظن ، وجعل الدنيا المطلب الوحيد ، ومن ثَمَّ قال تعالى في هذا المحور عن القرآن : ﴿ **هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

....

ثمّ يختم الله عز وجل المجموعة الثانية بتبيان حكمة اليوم الآخر ، ويعرّفنا على أهل التقوى ﴿ **ولله ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ وهذا يقتضي تحقيق العدل ، لأن شأن الملك أن يحقق العدل في ملكه ، وإذ كان الله عز وجل مالكاً للسمٰوات والأرض فهذا يقتضي تحقيق العدل في هذا الملك ، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا** ﴾ أي : بعقاب أعمالهم ﴿ **ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ أي : بالمثوبة الحسنى وهي الجنة . قال النسفي : (والمعنى : أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوّىٰ هذا الملكوت ليجزي المحسن من المكلّفين والمسيء منهم ؛ إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء) وقد يكون المعنى : أن الله عز وجل لم يعط ملكه لأحد من خلقه ، وجعل نفسه المالك الوحيد ليجازي المسيء بإساءته ، والمحسن بإحسانه ، ثم فسّر تعالى من هم المحسنون الذين يستحقون الجنة فقال : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم** ﴾ أي : الكبائر من الإثم ، والكبائر من الذنوب : التي يكبر عقابها ﴿ **والفواحش** ﴾ أي : ويجتنبون ما فحش من الكبائر ، كأنه قال : الذين يجتنبون الكبائر عامّة والفواحش منها خاصة ، قال النسفي : (الكبائر : ما أوعد الله عليه النار ، والفواحش : ما شرع فيها

الحدّ) قال الألوسي في سياق كلامه عن الكبائر : (واعتمد الواحدي أنها لا حدّ لها يحصرها فقال : الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدّ يعرفها العباد به ؛ وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، ولكن الله تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه ، رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظير ذلك إخفاء الاسم الأعظم . والصلاة الوسطى . وليلة القدر . وساعة الإجابة ، وقال العلامة ابن حجر الهيتمي : كل ما ذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط ، وإلا فهي ليست بحدود جامعة ، وكيف يمكن ضبط مالا مطمع في ضبطه ؟ وذهب جمع إلى تعريفها بالعدّ ، فعن ابن عباس : أنها ما ذكره الله تعالى في أول سورة النساء إلى قوله سبحانه : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه** ﴾ . وقيل هي سبع ، وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه ، وعطاء ، وعبيد بن عمير ، واستدل له بما في الصحيحين : « اجتنبوا السبع الموبقات : الإشراك بالله تعالى . والسحر . وقتل النفس التي حرّم الله تعالى إلا بالحق . وأكل مال اليتيم . وأكل الربا . والتولي يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » وقيل : خمس عشرة ، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : أربع ، وعن ابن مسعود : ثلاث ، وفي رواية أخرى : عشرة ، وقال شيخ الإسلام العلائي : المنصوص عليه في الأحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون ، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك) .

ثمّ قال تعالى : ﴿ **إلا اللمم** ﴾ أي : إلّا الصغائر ، قال النسفي : وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **إن ربك واسع المغفرة** ﴾ قال ابن كثير : أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض** ﴾ بإنشاء أبيكم آدم منها ، أو بإنشائكم من ترابها في الأصل حتى صرتم غذاءً فنطفاً ﴿ **وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم** ﴾ الأجنة : جمع جنين ﴿ **فلا تزكّوا أنفسكم** ﴾ أي : فلا تمدحوها وتشكروها وتمنّوا بأعمالكم ﴿ **هو أعلم بمن اتقى** ﴾ أي : فاكتفوا بعلمه عن علم الناس ، وبجزائه عن ثناء الناس ، قال النسفي : (أي فلا تنسبوها - أي : أنفسكم - إلى زكاء العمل) .

كلمة في السياق :

ذكرت الآيتان الأخيرتان تعريفاً للمتقين ، كما نهت الآية الأخيرة عن تزكية النفس

فأخذنا بذلك تفصيلاً جديداً لموضوع التقوى ، وما تقتضيه ، بما كمّل لنا صورة المتقين التي وردت في سورتي الذاريات والطور ، وبما فصّل في محور السورة من سورة البقرة ، وكل ذلك ضمن السياق الخاص للسورة الذي أثبت العصمة لرسول الله ﷺ ، وللوحي المنزل إليه ، وأنه الحق الذي لا مرية فيه ، ثم بيّن أن ما عليه الكافرون مستندهم فيه الظن فقط ، ومن ثَمَّ أمر الله رسوله ﷺ بالإعراض عنهم ، ثم بيّن تعالى أن من مظاهر حكمته مجازاة المسيء ومكافأة المحسن ، وعرَّف لنا المحسن ، وطالب الإنسان ألا يزكّي نفسه ، وإذ بيّن لنا فيما مَرَّ من السورة أن الناس قسمان : مسيئون ومحسنون ، طلاب دنيا وطلاب أخرى ، متقون وكافرون ، مقبلون ومعرضون ، تأتي الآن المجموعة الثالثة والأخيرة في السورة لتحدثنا عن هؤلاء المعرضين وتناقشهم .

....

المجموعة الثالثة

وتمتد من الآية (٣٣) إلى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٦٢) وهذه هي :

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

التفسير :

﴿ **أفرأيت الذي تولّىٰ** ﴾ أي : أعرض عن الإيمان ﴿ **وأعطى قليلاً وأكدى** ﴾ أي : قطع عطيته وأمسك ، قال عكرمة وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا ويتركون العمل .

....

كلمة في السياق :

رأينا في أواخر المجموعة الثانية أن حكمة الله عز وجل تقتضي مجازاة المسيء ، ومكافأة المحسن ، وقد رأينا تعريفاً للمحسن هناك ، وتبتدىء هذه المجموعة بالكلام عن المسيء ، وقد ذكرت الآيتان اللتان مَرَّتا معنا من المجموعة الثالثة أن من صفات المسيء : إعراضه عن الإيمان ، وإعطاءه القليل وإمساكه ، فهو بخيل في طريق الله ، وبعد أن عرضت علينا المجموعة الثالثة هاتين الصفتين للمسيئين تبدأ المجموعة فتناقش هذا النوع من الناس فلنر المناقشة :

....

﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى** ﴾ قال ابن كثير : (أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق ، وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً ؟ أي ليس الأمر كذلك ، وإنّما أمسك عن الصدقة

والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً ...) وقال النسفي في الآية : (أي فهو يعلم أن ما ضمنه من عذاب الله حق) أقول : إن الآية تفيد في سياقها أن هذا الإنسان المعرض عن الإيمان المانع للعطاء لا يجوز له ذلك ، فهو لم يطّلع على الغيب ، ولم ير هذا الغيب حتى يبني موقفه على ضوء ذلك ، فإذا بنى موقفه على مجرد الجهل في شأن الغيب ، فذلك دليل انطماس بصيرته ، خاصة وأن الذي يدعوه إلى الإيمان والإنفاق هو عالم الغيب .

كلمة في السياق :

من خلال المناقشة في شأن الإنفاق وارتباطه بالإعراض عن هداية الله نرى صلة المجموعة بمحور السورة ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ فالمؤمن بالغيب استجاب فصلّى وأنفق واهتدى بكتاب الله ، وهذا أعرض فبخل .

....

ثم قال تعالى : ﴿ **أم لم يُنَبَّأ بما في صحف موسى** ﴾ أي : أم لم يخبر بما في توراة موسى ﴿ **وإبراهيم الذي وفّى** ﴾ أي : بلّغ جميع ما أمر بتبليغه ، وعمل به ، فقام بجميع الأوامر ، وترك جميع النواهي ، وبلّغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أقواله وأحواله وأفعاله ، قال ابن كثير : ثم شرع تعالى يبيّن ما كان - أو جاء - في صحف إبراهيم وموسى فقال : ﴿ **ألّا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أي : إنه لا تحمل نفس آثمة أثم نفس أخرى . قال ابن كثير : أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب ، فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد ﴿ **وأن** ﴾ أي : وأنه ﴿ **ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ قال النسفي : (أي إلا سعيه ،وهذه أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى) وقال ابن كثير : (أي كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه) ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **وأن سعيه سوف يرى** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **ثمّ يُجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ أي : الأوفر ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ قال ابن كثير : أي المعاد يوم القيامة . قال النسفي : هذا كله في الصحف الأولى ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى** ﴾ قال ابن كثير : أي خلق في عباده الضحك والبكاء ، وسببيهما ، وهما مختلفان ﴿ **وأنه هو أمات وأحيا** ﴾ أي : الذي يميت ويحيي ﴿ **وأنه خلق الزوجين**

الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى ﴾ أي : إذا تدفق في الرحم ﴿ **وأن عليه النشأة الأخرى** ﴾ قال ابن كثير : أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة ، وهي النّشأة الآخرة يوم القيامة أي الإحياء بعد الموت ﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾ أي : وأعطى القنية وهي المال الذي تأثّلته وعزمت على ألا تخرجه من يدك ، قال ابن كثير : أي ملّك عباده المال ، وجعله لهم قنية ، مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه ... ﴿ **وأنه هو رب الشعرى** ﴾ قال ابن كثير : هو هذا النجم الذي يقال له مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ، قال النسفي : (فأعلم الله أنه رب معبودهم هذا) ﴿ **وأنه أهلك عاداً الأولى** ﴾ قال النسفي : (هم قوم هود ، وعاد الأخرى إرم) ولم يفرق ابن كثير بين عاد هود وعاد إرم فهم شيء واحد عنده ﴿ **وثمود فما أبقى** ﴾ أي : وأهلك ثمود فما أبقاهم ، قال ابن كثير : أي دمّرهم فلم يبق منه أحداً ﴿ **وقوم نوح من قبل** ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين في السورة ﴿ **إنهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾ أي : أشدّ تمرداً من الذين من بعدهم ﴿ **والمؤتفكة** ﴾ قال النسفي : (أي والقرى التي ائتفكت بأهلها ، أي انقلبت وهم قوم لوط) ﴿ **أهوى** ﴾ قال ابن كثير : (يعني حدائق لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها) أي : رفعها إلى السماء ثم أهواها إلى الأرض أي أسقطها ﴿ **فغشّاها ما غشّى** ﴾ قال النسفي : أي ألبسها ما غشّى ، تهويل وتعظيم لما صبّ عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود ﴿ **فبأي ءَالآء ربك تمارى** ﴾ أي : تتشكك ، قال ابن كثير : (أي ففي أيّ نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري أي تشك ، قاله قتادة : وهو اختيار ابن جرير) فالآلاء : النعّم ، والامتراء والتماري : الشك والتشكك ، والخطاب للإنسان .

كلمة في السياق :

١ - الظاهر من السياق أنّه من قوله تعالى : ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى ...** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فغشّاها ما غشّى** ﴾ أن كل ذلك موجود في صحف إبراهيم وموسى ، وعلى هذا فإن السياق بعد أن عرض علينا حال الإنسان المعرِض عن الإيمان والبخيل في الإنفاق خاطبه خطابين : الأول : ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى** ﴾ والثاني هو : ﴿ **أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى** ﴾ ثم عرض علينا بعض ما هو موجود في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وهذا يعني أن الإنسان ما دام لم يعرف الغيب ، وما دام قد نُبّيء بهذا القرآن بما في صحف إبراهيم وموسى فإنّه

لا ينبغي له أن يكفر أو يبخل ، وإذ استقرت الحجة عليه ، خوطب بقوله تعالى : ﴿ **فبأي ءالآء ربك تتمارى** ﴾ أي : تتشكك ، قال النسفي في الآية : (فبأي ءَالآء ربك أيها المخاطب تتشكك بما أولاك من النعم ، أو بما كفاك من النقم ، أو بأي نعم ربك الدالة على وحدانيته وربوبيته تتشكك) فلا تؤمن ولا تنفق ، وعلى هذا فالمجموعة بدأت بالحديث عن الإنسان المعرض البخيل ، وأقامت عليه الحجة بجهله ، وبما هو موجود في رسالات الله ، ثم أنكرت عليه تشككه بنعم الله التي تقتضي إيماناً وعطاءً بينما هو يكفر ويمنع .

٢ - رأينا أن محور السورة هو الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ، والتي فيها : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ونلاحظ هنا : أنه قد جاء قوله تعالى : ﴿ **فبأي ءَالآء ربك تتمارى** ﴾ أي : تتشكك ، ثم جاء بعدها مباشرة ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى** ﴾ وسنرى أن الإشارة في (هذا) إما إلى الرسول ﷺ أو إلى القرآن ، وكل ذلك يخدم قضية الإيمان واليقين ، وصلة ذلك بمحور السورة الداعي إلى الاهتداء بالقرآن ، والإيمان بالغيب ، والإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ لا تخفى ، ولنعد إلى التفسير :

....

فبعد أن قامت الحجة على هذا المعرض يأتي قوله تعالى : ﴿ **هذا** ﴾ أي : الرسول أو القرآن ﴿ **نذير من النُذر الأولى** ﴾ أي : من جنسها ﴿ **أزفت الآزفة** ﴾ أي : اقتربت القريبة وهي القيامة ﴿ **ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾ أي : ليس لها من دون الله نفس كاشفة ، أي : قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى ، غير أنه لا يكشفها ، أو ليس لها نفس مبيّنةٌ حتى تقوم ﴿ **أفمن هذا الحديث** ﴾ أي : القرآن ﴿ **تعجبون** ﴾ منكرين في زعمكم أن يكون صحيحاً ، وهذا إنكارٌ على المشركين في استماعهم القرآن ، وإعراضهم عنه وتلهّيهم ﴿ **وتضحكون** ﴾ أي : منه استهزاءً وسخرية ﴿ **ولا تبكون** ﴾ خشوعاً كما يفعل الموقنون ﴿ **وأنتم سامدون** ﴾ أي : مغنّون ، أو غافلون ، أو لاهون لاعبون ، أو معرضون ، ثم قال تعالى آمراً عباده بالسجود له والعبادة ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ قال ابن كثير : أي : فاخضعوا له ، وأخلصوا ، ووحّدوه .... .

....

قال صاحب الظلال في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ : (وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة في هذا السياق ، وفي هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل ، الذي ترتعش له القلوب :

ومن ثَمَّ سجدوا . سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون في الوحي والقرآن . وهم يجادلون في الله والرسول !

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسولُ - ﷺ - يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع - مسلمين ومشركين - لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان ... ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون !

بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !) .

أقول : هذا هو التعليل المناسب لسجود المشركين عندما سمعوا هذه السورة فترتب على ذلك عودة بعض مهاجري الحبشة ، لا كما زعم بعضهم من قصة الغرانيق الباطلة سنداً ومعنى .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن أقام الله عز وجل الحجة على المعرض البخيل قال تعالى : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى** ﴾ مبيناً أن هذا القرآن من جنس ما أُنزل على الرسل السابقين ، ثم أنذر بقرب الساعة ، ثم أنكر على الكافرين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به ، وعدم خشوعهم وإعراضهم وغفلتهم ، ثم أمر بالسجود له تعالى والعبادة ، وهكذا اجتمعت الحجج والإنذارات لتبعد الإنسان عن الإعراض والبخل ، ولتوصّله إلى الخضوع والسجود ، وهكذا تعاونت مجموعات السورة لتربي على الاهتداء بكتاب الله ، والإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق ، والإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ ، وما أُنزل من قبله ، والإيمان بالآخرة ، وتبيان أن الأتقياء هم المفلحون المجَازون بالجنة ، كل هذه المعاني عرضتها السورة في مجموعاتها الثلاث ، فكانت تفصيلاً لمحور السورة من سورة البقرة ، ولعله من المفيد أن نلاحظ صلة قوله تعالى : ﴿ **أم لم يُنبّأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى ...** ﴾ بقوله تعالى في محور السورة ﴿ **والذين يؤمنون**

بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ﴾ كما أنه من المفيد أن نلاحظ كيف أن تفصيل المحور اقتضىٰ أن يشدّ إلى هذا المحور الأمر بالعبادة الآتي في سورة البقرة بعد المقدمة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ . إن الأمر بالسجود والعبادة دعوة للصلاة ، وإن الإنكار على البخلاء دعوة إلى الإنفاق ، والحديث عن صحف إبراهيم وموسىٰ حديث عما أُنزل على الرسل قبل محمد ﷺ ، والحديث عن القرآن دعوة إلى الإيمان به ، والكلام عما رآه رسول الله ﷺ من أمر الغيب دعوة إلى الإيمان بالغيب ، فالسورة فصّلت في محورها كله ضمن سياقها الخاص بها ، وأكملت في الوقت نفسه ما ورد في سورتي الذاريات والطور .

٢ - يلاحظ أن السورة انتهت بقوله تعالى : ﴿ **أزفت الأزفة ليس لها من دون الله كاشفة ...** ﴾ وأن السورة اللاحقة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر ...** ﴾ فالصلة واضحة بين نهاية السورة وبداية السورة اللاحقة .

فوائد :

١ - قدم ابن كثير لتفسير سورة النجم بهذا الحديث : (روى البخاري عن عبد الله قال : أول سورة أُنزلت فيها سجدة (والنجم) قال : فسجد النبي ﷺ ، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف ، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع ، ومسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن أبي إسحاق به ، وقوله في الممتنع أنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل ؛ فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ نقول : رأينا الاتجاهات المتعددة في تفسير هذه الآية ، ولا نرجّح واحداً منها ، غير أننا نذكر أن علم الفلك الحديث سجّل ظاهرتين تحدثان للنجوم : ظاهرة انفجار نجم ، وظاهرة انتهائه ، كما أنه قد تجمّع لدى الإنسان عن ظاهرة النيازك التي تصطدم بجو الأرض فتحدث الشهب الكثير ، والشهب لا تخرج عن كونها قطعاً منفصلة عن نجوم ، وبكل من هذه الظواهر يمكن أن تفسّر الآية ، كما يمكن أن تفسّر بأن المراد بها جنس النجم إذا انتهىٰ يوم القيامة ، فيكون قوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ يشبه قوله تعالى : ﴿ **فإذا النجوم طمست** ﴾ ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ وأمثال هاتين الآيتين .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى** ﴾

قال النسفي : (ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام ، ويجاب بأن الله تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد ، وقررهم عليه ، كان كالوحي لا نطقاً عن الهوى) وقال ابن كثير : (أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان كما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ليدخل الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين – أو مثل أحد الحيين – ربيعة ومضر » فقال رجل : يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر قال : « إنما أقول ما أقول » . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو وقال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » ورواه أبو داود . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه » ثم قال : لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أقول إلا حقاً » قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال : « إني لا أقول إلا حقاً ») .

٤ – في فهم قوله تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهىٰ** ﴾ يثور جدال عنيف حول رؤية محمد ﷺ ربه يوم الإسراء والمعراج ، وكل من المختلفين يحاول أن يستدل بالآيات على النفي أو الإثبات ، والذي أراه أن هذه الآيات لا تصلح شاهداً لهذا الموضوع ، بل هي في رؤية رسول الله ﷺ جبريل على صورته الحقيقية ، وعلى هذا فموضوع الرؤية ينبغي أن يبحث على أنه موضوع مستقل عن هذه الآيات ، وقد نقل ابن كثير الكثير من الروايات المتعلقة بالآيات ، وكثيراً من وجهات النظر فيها ، وقد اعتمدنا في صلب التفسير ما اعتمده ، وههنا ننقل بعض ما ذكره في هذا المقام قال : (وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (اقرأ) ، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما هَمَّ بذلك ناداه جبريل من الهواء يا محمد أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدّى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك

الذي جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه) . (وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال في قوله تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلةً أخرى** ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام) . (وروى الإمام أحمد عن عبد الله أنه قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم) . (وروى البخاري عن الشيباني قال : سألت زرا عن قوله : ﴿ **فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ قال : حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح . وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض ، فعلى ما ذكرناه يكون قوله : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ معناه : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى ، أو أوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل ، وكلا المعنيين صحيح . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد فذلك قوله : ﴿ **وهو بالأفق الأعلى** ﴾) . (وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود في هذه الآية ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت » وهذا إسناد جيد قوي . وروى أحمد أيضاً عن عبد الله قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق : يسقط من جناحه من التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم . إسناده حسن أيضاً . وروى الإمام أحمد أيضاً سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح » سألت عاصماً عن الأجنحة فأبى أن يخبرني ، قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب . وهذا أيضاً إسناد جيد) . (فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ربي عز وجل » فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد ... عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة – أحسبه يعني في النوم – فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قال : قلت لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي – أو قال نحري – فعلمت ما في السمٰوات

وما في الأرض ثم قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت نعم يختصمون في الكفّارات والدرجات ، قال : وما الكفارات ؟ قال : قلت المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال : قل يا محمد إذا صليت اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون ، قال والدرجات : بذل الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام ») .

أقول : كما نقل ابن كثير هذه الروايات نقل الروايات التي تفيد رؤية رسول الله ﷺ لله ، ونقل الروايات التي فسّر فيها بعضهم آيات النجم على أنها تفيد رؤية الله عز وجل وناقشها ، والذي ينشرح له الصدر هو ما ذكرناه من أن آيات سورة النجم لا تفيد إلا رؤية جبريل ، ثمّ ينظر في الروايات المثبتة للرؤية على حدة فإن كانت تقوم بها الحجة فقد ثبتت الرؤية بها ، والقضية خلافية منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد أثبتها بعض كبار علمائهم كابن عباس رضي الله عنهما ، ونفاها بعض كبار علمائهم كعائشة رضي الله عنها .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى - وهي في السماء السابعة - إليها ينتهي ما يعرج من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي مايهبط من فوقها ، فيقبض منها ﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ قال فراش من ذهب ، قال : وأعطي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثاً : « أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر الله لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات » انفرد به مسلم) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ نقول : إن المتأمل لحادثة الإسراء والمعراج وما ذكره الله عز وجل فيهما من قوله في سورة الإسراء ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ ومن قوله : ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ يرى أن الحكمة في هذه الرحلة هي أن يُطلع الله عز وجل رسوله ﷺ على بعض أمر الغيب ، ليكون ما يدعو إليه رسول الله ﷺ مشاهداً من قبله ، وهو الصادق الأمين ، فتقوم الحجة على الخلق ، ويزداد المؤمنون اطمئناناً ، ومن ملاحظة قوله تعالى لموسى عليه

السلام : ﴿ **لنريك من آياتنا الكبرى** * **اذهب إلى فرعون** ... ﴾ نحسّ أن الله عز وجل أرى موسى من آياته الكبرى عندما كلفه بمجابهة فرعون ليكون أكثر اطمئناناً في هذه المجابهة ، ورسولنا عليه الصلاة والسلام أراه الله من آياته الكبرى قبيل الهجرة التي ستعقبها المجابهة الكبرى مع العرب والعالم ليكون أكثر اطمئناناً .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى** * **ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ قال ابن كثير : (وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم (الله) فقالوا : اللات يعنون مؤنثة منه - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرءوا اللاتّ بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السويق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه ، وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (اللات والعزى) قال : كان اللات رجلاً يلتّ السويق سويق الحاج . قال ابن جرير : وكذا العزى من (العزيز) وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » وروى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل : لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق » فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية ، كما روى النسائي عن سعد ابن أبي وقاص قال : حلفت باللات والعزى فقال لي أصحابي : بئس ما قلت قلت هجراً ، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : « قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وانفث عن شمالك ثلاثاً وتعوذ من الشيطان الرجيم ثم لا تعد » وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلّون منها للحج إلى الكعبة ، وروى البخاري عن عائشة نحوه ، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . قال ابن إسحاق في السيرة ، وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت - وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة - لها سدنة

وحجاب ، وتهدي لها كما تهدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده ، فكانت لقريش ، ولبني كنانة العزى بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم . (قلت) : بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك　　إني رأيت الله قد أهانك

قال ابن إسحق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب . (قلت) : وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها وجعل مكانها مسجداً بالطائف ، قال ابن إسحق : وكانت مناة للأوس والخزرج ، ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها ، ويقال علي بن أبي طالب ، قال : وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . (قلت) : وكان يقال لها الكعبة اليمانية التي بمكة الكعبة الشامية ، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه ، قال : وكانت قيس لطي ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجا ، قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه ، واصطفى منه سيفين : الرسوب والمخزم ، فنفله إياهما رسول الله ﷺ ، فهما سيفا علي ، قال ابن إسحق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام وذكر أنه كان به كلب أسود ، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تُبَّع استخرجاه وقتلاه ، وهدما البيت ، قال ابن إسحق : وكانت رضاء بيتاً لبني ربيعة ابن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب ابن سعد حين هدمها في الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة　　فتركتها قفراً بقاع أسحما

قال ابن هشام : إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة وهو القائل :

ولقد سئمت من الحياة وطولها　　وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حِدَتُها بعدها مائتان لي　　وعمرت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا　　يوم يمر وليلة تحدونا

قال ابن إسحق : وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد وله يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذو الكعبات من سنداد

ولهذا قال تعالى : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى** ﴾) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته » تفرد به أحمد) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ») .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وفي الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ») .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ؛ فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذب » أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به . وروى ابن جرير عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العينين النظر ، وزنا الفم التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً ، وإلا فهو اللَّمم . وكذا قال مسروق والشعبي ، وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : ﴿ **إلا اللَّمم** ﴾ قال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مسَّ الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

﴿ **إلا اللَّمم** ﴾ إلا ما سلف ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وروى ابن جرير عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿ **إلا اللَّمم** ﴾ قال الذي يلم بالذنب ثم يدعه قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأيّ عبد لك ما ألمّا ؟

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **إلا اللَّمم** ﴾ قال : الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه ، وقال وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأيّ عبد لك ما ألمّا ؟

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعاً روى ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم** ﴾ قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال : قال رسول الله ﷺ :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك ما ألمّا ؟

وهكذا رواه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح حسن غريب ، وروى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أراه رفعه في ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم** ﴾ قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللّمم من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود قال فذلك الإلمام . وحدثنا ابن بشار عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم** ﴾ قال : اللّمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود . وعن الحسن في قول الله : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم** ﴾ قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : هو الرجل يصيب اللمة من الزنا ، واللمة من شرب الخمر فيجتنبها ويتوب منها . وروى ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس ﴿ **إلا اللَّمم** ﴾ يلم بها في الحين قلت : الزنا ؟ قال : الزنا ثم يتوب ، وقال ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اللمم الذي يلم المرة . وقال السدي قال أبو صالح سئلت عن اللمم فقلت هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب ، وأخبرت بذلك ابن عباس فقال لقد أعانك ملك كريم . حكاه البغوي) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ قال ابن كثير : (كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يُظلمون فتيلاً** ﴾ وروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال :

سميت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم ، وسميت برة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم ، إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا بم نسميها ؟ قال : « سموها زينب » وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ويلك قطعت عنق صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » وكذا رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه . وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه ، قال فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب . ورواه مسلم وأبو داود) . أقول : المدح والتزكية لهما حالات فالكراهة ليست هي الصورة الوحيدة .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذي وفّىٰ** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الترمذي في جامعه عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال : « ابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » وروى ابن أبي حاتم رحمه الله عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفّىٰ ؟ إنه كان يقول كل ما أصبح وأمسى ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون** ﴾ » حتى ختم الآية . ورواه ابن جرير) .

١٤ - في أكثر من كتاب للعقاد أبرز القيمة الكبرى لقوله تعالى : ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ فهي علامة كبيرة على أن هذا الدين دين الله ، فالبيئة العربية التي تقول بالثأر الظالم من كل إنسان له صلة بالقاتل لا يمكن أن ينبثق عنها مثل هذا النص ، فأن يوجد مثل هذا في القرآن فذلك علامة على أنه من عند الله ، وأن تتحدّد مسؤولية الإنسان عن أعماله وحدها فذلك تصحيح لمسار الفكر البشري على امتداد الزمان والمكان ، وهو بذلك يشكّل قاعدة من قواعد الخلود لهذا الدين الذي به يرجح على كل دين من خلال هذه القاعدة فقط فضلاً عن غيرها . (راجع كتاب مطلع النور للعقاد) .

١٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ قال ابن كثير : (ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكدّه وعمله ، كما جاء في الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ﴾ الآية ، والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ») . أقول : وفي وصول ثواب التلاوة إلى الأموات خلاف بين كثير من العلماء حتى ألفت في ذلك كتب . قال الألوسي : (وفي الأذكار للنووي عليه الرحمة : المشهور من مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وجماعة أنها لا تصل ، وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعي إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه : اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه - كَوَهَبْتُ ثواب ما قرأته لفلان - بقلبه كفى) .

١٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : « يا بني أود إني رسول رسول الله ﷺ إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار » وذكر البغوي من رواية أبي جعفر عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ قال : لا فكرة في الرب . قال البغوي وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، فإنه لا تحيط به الفكرة » وكذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح : « يأتي الشيطان

أحدكم فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته » والحديث الآخر الذي في السنن : « تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله ، فإن الله تعالى خلق ملكاً ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة » أو كما قال) .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تُمنى** ﴾ قال صاحب الظلال : (وهي الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة في كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهي أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال ! نطفة تُمنى ... تراق ... إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ! فإذا هي بعد فترة مقدورة في تدبير الله ... إذا هي ماذا ؟ إذا هي إنسان ! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى ! كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن - لولا وقوعها - تخطر على الخيال ؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المعقد الشديد التعقيد ؟ أين كان كامناً في النقطة المراقة من تلك النطفة . بل في واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان كامناً بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره . وسماته وشياته وملامحه . وخلائقه وطباعه واستعداداته ؟! أين في هذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هي وملايين من أمثالها في النقطة الواحدة من تلك النطفة التي تُمنى ؟! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكر وخصائص الأنثى في تلك الخلية . تلك التي انبثقت وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية المطاف ؟!

وأي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة، ثم يتمالك أو يتماسك . فضلاً على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت في طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها المرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ما رُكب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء المزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير) .

يقول الدكتور الطبيب خالص كنجو في كتابه (الطب محراب للإيمان) : (إن عدد الصبغيات في كل خلية إنسانية هي ٢٣ زوجاً ، ويختص من هذه الأزواج زوج واحد فقط في تصميم الأنوثة أو الرجولة بكل الأبعاد في كيان الإنسان العضوي والنفسي ، إن مفتاح الذكورة والأنوثة موجود في هذا الزوج من الصبغيات .

ولقد لوحظ أن هذا الزوج متجانس في الأنثى ، فهما من شكل واحد ، ورمز لهما

بحرف (XX) في حين أن هذا الزوج في الذكر متغاير ورمز لهما بالرمز (YX) وعند الانقسام يصبح أحد الأشكال الأربعة في كل خلية أي : إما (X) أو (X) أو (X) أو (Y) أو بالأصح شكلان فقط هما : (X) و (Y) . ثم ماذا يحدث بعد ذلك . إن البويضات تحمل صبغياً واحداً فقط ومن شكل واحد (X) بينما تحمل النطف عند الرجل شكلان من الصبغيات صبغي (X) وصبغي (Y) .

والآن لعل الأمر أصبح واضحاً في تحديد الجنس ، فالنطفة هي المسؤولة عن تحديد الجنس ؛ لأنها تحمل الأشكال المتغايرة من الصبغيات الجنسية ، فإذا حملت نطفة صبغياً اجتمعت نطفة من نوع (X) مع البويضة ذات النوع (X) كان المخلوق أنثى ، وإليك بياناً موضحاً :

نطفة (Y) + بويضة (X) = ذكر (YX) .
نطفة (X) + بويضة (X) = أنثى (XX) .

وهذا ما ذكره القرآن قبل أربعة عشر قرناً حين أرجع مسؤولية تحديد الجنس إلى مني الرجل ... ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾) .

١٨ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنّه هو رب الشعرى** ﴾ ننقل ما قاله صاحب الظلال في (الشعرى) قال : (والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف بُعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجم ذي شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه في السورة التي تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ ونتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفي عقيدة الشرك الواهية المتهافتة) .

(وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء) .

١٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى * أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾ قال ابن كثير : (والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى

وقوعه فيمن أنذرهم كما قال : ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ وفي الحديث : « أنا النذير العريان » أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً ، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عرياناً مسرعاً وهو مناسب لقوله : ﴿ **أزفت الآزفة** ﴾ أي : اقتربت القريبة ، يعني : يوم القيامة ، كما قال في أول السورة التي بعدها : ﴿ **اقتربت الساعة** ﴾ وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود ، حتى أنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » وقال أبو حازم : قال رسول الله ﷺ ـ قال أبو نضرة : لأاعلم إلا عن سهل بن سعد ـ قال : « مثلي ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام ثم قال : « مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان » ثم قال : « مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه أُتيتم أُتيتم » ثم يقول رسول الله ﷺ : « أنا ذلك » وله شواهد من وجوه أُخر من صحاح وحسان) .

٢٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن ابن عباس قال : سجد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن الإنس . انفرد به دون مسلم ، وروى الإمام أحمد عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده ، فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد ، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه . وقد رواه النسائي في الصلاة عن عبد الملك بن عبد الحميد عن أحمد بن حنبل به) .

كلمة أخيرة في سور النجم والذاريات والطور :

هذه السور الثلاث فصّلت في الآيات الأولى من سورة البقرة أي في قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ففصّلت في كون هذا القرآن لا ريب فيه ، وفصّلت في أن الهداية فيه ، وأقامت الحجة على الريب والجحود ، وفصّلت في موضوع الإيمان بالغيب ، فعرضت جوانب من الغيب ،

وعرضت بعض آثار الإيمان بالغيب ، وفصّلت في موضوع الصلاة والإنفاق ، وفصلت في موضوع الإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ وبما أُنزل من قبله ، وفصّلت في موضوع الإيقان بالآخرة ، فعرضت جوانب من عوالم الآخرة ، وأقامت الحجّة على الكافرين فيها ، وحذَّرت وأنذرت وذكرت طرفاً من مظاهر الفلاح للمتقين ، وطرفاً من مظاهر الخسران للكافرين ، وفصّلت في قضية التقوى والطريق إليها وخصائص أهلها ، وكل ذلك قد رأيناه تفصيلاً ، ومع كون السور أدَّت دورها في التفصيل للمحور ، فقد كان لكل سورة سياقها الخاص بها ، فهي من ناحية وحدة متكاملة ، كما أنها جزء من وحدة متكاملة في هذا القرآن ، وقد رأينا أن أواخر كل سورة منها متصل بأوائل السورة اللاحقة ، وقد رأينا كيف أن سورة النجم انتهت بقوله تعالى : ﴿ **أزفت الآزفة** ... ﴾ وكيف أن سورة القمر تبتدىء بقوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ وصلة ذلك ببعضه بعضاً لا تخفى ، فلنر سورة القمر التي تفصّل في الآيتين اللاحقتين للآيات التي فصّلتها السور الثلاث من أول سورة البقرة .

☆ ☆ ☆

سورة القمر

وهي السورة الرابعة والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الأولى من قسم
المفصل ، وآياتها خمس وخمسون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قدّم صاحب الظلال لسورة القمر بقوله : (هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر ، بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة ، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين ، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزه ويقول له : ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر ؟** ﴾ ... ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له : ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟** ﴾) .

(فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً ... وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبعة في هذا الجو المفزع الخانق . فيطل المشهد الأخير في السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ . في وسط ذلك الهول الراجف ، والفزع المزلزل ، والعذاب المهين للمكذبين : ﴿ **يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر** ﴾ .

فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟) .

كلمة في سورة القمر ومحورها :

من تشابه بداية سورة القمر وسورة الأنبياء نستأنس أنّ محور السورتين واحد ، فسورة الأنبياء ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ وسورة القمر ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ومن دراسة مضمون سورة القمر نعرف أن محورها هو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وهو نفسه محور سورة الأنبياء لاحظ بعض آيات سورة القمر :

﴿ **وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ (آية : ٢) .

﴿ **فما تغن النذر** ﴾ (آية : ٥) .

﴿ **كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر** ﴾ (آية : ١٨) .

﴿ **كذبت ثمود بالنذر** ﴾ (آية : ٢٣) .

﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾ (آية : ٣٣) .

﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ (الآيتان : ٤١ ، ٤٢) . ومن تأمل هذه الآيات وجد صلتها بقوله تعالى : **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ واضحة ، والحقيقة أن السورة كلها - تقريباً - حديث عن الإنذار ، والتكذيب ، وعدم استفادة الكافرين من الإنذار ، وجزائهم في الدنيا والآخرة ، وهذا كله يؤكد صلة السورة بالمحور الذي ذكرناه .

....

وقد رأينا أن آخر سورة النجم كان : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى * أزفت الآزفة ...** ﴾ والملاحظ أن سورة القمر تبدأ بالكلام عن اقتراب الساعة ، وتتحدث عن مجموعة من النذر الأولى ، كما تتحدث عن القرآن فتتكرر بها اللازمة ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ وهكذا نجد أن سورة القمر ترتبط بالمعاني التي ذكرت في أواخر سورة النجم ، وبذلك نرى أن هذا القرآن تتعانق سوره ، وتتعانق زمره ، وتتعانق معانيه بهذا الشكل المعجز العجيب ، الذي لا يخطر على قلب بشر ، فضلاً عن أن يستطيعه بشر . ولنبدأ عرض سورة القمر ، فإن وضوح صلتها بمحورها لا يستدعي منا وقوفاً طويلاً وسنعرض السورة على ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : وتمتد حتى نهاية الآية : (٨) .

المجموعة الثانية : وتمتد حتى نهاية الآية : (٤٢) .

المجموعة الثالثة : وتمتد حتى نهاية الآية : (٥٥) .

والمجموعات الثلاث تتعانق معانيها مع كونها تفصّل في محور السورة من سورة البقرة .

....

المجموعة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٨) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **اقتربت الساعة** ﴾ أي : قربت القيامة ﴿ **وانشق القمر** ﴾ نصفين على عهد رسول الله ﷺ آية للناس ، قال ابن كثير : (قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة) ولنا عودة إلى هذين الموضوعين في الفوائد . ﴿ **وإن يروا** ﴾ أي : وإن ير الكافرون ﴿ **آية** ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً يدل على صدق سيدنا محمد ﷺ ﴿ **يعرضوا** ﴾ أي عن الإيمان . قال ابن كثير : (أي لا ينقادون له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم) ﴿ **ويقولوا سحر مستمر** ﴾ قال النسفي : (أي محكم قوي ... أو دائم مطّرد ، أو مارٍّ ذاهب يزول ولا يبقى) ولم يذكر ابن كثير إلا الثالث فقال : (أي ذاهب ، وقاله مجاهد وقتادة وغيرهما : أي باطل مضمحل لا دوام له) وأرجح أن يكون المراد بالاستمرار ظاهره أي الدوام والاطّراد ، فكأنهم أرادوا أن يقولوا أن ما يظهر على يد رسول الله ﷺ ظاهرة كونية مستمرة هي من باب السحر ، وليست خارقة معجزة من الله تدلّ على صدق رسول الله ﷺ في تبليغه عن الله ﴿ **وكذّبوا** ﴾ النبي ﷺ ﴿ **واتّبعوا**

أهواءهم ﴾ أي : ما زيّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره قال ابن كثير : أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم ﴿ **وكل أمر مستقر** ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر ، أي : في النهاية ، وقال ابن جريج : أي مستقر بأهله ، أي وكل أمر مستقر بأهله في النهاية على ما يقتضيه هذا الأمر من نهايات خيّرة أو شريرة في الدنيا والآخرة ، ولا شك أن استقرار الأمور استقراراً كاملاً على ما تقتضيه إنما يكون في الآخرة ، ومن ثَمَّ فسّر مجاهد استقرار الأمور بأنه يوم القيامة ، فكأن لكل أمر مسرى يسير فيه حتى يستقر في نهاية مصبه ، قال النسفي : وقيل : كل أمر من أمرهم واقع مستقر ، أي سيثبت ويستقر عند ظهور العقاب والثواب ﴿ **ولقد جاءهم** ﴾ أي : هؤلاء الكافرين ﴿ **من الأنباء** ﴾ أي : من القرآن المودع أنباء القرون الخالية ، أو أنباء الآخرة وما وصف من عذاب الكفار ﴿ **ما فيه مزدجر** ﴾ أي : ما فيه ازدجار عن الكفر ، قال ابن كثير : أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي إلى التكذيب ﴿ **حكمة بالغة** ﴾ أي : جاءتهم حكمة بالغة نهاية الصواب ، أو حكمة بالغة من الله إليهم ، وأي حكمة تبلغ ما تبلغه الحكمة الموجودة في القرآن لمن عقل وتدبّر ، ولكن هؤلاء وصلوا إلى حالة من الكفر ما عادت تنفع معهم الحكمة ، ولا الآية ، ولا الإنذار ، قال تعالى : ﴿ **فما تغن النُذُر** ﴾ قال النسفي : والنذر جمع نذير وهم الرسل أو المنذر به (أي : وهو القرآن) أو النذر ... بمعنى الإنذار . أقول : والواقع أن هؤلاء وصلوا إلى حالة لا القرآن يؤثر فيهم ، ولا موعظة الرسول تؤثر فيهم ، ولا إنذارات الله العملية تؤثر فيهم . قال ابن كثير : (يعني : أي شيء تغني النذر عمّن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ، فمن الذي يهديه من بعد الله ؟) .

كلمة في السياق :

رأينا في ما مَرّ معنا من الآيات كيف أن ناساً من الكفار وصلوا إلى درجة من الكفر أصبحوا معها لا يستفيدون من رؤية المعجزات ، ولا يستفيدون من زجر القرآن وقصصه وحكمته ، ولا من أي إنذار آخر ، وصلة ذلك بقوله تعالى في محور السورة واضحة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ ومما مَرّ نستطيع أن نتلمّس صفات هؤلاء الذين لا ينفع معهم الإنذار ، وقد ذكرت الآيات صفتين : التكذيب ، واتباع الهوى ﴿ **وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم** ﴾ ومن ثَمَّ

نعلم أن الله ختم على قلوبهم كما ورد في المحور ، إنما هو عقوبة لهم بسبب ممّا جنته أيديهم ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وأمام عدم نفع الإنذارات بهؤلاء كما ذكرت الآيات المارّة معنا من سورة القمر ، وأمام استواء الإنذار وعدمه في حقهم كما ذكرته آيتا المحور ، فإنّ الله عز وجل يأمر رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **فتولّ عنهم** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : فتوّل يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ **يوم يدع الداع إلى شيء نُكر** ﴾ قال ابن كثير : أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب ، وما فيه من البلاء ، بل والزلازل والأهوال ، وقال النسفي : (أي منكر فظيع تنكره النفوس ، لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة) وقال النسفي : والداعي إسرافيل عليه السلام ﴿ **خُشّعاً أبصارهم** ﴾ أي : يوم يخرجون خُشّعاً أبصارهم ، أي : ذليلة أبصارهم ، وقال النسفي : وخشوع الأبصار كناية عن الذلة ، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما ﴿ **يخرجون من الأجداث** ﴾ أي : من القبور ﴿ **كأنهم جراد منتشر** ﴾ أي : في كثرتهم وانتشارهم في كل جهة ، قال ابن كثير : أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ؛ ولهذا قال : ﴿ **مهطعين** ﴾ أي : مسرعين ﴿ **إلى الدّاع** ﴾ أي : لا يخالفون ولا يتأخرون ، قال النسفي : أي مسرعين مادّي أعناقهم إليه ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ أي : صعب شديد ، وبهذا انتهت المجموعة الأولى .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أنه أمام عدم غناء الإنذار للكافرين أمر الله رسوله ﷺ أن يعرض عنهم ، وأن ينتظر فيهم عقاب الله يوم القيامة ، ومن المجموعة عرفنا أن هؤلاء هم الذين اجتمع لهم التكذيب واتّباع الهوى ، أي أصبح التكذيب واتّباع الهوى خُلقين لهم ، أمثال هؤلاء لا ينفع فيهم الإنذار ، ولكن هل كل كافر تأصّل فيه هذان الخلقان على الكمال والتمام ، حتى لم يعد ينفع فيه الإنذار ؟ الجواب لا ، ومن ثَمّ أمر الله رسوله ﷺ بالتبليغ ، وإقامة الحجة على الخلق أجمعين ، ومن هنا نعلم سرّ إيمان بعض الكافرين ؟ ذلك لأنه لا زال في قلوبهم بقية من الفطرة ، ولم يصلوا في التعقيد إلى الذروة ، وقد أبرزنا هذه المعاني في أول سورة الأنبياء ، ولهذه الأسباب كلها نعلم لِمَ أقام الله الحجج الكثيرة على الكافرين ، ولِمَ ناقش مواقفهم كلها في هذا القرآن ؟ .

٢ – نلاحظ أن القرآن الكريم مع تقريره أن نوعاً من الكفار لن يستفيدوا من الإنذار فإنّه قد أنذر ، ولذلك حكمته ، ومن حكمة ذلك إقامة الحجة ، ومن حكمة ذلك أنه قد يتسلّل إلى المؤمنين بعض من أخلاق الكافرين ، وقد يؤمن كافر لم يصل إلى الحضيض في أخلاق الكافرين ، فتأتي هذه الآيات مربية للثاني ، ومطهّرة للأول .

٣ – نلاحظ أن الآيات أفهمتنا أن في القرآن كفاية في الإنذار ﴿ **ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر** ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن القرآن هو النذير الكافي المستمر إلى يوم القيامة ، كما نلاحظ أن الآيات وصفت القرآن بالحكمة البالغة ، مما نفهم منه أنه لا أحكم من هذا القرآن أسلوباً وأحكاماً وخطاباً ، ومن ثَمَّ فكل من يشتغل بقضية الدعوة إلى الله فعليه أن يركّز على ربط الإنسان بالقرآن .

٤ – نلاحظ أن المجموعة الآتية تحدّثنا عن مجموعة أمم كذّبت فعوقبت ، وصلة ذلك في المجموعة الأولى واضحة ، فالمجموعة الأولى ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم** ﴾ وتأتي المجموعة الثانية لترينا نماذج من المكذبين السابقين ، وعقوبتهم في الدنيا قبل الآخرة ، كما ورد في المجموعة الأولى قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر** ﴾ وتأتي المجموعة الثانية لتقصّ علينا من قصص السابقين ما فيه مزدجر فلنر المجموعة الثانية .

....

المجموعة الثانية

وتمتدّ من الآية (٩) إلى الآية (٤٢) وهذه هي :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ
وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا
مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ
فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا
كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ
﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا

بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

التفسير

تفسير الفقرة الأولى :

﴿ **كذبت قبلهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي قبل قومك يا محمد) ﴿ **قوم نوح فكذّبوا عبدنا** ﴾ أي : نوحاً عليه السلام ، والملاحظ أن كلمة التكذيب وردت مرتين في الآية ، قال النسفي معلّلاً لذلك : ومعنى تكرار التكذيب أنهم كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذِّب تبعه قرن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل ، فكذّبوا عبدنا أي لمّا كانوا مكذبين بالرسل ، جاحدين للنبوة رأساً ، كذّبوا نوحاً عليه السلام ، لأنه من جملة الرسل ﴿ **وقالوا مجنون** ﴾ لم يكتفوا أن صرحوا له بالتكذيب بل اتّهموه بالجنون ، وزادوا على ذلك أن زجروه قال تعالى : ﴿ **وازدجر** ﴾ قال النسفي : (أي زُجِر عن أداء الرسالة بالشتم ، وهُدّد بالقتل) قال ابن كثير : (وقيل وازدجر أي انتهروه وزجروه وتوعّدوه لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن) ويحتمل أن يكون ﴿ **وازدجر** ﴾ تتمة لوصفهم إياه بالجنون ، أي قالوا : هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن ، وتخبطته ، وذهبت بلبه وهو قول مجاهد ، والأول أولى ﴿ **فدعا** ﴾ نوح عليه السلام ﴿ **ربّه أني** ﴾ أي : بأني ﴿ **مغلوب** ﴾ أي : غلبني قومي فلم يسمعوا مني ، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿ **فانتصر** ﴾ أي : فانتقم لي منهم بعذاب تبعثه عليهم . قال ابن كثير في الآية : (أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك) قال تعالى : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر** ﴾ أي : منصب في كثرة وتتابع ﴿ **وفجّرنا الأرض عيوناً** ﴾ أي : وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر قال ابن كثير : (أي نبعث جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيوناً) ﴿ **فالتقى الماء** ﴾ أي : من السحاب والعيون المتفجّرة من الأرض ﴿ **على أمر قد قُدر** ﴾ أي : أمر مقدّر ، أي على حال قدَّرها الله كيف شاء ، أو على أمر قد قدر في اللوح المحفوظ أنّه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر** ﴾ أي : على سفينة ، والدّسر :

جمع دسار وهو المسمار ﴿ **تجري** ﴾ أي : السفينة ﴿ **بأعيننا** ﴾ قال النسفي : (أي بمرأى منا ، أو بحفظنا أو ... محفوظة منا) وقال ابن كثير : (أي بأمرنا وبمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا) ﴿ **جزاءً لمن كان كُفِر** ﴾ أي : فعلنا ذلك جزاءً لنوح قال النسفي : جعله مكفوراً لأن النبي نعمة من الله ورحمة ... فكان نوح نعمة مكفورة . وقال ابن كثير : (فعلنا ذلك جزاءً لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح) ﴿ **ولقد تركناها آية** ﴾ قال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة . أقول : وقد ذكرت إذاعة - سمعتها - أن الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض الآن قد صورت على جبل أرارات في الاتحاد السوفياتي ما هو مظنة أن يكون بقية سفينة نوح ، وذكرت الإذاعة أن عاملاً من أرمينيا من قبل استطاع أن يصل إلى ذلك المكان ، ويأخذ صوراً لبقايا السفينة ، بالتعاون مع آخرين ، إلا أن الحكومة السوفياتية طمست الموضوع ، وحين مراجعة هذه السطور ذكرت الإذاعات والصحف أن أحد روّاد الفضاء يحاول محاولته الثانية للوصول إلى ما يعتبر مظنة بقية سفينة نوح على جبل أرارات ، فإذا صحّ هذا يكون ما فهمه قتادة هو المتعين أن تُحمل عليه الآية ، ولم يطمئن لذلك ابن كثير : ومن ثَمَّ وجّه الآية وجهة أخرى مضمونها : أن المراد بذلك جنس السفن ، أي ولقد تركنا جنس السفن آية تذكّركم بسفينة نوح ﴿ **فهل من مُدّكر** ﴾ أي : فهل من يتذكر ويتعظ ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر** ﴾ أي : وإنذاراتي ، قال ابن كثير : أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذّب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر** ﴾ قال ابن كثير : أي سهّلناه للادّكار والاتعاظ ، بأن شحنّاه بالمواعظ الشافية ، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿ **فهل من مُدّكر** ﴾ أي : فهل من متعظ يتعظ ، وقال ابن كثير : أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسّر الله حفظه ومعناه ؟ ، وقال محمد بن كعب القرظي : (أي فهل من منزجر عن المعاصي) وأخرج البخاري عن مطر الورّاق قوله في تفسير الآية : (أي فهل من طالب علم فيعان عليه) .

كلمة في السياق :

١ - خَتْم القصة بقوله تعالى : ﴿ **ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر** ﴾ يفيد أن تكذيب القرآن كتكذيب رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، ويستحقّ المكذّبون به ما استحقّ أولئك من العذاب ، يؤيد هذا المعنى مجيء قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر** ﴾ فإذا صح هذا الاتجاه

فإن مجيء قوله تعالى : ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ بعد كل قصة من قصص السابقين في السورة ــ ما عدا القصة الأخيرة ــ ويفيد أن تذكّروا ولاتكذّبوا فيصيبكم ما أصابهم ، فالحجة قائمة عليكم ، والقرآن ميسَّر لكم لتتذكروا به ، فلا تعرضوا عنه ، ولا تكذّبوه ، واتعظوا بمواعظه ، والتزموا أمره ونهيه .

٢ - في ما قصّه الله عز وجل علينا من شأن قوم نوح نموذج على تكذيب الكافرين لرسلهم ، ونموذج على عدم انتفاعهم بالإنذار ، ونموذج على نصرة الله رسله ، ونموذج على عقوبة الله في الدنيا لمن كذّب رسله ، وفي ذلك موعظة لأهل الإيمان ، وتسلية لرسول الله ﷺ ، ودروس للخلق جميعاً ، وما يقال هنا يقال في كل قصة سترد معنا في المجموعة الثانية .

٣ - إن صلة الآيات المارّة معنا والتي ستمرّ من المجموعة الثانية بقوله تعالى في المحور : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ واضحة ، فالمجموعة تقدم لنا نماذج على عدم انتفاع الكافرين بالإنذار ، وعلى نماذج من العذاب العظيم لهم في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر .

....

تفسير الفقرة الثانية :

﴿ **كذبت عاد** ﴾ أي : قوم هود ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر** ﴾ أي : إنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله ، أو إنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً** ﴾ أي : باردة أو شديدة الصوت قال ابن كثير : وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ **في يوم نحس** ﴾ أي : في يوم شؤم عليهم ﴿ **مستمر** ﴾ أي : دائم الشر عليهم ، فقد استمر حتى أهلكهم قال ابن كثير : (أي مستمر عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي) ﴿ **تنزع** ﴾ الريح ﴿ **الناس** ﴾ أي : تقلعهم عن أماكنهم ، وتنزعهم وتكبّهم ، وتدقّ رقابهم ﴿ **كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ أي : كأنهم أصول نخل منقلع عن مغارسه ، قال النسفي : وشبّهوا بأعجاز النخل ؛ لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقي أجساداً بلا رؤوس فيتساقطون على الأرض أمواتاً ، وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل ، وهي أصولها بلا فروع ، وقال ابن كثير : وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيّبه عن الأبصار ، ثم تنكّسه على أم رأسه ، فيسقط إلى

الأرض فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس ﴿ **فكيف كان عذابي ونذر** ﴾ كان العذاب والله شديداً والإنذارات صادقة ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر** ﴾ أي : سهّلناه ليتذكّر الناس ﴿ **فهل من مدّكر** ﴾ أي : فهل من متذكر يتوب ، أو يثوب ، أو يتعظ ، أو يعرف فيعمل .

كلمة في السياق :

وهذه أمة أخرى لم تقبل إنذار رسول الله ﷺ إليها ؛ فعذّبت بالرياح العاتية فاستؤصلت ، وقد ختمت قصّتها كما ختمت القصة قبلها بقوله تعالى : ﴿ **ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ ومن هذا الختام نفهم أن هذا القرآن نذير ، وأن على الناس أن يتذكّروا به ويتّعظوا ، لا أن يعرضوا ويكذّبوا ، وأنهم على شفا العذاب إن لم يفعلوا .

تفسير الفقرة الثالثة :

﴿ **كذّبت ثمود** ﴾ أي : قوم صالح ﴿ **بالنذر** ﴾ أي : بالمنذرين أو بالإنذارات ﴿ **فقالوا** ﴾ أي : قوم صالح عن صالح ﴿ **أبشراً منا واحداً نتّبعه** ﴾ أي : أنتبع منا واحداً قال ابن كثير : (يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلّمنا كلنا قيادنا لواحد منا) ﴿ **إنا إذاً** ﴾ أي : إن اتبعنا واحداً منا ﴿ **لفي ضلال** ﴾ أي : خطأ وبُعْد عن الصواب ﴿ **وسُعُر** ﴾ أي : ونيران ، أو وجنون ، ثم تعجبّوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم فقالوا ﴿ **أأُلقي الذكر عليه من بيننا** ﴾ أي : أأُنزل عليه الوحي من بيننا ، وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنّبوة ، ثمّ رموه بالكذب فقالوا : ﴿ **بل هو كذّاب أشر** ﴾ أي : بطر متكبّر ، حمله بطره وطلبه التعظم علينا ادعاء ذلك ، قال ابن كثير في تفسير الأشر : (أي متجاوز في حدّ الكذب) قال الله عز وجل : ﴿ **سيعلمون غداً** ﴾ أي : عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة ﴿ **من الكذّاب الأشر** ﴾ أي : أصالح أم من كذّبه ﴿ **إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم** ﴾ أي : امتحاناً لهم وابتلاءً ، أي : إنا باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ؛ اختباراً لهم ﴿ **فارتقبهم** ﴾ أي : فانتظرهم وتبصّر ماهم صانعون ﴿ **واصطبر** ﴾ أي : على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري ، فإن العاقبة لك ، والنصر في الدنيا والآخرة ، قال ابن كثير : أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء طبع ما سألوا ؛ لتكون حجة لله عليهم في تصديق صالح عليه السلام

فيما جاءهم به ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم** ﴾ أي : يوم لهم ويوم للناقة ، أي مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها شِرْب يوم ولهم شِرْب يوم ، فالعطاء يقتضي مقابلاً إلا إذا شاء الله غير ذلك ﴿ **كل شِرْبٍ محتضر** ﴾ أي محضور : يحضر القوم الشِرْب يوماً ، وتحضر الناقة يوماً ، وقال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء ، وإذا جاءت حضروا اللبن ﴿ **فنادَوْا صاحبهم** ﴾ قال المفسرون هو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف وهو أحيمر ثمود ﴿ **فتعاطىٰ** ﴾ أي : فأخذ بالأسباب المؤدية ، قال النسفي : أي فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث ... أو فتعاطى السيف ﴿ **فعقر** ﴾ أي : فعقر الناقة أي نحرها . والآية تدل على أنهم جميعاً كانوا راضين بالنحر ، لأنه كان بناءً على أمرهم ، أو على رضاهم ﴿ **فكيف كان عذابي ونُذُر** ﴾ أي : وإنذاراتي ؟ كان العذاب شديداً والإنذارات صادقة ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة** ﴾ في اليوم الرابع من عقرها ، كما ورد في سورة هود ﴿ **فكانوا** ﴾ كأثر عن الصيحة ﴿ **كهشيم المحتظِر** ﴾ أي : فبادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد وييبس الزرع والنبات ، والهشيم : الشجر اليابس المتهشم المتكسر ، والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة ، وما يحتظر بها عادة ييبس بطول الزمان ، وتطؤه البهائم ، فيتحطم ويتهشّم ، فأصبح قوم صالح بالصيحة كذلك فما أشدّه من عذاب ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ أي : فهل من متّعظ يفر إلى الله خشية عقابه في الدنيا والآخرة ، فيؤمن بهذا القرآن ، ويقبل عليه حفظاً وتلاوةً وعملاً .

كلمة في السياق :

رأينا في قصة ثمود نموذجاً جديداً على تكذيب المرسلين ، ورأينا فيها نموذجاً جديداً من عذاب الله ينزل بأمة ، ففي قصة نوح كان عذاب الاستئصال بواسطة الطوفان ، وفي قصة عاد كان عذاب الاستئصال بواسطة الريح ، وفي قصة ثمود كان عذاب الاستئصال بواسطة الصيحة ، وقد أرانا الله عز وجل في قصة نوح ما رافق التكذيب من رمي بالجنون ، وما رافقه من زجر لنوح ، ولم نر في قصة عاد سوى التكذيب ، ورأينا في قصة ثمود ما رافق التكذيب من مكر ، وفي ذكر التكذيب فقط في قصة عاد ما يشير إلى أن التكذيب وحده كافٍ لعذاب الاستئصال ، وفي ذكر شيء آخر مع التكذيب في قصتي نوح وصالح عليهما السلام إشارة إلى أن هذا النوع من الكلام كلام دائم في تاريخ الكفر فالرمي بالجنون للداعية ، وانتهاره وزجره ، واتهام الدعاة بالبطر وطلب الزعامة

مع التكذيب لغة نراها في كل زمان ومكان ، وهي أثر عن الكفر ، والحصيلة لهذا كله هو استواء الإنذار وعدمه عند هؤلاء ، وذلك هو التفصيل لمحور السورة الرئيسي : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ... ﴾ .

....

تفسير الفقرة الرابعة :

﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾ أي : بالمرسلين ، أو بالإنذارات ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصباً** ﴾ قال ابن كثير : وهي الحجارة ، وقال النسفي : (أي ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم بها) ﴿ **إلّا آل لوط** ﴾ أي : هو وابنتاه ، قال ابن كثير : ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته ، فأصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء ﴿ **نجيناهم بسحر** ﴾ أي : بسحر من الأسحار ﴿ **نعمة من عندنا** ﴾ أي : هذا الإنجاء إنعاماً من عندنا على لوط وآله ﴿ **كذلك** ﴾ أي : مثل ذلك الإنجاء ﴿ **نجزي مَن شكر** ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته ﴿ **ولقد أنذرهم** ﴾ لوط عليه السلام ﴿ **بطشتنا** ﴾ أي : أخذتنا بالعذاب ﴿ **فتماروا بالنذر** ﴾ أي : فكذّبوا بالنذر متشكّكين ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه** ﴾ أي : طلبوا منه الفاحشة من أضيافه الملائكة ، وهم يظنونهم بشراً كما مَرّ معنا تفصيل ذلك في سورتي هود والحجر ﴿ **فطمسنا أعينهم** ﴾ أي : أعميناهم ﴿ **فذوقوا عذابي ونذر** ﴾ أي : فقلت لهم على ألسنة الملائكة : ذوقوا عذابي وإنذاراتي ﴿ **ولقد صبّحهم بكرة** ﴾ أي : أول النهار ﴿ **عذاب مستقر** ﴾ أي : لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ، قال النسفي : (أي ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة) ﴿ **فذوقوا عذابي ونُذُر** ﴾ عندما أذاقهم العمى قال ذوقوا عذابي ونذر ، وعندما صبّحهم بالعذاب قال لهم ذلك ، لأن العذاب كان متنوعاً متعدّداً ، فقرّعهم عند إنزاله كل نوع بهذا القول ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ فيتعظ فلا يفعل ما فعله المعذّبون من تكذيب وعصيان .

....

كلمة في السياق :

رأينا في الفقرة الرابعة نموذجاً جديداً على أمة كذبت ولم تنفعها الإنذارات ، ورأينا

ما رافق تكذيبها من عصيان ، ورأينا نوعاً جديداً من العذاب عوقبت به ، وصلة ذلك بسياق السورة الخاص ، وبمحور السورة لا تخفى فلا نطيل ، والملاحظ أن قوله تعالى : ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ قد تكرّر أربع مرات وراء القصص الأربع ، وفي ذلك قال النسفي : (وفائدة تكرير ﴿ **فذوقوا عذابي ونذر** * **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وهذا حكم التكرير في قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ عند كل نعمة عدها ، وقوله : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ عند كل آية أوردها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان) .

تفسير الفقرة الخامسة :

﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر** ﴾ أي : الرسل أو الإنذارات ﴿ **كذّبوا بآياتنا كلها** ﴾ أي : بالآيات التسع ﴿ **فأخذناهم أخذ عزيز** ﴾ أي : لا يغالب ﴿ **مقتدر** ﴾ لا يعجزه شيء . قال ابن كثير : (فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبرٌ ولا عين ولا أثر) .

كلمة في السياق :

١ - ذكرت القصة الخامسة - باختصار - نموذجاً جديداً على أمة أُنذرت فكذبت فأُهلكت ، وبهذا تمت المجموعة الثانية ، بعد أن ضربت لنا نماذج على أمم كذبت فأهلكت ، ونماذج على أنواع من الهلاك ، وتأتي الآن المجموعة الثالثة والأخيرة في السورة ، وفيها خطاب لكفار هذه الأمة ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ...** ﴾ ، فالمجموعة الثالثة إذن استمرار للمجموعة الثانية .

٢ ــ بدأت السورة بالكلام عن كفار هذه الأمة ومواقفهم ، وذلك في مجموعتها الأولى ، وثنّت بذكر مكذبي الأمم السابقة وما أصابهم عقوبة لهم ، ثمّ تأتي المجموعة الثالثة لتناقش هؤلاء الكافرين .

٣ - المجموعة الأولى عرضت مواقف كفار هذه الأمة ، ولم تناقشهم ، والمجموعة الثانية عرضت مواقف الأمم السابقة ، وذكرت بالقرآن ، ثمّ تأتي المجموعة الثالثة لتناقش كفار هذه الأمة ، وتنذرهم ، وتبشّر المتقين :

المجموعة الثالثة

وتمتد من الآية (٤٣) حتى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٥٥) وهذه هي :

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

التفسير :

﴿ **أكفاركم** ﴾ يا من بلغته دعوة محمد ﷺ ﴿ **خير من أولئكم** ﴾ يعني : من الذين تقدَّم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، وكفرهم بالكتب ، يعني : أن كفاركم مثل أولئك بل شر منهم ، ومن ثَمَّ فليحذروا ما أصاب أولئك ﴿ **أم لكم براءة في الزبر** ﴾ أي : أم أنزلت عليكم براءة في الكتب المتقدمة ، أن من كفر منكم وكذّب الرسل كان آمناً من عذاب الله ؛ فأمنتم بتلك البراءة . قال ابن كثير : أي أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ﴿ **أم يقولون نحن جميع** ﴾ أي : جماعة أمرنا مجتمع ﴿ **منتصر** ﴾ أي : ممتنع لا نرام ولا نضام . قال ابن كثير : أي يعتقدون أنهم يناصرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء ﴿ **سيهزم الجمع** ﴾ أي : جمع أهل مكة وهم أول من بلغتهم دعوة رسول الله ﷺ ﴿ **ويولّون الدبر** ﴾ أي : الأدبار ، أي ينصرفون منهزمين . قال النسفي : يعني يوم بدر ، وهذه من علامات النبوة . قال ابن كثير : (أي سيتفرق شملهم ويغلبون) قال الألوسي :

(أخرج ابن أبي حاتم . والطبراني في الأوسط . وابن مردويه عن أبي هريرة قال : أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل يوم بدر ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ وقال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله أي جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً بالسيف وهو يقول : ﴿ **سيهزم الجمع ويولّون الدبر** ﴾ فكانت ليوم بدر ، وفي الدر المنثور : أخرج البخاري عن عائشة قالت : « نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ **بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾ ») فكان في الآية معجزة غيبية إذ أنها أخبرت عن شيء ثمّ وقع .

....

حصرت الآياتُ الثلاثُ العواملَ التي يمكن أن تكون سبباً في أمن المشركين من عذاب الله بثلاثة أشياء : ١ - خيرية هؤلاء على أولئك . ٢ - أو أخذهم أماناً من الله في الكتب السابقة . ٣ - أو تصورهم أن جمعهم سيغني عنهم .

وإذ كان السببان الأولان منتفيين فقد بقي الثالث ، وقد أخبرهم الله عز وجل أن هذا الثالث سوف يؤتون من قِبَله إذ يهزمون ، وكأن الآيات تحدد نوع العذاب الذي سينزله الله عز وجل بكفار قريش المكذبين الأُول لرسول الله ﷺ ، وهو عذاب الخزي والهزيمة ، والقتل في الدنيا ، وقد كان ذلك يوم بدر ، فكانت معجزة تحتوي في طياتها ذكر نموذج آخر من نماذج تعذيب الله عز وجلّ للمكذبين رسله ، فقد أنذر أنه ستحل بقريش الهزيمة ، وقد كان ذلك ، وفي الآيات بشارة مستمرة لهذه الأمة ، ثمّ بيّن تعالى أن عذاب يوم القيامة أشد فقال : ﴿ **بل الساعة موعدهم** ﴾ أي : موعد عذابهم زائداً على عذاب بدر ﴿ **والساعة أدهىٰ** ﴾ أي : أشدّ من موقف بدر ﴿ **وأمرّ** ﴾ أي : وأمرّ مذاقاً من عذاب الدنيا وأشدّ ، والداهية : هي الأمر المنكر الذي لا يهتدىٰ لدوائه .

....

وهكذا عرّفنا الله عز وجل على ما يستحقه المكذبون الأوائل لرسول الله ﷺ من هذه الأمة ، وللكافرين من هذه الأمة في كل عصر عذابهم ، إذ لهم نفس لغة الأوائل ، وبعد هذا كله يحدثنا الله عز وجل في خاتمة السورة عن الطرفين المتقابلين : المجرمين والمتقين ، وبذلك ينهي السورة :

﴿ **إن المجرمين في ضلال** ﴾ قال النسفي : عن الحق في الدنيا ﴿ **وسُعُر** ﴾ أي ونيران في الآخرة ، أو في هلاك ونيران في الآخرة ، وابن كثير يرى أن الضلال والسعر للكافرين في الدنيا ، قال : يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ﴿ **يوم يسحبون في النار على وجوههم** ﴾ أي : يجرّون فيها على وجوههم . قال ابن كثير : أي لما كانوا في سعر وشك وتردّد ، أورثهم ذلك النار ، ولما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ **ذوقوا مسّ سقر** ﴾ أي : ذوقوا مَسَّ سقر لكم ، أي : ذوقوا عذابها ، وسقر : علم لجهنم ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ أي : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، أي بتقدير سابق ، أو خلقنا كل شيء مقدراً محكماً مرتّباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ ، معلوماً قبل كونه ، قد علمنا حاله وزمانه ، فإذا كانت الكلمة مشتقة من التقدير ، فالمراد بذلك إقامة الحجة على الكافرين بمجيء يوم القيامة ، وإذا كانت مشتقة من القَدَر فالآية تنذر الكافرين أن يخافوا الله ، ثم قال تعالى : ﴿ **وما أمرنا إلّا واحدة** ﴾ أي : وما أمرنا إلا كلمة واحدة ، أي : وما أمرنا لشيء نريد تكوينه إلا أن نقول له : كن فيكون ﴿ **كلمح بالبصر** ﴾ أي : على قدر ما يلمح أحدكم ببصره ، والتشبيه للتقريب ، وقيل المراد بأمرنا القيامة ، فإذا كان المراد أمر الله في الدنيا فإن السياق يفيد أن قدرة الله عز وجل التي خلقت الأشياء كلها ، والتي هذا شأنها تصل إليكم إذا أرادت تعذيبكم ، وإذا كان المراد أمر الآخرة فإن الآيات تدلل على أن الساعة آتية لا ريب فيها من خلال عرض مظاهر قدرة الله ، وذكر الآية اللاحقة يرجح الأول قال تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا أشياعكم** ﴾ أي : أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿ **فهل من مدّكر** ﴾ أي : متعظ .

كلمة في السياق :

١ – يلاحظ أن الآيات الأخيرة استقرت على قوله تعالى : ﴿ **فهل من مدّكر** ﴾ وهي الكلمة التي جاءت وراء القصص الأربع من المجموعة الثانية ﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ فكأن ما مَرّ معنا في الآيات الأخيرة نموذج آخر على كون القرآن ذكراً بما عرضه فيها ، ومن ثَمَّ طالبت الآية الأخيرة بالادّكار ، فإذا تأمّلنا ما بين آخر مرة ذكرت فيها ﴿ **فهل من مدّكر** ﴾ وما بين ورودها الأخير هذا فإننا نجد أنه قد جاء ذكر أخذ فرعون وآله ، ومخاطبة كفار هذه الأمة بما يستحقون في الدنيا والآخرة ،

وذكر حال أهل الكفر وعذابهم في الدنيا والآخرة ، وذكر قدرة الله على الخلق وفعله في إهلاك السابقين ، وأعقب ذلك المطالبة بالادّكار ، مما يدّل على أن هذه كلها مذكّرات .

٢ - لاحظنا أن قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ جاء في سياق يمكن أن يستدل به على مجيء اليوم الآخر ، كما يمكن أن يستدل به على الله ، وأنه قادر على أن يعذّب المجرمين ؛ ومن ثَمَّ جاء بعدها ﴿ **ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر** ﴾ وبعد أن استقر هذا بيّن الله عز وجل أن أعمالهم كلها محصية عليهم ، وفي ذلك تتمة الإنذار والتذكير :

....

﴿ **وكل شيء فعلوه في الزبر** ﴾ أي : في دواوين الحفظة . قال ابن كثير : أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ **وكل صغير وكبير** ﴾ أي : من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿ **مستطر** ﴾ أي مسطور في اللوح المحفوظ ، هذا تفسير النسفي للآية ، وأما ابن كثير : فيراها في الكلام عن صحف الملائكة ، قال : (أي مجموع عليهم ومسطّر في صحائفهم ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وبذلك استُكمل الإنذار .

....

وبعد هذا الإنذار المتواصل في السورة تختتم السورة بآيتين فيهما تبشير للمتقين ؛ تحقيقاً لسُنّة القرآن في الإنذار والتبشير ، وفي ختم السورة بهاتين الآيتين دعوة للناس جميعاً أن يكونوا من أهل التقوى : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر** ﴾ أي : وأنهار . قال ابن كثير : أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال ، والسعر والسّحب في النار على وجوههم ، مع التوبيخ والتقريع والتهديد ﴿ **في مقعد صدق** ﴾ أي : في مكان مرضي . قال ابن كثير : (أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ **عند مليك مقتدر** ﴾ أي : عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها ، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون) وفائدة التنكير في اسمي الجلالة أن يُعلم أن لا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته ، وهو على كل شيء قدير .

....

قال صاحب الظلال : (وعند هذا الإيقاع الهادىء ، في هذا الظل الآمن . تنتهي

السورة التي حفلت حلقاتها بالفزع والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآن والإيقاع الهادىء طعم وروْح أعمق وأروح ... وهذه هي التربية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو التقدير الدقيق لخالق كل شيء بقدر ، وهو اللطيف الخبير) .

كلمة في السياق :

١ ـــ قد يتساءل متسائل أن السور الأربعة من هذه المجموعة ذكرت المتقين ، فلماذا اعتبرتم محور الذاريات والطور والنجم الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة ، ومحور سورة القمر الآيتين التاليتين لذلك ؟ نقول : إن المعاني هي التي قادتنا لذلك ، ثم إن سورة القمر ذكرت المتقين، ولكن لم تضف تعريفاً جديداً لهم ، أو معنى جديداً في التقوى ، وإنما ذكرت ما للمتقين فقط ، بينما السور الثلاث السابقة أعطتنا مضموناً للتقوى أو تعريفاً أو تفصيلاً .

٢ – نلاحظ أن السورة فصّلت في محورها تفصيلاً جديداً زائداً على تفصيل سور سابقة ، وقد رأينا من خلالها بوضوح كيف أن نوعاً من الكفار لا يؤثّر فيهم الإنذار ، كما رأينا صوراً من العذاب العظيم للكافرين ، وذلك هو محور السورة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

٣ – يلاحظ أن نهاية السورة هي قوله تعالى : ﴿ **عند مليك مقتدر** ﴾ وأن بداية السورة اللاحقة سورة الرحمن ﴿ **الرحمن** ﴾ فالصلة بين نهاية السورة وبداية ما بعدها واضحة . ولننقل بعض الفوائد المتعلّقة ببعض آيات السورة .

الفوائد :

١ – قدم ابن كثير للكلام عن سورة القمر بقوله : (قد تقدم في حديث أبي واقد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر ، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾

وقال : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ وقد وردت الأحاديث بذلك . روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس أن تغرب ، فلم يبق منها إلا سف يسير فقال : « والذي نفسي بيده ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقيَ من يومكم هذا فيما مضى منه » وما نرى من الشمس إلا يسيراً . (حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره) روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى » وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى . أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة ابن دينار . وروى الإمام أحمد عن وهب السوائي قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني » وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى . وروى الإمام أحمد عن إسماعيل بن عبيد الله قال : قدم أنس بن مالك على الوليد ابن عبد الملك فسأله ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنتم والساعة كهاتين » تفرّد به أحمد رحمه الله وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح في أسماء رسول الله ﷺ أنه الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه . وروى الإمام أحمد عن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً ، والله لتملؤنه أفعجبتم والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام » وذكر تمام الحديث . انفرد به مسلم . وروى أبو جعفر بن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق . فقلت لأبي أيستبق الناس غداً ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله عز وجل يقول : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الدنيا قد

آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وانشق القمر** ﴾ قال ابن كثير : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر » وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(رواية أنس بن مالك) : روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين فقال : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ورواه مسلم عن محمد بن رافع ، وروى البخاري عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجاه أيضاً من حديث يونس بن محمد المؤدب ، ورواه مسلم أيضاً من حديث أبي داود الطيالسي ويحيى القطان وغيرهما . (رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه) : قال الإمام أحمد ... عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد بن كثير ، وكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل . ورواه البيهقي أيضاً من طرق إبراهيم ابن طهمان . (رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما) : روى البخاري عن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي ﷺ . ورواه البخاري أيضاً ومسلم من حديث بكر بن نصر . وروى ابن جرير غن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه ، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا . (رواية عبد الله بن عمر) : روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين ، فلقة من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، فقال

النبي ﷺ : « اللهم اشهد » وهكذا رواه مسلم والترمذي ، وقال الترمذي : حسن صحيح . (رواية عبد الله بن مسعود) : روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا » وهكذا رواه البخاري ومسلم ، وروى ابن جرير عن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر ، فأخذت فرقة خلف الجبل فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا اشهدوا » روى البخاري عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة قال فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فأن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، قال فجاء السفار فقالوا ذلك ، وروى البيهقي عن مسروق عن عبد الله قال : انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين ، فقال كفار قريش أهل مكة : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، انظروا السفار ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به ، قال : فسئل السفار ، قال : وقدموا من كل وجهة فقالوا : رأينا . ورواه ابن جرير من حديث المغيرة به وزاد فأنزل الله عز وجل : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ثم روى ابن جرير عن محمد — هو ابن سيرين — قال : نبئت أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول : لقد انشق القمر . وروى ابن جرير أيضاً عن الأسود عن عبد الله قال : لقد رأيت الجبل من فرج القمر حيث انشق . ورواه الإمام أحمد عن الأسود عن عبد الله قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر ، وقال ليث عن مجاهد انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فقال النبي ﷺ لأبي بكر : « اشهد يا أبا بكر » فقال المشركون : سحر القمر حتى انشق) .

قال صاحب الظلال معلّقاً على حادثة انشقاق القمر :

(فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة . وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذّر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات ، لو وجدوا منفذاً للتكذيب . وكل ما روي عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ قال النسفي : (وقيل (أي في معنى الآية) ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه) وقال ابن كثير : أي سهلنا حفظه ويسرنا معناه ، لمن أراده ليتذكر الناس ، كما قال : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً** ﴾ قال مجاهد : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر** ﴾ يعني : هوّنا قراءته . وقال السدي : يسرنا تلاوته على الألسن . وقال الضحاك عن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل . (قلت) : ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . أقول : ذكرت هذه الآية خاصية من خواص هذا القرآن الكثيرة ، وهي أن القرآن مع كونه تحدّث عن كل شيء فإنّه يقرؤه العامي ويستشعر أنه يفهمه ، وأعظم الناس علماً وثقافة يقرؤه ويستشعر أنه يفهمه ، وهذا يأخذ منه على قدره ، وهذا يأخذ منه على قدره ، ومن تأمل هذه الظاهرة وحدها أيقن أن هذا القرآن من عند الله ، لأن أحداً ما لا يقدر على مثل ذلك من البشر .

٥ – رأينا كيف أن قوم صالح كان من كلامهم : ﴿ **أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر** ﴾ وهذا يدلنا على أن من أخلاق الكافرين رفض تسليم القياد للقيادة الراشدة ، وهذه قضية يجب أن يلاحظها المسلم في ذاته ، بأن يجعل ذاته تسلّم لأهل الحق في القيادة حقّهم ، فالقيادة والطاعة والولاء في حياة رسول الله ﷺ لرسول الله ﷺ ، ثم بعد وفاته عليه الصلاة والسلام يكون حق الطاعة في المعروف لمن قدَّمه الصف الراشد للقيادة من خلال الشورى ، وللمسألة صور ولكل صورة أحكامها ، وعلى الأمير الراشد أن يقود الناس بالكتاب والسنة ، فعن الشورى تنبثق القيادة ، والقيادة تقيم الكتاب والسنة ، وتستشير في أمر المسلمين أهل شوراهم لاتخاذ القرار السليم ، والمسلم مكلّف أن يطيع أميره في المعروف ، وهكذا تلتقي في هذه الشريعة أجود ما تحكم به العقول دون ما تصبو إليه النزوات ، وذلك من فضل الله على العالمين أن هدى الناس إلى ما فيه رشادهم في كل شيء .

٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر** ﴾ نقول : إن نغمة (بالوحدة يكون كل شيء) بوحدة الشعب ، أو بوحدة الأمة ، بصرف النظر عن

الإيمان والكفر ، نغمة قديمة ، حتى لقد ظن كافرون أن بالوحدة لا تطالهم يد الله وهيهات ، ونحن مكلّفون بالإسلام ، والإسلام فرض علينا أن نكون أمة واحدة ، فهذا فرع هذا عند المسلم .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سيهزم الجمع ويولّون الدبر** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾ وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع . وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : نزلت ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ قال : قال عمر : أيّ جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ . وروى البخاري عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين فقالت : نزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ **بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾ هكذا رواه ههنا مختصراً ، ورواه في فضائل القرآن مطولاً ولم يخرجه مسلم) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ قال ابن كثير : (ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية - وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات - على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة ، ولنذكر ههنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت : ﴿ **يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري به . وروى البزار عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ما نزلت هذه الآيات ﴿ **إن المجرمين في ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ إلا في أهل القدر . وروى ابن أبي حاتم عن ابن زرارة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ **ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء**

خلقناه بقدر ﴾ قال : « نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذّبون بقدر الله » . وحدثنا الحسن بن عرفة – بسنده – عن عطاء بن أبي رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له : قد تُكلم في القدر ، فقال أو قد فعلوها ! قلت : نعم ، قال : فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ **ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم ، إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين ، وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر مرفوع عن عبد الله بن عباس قال : قيل له إن رجلاً قدم علينا يكذّب بالقدر ، فقال : دلوني عليه – وهو أعمى – ، قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس ! قال : والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه . ولئن وقعت رقبته في يدى لأدقنها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطفق ألياتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدّر خيراً كما أخرجوه من أن يكون قدَّر شراً » ثم رواه أحمد عن أبي المغيرة . وروى الإمام أحمد عن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر » ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل به . وروى أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون : لا قدر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه ، وروى أحمد عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون في هذه الأمة مسخ ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزنديقية » ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي صخر حميد بن زياد به وقال الترمذي : حسن صحيح غريب . وروى الإمام أحمد عن طاووس اليماني قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجْز والكَيْس » ورواه مسلم منفرداً به من حديث مالك . وفي الحديث الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان » وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ؛

جفت الأقلام وطويت الصحف » وروى الإمام أحمد عن أيوب بن زياد حدثني عبادة ابن الولد بن عبادة حدثني أبي قال : دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي فقال : أجلسوني فلما أجلسوه قال : يا بنى إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار . ورواه الترمذي عن عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه به وقال : حسن صحيح غريب . وروى سفيان الثوري عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا رواه الترمذي ، ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن علي فذكره وقال : هذا عندي أصح ، وكذا رواه ابن ماجه عن ربعي عن علي به ، وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب : « وكان عرشه على الماء » ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب) .

أقول : قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ يحتمل وجهين : أن يكون القدر بمعنى المقدّر ، فيكون المراد هو المعنى المشهور الذي يذكر مع القضاء ، قال الألوسي : (وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف) وجوّز أن يكون المعنى إنا كلّ شيء خلقناه مقدّراً محكماً مستوفى فيه مقتضى الحكمة التي يدور عليها أمر التكوين ، فالآية من باب ﴿ **وخلق كل شيء فقدّره تقديراً** ﴾ ، وبين المعنى الأول والمعنى الثاني نوع تلازم ، وعلى ضوء هذا التلازم تكلّم صاحب الظلال عن هذه الآية فقال رحمه الله :

(إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال .

﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ كل شيء ... كل صغير وكل كبير . كل ناطق

وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء ... خلقناه بقدر .

قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره في كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقّى عنه ، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقاً دقيقاً . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق . الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهيئه هذه الوسائل ، ويطيقه العقل البشري ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هذا القدر يبقى دائماً ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها ، وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له ... وصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ؛ لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها . فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها ... ثم يتحقق هذا الذي فرضوه . وبدل تحقيقه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام ، في هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة ، التي لا يتناولها خلل أو اضطراب !

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أي اختلال في أية نسبة من نسبها يودي بالحياة كلها ، أو لا يسمح أصلاً بقيامها . فحجم هذه الأرض ، وكتلتها ، وبعدها عن الشمس وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر . وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديراً ، لو وقع الاختلال في أي منها لتبدل كل شيء ؛ ولكانت هي النهاية

المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض !

ووصل في إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة ؛ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؛ وبين بعضها وبعض ... إلى حد يعطي فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التي تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء ، وعوامل الموت والفناء في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائماً بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفي الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكفي الظروف المهيأة للأحياء - في وقت ما - لإعالتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشيء من التفصيل في سور أخرى إلى التناسق في بناء الكون ، وفي ظروف الأرض .

(إن الجوارح التي تتغذي بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلاً على أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة . وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة في كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بني الإنسان . وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض !

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مِقلاتٌ نَزور

وذلك للحكمة التي قدرها الله كما رأينا ، كي تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث !

والذبابة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ؛ ولغدت حياة كثير من الأجناس - وأولها الإنسان - مستحيلة على وجه هذه الأرض . ولكن عجلة التوازن التي لا تختل ، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر ، فكان هذا الذي نراه !

والميكروبات - وهي أكثر الأحياء عدداً ، وأسرعها تكاثراً ، وأشدها فتكاً - وهي كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمراً - تموت بملايين الملايين من

البرد ، ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض المعدات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة . ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان . ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء !

وكل حي من الأحياء مزود بسلاح يتقي به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء . وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع . فكثرة العدد سلاح . وقوة البطش سلاح . وبينهما ألوان وأنواع ...

الحيّات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها . والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومس ثَمَّ يندر فيها السام !

والخنفساء - وهي قليلة الحيلة - مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من يلمسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجري والقفز ، والأسود مزودة بقوة البأس والافتراس !

وهكذا كل حي من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه ، والتي ينتفع معها بهذا اللون من الطعام ... الإنسان والحيوان والطير وأدنى أنواع الأحياء سواء .

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوي تلصق بالرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها ! والحبل السري الذي يربط الجنين بأمه ليتغذي منها حتى يتم وضعه ، روعي في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه) (١) .

(والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الاصفرار . ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض . وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكوين . ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالي لتر ونصف

---

(١) من كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٦ - ٤٧ .

في اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كيمته في الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوّناته ، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماءً به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوماً بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو) (١) .

وتتبع الأجهزة المختلفة في تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها في المحافظة على حياته وصحته ... يكشف عن العجب العجاب في دقة التقدير وكمال التدبير . ويرينا يد الله وهي تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تكلؤه وترعاه . ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فنكتفي بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق في جهاز واحد من هذه الأجهزة : جهاز الغدد الصم « تلك المعامل الكيماوية الصغيرة التي تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتي يبلغ من قوتها أن جزءاً من ألف بليون جزء منها تحدث آثاراً خطيرة في جسم الإنسان . وهي مرتبة بحيث إن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيداً مدهشاً ، وأن أي اختلال في إفرازها يسبب تلفاً عاماً في الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً » (٢) .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته ...

« زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التي تعيش في الفلاة ، ولا غذاء لها إلا ما تفترسه من كائنات لا بد من مهاجمتها والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت في هجومها لا بد أن تستعمل عضلاتها ، فلأرجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوت معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام » (٣) .

فأما الحيوانات المجترة المستأنسة التي تعيش على المراعي ، فهي تختلف فيما زودت به . « وقد صممت أجهزتها بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبياً ؛ وقد

---

(١) من كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٧ — ٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ .
(٣) المصدر السابق : ص ٧١ - ٧٢ .

تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلاً منها توجد الأسنان التي تتميز بأنها قاصمة قاطعة ؛ فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدي للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة للهضم ، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومي وجلس للراحة . يذهب الطعام إلى تجويف يسمى « القلنسوة » . ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغاً جيداً ، حيث يذهب الطعام إلى تجويف ثالث يسمى « أم التلافيف » ، ثم إلى رابع يسمى « الإنفحة » وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيراً ما يكون هدفاً لهجوم حيوانات كاسرة في المراعي ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفي . ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل حيوية ، إذ أن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السليلوز الذي يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جداً ، فلو لم يكن مجتراً ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل في الرعي يكاد يكون يوماً بأكمله دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات في عمليات التناول والمضغ ، إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادته بعد أن يصيب شيئاً من التخمر ؛ ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر » (١) .

« والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم . بينما للأوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، توائم البحث عن الغذاء في الطين والماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

« أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدي هذا الغرض . بينما منقار البجعة مثلاً طويل طولاً ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد . إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي » .

« ومنقار الهدهد وأبو قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات

(١) من كتاب الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل : ص ٧٢ - ٧٣ .

والديدان ، التي غالباً ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أي طير من النظرة العابرة إلى منقاره » .

« وأما باقي الجهاز الهضمي للطير فهو غريب عجيب . فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصي لتساعد القانصة على هضم الطعام » (١) .

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لو رحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى « الأميبا » وهي ذات الخلية الواحدة ، لنرى يد الله معها . وعينه عليها . وهو يقدر لها أمرها تقديراً .

« والأميبا كائن حي دقيق الحجم ، يعيش في البرك والمستنقعات ، أو على الأحجار الراسبة في القاع . ولا يُرى بالعين إطلاقاً وهو يُرى بالمجاهر ، كتلة هلامية ، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام للسير بها إلى المكان المرغوب . ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة . وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أو زائدتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتتغذى بالمفيد منها ، أما الباقي فتطرده من جسمها ! وهي تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسوجين من الماء ... فتصور هذا الكائن الذي لا يُرى إطلاقاً بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ! فإذا ما تم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيواناً جديداً » .

« وعجائب الحياة في النبات لا تقل في إثارة العجب والدهشة عن عجائبها في الإنسان والحيوان والطير . والتقدير فيها لا يقل ظهوراً وبروزاً عنه في تلك الأحياء . ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾ (٢) .

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل في التقدير والتدبير . إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها . كل حركة في التاريخ ككل انفعال في نفس فرد ، ككل نَفَس يخرج من صدر ! إن هذا النَفَس مقدر في وقته ، مقدر في مكانه ، مقدر في ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ،

---

(١) من كتاب الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل : ص ٧٣ - ٧٤ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٠١ - ١٠٢ .

محسوب حسابه في التناسق الكوني ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا العود البري النابت وحده هناك في الصحراء . إنه هو الآخر قائم هناك بقدر . وهو يؤدى وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان ، وهذه النملة السارية . وهذه الهباءة الطائرة . وهذه الخلية السابحة في الماء . كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !

تقدير في الزمان ، وتقدير في المكان ، وتقدير في المقدار ، وتقدير في الصورة . وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال .

من ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هي أم يوسف وبنيامين أخيه لم يكن إلا حادثاً شخصياً فردياً ؟ إنما كان قدراً مقدوراً ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه في الجب – ولا يقتلوه – لتلتقطه السيارة . لتبيعه في مصر . لينشأ في قصر العزيز . لتراوده امرأة العزيز عن نفسه . ليستعلي على الإغراء . ليلقى في السجن ... لماذا ؟ ليتلاقى في السجن مع خادمي الملك . ليفسر لهما الرؤيا ... لماذا ؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يا رب يتعذب يوسف ؟ لماذا يا رب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبي بصره من الحزن ؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكي كل هذا الألم المنوع الأشكال ؟ لماذا ؟ ... ولأول مرة تجيء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن في العذاب . لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة في سني القحط السبعة ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته . ليكون من نسلهم شعب بني إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى – وما صاحب حياته من تقدير وتدبير – لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته ! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن إلا حادثاً شخصياً فردياً ؟ إنما كان وما سبقه في حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه في العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت الحرام . لينشأ محمد – ﷺ – من نسل إبراهيم – عليه السلام – في هذه الجزيرة . أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام ... ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر في تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصير . ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحياناً يرى البشر طرف الخيط القريب ، ولا يرون طرفه البعيد . وأحياناً يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير ، فتخفى عليهم حكمة التدبير . فيستعجلون ويقترحون . وقد يسخطون . أو يتطاولون !

والله يعلّمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله في توافق وفي تناسق ، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن الثابت الوثيق) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكل صغير وكبير مستطر** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن عوف بن الحارث وهو ابن أخي عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً » ورواه النسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن مسلم بن بانك المدني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر . ثم قال سعيد فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي ويحك يا سعيد ابن مسلم لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره فأتاه آت في منامه فقال له يا سليمان :

لا تحقرن من الذنوب صغيرا	إن الصغير غدا يعود كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهده	عند الإله مسطر تسطيرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن	صعب القياد وشمرن تشميرا
إن المحب إذا أحب إلهه	طار الفؤاد وألهم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بنية	فكفى بربك هاديا ونصيرا

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عند مليك مقتدر** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » انفرد بإخراجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة بإسناده مثله) .

كلمة أخيرة في سورة القمر :

فصّلت سورة القمر في صفات الكافرين الذين وصلوا إلى حالة يستوي معهم فيها

الإنذار وعدمه ، كما فصّلت في ضرب الأمثلة على وجود هذا النوع من الكافرين في كل العصور ، وبيّنت ما يستحقه هؤلاء وأمثالهم في الدنيا والآخرة ، ثم استقرت على ما يصل آخر سورة القمر بأول سورة الرحمن ، كما رأينا ، وهكذا وجدنا أن للسورة سياقها الخاص الذي يفصّل بما يخدم السياق القرآني العام ، بالشكل الذي تقع فيه السورة ضمن مجموعتها ، وبحيث ترتبط أول سورة القمر بآخر سورة النجم ، ويرتبط أول سورة الرحمن بآخر سورة القمر ، وكل ذلك قد رأينا تفصيلاته .

فلنبدأ عرض سورة الرحمن .

☆ ☆ ☆

سورة الرحمن

وهي السورة الخامسة والخمسون بحسب الرسم القرآني

وهي السورة الخامسة من المجموعة الأولى من قسم

المفصل ، وآياتها ثمان وسبعون آية

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الرحمن :

قال الألوسي في تقديمه لسورة الرحمن : (وسميت في حديث أخرجه البيهقي عن علي كرم الله وجهه مرفوعاً « عروس القرآن » ورواه موسى بن جعفر رضي الله تعالى عنهما عن آبائه الأطهار كذلك (وهي مكية) في قول الجمهور ، وأخرج ذلك ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وعائشة رضي الله تعالى عنهم . وابن النحاس عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه أنها نزلت بالمدينة ، وحكي ذلك عن مقاتل ، وحكاه في البحر عن ابن مسعود أيضاً ، وحكى أيضاً قولاً آخر عن ابن عباس وهو أنها مدنية سوى قوله تعالى : ﴿ **يسأله من في السمٰوات والأرض** ﴾ ، وحكي الاستثناء المذكور في جمال القراء عن بعضهم ولم يعينه ، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية في الكوفي والشامي ، وسبع وسبعون في الحجازي ، وست وسبعون في البصري .

ووجه مناسبتها لما قبلها على ما قال الجلال السيوطي : أنه لما قال سبحانه في آخر ما قيل ﴿ **بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾ ثم وصف عز وجل حال المجرمين ﴿ **في سقر** ﴾ ؛ وحال المتقين ﴿ **في جنات ونَهَر** ﴾ فصّل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد في الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى شدّتها ، ثم وصف النار وأهلها ، ولذا قال سبحانه : ﴿ **يُعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ ولم يقل الكافرون ، أو نحوه لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك : ﴿ **إن المجرمين** ﴾ ، ثم وصف الجنة وأهلها ، ولذا قال تعالى فيهم : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ وذلك هو عين التقوى ولم يقل ولمن آمن ، أو أطاع ، أو نحوه لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل ؛ ويعرف بما ذكر أن هذه السورة كالشرح لآخر السورة قبلها ، وقال أبو حيان في ذلك : أنه تعالى لما ذكر هناك مقر المجرمين في سقر ، ومقر المتقين في جنات ونهر عند مليك مقتدر ذكر سبحانه هنا شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة ، ثم ذكر جل وعلا مقر الفريقين على جهة الإسهاب ، إذكان ذكره هناك على جهة الاختصار ، ولما أبرز قوله سبحانه : ﴿ **عند مليك مقتدر** ﴾ بصورة التنكير فكأن سائلاً يسأل ويقول من المتصف بهاتين الصفتين الجليلتين ؟ فقيل : ﴿ **الرحمن** ﴾ الخ ،

والأولى عندي أن يعتبر في وجه المناسبة ، أيضاً ما في الإرشاد وهو أنه تعالى لما عدد في السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل ، وبين عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس واتعاظهم ، ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك ، عدّد في هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية والدنيوية والأنفسية والآفاقية ، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها ، وهذا التكرار أحلى من السكر إذا تكرر ، وفي الدرر والغرر لعلَم الهدى السيد المرتضى : التكرار في سورة (الرحمن) إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن إليك بأن خوّلتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم كقول مهلهل يرثي كليباً :

على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلاً من كليب غداة تأثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما خار جاش المستجير

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ولولا خوف الملل لأوردتها ، ولا يرد على ما ذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ما ليس نعمة لما ستعلمه إن شاء الله تعالى في محله ، وقسّم في الإتقان التكرار إلى أقسام ، وذكر أن منه ما هو لتعدد المتعلق بأن يكون المكرر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلق به الأول ؛ ثم قال : وهذا القسم يسمى بالترديد وجعل منه قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فإنها وإن تكررت إحدى وثلاثين مرة فكل واحدة تتعلق بما قبلها) ومما ذكره الألوسي من وجوه المناسبة بين سورة الرحمن وسورة القمر : أن كلاً منهما قد افتتحت بذكر معجزة ، فسورة القمر افتتحت بذكر معجزة انشقاق القمر ، وسورة الرحمن افتتحت بذكر معجزة القرآن .

وقدّم ابن كثير بين يدي تفسير سورة الرحمن هذه النصوص : (روى الإمام أحمد عن عاصم عن زر أن رجلاً قال : كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آسن أو أسن ؟

فقال : كل القرآن قد قرأت ؟ قال : إني لأقرأ المفصّل في ركعة واحدة فقال : أهذا كهذّ الشعر لا أبالك ؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين من أول المفصّل ، وكان أول مفصّل ابن مسعود ﴿ **الرحمن** ﴾ ، وروى أبو عيسى الترمذي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال : « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد ابن مسلم ورواه الحافظ أبو بكر البزار . وروى أبو جعفر بن جرير عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال : « ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « ما أتيت على قول الله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ؟ ﴾ إلا قالت الجن : لا بشيء من نعم ربنا نكذب » ورواه الحافظ البزار عن عمرو بن مالك به ثم قال : لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة الرحمن : (هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة . في جميل صنعه ، وإبداع خلقه ؛ وفي فيض نعمائه ؛ وفي تدبيره للوجود وما فيه ؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم ... وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، في ساحة الوجود ، على مشهد من كل موجود ، مع تحديهما ـــ إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ـــ تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها ويجعل الكون كله معرضاً لها ، وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله ، وفي إيقاع فواصلها ... تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بعيد ؛ كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير التوقف والانتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار ... الرحمان ... كلمة واحدة . مبتدأ مفرداً ... الرحمان كلمة واحدة في معناها الرحمة ، وفي رنتها الإعلان ، والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمان) .

كلمة في سورة الرحمن ومحورها :

بعد مقدمة سورة البقرة يأتي القسم الأول منها : وبدايته : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذين خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ۞ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل الله من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ والذي نهايته : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ۞ **إن في خلق السموٰات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ۞ **ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً** ... ﴾ وكنا ذكرنا من قبل أن القسم الأول من سورة البقرة ختم بنفس المعاني التي ابتدأ بها ، ومن ملاحظة البداية والنهاية علمنا أنّ الله عز وجل عرَّفنا فيه على ذاته ، وطالبنا بعبادته وحده من خلال تذكيرنا بخلقنا وما خلق لنا . وسورة الرحمن إنما هي تذكير بذلك كله ، فمحورها الآيتان الآتيتان بعد مقدمة سورة البقرة ، وامتداد هاتين الآيتين في سورة البقرة مما فيه تذكير بالخلق والنعمة .

....

لاحظ ما يلي :

- في آيتي سورة البقرة : ﴿ ... **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ وفي سورة الرحمن : ﴿ **خلق الإنسان** ۞ **علّمه البيان** ﴾ وفي آيتي سورة البقرة : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ وفي سورة الرحمن : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان** ۞ **ألّا تطغوا في الميزان** ۞ **وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ۞ **والأرض وضعها للأنام** ۞ **فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام** ۞ **والحب ذو العصف والريحان** ﴾ .

- ومن امتدادات آيتي سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وفي سورة الرحمن تفصيل ذلك .

- ومن امتدادات الآيتين قصة خلق الإنسان الموجودة في مقطع آدم عليه السلام ، وفي سورة الرحمن تفصيل ذلك : ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار** ۞ **وخلق**

الجانّ من مارج من نار ﴾ .

– ومن امتدادات الآيتين قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ وتبدأ سورة الرحمن بذكر اسم الله الرحمن ﴿ **الرحمن** ﴾ ثم ترينا مظاهر رحمته .

ــ ويأتي بعد قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ في سورة البقرة آية ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ ويأتي في سورة الرحمن تفصيل لذلك ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ ﴿ **مرج البحرين يلتقيان** ﴾ ﴿ **وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام** ﴾ . وتختم السورة بالتبشير والإنذار كما جاء بعد آيتي المحور من سورة البقرة : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ فلقد ختمت سورة الرحمن بالكلام عن النار وعن الجنات ، وثمارها وأنهارها وحورها وغير ذلك ، ولكن هذه المعاني في سورة الرحمن مصاغة صياغة جديدة ، ومبني عليها ما يقتضيه البناء مع تفصيلات وزيادات وضمن سياق خاص للسورة . فالسورة لها سياقها الخاص بها ، وهي تفصّل في محورها ، وتأخذ محلها بين مجموعتها .

....

وآيتا المحور في البقرة بدأتا بنداء الناس ، ومن المعلوم أنه كما إن الإنس مكلّفون فالجن مكلّفون ، وجاءت سورة الرحمن لتوجّه الخطاب للإنس والجن .

....

وقد ذكر في سورة الذاريات وسورة النجم الإحسان ، وسنرى في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ ورأينا في سورة الطور أن الإشفاق خُلُق من أخلاق المتقين ، ونجد في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ وهذا مظهر من مظاهر تكامل سور المجموعة ، وسيتضح لنا محل سورة الرحمن

ومحورها بشكل أوسع عند عرض تفسيرها . تتألف السورة من ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : وهي مقدمة السورة وتمتد إلى نهاية الآية (١٣) .

المجموعة الثانية : وتمتد من الآية (١٤) إلى نهاية الآية (٣٦) .

المجموعة الثالثة : وتمتد من الآية (٣٧) إلى نهاية الآية (٧٨) أي : إلى نهاية السورة . فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى

وهي مقدمة السورة : وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٣) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

التفسير :

﴿ **الرحمن** ﴾ الله المتصف ببالغ الرحمة ﴿ **علّم القرآن** ﴾ الذي أنزله على محمد ﷺ فيسّر حفظه وفهمه على من رحمه ، وقدّمه في الذكر لأنه أعظم نعمه على هذا الإنسان . قال النسفي : (عدّد الله عز وجل آلاءه ، فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وصنوف نعمائه ، وهي نعمة الدين ، فقدّم من نعمة الدين ما هو سنام في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وأخّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علماً بوحيه وكتبه ، وقدّم ما خُلق الإنسان من أجله عليه ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الصحيح الفصيح المعرب عما في الضمير ، والرحمن مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ،

وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التمديد كما تقول زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ما تنكر من إحسانه) . ﴿ **خلق الإنسان** * **علّمه البيان** ﴾ قال الحسن البصري : يعني النطق ، ورجّح ابن كثير ذلك فقال : (لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها) . أقول : وفي كتابنا : (الرسول ﷺ) بينّا في مقدمته أن الإنسان مخلوق متفرد ، ومن جملة تفرده تفرده بالبيان ، فكل الحيوانات لا تخرج إلا أصواتاً مبهمة ، ومن يخرج حرفاً كالببغاء يخرجه محاكاة ، أما الإنسان فإنه يخرج أصواتاً مبهمة ، ويخرج ثمانية وعشرين حرفاً تتركب منها مليارات المليارات من الكلمات في كل لغات العالم ، والملاحظ ههنا أن خلق الإنسان ذكره الله عز وجل بين تعليمين : تعليمه القرآن ، وتعليمه البيان ، وفي ذلك إشارة إلى أن ميزة الإنسان الأساسية استعداده للعلم ، وتقديمه ذكر القرآن يفيد أن أعظم ما يتعلّمه الإنسان القرآن ، والتصريح بخلق الله الإنسان ردّ على من يزعم أن إنساننا الحالي لم يكن بخلق الله المباشر . وبعد ما مَرّ تبدأ السورة تعرض علينا تتمّة آلاء الله على الإنسان ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ أي : بحساب معلوم ، وتقدير سويّ ، وفي ذلك منافع للناس لا تحصى : منها أنه لولا ذلك لما أمكنت الحياة أصلاً ، ومنها أن يعلم الإنسان – بواسطة ذلك – عدد السنين والحساب . قال ابن كثير : (أي يجريان متعاقبين بحساب مقنّن لا يختلف ولا يضطرب) ﴿ **والنجم** ﴾ أي : النبات الذي لا ساق له ﴿ **والشجر** ﴾ النبات الذي له ساق ﴿ **يسجدان** ﴾ قال النسفي : (أي ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده ...) وفي ذكر أن الشمس والقمر بحسبان ، وذكر سجود النبات لله تعالى تناسب وتقارب ، قال النسفي : (وبيان التناسب أن الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان ، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل . وإن السماء والأرض لا تزالان قرينتين ، وإن جري الشمس والقمر بحسبان ، من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النّجم والشجر) . أقول : وفي المن على البشر بسجود النبات لله وانقياده له تبيان أن لهذا الانقياد علاقته بانتظام حياة الإنسان ؛ إذ لولا انتظام حياة النبات على سنن واحدة لما أمكنت حياة اقتصادية منتظمة في الحياة البشرية ولا غيرها ﴿ **والسماء رفعها** ﴾ أي : جعلها مرفوعة عن الأرض ، وفي ذلك إبعاد للخطر عن الأرض ﴿ **ووضع الميزان** ﴾ قال ابن كثير : يعني العدل ، وقال

النسفي : (أي كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ... وقال : أي خلقه موضوعاً على الأرض حيث علّق به أحكام عباده من التسوية والتعديل في أخذهم وعطائهم) أقول : وفي ذكر وضع الميزان بعد ذكر رفع السماء إشارة إلى أن من جملة الموازين ، موازين اكتشاف أبعاد السماء ، والموازين التي يزن بها الإنسان أبعاد الزمان والمكان ، وفي ذكر الميزان في هذا السياق إشارة إلى أن الميزان من نعم الله الجليلة التي تعدل المنن الكبرى الأخرى على البشرية ، وفي هذا السياق يأتي الأمر التكليفي الوحيد في هذه السورة ﴿ **ألا تطغوا في الميزان** ﴾ أي : ألا تتجاوزوا العدل في الميزان . قال ابن كثير : أي خلق السموات والأرض بالعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط** ﴾ أي : وأقيموا وزنكم بالعدل ﴿ **ولا تخسروا الميزان** ﴾ أي : ولا تنقصوه ، قال ابن كثير : أي لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط . قال النسفي : (أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرّر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله والحثّ عليه) ﴿ **والأرض وضعها للأنام** ﴾ أي : للخلق أي جعلها بحيث تلائمهم وتناسبهم قال ابن كثير : (أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهّدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ؛ لتستقر لما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها) وقد فسّر الوضع للأنام بالآيتين التاليتين : ﴿ **فيها فاكهة** ﴾ أي : ما يتفكه به من فواكه مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ **والنخل ذات الأكمام** ﴾ الأكمام هي أوعية الثمر ، أو كل ما يكُمّ أي يغطّى من ليفه وسعفه وغير ذلك ، قال النسفي : (وكله (أي : النخل) منتفع به ، كما ينتفع بالمكموم من ثمره ، وجُمّاره ، وجذوعه) قال ابن كثير : (أفرده بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً) وكما جعل في الأرض الفاكهة والنخل ، جعل فيها الحب والريحان للطعام والجمال ﴿ **والحَبّ ذو العصف** ﴾ العصف : هو ورق الزرع أو التبن ﴿ **والريحان** ﴾ الذي يشم أي فجعل لكم ما تتفكهون به وما تقتاتون وما تتلذذون بمنظره ورائحته ، وذلك كله من مظاهر جعل الأرض موضوعة للأنام ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ أي : نعم ربكما يا معشر الجن والإنس ﴿ **تكذّبان** ﴾ فلا تعبدان ولا تتقيان ، قال ابن كثير : (أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها) .

أقول : وإذ كان الأمر كذلك فعليكم أن تشكروا خالقها وموجدها ، وذلك بعبادته وتقواه .

كلمة في السياق :

١ – قلنا إن محور سورة الرحمن من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ فلنر صلة ما مَرّ بنا من سورة الرحمن بهاتين الآيتين :

– جاء في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ **خلق الإنسان * علّمه البيان** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ .

– وجاء في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ **والأرض وضعها للأنام** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى في المحور ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾ .

– وجاء في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ ﴿ **والسماء رفعها** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى في المحور ﴿ **والسماء بناءً** ﴾ .

– وجاء في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ **فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحبّ ذو العصف والريحان** ﴾ ولذلك صلته بقوله تعالى في المحور ﴿ **وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ .

٢ – دعا المحور إلى عبادة الله ، وإلى توحيده ، وإلى تقواه معلّلاً لذلك بالخلق والرزق والنّعم ، فخلق الإنسان ، والعناية به ، والرعاية له ، ورزقه ، كل ذلك يقتضي شكراً بالعبادة والتقوى والتوحيد ، وسورة الرحمن تذكّر الإنسان والجانّ بالنعم التي ينبغي أن تستخرج منهما الشكر ، وتعاتبهما على التكذيب ، ومن ثَمَّ فهمنا أن قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فيه دعوة ضمنية للعبادة والتقوى والتوحيد التي هي أركان الشكر لله عز وجل .

....

المجموعة الثانية

وتمتدّ من الآية (١٤) حتى نهاية الآية (٣٦) وهذه هي :

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

التفسير :

﴿ **خلق الإنسان من صلصال** ﴾ أي : من طين يابس له صلصلة ﴿ **كالفخّار** ﴾

أي : كالطين المطبوخ بالنار ، وهو الخزف ، قال النسفي : ولا اختلاف في هذا وفي قوله : ﴿ **من حمأ مسنون** ﴾ ، ﴿ **من طين لازب** ﴾ ، ﴿ **من تراب** ﴾ لاتفاقها في المعنى ؛ لأنه يفيد أنه خلقه من تراب ، ثم جعله طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً . أقول : وفي ذكر خلقه من صلصال نفي صريح لزعم من زعم أن جنس الإنسان الحالي قد تطوّر عن خلق آخر ﴿ **وخلق الجانّ** ﴾ أي : أبا الجانّ ﴿ **من مارج من نار** ﴾ المارج من النار هو طرف لهبها . قال النسفي : هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه ، وقيل : المختلط بسواد النار ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ يا معشر الجن والإنس ﴿ **تكذّبان** ﴾ فلا تشكران فتعبدان وتتقيان وهو الخالق لكما .

كلمة في السياق :

بعد أن أجمل في أول السورة خلق الإنسان ، ذكر هنا بالتفصيل من أي شيء خلق الإنسان والجانّ ، مذكراً بنعمته في ذلك ، منكراً على من يكذّب نعمه ولا يعمل بما تقتضيه ، وصلة ذلك بالمحور واضحة ، فالمحور يقول : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ وههنا ذكر بَدْءَ الخلق ، مع الإنكار على من يجحد النّعم ؛ فلا يعمل بما تقتضيه من شكر ، والشكر عبادة وتقوىٰ وتوحيد .

....

﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ في كل لحظة يوجد شروق وغروب ، فحين تغرب الشمس على إنسان تشرق على آخر ، ففي لحظة واحدة يكون شروق وغروب ، ومن ثَمَّ تحدّث الله عز وجل عن أنه رب المشارق والمغارب ، وتحدث عن أنه رب المشرق والمغرب ، وههنا ذكر أنه رب المشرقين ورب المغربين ، لأن الإنسان يستطيع أن يدرك تلقائياً مشرقين ومغربين ، فحيث ما تشرق الشمس عليه يكون غروب على غيره ، وحيث ما تغرب الشمس عنه يكون شروق على غيره وغروب عليه ، والتذكير بأنه رب المشرقين ورب المغربين تذكير بنعمة الليل والنهار اللذين هما من أجلّ النّعم . قال ابن كثير : ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا الله وتتقياه ﴿ **مرج البحرين** ﴾ أي : أرسلهما قال ابن كثير : والمراد بقوله البحرين : الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس . أقول : وفي قوله تعالى : ﴿ **مرج** ﴾ يوجد معنى الجعل مع الإرسال ، ومن ثَمَّ قال : ﴿ **يلتقيان** ﴾ أي : يلتقي البحر المالح

بالبحر العذب ، وكأن مجموع المياه العذبة في العالم تشكل بحراً ، وهذا البحر مرجعه في النهاية إلى البحر الملح ﴿ **بينهما** ﴾ أي : بين البحر العذب والملح ﴿ **برزخ** ﴾ أي : حاجز ﴿ **لا يبغيان** ﴾ أي لا يتجاوزان حديهما ، قال ابن كثير : (أي وجعل بينهما برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه ، أقول : ولعل الحاجز بينهما هو عالم الأسباب الذي يجعل ماء البحر يتبخّر وحده بلا ملح ، وحيلولة اليابسة دون امتداد ماء البحر ، ووجود قوانين المدّ والجزر التي لها صلة بمكان القمر من مجموع الأرض ، فالبحران يلتقيان في حال ، وبينهما برزخ في حال ، وفي ذلك كله من المصالح لخلق الله الكثير ، فلو كان البحر العذب لا يلتقي مع البحر المالح لجفّ المالح على المدى البعيد ، ولأنتن البحر العذب وغمر اليابسة في العالم ، ولتعذرت الحياة على الأرض ، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا وتتقيا ، ثمّ حدّثنا تعالى عن نعمة أخرى من نعمه في البحرين فقال : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ أي : يخرج من مجموعهما اللؤلؤ والمرجان ، واللؤلؤ : كبار الدر ، والمرجان : إما صغار الدر ، وإما نوع آخر من الجواهر أحمر اللون . قال النسفي : (وإنّما قال منهما وهما يخرجان من الملح لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر، ولكن من بعضه ، وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله) . وفي ذكر اللؤلؤ والمرجان اللذين لهما علاقة بقضية الزينة والجمال لفت نظر إلى دقائق من النعم الجمالية ، أودعها الله في هذا الكون ، ليرينا تكامل النعم علينا ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فلا تشكران فتعبدان وتتقيان ، ثم ذكر نعمة أخرى على الإنسان مرتبطة بالبحار فقال : ﴿ **وله الجوار** ﴾ يعني : السفن التي تجري ﴿ **المنشآت في البحر** ﴾ أي : المصنوعات في البحر ﴿ **كالأعلام** ﴾ أي : كالجبال الطويلة في كبرها ، وفي هذه الآية أكثر من معجزة قرآنية سنراها في الفوائد ، والآية تذكّر بتسخير الله الأشياء للإنسان ، حتى استطاع أن يصنع منها مثل هذه السفن العظيمة التي تخدم مصالحه الكبيرة في هذا العالم ، من نقل وانتقال وجلب ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا وتتقيا ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ أي : كل من على الأرض من الأحياء ميت ، وليس المراد بالفناء الانعدام بالكلية كما فهمه بعض الجهلة ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال** ﴾ أي : ذو العظمة والسلطان ﴿ **والإكرام** ﴾ أي : وذو الإكرام وذو الإحسان . قال

ابن كثير : (نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة أنه ذو الجلال والإكرام ، أي هو أهل أن يجلّ فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف) وقد فسّر ابن عباس الجلال والإكرام بالعظمة والكبرياء ، وفي الفنــاء نعم كثيرة . قال النسفي : (النعمة في الفناء باعتبار أن المؤمنين به يصلون إلى النّعيم والسرور) . أقول : ولولا الموت لتعذّرت الحياة ، فلو أنّ ذبابتين اثنتين تتوالدان بلا موت خلال خمس سنوات لشكلتا طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية سمكها خمس سنتيمتر . قال ابن كثير : (ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا وتتقيا) .

....

في ذكر خلق الإنسان والجانّ في هذه المجموعة صلة بالمحور في قوله تعالى : ﴿ **الذي خلقكم والذين من قبلكم** ﴾ وفي ذكر المشارق والمغارب ، والبحرين : العذب والمالح ، واللؤلؤ والمرجان ، والسفن والموت ، صلة بالمحور في قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ... ﴾ فكل هذه الأشياء لها صلة بكون الأرض فراشاً وطيئاً للإنسان ، فالصلة واضحة بين ما مَرّ معنا من المجموعة ، وبين ما ذكرنا من محور السورة ثم قال تعالى :

....

﴿ **يسأله من في السموٰات والأرض** ﴾ قال النسفي : (أي كلٌّ من أهل السموٰات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السموٰات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم) ﴿ **كلّ يوم هو في شأن** ﴾ أي : كل وقت وحين يحدث أموراً ، أو يجدّد أحوالاً . قال ابن كثير : (وهذا إخبار عن غناه عمّا سواه ، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه كل يوم هو في شأن ...) . أقول : فالآية تدل على افتقار خلقه إليه ، وعلى إعطائه لخلقه ، وإمداده لهم ، وذلك من إنعامه ، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا وتتقيا .

....

في آخر آيتي المحور ورد قوله تعالى بعد أن عدد نعمه : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ **يسأله من في السمٰوات والأرض** ... ﴾ تصريح بأن الخلق كلهم عند الاحتياج إليه موحدون ، فصلة ذلك بمحور السورة واضحة ، ومن ثَمَّ فإنكاره جل جلاله على من يكذّب من الإنس والجن بعد ذكره سؤال الخلق كلهم له إنكار على شرك من أشرك ، وعلى من لم يعبده ويتقه ، وبعد أن عرض الله عز وجل آلاءه التي تقتضي توحيده وعبادته وشكره ، وأنكر وعجّب ممّن يكذّب بها فلا يعمل بما تقتضيه تبدأ السورة بالإنذار ، ثم تثنّي بالتبشير ، تبدأ بالترهيب أولاً ، ثم بالترغيب ، لتحمل الإنسان على التوحيد والعبادة والتقوى ، أي : على الشكر . ويبدأ الترهيب بالإنذار فتنتهي به المجموعة الثانية ، ثم تأتي المجموعة الثالثة فترهّب وترغّب في أمر الآخرة فلنر تتمة المجموعة الثانية .

....

﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ أي : أيها الإنس والجنّ . قال النسفي : (مستعار من قول الرجل لمن يتهدّده سأفرغ لك ، يريد سأتجرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه ، والمراد : التوفّر على النكاية فيه ، والانتقام منه) . قال ابن كثير : قال الضحاك : هذا وعيد . ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فلا تشكران ولا تعبدان ولا تتقيان ، كأنه لا حساب ولا عقاب ، ولا رب محاسب ﴿ **يا معشر الجنِ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا** ﴾ أي : تخرجوا ﴿ **من أقطار السمٰوات والأرض فانفذوا** ﴾ أي : فاخرجوا ﴿ **لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ أي : لا تقدرون على النفوذ إلا بسلطان منا نعطيه لكم ﴿ **يُرسَل عليكما شواظ** ﴾ أي : لهب ﴿ **من نار ونحاس** ﴾ أي : ودخان ، وعن مجاهد أنّه النحاس المعروف كمعدن ﴿ **فلا تنتصران** ﴾ إذا لم نعطكم سلطان النفوذ ، ومن ثَمَّ نلاحظ أنّ رواد الفضاء في عصرنا يلاحظ في تركيب بذلاتهم وملابسهم الخارجية ، وفي تركيب الغلاف الخارجي للمركبات الفضائية أن تكون قادرة على تحمّل الشهب ﴿ **فبأيّ آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران مَنْ علمكم قضيّة النفوذ من أقطار السمٰوات والأرض ، ولنا عودة إلى هذه المعاني في الفوائد ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية في الآخرة ، وليس الأمر كذلك ، فالسياق لا يدّل عليه ، والآية كما أنها تدل على النفوذ المقيد فإنها تدل على العجز عن النفوذ المطلق ، وفي ذلك تذكير للإنسان بعبوديته ، ومحدوديته التي تقتضي منه الخضوع بالعبادة ، والتقوى لله رب العالمين ، ومن ثَمَّ كان المعنيان الأخيران فيهما طابع التهديد والوعيد ، والتذكير

الذي يهيّج على العبادة والتقوى ، ومن هذا التذكير الذي فيه تهييج ينتقل السياق إلى الحديث عن ما يكون يوم القيامة ، وعن مآل الكافرين والمتقين ، وعما أعد الله لهؤلاء وهؤلاء ، وفي ذلك ترغيب وترهيب يوصلان إلى العبادة والتقوى ويهيجان عليهما فلنر المجموعة الثالثة .

المجموعة الثالثة

وتمتدّ من الآية (٣٧) إلى نهاية الآية (٧٨) أي : إلى نهاية السورة وهذه هي :

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ

إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

التفسير :

﴿ **فإذا انشقت السماء** ﴾ أي : يوم القيامة ، أي : انفك بعضها عن بعض لقيام الساعة ﴿ **فكانت وردة** ﴾ أي : فصارت كلون الورد الأحمر ﴿ **كالدّهان** ﴾ الذي يدهن فيه . قال ابن كثير : أي تذوب كما يذوب الدرديّ والفضة في السّبك ، وتتلّون كما تتلّون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدّة الأمر وهول يوم القيامة العظيم ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران في الدنيا بأن تعبدا وتتقيا في الدنيا قبل مجيء ذلك اليوم .

ملاحظة في السياق :

نلاحظ أن قوله تعالى : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ جاء في أوائل السورة بعد ذكر نعم الله ، وجاء في أواخر المجموعة الثانية بعد ذكر ما فيه وعيد وتذكير بالعبودية ، ويأتي ههنا في معرض الكلام عن يوم القيامة ، وما أعد الله فيه للمجرمين ، ثم تأتي بعد ذلك في سياق نعم الله في الآخرة على المتقين ؛ مما يدل على أن هذه الآية تتكرر

لتستخرج الشكر الذي هو العبادة والتقوى من خلال التذكير بالنعمة ، ومن خلال الترهيب ، ومن خلال الترغيب ، ومن خلال الإنذار والتبشير ، ففي كل مرة تأتي لتستخرج الشكر من خلال معنى جديد ، ومن خلال إتيان المكلّف من جانب من الجوانب التي تستخرج شكره .

....

﴿ **فيومئذٍ** ﴾ أي : فيوم تنشق السماء ﴿ **لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جآن** ﴾ أي : ولا جنّ ، قال النسفي : (فوضع الجانّ الذي هو أبو الجنّ موضع الجن ، كما يقال هاشم ويراد ولده ، والتقدير لا يسأل إنس ولا جان عن ذنبه ، والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ **فوربك لنسْألنّهم أجمعين** ﴾ وقوله : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾ أن ذلك يوم طويل ، وفيه مواطن ، فيسألون في موطن ، ولا يُسألون في آخر ، وقال قتادة : قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، وقيل لا يُسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ، ولكن يُسأل للتوبيخ) . ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا الله في هذه الدنيا وتتقياه قبل أن يأتي ذلك اليوم ﴿ **يُعرَف المجرمون** ﴾ أي : الكافرون ﴿ **بسيماهم** ﴾ أي : بسواد وجوههم وزرقة عيونهم قال ابن كثير : (أي بعلامات تظهر عليهم) ﴿ **فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ قال النسفي : أي يؤخذ بالنواصي ، وتارة بالأقدام . وقال ابن كثير : أي تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران في الدنيا بأن تعبدا وتتقيا قبل أن يصيبكم مثل ذلك ﴿ **هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون** ﴾ أي : في الدنيا ، قال ابن كثير : أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، هاهي ذي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ قال النسفي : (أي ماء حار قد انتهى حره أي يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم) وقال ابن كثير في تفسير (الآن) : أي حار قد بلغ الغاية في الحرارة لا يستطاع من شدة ذلك . وقال في الآية : أي تارة يعذّبون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء . أقول : في سجون الدنيا يكون لأهلها ساعات يسمّونها ساعات التنفس ، يخرج بها السجين من زنزانته أو مهجعه إلى ساحة أوسع ، أما في النار فالأمر دائر بين النار والماء الحار فليس

هناك لحظة نعيم ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران في الدنيا بأن تصدقا وتؤمنا وتتقيا ، وبعد أن بيّن الله عز وجل ما للمكذبين المجرمين الكافرين - أي غير المتقين - تبدأ السورة الآن تحدثنا عما أعده لله للمتقين بقسميهم : السابقين ، وأهل اليمين .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن سورة الواقعة التي ستأتي بعد سورة الرحمن تحدّثنا عن السابقين المقربين ، وعن أهل اليمين ، وعن أهل الشمال ، وقد رأينا سورة الرحمن حدثتنا عن المجرمين أي : أهل الشمال ، ثمّ يأتي قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ .

ثم بعد ذلك بآيات يأتي قوله تعالى : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ .

روى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وأخرج هذا الحديث بقية الجماعة إلا أبا داود ، والسؤال الآن : هل هذه الجنات الأربع لنوع واحد فقط ، أو جنتان لنوع ، وجنتان لنوع آخر ؟ قال ابن كثير : وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ وفي قوله : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين . فالآيات تتحدث عما أعد الله للسابقين ، ثم عما أعده لأهل اليمين ، بعد أن تحدثت عن جزاء المجرمين ، وتأتي سورة الواقعة بعد ذلك لتكمّل ، فتبين ما أعده الله للسابقين ، ثم لأهل اليمين ، ثم للمجرمين ، ثم تقيم الحجة على مجيء يوم الدين لتأمر بجانب من جوانب العبادة وهو تسبيح اسم الله العظيم كما سنرى . والمهمّ هنا أن نعرف أن الجنتين المذكورتين أولاً في هذا السياق للسابقين ، وأن الجنتين المذكورتين ثانياً هما لأهل اليمين . اللهم اجعلنا من السابقين المقربين .

....

﴿ **ولمن خاف مقام ربّه** ﴾ قال النسفي : فترك المعاصي ، أو فأدّى الفرائض ﴿ **جنتان** ﴾ قال النسفي : (جنة الإنس ، وجنة الجن ، لأن الخطاب للثقلين ، وكأنه قيل : لكل خائفَيْن منكما جنتان جنة للخائف الإنسي وجنّة للخائف الجنّي) . هذا

اتجاه ، واتجاه آخر يقول : للخائف الإنسي جنتان وللخائف الجنّي جنتان . قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أول دليل على أنّ الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتنّ الله على الثقلين بهذا الجزاء ، ومقام الله هو موقف العبد الذي يقفه بين يدي الله للحساب يوم القيامة ، ومما قيل في تفسير الجنتين في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ ما ذكره الألوسي : (فقيل : إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، وإليه ذهب الجبائي ، وقيل : بستانان : بستان داخل قصره وبستان خارجه ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته ، وتظهر ثمار كرامته ، وأين هذا ممن يطوف بين النار ، وبين حميم آن ؟؟) .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ... ﴾ والتقوى هي الخوف من مقام الله عز وجل ، فكأن الآية التي مرت معنا تقول : (وللمتقين جنتان) ومن ثَمَّ نعلم صلة ما سيأتي من السورة بمحورها ، فالسورة من الآن فصاعداً تتحدث عما أعده الله للمتقين ، وتقسّم المتقين إلى درجتين عليا ودنيا .

....

﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا وتتقيا لتنالا جنتي الله ونعيمه الأخروي ، كما نلتم نعيمه الدنيوي ، وتكرار ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ في هذا السياق تذكير بنعم الله الأخروية ، وكأن السورة بعد أن عرضت نعم الله التي تحسّ بها البداهة في الدنيا جعلت نعم الله الأخروية في حكم البديهية ، ومن ثَمَّ تعدّدها وتنكر على الثقلين أن يكذبا بها . ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ أي : هاتان الجنتان ذواتا أغصان، قال النسفي : وخصّ الأفنان لأنها هي التي تورق وتثمر ، فمنها تمتدّ الظلال ، ومنها تجتنى الثمار . قال ابن كثير في تفسير الأفنان : أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ الدنيوية أو الأخروية ﴿ **تكذبان** ﴾ فلا تشكران بأن تعبدا الله وتتقياه في الدنيا لتنالا نعيمه الأخروي ﴿ **فيهما** ﴾ أي : في الجنتين ﴿ **عينان تجريان** ﴾ قال النسفي : حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل ، وعن الحسن تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل ، قال ابن كثير : أي تسرحان

لسقي تلك الأشجار والأغصان ، فتثمر من جميع الألوان ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ الدنيوية والأخروية ﴿ **تكذبان** ﴾ فلا تعملان ولا تعبدان ولا تتقيان ﴿ **فيهما** ﴾ أي : في الجنتين ﴿ **من كل فاكهة زوجان** ﴾ قال النسفي : (أي صنفان : صنف معروف ، وصنف غريب) قال ابن كثير : (أي من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء . يعني : أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً في التفاضل ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ الدنيوية والأخروية ﴿ **تكذّبان** ﴾ فلا تعبدان ولا تعملان ﴿ **متكئين** ﴾ يعني : أهل هذه الجنات ، قال ابن كثير : والمراد بالاتكاء ههنا : الاضطجاع ، ويقال الجلوس على صفة التربيع ﴿ **على فرش بطائنها** ﴾ وهي ما تحت الظهارة ﴿ **من إستبرق** ﴾ أي : من ديباج ثخين ، قال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزيّن بالذهب ، فنبّه على شرف الظهارة بشرف البطانة فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، قال ابن مسعود : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ﴿ **وجنى الجنتين دان** ﴾ أي : وثمرها قريب يناله القائم والقاعد والمتّكىء . قال ابن كثير : أي ثمرها قريب إليهم متى شاؤوا ، تناولوه على أي صفة كانوا ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ الدنيوية والآخروية ﴿ **تكذبان** ﴾ فلا تعملان قياماً بحق الله في ذلك ، بأن تعبدا وتتقيا ، قال ابن كثير : ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ **فيهن** ﴾ أي : في الفرش ﴿ **قاصرات الطرف** ﴾ قال النسفي : (أي نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم) قال ابن كثير : (أي غضيضات عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن ... وقد ورد أن الواحدة تقول لبعلها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيئاً أحب إليّ منك ، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك) ﴿ **لم يطمثهن** ﴾ الطمث : الجماع بالتدمية ﴿ **إنس قبلهم ولا جان** ﴾ قال النسفي : (وهذا دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس) وقال ابن كثير : (أي بل هن أبكار عرب أتراب ، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة) ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تعملان لتنالا مثل هذا العطاء ، ثم وصف الله عز وجل نساء أهل الجنة للخُطّاب فقال : ﴿ **كأنهن الياقوت** ﴾ صفاءً ﴿ **والمرجان** ﴾ بياضاً . قال ابن كثير : (قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم : في صفاء الياقوت وبياض المرجان فجعلوا المرجان ههنا اللؤلؤ) وفي البحر عن قتادة : (في صفاء الياقوت ، وحمرة المرجان ،

فحمل المرجان على ما هو المعروف) ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تعملان لمثل هذا العطاء فتقدمان المهور لذلك من عبادة وتقوى ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ قال إبراهيم الخوّاص في تفسيرها : هل جزاء الإسلام إلا دار السلام . وقال ابن كثير : أي ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تحسنان العمل ، فأحسِنا لتنالا الإحسان .

كلمة في السياق :

في الحديث الصحيح الذي فيه سؤال جبريل لرسول الله ﷺ : « قال فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فالإحسان مقام في العبادة ، وقد رأينا في سورتي الذاريات والنجم صلة الإحسان بالتقوى ، فللإحسان صلة بالعبادة والتقوى ، فإذا قال الله عز وجل : ﴿ **هل جزاء الإحسان** ﴾ الذي هو المقام الأعلى في العبادة والتقوى ﴿ **إلا الإحسان** ﴾ فلذلك صلته بمحور السورة ﴿ **اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ... ﴾ إنّكم إن فعلتم ذلك أحسنتم ، وإن أحسنتم فإن مثل هذا الجزاء لكم ، وبعد أن حدّثنا الله عز وجل عما أعدّه للسابقين المحسنين المقرّبين يحدِّثنا الآن عما أعدّه لمن هم دونهم في الإحسان والتقوى العبادة ، أي : أهل اليمين .

....

﴿ **ومن دونهما** ﴾ قال النسفي : أي ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿ **جنتان** ﴾ قال النسفي : أي لمن دونهم من أصحاب اليمين . ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تعملان ولا تشكران ، بأن تعبدا وتتقيا ﴿ **مدهامَّتان** ﴾ أي : سوداوان من شدة الخضرة ، وقال محمد بن كعب : أي ممتلئتان من الخضرة . وقال قتادة : خضراوان من الري ناعمتان . قال ابن كثير : ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض ﴿ **فبأي آلاء ربكما** ﴾ الدنيوية والأخروية ﴿ **تكذبان** ﴾ فلا تعملان لدار الجزاء والجمال والإحسان ﴿ **فيهما عينان نضاختان** ﴾ أي : فوّارتان بالماء لا تنقطعان ، قال الضحاك : أي ممتلئتان ولا تنقطعان ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فلا تعملان لمثل هذا ﴿ **فيهما فاكهة** ﴾ أي : ألوان الفاكهة ﴿ **ونخل ورمان** ﴾ قال ابن كثير : وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذّبان** ﴾ فلا تعبدان وتتقيان ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ أي خيِّرات جميلات

قال النسفي : والمعنى : فاضلات الأخلاق حسان الخَلْق ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** * **حور مقصورات في الخيام** ﴾ أي : مخدّرات يقال ، امرأة قصيرة ومقصورة أي مخدّرة ملازمة لبيتها ، لا تطوف في الطرق ، والنساء يمدحن بملازمتهن البيوت لدلالتها على صيانتهن ، والخيام من اللؤلؤ المجوّف كما صح في الأحاديث التي سنراها في الفوائد . ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** * **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ** * **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قد تقدّم مثله سواء ﴿ **متكئين على رفرف** ﴾ قال النسفي : (الرفرف : هو كل ثوب عريض وقيل الوسائد) ﴿ **خضر** ﴾ لما للأخضر من ميزات في إراحة العيون والأنفس ﴿ **وعبقري** ﴾ أي : ديباج أو طنافس ﴿ **حسان** ﴾ أي : جياد ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ فتنصرفان عن طلب ذلك وبذل مهوره من عبادة وتقوى ﴿ **تبارك اسم ربك ذي الجلال** ﴾ أي : ذي العظمة ﴿ **والإكرام** ﴾ أي : لأوليائه بالإنعام ، قال ابن كثير : (أي هو أهل أن يجّل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ...) .

أقول : بدأت السورة بذكر اسم الله الرحمن وانتهت بهذه الآية ؛ وذلك يشير إلى أن التعريف بالله الذي يستحق العبادة والتقوى ، هو المصبّ الرئيسي للسورة ، وبمعرفتنا لذلك نكون قد أدركنا معنى رئيسياً من المعاني التي تربط بين السورة ومحورها ، إذ لا عبادة ولا تقوى ولا توحيد إلا بعد معرفة الله عزّ وجلّ حقّ المعرفة ، ومن ثَمَّ أمرنا الله في المحور بعبادته كطريق يوصل إلى تقواه ، وعرّفنا على ذاته .

الفوائد :

١ - بدأ الله عز وجل سورة الرحمن- وهي السورة التي تعدد آلاءه عز وجل - بذكر اسمه الرحمن وفي ذلك إشارة إلى أن كلّ ما ذكر فيها هو أثر عن رحمته ، سواء في ذلك إنعامه على عباده في الدنيا ، أو معاملته الكافرين بالعدل في الآخرة ، أو إعطاؤه المؤمنين الجنّات في الآخرة ، كل ذلك من آثار رحمته عز وجل ، ولو سأل سائل : وهل تعذيب الكفار رحمة ؟ نقول : نعم ، فمن عرف تعذيب الكافرين لأهل الإيمان في الدنيا يدرك أن من رحمة الله بعباده المؤمنين أن يعامل الكافرين بعدله يوم القيامة ، وهذه السورة وما ورد فيها تعتبر ردّاً كاملاً على ما يزعمه بعض المستشرقين من أنّ الله عز وجل في الإسلام جبار منتقم قهار ذو صفات قهرية فقط ، إن مثل هذا الكلام ظاهر المغالطة ، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على جهل صاحبه ، فأدنى قراءة لأسماء الله

الحسنى - كما جاءت في القرآن والسنة - تدلّ على أن الله - عز وجل - في الإسلام متصف بصفات الجلال والجمال وهو الحق ، ولكنّهم يغالطون مستغلين جهل الناس بالإسلام ، فيزعمون أن الله في الإسلام ليس له إلا صفات القهر ، بينما الله في النصرانية - على زعمهم - متصف بصفات الرحمة . إن مثل هذا الكلام يردّه من عرف فاتحة القرآن فقط ، ثم إن الله عز وجل في القرآن متصف ومسمّى بالأسماء التي تدلّنا عليها ظواهر الكون نفسها ــ كما أثبتنا ذلك في كتابنا (الله جل جلاله) ــ فليس في العالم كله تصور أصفى وأكمل وأعلى من معرفة المسلم لله عز وجل ، ثم إن الكتب السماوية كلها قبل تحريفها وتبديلها إنما تعرّف على الله بما عرّف عليه القرآن .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان** ﴾ قال صاحب الظلال : (فلننظر كيف يكون البيان ؟ : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ .

إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينقضي منها العجب ... اللسان والشفتان والفك والأسنان . والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب والرئتان ... إنها كلها تشترك في عملية التصويت الآلية وهي حلقة في سلسلة البيان . وهي على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية المعقدة ، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذي لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندري شيئاً عن ماهيته وحقيقته . بل لا نكاد ندري شيئاً عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟ إنها عملية معقّدة كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة . مجهولة في بعض المراحل خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعوراً بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معيّن . هذا الشعور ينتقل - لا ندري كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية ... المخ ... ويقال : إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان . ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام ! فيصوت الهواء في الحنجرة صوتاً تشكله حسبما يريد العقل ... عالياً أو خافتاً . سريعاً أو بطيئاً . خشناً أو ناعماً . ضخماً أو رفيعاً ... إلى آخر أشكال الصوت وصفاته .

ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة . وفي اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معيّن ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوّت الحرف بجرس معيّن .

وذلك كله لفظ واحد ... ووراءه العبارة . والموضوع . والفكرة . والمشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ في هذا الكيان الإنساني العجيب الغريب . بصنعة الرحمان ،. وفضل الرحمان) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ قال صاحب الظلال : (ونتناول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء . إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بدداً !

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطىء مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين !

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

وصدق الله العظيم ... ﴿ **والشمس والقمر بحسبان** ﴾) .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان** ﴾ قال صاحب الظلال : (والإشارة إلى السماء ... توجه النظر إلى أعلى إلى هذا الفضاء الهائل السامق

الذى لا تبدو له حدود معروفة ؛ والذي تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة ، فلا يلتقي منهما اثنان ، ولا تصطدم مجموعة منها بمجموعة . ويبلغ عدد المجموعة أحياناً ألف مليون نجم ، كمجموعة المجرة التي ينتسب إليها عالمنا الشمسي ، وفيها ما هو أصغر من شمسنا وما هو أكبر آلاف المرات . شمسنا التي يبلغ قطرها مليوناً وثلث مليون كيلو متر !!! وكل هذه النجوم ، وكل هذه المجموعات تجري في الكون بسرعات مخيفة ، ولكنها في هذا الفضاء الهائل ذرات سابحة متباعدة ، لا تلتقي ، ولا تتصادم !) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ورواه مسلم بسنده) .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ قال صاحب الظلال : (واللؤلؤ - في أصله - حيوان . ولعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ! » .

« والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب ، . وفتحة فمه التي في أعلى جسمه ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذائه . فإذا لمست فريسة ما هذه الزوائد - وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء - أصيبت بالشلل في الحال ، والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد وتنحني نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مرىء الإنسان » .

« ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ،

حيث يتكوّن الجنين الذي يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي » .

« ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي التزرر . وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة . تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية في الدقة في نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمتراً . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها في البحار صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية ، أو غبراء باهتة » .

« والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقي بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة » .

« ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجاني الكبير ، الموجود بالشمال الشرقي لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة ألفاً وثلاثمائة وخمسين ميلاً وعرضها خمسين ميلاً . وهي مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم ») .

٧ - في قوله تعالى : ﴿ **وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام** ﴾ معجزتان قرآنيتان : الأولى : تظهر من خلال وصف السفن بالجبال ، ولا يظهر التشبيه على كماله وتمامه إلا من خلال رؤية السفن في العصور المتأخرة ، وإلا فإن السفن القديمة - وخاصة المعروفة عند العرب - لم تكن مثل هذا الحجم الذي تشبه به الجبال ، والمعجزة الثانية : أنه في عصرنا عرف أن للجبال جذراً وتدياً يعدل ضعفي ما يظهر من الجبال فوق سطح الأرض ، ومن المعروف أن غاطس السفن يعدل ضعفي ما يظهر على سطح البحر من مجموع جسمها ، فتشبيه السفن بالأعلام ما كان ليكون بمثل هذه الدقة لولا أن هذا القرآن من عند الله .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الدعاء المأثور : يا حي يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ، برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك) . وقال النسفي : (وفي الحديث : « ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام » وروي أنه عليه السلام مَرّ برجل وهو يصلي

ويقول : يا ذا الجلال والإكرام فقال : « قد استجيب لك ») .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ قال النسفي : (أي كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدّد أحوالاً ، كما روي أنه عليه السلام تلاها فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » وعن ابن عيينة : الدهر عند الله يومان : أحدهما اليوم الذي هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع ، والآخر يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب . وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً . وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها فقال غلام له أسود : يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي ، فأخبره فقال : أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال : أيها الملك شأن الله أنه يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويشفي سقيماً ، ويسقم سليماً ، ويبتلي معافى ، ويعافي مبتلى ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ، ويغني فقيراً . فقال الأمير : أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة . فقال : يا مولاي هذا من شأن الله . وقيل : سوق المقادير إلى المواقيت ، وقيل : إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالى : ﴿ **فأصبح من النادمين** ﴾ وقد صح أن الندم توبة ، وقوله تعالى : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ فما بال الأضعاف . فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة ، وقيل أن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وكذا قيل ، ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وأما قوله : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها ، فقام عبد الله وقبّل رأسه ...) . وقال ابن كثير : (قال الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ قال : من شأنه أن يجيب داعياً ، أو يعطي سائلاً ، أو يفك عانياً ، أو يشفي سقيماً . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : كل يوم هو يجيب داعياً ، ويكشف كرباً ، ويجيب مضطراً ، ويغفر ذنباً ، وقال قتادة : لا يستغني عنه أهل السموٰات والأرض ، يحيي حياً ، ويميت ميتاً ، ويربي صغيراً ، ويفك أسيراً ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ، ومنتهى شكواهم . وروى ابن أبي حاتم عن سويد بن حبلة هو الفزاري قال : إن ربكم كل يوم

هو في شأن فيعتق رقاباً ، ويعطي رغاباً ، ويقحم عقاباً .

وروى ابن جرير ... عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ فقلنا : يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً . ويرفع قوماً ويضع آخرين » . وروى ابن أبي حاتم عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ قال : من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » . وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة . (قلت) : وقد روي موقوفاً كما علقه البخاري بصيغة الجزم فجعله من كلام أبي الدرداء فالله أعلم . وروى البزار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ قال : « يغفر ذنباً ، ويكشف كرباً ») .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ قال ابن كثير : (الثقلان : الإنس والجن ، كما جاء في الصحيح : « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » وفي رواية : « إلا الإنس والجن » وفي حديث الصور : « الثقلان : الإنس والجن ») .

١١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فيؤمئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** * ... **يعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ قال ابن كثير : (وهذه كقوله تعالى : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾ فهذا حال وثَمَّ حال يُسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ ولهذا قال قتادة ﴿ **فيؤمئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ قال : قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ، فهذا قول ثان . وقال مجاهد في هذه الآية : لا تسأل الملائكة عن المجرمين بل يُعرفون بسيماهم ، وهذا قول ثالث . وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار ، فذلك الوقت لا يسئلون عن ذنوبهم بل يقادون إليها ، ويلقون فيها كما قال تعالى : ﴿ **يُعرف المجرمون بسيماهم** ﴾ أي : بعلامات تظهر عليهم ، وقال الحسن وقتادة : يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون . (قلت) : وهذا كما يُعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى في وصف الجنتين الأوليين : ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ ذكر

ابن كثير أكثر من قول ونقل مجموعة أحاديث قال : (أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟** ﴾ هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة : أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً ، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن النعمان قال : سمعت عكرمة يقول ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ يقول : ظل الأغصان على الحيطان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما
تدعو أبا فرخين صادف طاويا ذا مخلبين من القصور قطاما

وحكى البغوي عن مجاهد وعكرمة والضحاك والكلبي أنه الغصن المستقيم ، وروى أبو سعيد الأشج عن ابن عباس ذواتا أفنان : ذواتا ألوان ، قال : وروي عن سعيد ابن جبير والحسن والسدي وخصيف والنضر بن عربي وابن سنان مثل ذلك ، ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ واختاره ابن جرير ، وقال عطاء : كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة ، وقال الربيع بن أنس ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ واسعتا الفناء ، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها والله أعلم ، وقال قتادة : ذواتا أفنان يعني بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها . وروى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى فقال : « يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة – أو قال : يستظل في ظل الفنن منها مائة راكب – فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » ورواه الترمذي من حديث يونس .

١٣ – بمناسبة قوله تعالى عن نساء الجنتين الأوليين : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وذلك قول الله تعالى : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه ، وهكذا رواه الترمذي موقوفاً ثم قال : وهو أصح . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه . وقد روى مسلم حديث إسماعيل بن علية عن أيوب عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم

ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم وما في الجنة أغرب » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث همام بن منبه وأبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه . وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده - يعني : سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » ورواه البخاري) .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان** ﴾ قال ابن كثير : (أي لا لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ وروى البغوي عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة ») . دلّ هذا الحديث على أنه لا إحسان بلا توحيد ، فإذا تذكرنا محور السورة من سورة البقرة ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ أدركنا من مثل هذا صلة السورة بالمحور .

١٥ - قال ابن كثير : (ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ ما رواه الترمذي والبغوي من حديث أبي النضر بن هاشم بن القاسم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » ثم قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر ، وروى البغوي من حديث علي بن حجر عن عطاء بن يسار عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقص على المنبر وهو يقول : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت الثانية : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت الثالثة : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : « وإن ، رغم أنف أبي الدرداء ») .

١٦ - عند قوله تعالى : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ تحدث كل من النسفي

وابن كثير عن وجه تفضيل الجنتين الأولين على الأخريين ، قال النسفي : (إنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأولين حتى قيل : ﴿ **ومن دونهما** ﴾ لأن ﴿ **مدهامتان** ﴾ دون (ذواتا أفنان) و (نضاختان) دون (تجريان) (وفاكهة) دون (كل فاكهة) وكذلك صفة الحور والمتكأ) .

وقال ابن كثير : (هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ وقد تقدم في الحديث : جنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين ، وقال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، وقال ابن عباس : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ من دونهما في الدرج ، وقال ابن زيد من دونهما في الفضل . والدليل على شرف الأولين على الأخريين وجوه : (أحدها) : أنه نعت الأولين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني ، وقال هناك : ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ ، وقال ههنا : ﴿ **مدهامتان** ﴾ أي : سوداوان من شدة الري من الماء ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ **مدهامتان** ﴾ : قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء ، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **مدهامتان** ﴾ قال : خضراوان ، وروي عن أبي أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في إحدى الروايات ، وعطاء ، وعطية العوفي والحسن البصري ، ويحيى بن رافع ، وسفيان الثوري نحو ذلك ، وقال محمد بن كعب : ﴿ **مدهامتان** ﴾ ممتلئتان من الخضرة ، وقال قتادة : خضراوان من الري ناعمتان ، ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض وقال هناك : ﴿ **فيهما عينان تجريان** ﴾ وقال ههنا : ﴿ **نضاختان** ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي فياضتان ، والجري أقوى من النضخ ، وقال الضحاك : ﴿ **نضاختان** ﴾ أي : ممتلئتان ولا تنقطعان وقال هناك : ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ وقال ههنا : ﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم ولهذا ليس قوله : ﴿ **ونخل ورمان** ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، كما قرره البخاري وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما ، وروى عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله

ﷺ فقالوا : يا محمد أفي الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم فيها فاكهة ونخل ورمان » قالوا : أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : « نعم وأضعاف » قالوا : فيقضون الحوائج ؟ قال : « لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله ما في بطونهم من أذى » وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم ومنها حللهم ، وورقها ذهب أحمر ، وجذوعها زمرد أخضر ، وثمرها أحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم ، وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا رمانة من رمانها كالبعير المقتب » ثم قال : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة ، قاله قتادة . وقيل : خيِّرات حسان جمع خيرة وهي المرأة الصالحة ، الحسنة الخلق ، الحسنة الوجه قاله الجمهور ، وروي مرفوعاً عن أم سلمة ، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى أن الحور العين يغنين : نحن الخيّرات الحسان خلقنا لأزواج كرام ، ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ **فيهن خيِّرات** ﴾ بالتشديد ﴿ **حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ثم قال : ﴿ **حور مقصورات في الخيام** ﴾ وهناك قال : ﴿ **فيهن قاصرات الطرف** ﴾ ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت ، وإن كان الجميع مخدرات ، روى ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن مسعود قال : إن لكل مسلم خيِّرة ولكل خيِّرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهداية لم تكن قبل ذلك لا مرحات ، ولا طمحات ، ولا بخرات ، ولا ذفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون ، وقوله تعالى : ﴿ **في الخيام** ﴾ روى البخاري عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً للمؤمن في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون » ورواه أيضاً من حديث أبي عمران به وقال ثلاثون ميلاً وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران به ولفظه : « إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهل ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : الخيمة لؤلؤة واحدة فيها سبعون باباً من در ، وروى أبي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **حور مقصورات في الخيام** ﴾ قال : في خيام اللؤلؤ وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربع فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، وروى عبد الله بن وهب عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان

وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء » ورواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث به . وقوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾ قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان** ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الرفرف المحابس ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : هي المحابس ، وقال العلاء بن زيد : الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي ، وقال عاصم الجحدري ﴿ **متكئين على رفرف خضر** ﴾ يعني : الوسائد ، وهو قول الحسن البصري في رواية عنه ، وروى أبو داود الطيالسي عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ **متكئين على رفرف خضر** ﴾ قال : الرفرف : رياض الجنة ، وقوله تعالى : ﴿ **وعبقري حسان** ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي : العبقري : الزرابي ، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابي يعني : جيادها ، وقال مجاهد : العبقري : الديباج ، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى : ﴿ **وعبقري حسان** ﴾ فقال : هي بسط أهل الجنة لا أبا لكم فاطلبوها ، وعن الحسن رواية أنها المرافق ، وقال زيد بن أسلم : العبقري أحمر وأصفر وأخضر ، وسئل العلاء بن زيد عن العبقري فقال : العبقري : الطنافس المخملة إلى الرقة ما هي . وقال القيسي : كل ثوب موشى عند العرب عبقري ، وقال أبو عبيدة : هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي ، وقال الخليل بن أحمد : كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرياً ، ومنه قول النبي ﷺ في عمر : « فلم أر عبقرياً يفري فريه » وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك : ﴿ **متكئين على فرش بطائنها من إستبرق** ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى ، وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات ، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخيرتين ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين) .

١٧ — عند قوله تعالى : ﴿ **تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام** ﴾ قال ابن كثير : (وقال الإمام أحمد ... عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أجلّوا الله يغفر لكم » وفي الحديث الآخر : « إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ،

وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه » وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام » وكذا رواه الترمذي عن الحسن عن النبي ﷺ . وقد روى الإمام أحمد عن ربيعة ابن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألظوا بذي الجلال والإكرام » ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك به ، قال الجوهري : ألظ فلان بفلان إذا لزمه ، وقول ابن مسعود : ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام أي : الزموا ، يقال الإلظاظ هو الإلحاح (قلت) : وكلاهما قريب من الآخر والله أعلم وهو المداومة واللزوم والإلحاح . وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة من حديث عبد الله بن الحارث عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ») .

١٨ - ختم النسفي الكلام عن سورة الرحمن بقوله : (وكررت هذه الآية ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم ، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة وأغلقت عنه أبواب جهنم نعوذ بالله منها والله أعلم) .

كلمة أخيرة في سورة الرحمن :

١ - عرّفتنا سورة الرحمن على الله عز وجلّ ، وعلى نعمه ، بما يهيّج عندنا بواعث الشكر ، ويستثير دوافع العبادة والتقوى في القلب ، ولذلك صلاته بالمحور .

٢ - رأينا أن السّور التي تفصّل في محور من سورة البقرة تفصّل فيه وفي ارتباطاته وامتداداته ، ولقد جاء بعد آيتي المحور في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ فهذه الآيات جاءت بعد آيتي المحور ، فهي من امتدادات المحور وارتباطاته ، وقد ظهر أثر ذلك في السورة : ﴿ **الرحمن * علّم القرآن** ﴾ فلذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب**

ممّا نزلنا على عبدنا ﴾ وقد بشّرت السورة المتقين وأنذرت المجرمين .

ومن امتدادات المحور في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وقد ظهر أثر ذلك في السورة ﴿ **والأرض وضعها للأنام** ﴾ ومن امتدادات المحور في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ وقد ظهر أثر ذلك في السورة ﴿ **الرحمن** ... ﴾ .

٣ - وقد سارت السورة في سياقها الخاص فبدأت بذكر النشأة : ﴿ **الرحمن** * **علّم القرآن** * **خلق الإنسان** ... ﴾ ثم تحدّثت عن النهاية الأولى : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ ثمّ تحدّثت عن النهاية الكبرى إذ يستقر أهل النار في النار ، وأهل الجنة في الجنة .

٤ - عرفنا من السورة أن أهل الجنة نوعان ، فعرفنا بذلك أن هناك درجة عليا من العبادة والتقوى ، استحق أهلها نوعاً من الجنان ، وأن هناك درجة دنيا من العبادة والتقوى استحق أهلها نوعاً آخر من الجنان ، وستأتي سورة الواقعة لتحدّثنا عن السابقين ، وعن أهل اليمين ، وذلك من مظاهر التكامل بين سورتي الرحمن والواقعة .

٥ - ذكرت سورة الرحمن في خواتيمها ثلاثة أصناف من الناس : مجرمين ، وسابقين ، وأهل يمين ، وتبدأ سورة الواقعة بذكر الأصناف الثلاثة : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ ومن هنا ندرك قوّة الارتباط ما بين نهاية سورة الرحمن وبداية سورة الواقعة .

☆ ☆ ☆

سورة الواقعة

وهي السورة السادسة والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السادسة والأخيرة من المجموعة الأولى من
قسم المفصل ، وآياتها ست وسبعون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الواقعة :

قال الألوسي في تقديمه لسورة الواقعة : (هي وسورة الرحمن متواخية في أن في كل منهما وصف القيامة والجنة والنار ، وقال في البحر : مناسبتها لما قبلها أنه تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين ، وفاضل سبحانه بين جنتي بعض المؤمنين وجنتي بعض آخر منهم فانقسم المكلفون بذلك إلى كافر ومؤمن فاضل ومؤمن مفضول ؛ وعلى هذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين ، وقال بعض الأجلة انظر إلى اتصال قوله تعالى : ﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ بقوله سبحانه : ﴿ **فإذا انشقت السماء** ﴾ وأنه اقتصر في سورة الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفي سورة الواقعة على ذكر رجّ الأرض ، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة ، فذكر في كلٍّ شيئاً ، وقد عكس الترتيب فذكر في أول هذه ما في آخر تلك ، وفي آخر هذه ما في أول تلك ، فافتتح في سورة الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان والجان ، ثم صفة يوم القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة ، وهذه ابتداؤها بذكر القيامة ، ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ؛ ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم ذكرت النجوم ولم تذكر في سورة الرحمن كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر الميزان فكانت هذه كالمقابلة لتلك وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر ، وجاء في فضلها آثار) .

وقدّم ابن كثير لتفسير سورة الواقعة بقوله : (قال أبو إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله قد شبت قال : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده ... عن أبي ظبية قال : مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » ثم قال ابن عساكر : كذا قال والصواب عن شجاع كما رواه عبد الله بن وهب عن السري . وقال عبد الله بن وهب أخبرني السري بن يحيى أن شجاعاً حدثه عن أبي ظبية عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ

سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » فكان أبو ظبية لا يدعها وكذا رواه أبو يعلى . ثم رواه عن إسحاق بن أبي إسرائيل ... عن أبي ظبية عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » لم يذكر في مسنده شجاعاً قال وقد أمرت بناتي أن يقرأنها كل ليلة . وقد رواه ابن عساكر أيضاً من حديث حجاج ابن نصير ... عن أبي فاطمة قال : مرض عبد الله فأتاه عثمان بن عفان يعوده فذكر الحديث بطوله ، قال عثمان بن اليمان : كان أبو فاطمة هذا مولى لعلي بن أبي طالب .

وروى أحمد ... عن سماك بن حرب أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم ، وكان يقرأ في الفجر بسورة الواقعة ونحوها من السور) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة الواقعة : (الواقعة ... اسم للسورة وبيان لموضوعها معاً . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة ، رداً على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن : ﴿ **أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟** ﴾ .

ومن ثَمَّ تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهي كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم في هذا الأمر ... الواقعة ... ﴿ **إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ ... وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، في ظل الهول الذي يبدّل الأرض غير الأرض ، كما يبدّل القيم غير القيم سواء : ﴿ **خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباءً منبثاً * وكنتم أزواجاً ثلاثة ...** ﴾ الخ .

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفاً مفصلاً أوفى تفصيل ، يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون** ﴾ ... وكأن العذاب هو الحاضر ، والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب !

وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخياً توكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأول ؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان ، أيّاً كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته) .

(كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن (الواقعة) فيشكّون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين . ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئاً ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق : ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين** * **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام) .

....

كلمة في سورة الواقعة ومحورها :

رأينا أن سورة الرحمن انتهت بالحديث عن الكافرين والمقربين وأهل اليمين ، وتأتي سورة الواقعة لتبدأ بالحديث عن السابقين وأهل اليمين وأهل الشمال ، ولتنتهي بالكلام عن ذلك ، مختتمة بالأمر بالتسبيح ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ ثم تأتي سورة الحديد وبدايتها ﴿ **سبح لله ما في السموٰات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ وبذلك تظهر الصلة على أشدها ما بين نهاية السورة السابقة ، وبداية السورة اللاحقة .

والصلة بين سورة الواقعة وسورة الرحمن في المكان الأعلى ، فمن وسط سورة الرحمن إلى وسط سورة الواقعة يكاد يكون الكلام ذا مضمون واحد ، ثم إن الكلام عن الكافرين والمقربين وأهل اليمين يبدأ بسورة الرحمن ، بقوله تعالى : ﴿ **فإذا انشقت السماء** ﴾ وتبدأ سورة الواقعة بقوله تعالى : ﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ مما يشعر أنّ سورة الواقعة تكاد تكون استمراراً لسورة الرحمن ومكمّلة لمعانيها ، فسورة الرحمن

تذكّر الإنس والجنّ بالخلق والنعمة ، وتنكر عليهم تكذيبهم بآلاء الله ، وتصل إلى الكلام عن أهل النار وأهل الجنان ، مقسّمة أهل الجنان إلى قسمين : سابقين ، وأهل يمين ، وتأتي سورة الواقعة لتبدأ بالكلام عن السابقين ، وأهل اليمين وأهل الشمال ثم لتذكّر الناس بالخلق والنعمة مقيمة الحجة عليهم بذلك ، فالسورتان تتكاملان في تأدية معان متكاملة .

....

لنتذكّر الآن المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ، والذي قد جاء بعد مقدمتها . إنه يبدأ بدعوة الناس جميعاً إلى عبادة الله ، مذكّراً إياهم بالخلق والنّعمة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ إنّ المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ينتهي بما بدأ به من إقامة الحجة من خلال الخلق والنعمة . وبعد أن قسّمت مقدمة سورة البقرة الناس إلى متقين وكافرين ومنافقين ، فإن المقطع الأول من سورة البقرة جعل الكافرين والمنافقين صنفاً واحداً : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ . وسورة الرحمن وسورة الواقعة تذكران أهل النار وتبيّنان أن أهل الجنة صنفان فههنا تفصيل جديد .

....

وإذا كان المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة والذي أسميناه مقطع الطريقين تترابط معانيه ، فإن سورتي الرحمن والواقعة تترابط معانيهما كذلك . وإذا كانت الآيتان الأوليان من المقطع الأول تشكلان المحور الأخص لسورة الرحمن ، والآيات الخمس الأولى من المقطع تشكّل المحور الأعم لسورة الرحمن فإن قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ إن هاتين الآيتين تشكّلان المحور الأخص لسورة الواقعة ، وهما مع

الآيتين قبلهما ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ تشكل المحور الأعم لسورة الواقعة ، مع ملاحظة ارتباط هذه الآيات مع ماقبلها .

....

وفي سورة البقرة تتكرر صيغة ﴿ **ومن الناس** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله** ﴾ .

﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ...** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله** ﴾ .

وسورة الواقعة تفصل في أصناف الناس فتحصرهم في ثلاثة : مقربين ، وأهل يمين ، وأهل شمال ، فهي تشدّ إلى محورها كل هذه الآيات لتفصل في ذلك كله .

....

قلنا إن محور سورة الواقعة الأخص هو قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ والملاحظ أن سورة الواقعة تفصل في شأن الرجوع إليه ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ فيكون الربط بين ذلك وبين سورة الواقعة على الشكل التالي : فإذا رجعتم إليه بوقوع الساعة كان الأمر ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ وبعد وصف ما أعد للأصناف الثلاثة تبدأ إقامة الحجة ﴿ **نحن خلقناكم فلولا تذكرون ...** ﴾ وإذا كانت سورة الواقعة تفصّل في جزء من مقطع الطريقين، وإذ كانت المعاني في مقطع الطريقين مسوقة لصالح قضية العبادة ، فإن الأمر ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ في السورة يرد مرتين .

إن الخلق والنعمة ومصير الإنسان ، كل ذلك يقتضي من المكلف أن يعبد الله ، ومن العبادة التسبيح ، فالسورة تقرر وتقيم الحجة وتبني على ذلك .

....

وسترى صلة السورة بالمحور تفصيلاً ، فلا نطيل أكثر من ذلك ههنا ؛ لأن ذلك يقتضينا عرضاً كاملاً للسورة ، ونحب هنا أن نتوسّع في ذكر ظاهرة تحدّثنا عنها أكثر من مرة لها علاقة بالاتجاه الذي اتجهنا إليه في هذا التفسير . نحن نلاحظ أن سورة الواقعة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم بعد سور كثيرة تأتي سورة المنافقون مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم بعد سور كثيرة تأتي سورتا التكوير والانفطار مبدوءتين بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم بعد سورة تأتي سورة الانشقاق مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم بعد سور كثيرة تأتي سورة الزلزلة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم بعد سور تأتي سورة النصر مبدوءة بـ ﴿ **إذا** ﴾ ، ونلاحظ في ما يأتي معنا من السور أن سورة الدهر مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى** ... ﴾ ثم بعد سور كثيرة تأتي سورة الغاشية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتاك** ... ﴾ . ونلاحظ فيما يأتي أن سورة المطففين مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ويل** ﴾ ثم بعد سور كثيرة تأتي سورة الهمزة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ويل** ﴾ ونلاحظ من قبل أن سورتي البقرة وآل عمران بدأتا بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ثم بعد سور كثيرة تأتي أربع سور متوالية مبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ هي العنكبوت والروم ولقمان والٓمٓ السجدة . ونلاحظ أن سورة الصافات بدأت بقَسَم ، وسور الذاريات والطور والنجم بدأت بقَسَم ، ثم بعد سور كثيرة تأتي سورة القيامة مبدوءة بقَسَم ، ثم بعد سورة تأتي سورة المرسلات مبدوءة بقَسَم ، ثم بعد سورة تأتي سورة النازعات مبدوءة بقَسَم ، ثم بعد سور تأتي سورتان مبدوءتان بقَسَم هما البروج والطارق ، ثم بعد سورتين تأتي خمس سور مبدوءة بقَسَم ، ثم بعد سورة تأتي سورة (والتين) مبدوءة بقَسَم ، ثم بعد سور تأتي سورة العاديات مبدوءة بقَسَم ، ثم بعد سورتين تأتي سورة العصر مبدوءة بقَسَم ، هذه الملاحظات حول تشابه بدايات السور القرآنية . ما تعليله وما تعليل أن تجد السورة الأولى في مجموعة تشبه بدايتها بداية السورة الأولى في مجموعة أخرى . ما تعليل أن تأتي بعض البدايات مرة ثم تغيب لتظهر مرة أخرى ، لا شك أن لذلك سراً ، ولا شك أن له تعليلاً .

ونحن في هذا التفسير حاولنا أن نكشف هذا السر ، وأن نذكر ذلك التعليل فإذا

أصبنا فمن الله ، وإن أخطأنا فنرجوا أن يكون لنا أجر المجتهدين .

....

ولقد رأينا بدايات لسور متى وُجدت كانت دليلاً على أن السورة تفصّل في مقام كذا من سورة البقرة ، ورأينا بدايات متى وُجدت تدلّنا على أنها تفصل في مقام آخر من سورة البقرة ، وهكذا وفي كل مرة كنا نقيم الدليل الواضح على ذلك ، أليس في ذلك دليل على صحة السير فلله الحمد والمنة .

....

ومما رأيناه أنه حيث وجدت (الٓمٓ) أو قَسَم في بداية سورة فذلك دليل على أن السورة تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وحيثما وجدت (يا أيها) في بداية سورة ، ففي الغالب أن السورة تفصّل في مقطع الطريقين من سورة البقرة ، وهو الذي يأتي بعد مقدمة سورة البقرة مباشرة . المهم أننا قدّمنا تعليلاً لهذه الظاهرة في القرآن يقوم عليها دليل .

....

نقول هذا بمناسبة سورة الواقعة ؛ لأنه لأول مرة في القرآن تأتي معنا سورة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم تظهر السور التي تأتي في مقدمتها ﴿ **إذا** ﴾ بين الحين والحين ، حتى نهاية القرآن ، ومبدئياً نقول : حيثما جاءت (إذا) في بداية سورة فإنها تفصّل في الآيات الآتية بعد مقدمة سورة البقرة ، تدلنا على ذلك المعاني المشتركة الموجودة في كل سورة بدايتها (إذا) ، ومجيء هذه السور ضمن مجموعات كل سورة منها مسبوقة بما يفصّل في مقدمة سورة البقرة أو في المقدمة ، وفيما بعدها مباشرة ، وهذا موضوع سنراه عندما نتحدث عن كل سورة من هذه السور ومحورها ، والآن نسجّل ملاحظة حول هذه السور المبدوءة بـ (إذا) :

....

نلاحظ أن سور الواقعة ، والتكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة — وكلها مبدوءة بـ(إذا) — يشكّل الكلام عن يوم القيامة نقطة بارزة فيها . ونلاحظ أن سورة النصر والواقعة مبدوءتان بـ (إذا) وقد ورد فيهما الأمر بالتسبيح . من هذا التشابه بين معاني وبدايات هذه السور ندرك أن محورها واحد ، وسنرى بالتفصيل محاور هذه

السور ، وسنرى أن محاور السور المبدوءة بـ (إذا) لا تخرج عن حيّز محور الطريقين الآتي بعد مقدّمة سورة البقرة .

....

لقد لاحظنا من قبل أن سورة الحج التي تفصّل في محور الآية الآتية بعد مقدمة سورة البقرة مباشرة أي : في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ قد بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ... ﴾ ، ونلاحظ أنّ بداية سورة الحج قد هيّجت على التقوى من خلال التذكير بيوم القيامة ، ونحن سنرى أن كل سورة مبدوءة بإذا ستهيج على العبادة ، والتقوى ، والعمل الصالح ، من خلال التذكير بيوم القيامة ، أو التذكير بمعنى آخر مما سنراه .

....

تتألف سورة الواقعة من ثلاث مجموعات رئيسية واضحة التمايز والاتصال :

المجموعة الأولى : وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٥٦) .

المجموعة الثانية : وتمتدّ حتى نهاية الآية (٧٤) .

المجموعة الثالثة : وتمتدّ حتى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٩٦) .

المجموعة الأولى تتحدث عن أصناف الناس يوم القيامة . والمجموعة الثانية تقيم الحجة على الناس بمجيء يوم القيامة ، وتبني على ذلك الأمر بالتسبيح . والمجموعة الثالثة تقيم الحجة على الناس بهذا القرآن وبأدّلة أخرى على مجيء اليوم الآخر ، وحال الناس فيه . وتبني على ذلك ، كذلك الأمر بالتسبيح الذي هو عبادة وعمل صالح وتوحيد ، ولكل ذلك صلته بمحور السورة من سورة البقرة كما سنرى . فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٥٦) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ

أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

التفسير :

﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ قال ابن كثير : الواقعة من أسماء يوم القيامة ، سمّيت بذلك لتحقق كونها ووجودها . قال النسفي : (أي إذا قامت القيامة) ﴿ **ليس لوقعتها كاذبة** ﴾ أي : ليس لوقعتها نفس كاذبة ، أي لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله ، وتكذب في تكذيب الغيب ؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة مصدّقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، سواء كانت نفوس منافقين أو كافرين ﴿ **خافضة رافعة** ﴾ أي : ترفع أقواماً وتضع آخرين . قال ابن كثير : أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين ، إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء ﴿ **إذا رُجّت الأرض رجّاً** ﴾ أي : حركت تحريكاً شديداً حتى يتهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء ، أي زلزلت زلزالاً ﴿ **وبسّت الجبال بسّاً** ﴾ أي : وفتّتت الجبال تفتيتاً ﴿ **فكانت هباءً منبثّاً** ﴾ أي : غباراً متفرقاً . قال ابن كثير :

وهذه الآية كأخواتها الدالّة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش ﴿ **وكنتم** ﴾ أيها الناس ﴿ **أزواجاً** ﴾ أي : أصنافاً ﴿ **ثلاثة** ﴾ صنفان في الجنة ، وصنف في النار ، ثم فسّر الأزواج فقال : ﴿ **فأصحاب الميمنة** ﴾ وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿ **ما أصحاب الميمنة** ﴾ استفهام يفيد التعجيب من حالهم في السعادة ، وتعظيم لشأنهم ، كأنه قال : ماهم ، وأي شيء هم ؟ ﴿ **وأصحاب المشئمة** ﴾ أي : الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم ﴿ **ما أصحاب المشئمة** ﴾ أي : أيّ شيء هم ؟ وهو تعجيب من حالهم بالشقاء ، ويحتمل أن يكون المراد بأصحاب اليمين أصحاب المنزلة السنيّة ، وأن يكون المراد بأصحاب الشمال أصحاب المنزلة الدنية الخسيسة . قال النسفي : وقيل يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين ، وبأهل النار ذات الشمال ، وذلك بالنسبة للعرش كما سنرى في الفوائد ﴿ **والسابقون** ﴾ إلى الخيرات ﴿ **السابقون** ﴾ إلى الجنّات ، ويحتمل أن تكون الثانية توكيداً للأولى ﴿ **أولئك المقربون** ﴾ عند الله ﴿ **في جنّات النّعيم** ﴾ أي : هم في جنات النّعيم ﴿ **ثلّة من الأولين** ﴾ قال ابن كثير : أي من صدر هذه الأمة ﴿ **وقليل من الآخرين** ﴾ قال ابن كثير : أي من هذه الأمة . قال النسفي : والثلة : الأمّة من الناس الكثيرة . أقول : وهناك اتجاه رجّحه ابن جرير وضعّفه ابن كثير كما سنرى في الفوائد : أن المراد بالأولين : الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا عليه الصلاة والسلام ، وأن المراد بالآخرين أمة محمد ﷺ . قال ابن كثير : (وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ؛ لأنّ هذه الأمّة هي خير الأمم بنصّ القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقرّبين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم) .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة الواقعة هو قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ فالخطاب هنا للناس جميعاً ، ونلاحظ أن بداية سورة الواقعة خطاب للناس جميعاً ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ فكأن السياق يقول : (يأيها الناس كيف تكفرون بالله ... ثم إليه ترجعون) إذ تكونون أصنافاً ثلاثة ، ﴿ **إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رُجّت الأرض رجّاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباءً منبثاً** ﴾ ثم يسير السياق بعد التفصيل في الأزواج الثلاثة ليقيم الحجة على الناس فيقول : ﴿ **نحن خلقناكم فلولا تصدقون** ﴾ ثم يستقر

السياق على الأمر الأول في السورة ﴿ **فسبّح** ﴾ أيها المؤمن ، أو أيها الإنسان ﴿ **باسم ربك العظيم** ﴾ عبادة له وتنزيهاً له عن قول هؤلاء ؛ لتتحقق بالتقوى فتكون من المقرّبين أو من أهل اليمين ، فكما خاطب مقطع الطريقين الناس جميعاً داعياً لهم للعبادة للوصول إلى التقوى ، فسورة الواقعة تخاطب الناس جميعاً لتبعثهم على العبادة من خلال عرض حال الناس يوم القيامة ، ومن خلال إقامة الحجة على الناس ، ومن خلال الدلالة على باب من أبواب العبادة الموصلة إلى التقوى ، وسنرى هذا شيئاً فشيئاً ، فلنر تفصيل ما أعد الله للأصناف الثلاثة ، وقد ابتدأ الله بتفصيل ما للسابقين ، مع أنه تعالى ذكرهم آخراً لأنهم الأفضل .

....

﴿ **والسابقون السابقون** * **أولئك المقربون** * **في جنات النعيم** * **ثلّة من الأولين** * **وقليل من الآخرين** ﴾ ثم قال تعالى :

﴿ **على سرر موضونة** ﴾ قال النسفي : (أي : مرمولة ومنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت) والوضن في الأصل : نسج الدّرع ، ثمّ استعير للنّسيج ، أو لنسيج محكم مخصوص ، ومن ثمّ فسّر المفسرون الآية بما ذكر مستأنسين ببعض الآثار ﴿ **متكئين عليها متقابلين** ﴾ قال النسفي : (أي ينظر بعضهم في وجوه بعض ، ولا ينظر بعضهم في أقفاء بعض) وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودّة ﴿ **يطوف عليهم** ﴾ أي : للخدمة ﴿ **ولدان** ﴾ أي : غلمان ﴿ **مخلدون** ﴾ أي : مبقون أبداً على شكل الولدان ، لا يتحوَّلون عنه . قال ابن كثير : أي مخلدون على صفة واحدة لا يكبرون عنها ، ولا يشبّون ولا يتغيّرون . قال النسفي : (قيل هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها ، وفي الحديث أولاد الكفار خدّام أهل الجنة) ثم ذكر الله تعالى بم يطوف هؤلاء الغلمان على أهل الجنة فقال : ﴿ **بأكواب** ﴾ وهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان ﴿ **وأباريق** ﴾ وهي الآنية التي لها خرطوم وعروة ﴿ **وكأس** ﴾ وهو القدح الذي فيه الشراب ، أما إذا لم يكن فيه شراب فلا يسمّى كأساً ﴿ **من معين** ﴾ أي : من خمر تجري من العيون . قال ابن كثير : والجميع من خمر من عين جارية معين ، وليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة ﴿ **لا يُصَدَّعون عنها** ﴾ أي : عن هذه الخمر ، أي بسببها ، أي

لا يصدر صداعهم عنها ، ويحتمل أن يكون المراد : لا يفرقون عنها ﴿ **ولا ينزفون** ﴾ قال النسفي : أي لا ينفد شرابهم ، يقال أنزف القوم إذا فني شرابهم . وقال ابن كثير : (أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة ، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : في الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقيء والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزّهها عن هذه الخصال) ﴿ **وفاكهة مما يتخيّرون** ﴾ قال ابن كثير : أي ويطوفون عليهم بما يتخيّرون من الثمار ﴿ **ولحم طير مما يشتهون** ﴾ أي : ويطوفون عليهم بلحم طير مما يتمنّون ﴿ **وحور عين** ﴾ أي : وللسابقين المقربين حور عين ، والحور : جمع حوراء ، والعين : جمع عيناء ، ويحتمل أن يكون التقدير : وفي الجنة حور عين ﴿ **كأمثال اللؤلؤ** ﴾ في الصفاء والنقاء ﴿ **المكنون** ﴾ أي : المصون ، وقال الزجاج : (أي) كأمثال الدّر حين يخرج من صدفه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ قال ابن كثير : أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ﴿ **لا يسمعون فيها** ﴾ أي : في الجنة ﴿ **لغواً** ﴾ أي : باطلاً ﴿ **ولا تأثيماً** ﴾ أي : هذياناً ﴿ **إلا قيلاً سلاماً سلاماً** ﴾ أي : إلا قولاً ذا سلامة أو المعنى : إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً ، والمعنى : إنهم يفشون السلام بينهم فيسلّمون سلاماً بعد سلام ، فالجنة من تتمة كمالاتها أن الناس فيها منزّهون عن كل كلام لا يليق .

كلمة في السياق :

جاء محور سورة الواقعة في سياق قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ ثم في سياق قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون** ﴾ وقد رأينا في سورة الواقعة ما أعدّه الله للسابقين ، ومن ذلك الجنات والثمرات والأزواج ، ورأينا أن ذلك كان جزاءً على أعمالهم ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ وهكذا نجد أن سورة الواقعة مع أنها تفصّل في محورها – إذ تفصّل في حال الناس عند الرجوع إلى الله – فهي تفصّل في محورها ضمن سياقه من مقطعه ، فالمقطع أمر بالعبادة والتقوى والتوحيد ، وذلك كله إيمان وعمل صالح ، والمقطع أنذر الكافرين بالنار ، وبشّر المؤمنين بالجنات ، وسورة الواقعة تفصّل في أقسام الناس يوم القيامة ، فتفصّل في حال المؤمنين والكافرين ، وتبشّر

المؤمنين وتنذر الكافرين وتقيم الحجة عليهم ، وتوجّه المؤمنين في طريق العبادة ، فهي تفصّل في محورها ضمن سياقه في مقطعه ، وسنرى شيئاً فشيئاً أثناء عرض السورة دقّة التفصيل وإبداعه ، فلنكمل عرض السورة : فبعد أن عرض الله عز وجل ما أعدّه للسابقين يحدثنا عن أهل اليمين وما أعدّه لهم ، قال ابن كثير : لمّا ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقرّبون عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار .

....

﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ استفهام يفيد التعجيب من حالهم في السعادة ، وتعظيم لشأنهم . كأنه قال : ما هم ؟ وأي شيء هم ؟ ﴿ **في سدر مخضود** ﴾ أي : لا شوك له ، وسدر الدنيا : هو شجر النبق ، وهو كثير الشوك قليل الثمر . قال ابن كثير : (وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله) وسنرى في الأحاديث التي سنذكرها في الفوائد مواصفات سدر الجنة ﴿ **وطلح منضود** ﴾ قال النسفي : (الطلح : شجر الموز) وفسّر مجاهد المنضود : بالمتراكم الثمر . ﴿ **وظل ممدود** ﴾ قال النسفي : (أي ممتدّ منبسط كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس) وقال ابن كثير : (وقال ابن مسعود : الجنة سجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس) وسنرى في الفوائد تفصيلاً ﴿ **وماء مسكوب** ﴾ أي : جار بلا حدّ ولا خدّ . قال ابن كثير : قال الثوري : أي يجري على الأرض في غير أخدود ﴿ **وفاكهة كثيرة** ﴾ أي : كثيرة الأجناس ﴿ **لا مقطوعة** ﴾ أي : لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا بل هي دائمة ﴿ **ولا ممنوعة** ﴾ أي : لا تمنع عن متناولها بوجه . قال النسفي : وقيل لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان . قال ابن كثير : أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً** ﴾ أي : يشبه الشكل الشكل ولكن الطعم غير الطعم ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ أي : رفيعة القدر أو نضدت حتى ارتفعت ، أو مرفوعة على الأسرة ، وقيل : هي النساء ؛ لأن المرأة يكنّى عنها بالفراش ، ويدل عليه قوله : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاءً** ﴾ أي : ابتدأنا خلقهن ابتداءً من غير ولادة ، فإما أن يراد اللاتي ابتدىء إنشاؤهن أو اللاتي أعيد إنشاؤهن ﴿ **فجعلناهن أبكاراً** ﴾ قال النسفي : أي عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ﴿ **عُرُباً** ﴾ العُرُب : جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها ، الحسنة التبعل ﴿ **أتراباً** ﴾ أي : مستويات في السن بنات ثلاث

وثلاثين وأزواجهن كذلك ﴿ **لأصحاب اليمين** ﴾ أي : أنشأناهن كذلك لأصحاب اليمين ﴿ **ثلّة من الأولين** ﴾ أي : جماعة كثيرة من الأولين يكونون من أصحاب اليمين ﴿ **وثلّة من الآخرين** ﴾ أي : وجماعة كثيرة من الآخرين يكونون من أصحاب اليمين ، وقد مرّ معنا الخلاف في المراد بالأولين والآخرين ، هل هما في هذه الأمّة فقط ، أو المراد بذلك عامة البشريّة ؟ .

كلمة في السياق :

يلاحظ أنه في مقطع المحور قد جاء قوله تعالى : ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ يلاحظ في هذه الآية أن الحديث عن الفواكه قد جاء بعده الكلام عن الأزواج . ونلاحظ أثناء الكلام عن السابقين وأهل اليمين ، أن الكلام عن الفواكه جاء قبل الكلام عن الأزواج ، فالسورة هنا مع أنها تفصّل في محورها الذي ذكرناه أي في الرجوع إلى الله فإنها تفصّل في محلّ هذا المحور من سياق مقطعه ، ولنستمر في عرض السورة ، فبعد أن ذكر الله تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال :

....

﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال** ﴾ أي : أي شيء هم فيه أصحاب الشمال ؟ ثم فسّر ذلك فقال : ﴿ **في سموم** ﴾ قال النسفي : (أي في حرّ نار ينفذ في المسام) ﴿ **وحميم** ﴾ أي : وماؤها متناه في حرارته ، ولنتذكر ما مر معنا في سورة الرحمن ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ ﴿ **وظل من يحموم** ﴾ أي : من دخان أسود ﴿ **لا بارد ولا كريم** ﴾ قال ابن كثير : أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر . قال النسفي : (سمّاه ظلاً ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحر ، والمعنى : أنه ظلٌّ حارٌّ ضارٌّ) ثم علّل الله عز وجل لسبب هذا العذاب فقال : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك** ﴾ أي : في الدنيا ﴿ **مترفين** ﴾ أي : منعمين ، فمنعهم ذلك من الانزجار وشغلهم عن الاعتبار . قال ابن كثير : (أي كانوا في الدار الدنيا منعّمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل) ﴿ **وكانوا يصرّون** ﴾ أي : يداومون ويقيمون ولا ينوون توبة ﴿ **على الحنث العظيم** ﴾ أي على الذنب العظيم ، أو على الشرك ؛ لأنه نقض عهد الميثاق ، والحنث نقض العهد المؤكد باليمين ،

قال ابن كثير في تفسير الحنث العظيم : وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ﴿ **وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون** ﴾ يعني : إنهم يقولون ذلك مكذّبين به ، مستبعدين لوقوعه ﴿ **قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** ﴾ أي : إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم . قال ابن كثير : أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحد ... بوقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون** ﴾ عن الهدى ﴿ **المكذّبون** ﴾ بالوحي والبعث ﴿ **لآكلون من شجر من زقوم * فمالؤون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم** ﴾ أي : من الشراب البالغ الغاية في الحرارة ﴿ **فشاربون شرب الهيم** ﴾ أي : الإبل المصابة بمرض العطاش ، تشرب فلا تروى . قال النسفي : والمعنى أنّه يسلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربون شرب الهيم ﴿ **هذا نزلهم** ﴾ أي : هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم ﴿ **يوم الدين** ﴾ أي : يوم الجزاء وبهذا انتهت المجموعة الأولى من السورة .

كلمة في السياق :

شرحت المجموعة السابقة حال الناس يوم القيامة ، وكان آخر الكلام فيها عن حال أصحاب الشمال الذين كانوا مترفين في الدنيا ، مشركين منكرين للبعث ضالّين مكذّبين ، وما لهم من عذاب في الآخرة ، ثمّ تأتي المجموعة الثانية لتناقش هؤلاء بمقدمة وأربع حجج ، ثم تنتهي المجموعة آمرة رسول الله ﷺ أن ينزّه اسم الله العظيم عما يقولونه ، فالمجموعة تقيم الحجة على هذا الصنف ، وتنتهي بالأمر بتنزيه الله ، ممّا يفيد أن ما هم عليه يتنافى مع تنزيه الله عز وجل ، وقبل أن نبدأ عرض المجموعة الثانية نحب أن نقف وقفة : جاء قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ وقد رأينا الأسباب التي أدت إلى استحقاق أهل النار النار : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون إإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * ... ثم إنكم أيها الضالّون المكذبون ...** ﴾ فالضلال والتكذيب باليوم الآخر ، ونقض العهد والترف ، هي أسباب دخول هؤلاء النار ، لاحظ صلة ذلك

بقوله تعالى : ﴿ **وما يضل به** ... ﴾ ﴿ **الذين ينقضون عهد الله** ﴾ مع صلته بالكفر بالله ، والكفر بالرجوع إليه . إن سورة الواقعة تفصّل في محورها وفي ارتباطات هذا المحور في مقطعه ، وأكثر ما يظهر فيه ذلك هو آيات المجموعة الثانية التي تناقش هؤلاء المكذبين ، فإنه يجتمع فيها تفصيلها للمحور بشكل واضح : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ ومع ربطها لهذا المحور في سياقه في المقطع ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ فلنر المجموعة الثانية .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية

وتمتدّ من الآية (٥٧) حتى نهاية الآية (٧٤) وهذه هي :

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً

وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

التفسير :

﴿ **نحن خلقناكم فلولا تصدقون** ﴾ أي : فهلا تصدقون . قال النسفي : تحضيض على التصديق إما بالخلق ؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنه لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذّبون به . أقول : الملاحدة في عصرنا يكذّبون أن يكون الله عز وجل هو الخالق ، أو المعنى نحن خلقناكم فلولا تصدقون بالبعث ؛ لأنّ من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً . قال ابن كثير في الآية : يقول تعالى مقرّراً للمعاد ، ورادّاً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد من الذين قالوا : ﴿ **أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون** ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد فقال تعالى : ﴿ **نحن خلقناكم** ﴾ أي : نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ؟ ولهذا قال : ﴿ **فلولا تصدِّقون** ﴾ أي : فهلا تصدقون بالبعث ، ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون** ... ﴾ أقول : تأتي أربع حجج ، كل حجة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم** ﴾ وكلها استدلال عليهم وإقامة حجة .

....

كلمة في السياق :

لعلّ سياقَ السورة الخاص قد وضح من خلال العرض ، السورة بدأت بذكر القيامة ومآل الناس فيه ، وذكرت الأسباب التي أدّت إلى استحقاق أهل النارِ النارَ ، ثم بدأت تناقشهم في مجموعتها الثانية ، ثم هي تقيم عليهم الحجة في مجموعتها الثالثة ، وكان من إقامة الحجة عليهم في مجموعتها الثالثة أن ذكرت الموت لتصل إلى حال الناس بعد الموت فيما إذا كانوا مقربين ، أو أهل يمين ، أو كافرين ، فإذا اتضح سياق السورة الخاص فلنلاحظ : ختمت السورة بالكلام عن أحوال الناس بعد الموت ، وبدأت بالكلام عن أحوال الناس يوم القيامة ، لاحظ صلة ذلك بالمحور ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ وفي المجموعة الثانية

التي سنستعرضها الآن كلام عن خلق الإنسان ، وما أنعم عليه ، لتقام الحجة على الكافرين من خلال ذلك ، لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ . ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ وقد رأينا مقدمة المجموعة الثانية ﴿ **نحن خلقناكم فلولا تصدّقون** ﴾ .

الحجة الأولى :

﴿ **أفرأيتم ما تمنون** ﴾ أي : ما تمنونه ، أي ما تقذفونه في الأرحام من النطف ﴿ **أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾ أأنتم تخلقونه من الغذاء ، أم نحن نخلقه من ذلك ، أو المعنى : أأنتم تقرّونه في الأرحام ، وتخلقونه فيها ، وتقدّرونه وتصوّرونه وتجعلونه بشراً سوياً ، أم الله الخالق لذلك ، فإذ لم يكونوا هم الخالقين ، لم يبق إلا أن يكون الله هو الخالق ، أما أن تكون المصادفة هي الفاعلة ، فذلك لا يقوله عاقل يعرف حدود نظرية الاحتمالات رياضياً ، لاحظ صلة النص بقوله تعالى في المحور : ﴿ **وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ ثم لاحظ صلة ما يأتي بقوله تعالى في المحور ﴿ **ثم يميتكم** ﴾ ﴿ **نحن قدّرنا بينكم الموت** ﴾ تقديراً وقسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت ، كما تقتضيه مشيئتنا فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ أي : وما نحن بعاجزين ﴿ **على أن نبدّل أمثالكم** ﴾ قال ابن كثير : أي نغيّر خلقكم يوم القيامة ﴿ **ونُنشئكم فيما لا تعلمون** ﴾ قال ابن كثير : أي من الصفات والأحوال . قال النسفي : (يعني أنا نقدر على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم) ﴿ **ولقد علمتم النشأة الأولى** ﴾ أي : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ **فلولا تذكّرون** ﴾ أنّ من قدر على شيء مرة لم يمتنع عليه ثانياً . قال ابن كثير : (أي فهلا تتذكّرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة - وهي البداءة - قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى) .
أقول : بإجماع الدارسين لظاهرة الحياة ، وبإجماع علماء المستحاثات فإن الحياة على الأرض بدأت قبل الإنسان ، وإذن فقد كانت حياة ولا إنسان ، ويمكن بالنسبة لقدرة الله أن تكون مرة ثانية حياة ولا إنسان ، وعلى ضوء ذلك فإن الآيات يمكن أن تفهم فهماً جديداً ﴿ **وما نحن بمسبوقين على أن نبدّل أمثالكم** ﴾ فنهلككم ولا يكون بشر ﴿ **وننشئكم فيما لا تعلمون** ﴾ بحيث تكون مخلوقات أخرى من ذراتكم نفسها ﴿ **ولقد**

علمتم النشأة الأولى ﴾ حيث كانت مخلوقات ولم تكونوا ﴿ **فلولا تذكّرون** ﴾ قدرة الله على إبادتكم كما لم تكونوا ، فترجعون إلى الله وتؤمنون وتعبدون وتستعدون لليوم الآخر ، ولم أجد هذا الاتجاه فيما قرأته من تفاسير ، ولذلك فإنني أذكره كاحتمال من احتمالات الفهم مع ترجيحي لما ذكره ابن كثير ، وهكذا أقام الله عز وجل الحجّة على الكافرين بالله واليوم الآخر من خلال ظاهرة الإحياء والإماتة ، واستمرار ظاهرة الحياة وقدرة الله عز وجل على تغيير خلق الإنسان كما شاء ، وكما أقام الله عز وجل الحجة على مجيء اليوم الآخر . أقام الحجة على أنه سبحانه وتعالى هو الخالق .

كلمة في السياق :

إن الصلة واضحة بين الآيات التي مرّت وبين قوله تعالى في المحور : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ وسنرى أن الصلة واضحة أيضاً بين آيات الحجج الثلاث القادمة وبين الآية الثانية في المحور ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

الحجة الثانية :

﴿ **أفرأيتم ما تحرثون** ﴾ أي : ما تحرثونه من الأرض بإثارتها وإلقاء البذار فيها ﴿ **أأنتم تزرعونه** ﴾ قال ابن كثير : أي تنبتونه في الأرض ، وقال النسفي : (أي تنبتونه وتروونه نباتاً) ﴿ **أم نحن الزارعون** ﴾ أي : المنبتون ؟ بل الله هو الذي يقرّ قراره وينبته في الأرض ﴿ **لو نشاء لجعلناه حطاماً** ﴾ أي : هشيماً متكسّراً قبل إدراكه ، قال ابن كثير : أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ، أي : لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿ **فظلتم تفكّهون** ﴾ قال النسفي : (أي تتعجبون أو تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه ، أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها) قال ابن كثير : (ثم فسّر ذلك (أي : تفكههم) بقوله : ﴿ **إنا لمغرمون** ﴾ أي : تقولون إنا لملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا) . أقول : جرت عادة قساة القلوب أنهم إذا أصابتهم مصيبة ، وذهبت عنهم الصدمة الأولى ، أن يتحدّثوا عن مصيبتهم بروح النكتة والفكاهة ، وعلى هذا يمكن أن تفهم الآيات بأن هؤلاء يتفكهون بذكر ما أصابهم ، ويمكن أن يكون المراد بالتفكّه التحسّر والتفجّع ، قال الكسائي : تفكّه من الأضداد ، تقول العرب : تفكهت بمعنى :

تنعمت ، وتفكهت بمعنى : حزنت ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أي : لا حظّ لنا . ولو كنا مجدودين لما جرى علينا هذا ، أقام الله الحجة على أنه الخالق بظاهرة الإنبات إتمامها وإنقاصها ، ومتى ثبت أنه الخالق فقد قامت الحجة على المستبعدين لليوم الآخر ، المكذبين بالله ورسله ، الذين لا يعبدون ولا يتقون .

كلمة في السياق :

إن دقة التصوير لحال من أصيبت أرضه بحيث تسع تصرفات الناس من خلال استعمال لفظة (تفكّهون) التي تفيد أكثر من معنى ، وكل معنى يمكن أن يمثّل حال فريق من الناس ، لمظهر من مظاهر الإعجاز ، ولكن الإعجاز الأكبر يتمثل في إقامة الحجة على الكافرين ، فهذا الكافر الذي لا يملك من أمر أصل الإنبات شيئاً ، والذي لا يملك إذا أصابته الجائحة إلا أن يتحسّر ويتفجّع . كيف لا يسلّم بأن الله هو الخالق وهو الرازق ، ويبني على ذلك أن يعبد الله . لاحظ صلة ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ فالآيات فيها تفصيل للنعمة وإقامة حجة على الكفر ، ولها صلة في محلّ المحور من مقطعه الذي بدأ بآية فيها : ﴿ **فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ وفي ذلك إعجاز أي إعجاز .

الحجة الثالثة :

﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون** ﴾ العذب الصالح للشرب ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن** ﴾ أي : السحب ﴿ **أم نحن المنزلون** ﴾ بقدرتنا ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجاً** ﴾ أي : ملحاً أو مراً لا يقدر على شربه ، وذلك بأن يجعل تبخر الملح كتبخر الماء من البحر مثلاً ﴿ **فلولا تشكرون** ﴾ أي : فهلّا تشكرونه فتعبدونه وتتقونه وتوحّدونه ، أقام الدليل على أنه الخالق بظاهرة الحكمة من خلال عرض ظاهرة التبخر والمطر والدورة المائية على الأرض ولذلك صلاته بقوله تعالى في المحور : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ .

الحجة الرابعة :

﴿ **أفرأيتم النار التي تورون** ﴾ أي : تشعلون أو تقدحون ﴿ **أأنتم أنشأتم شجرتها** ﴾ التي تعطيكم النار ، ومن المعلوم أن البترول أصله شجر على ما تقوله أحدث

النظريات ، فمرجع أكثر النار في العالم إلى الشجر ﴿ **أم نحن المنشؤون** ﴾ أي : أأنتم الخالقون للشجر ابتداءً ، أم نحن الخالقون لها ابتداءً ﴿ **نحن جعلناها** ﴾ أي : النار ﴿ **تذكرة** ﴾ أي : تذكيراً بنار جهنّم حيث علّقنا بها أسباب المعاش ، وعمّمنا بالحاجة إليها البلوى ، لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أُوعدوا به ﴿ **ومتاعاً للمقْوِين** ﴾ أي : ومنفعة للمسافرين النازلين في القفر ، أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام ، وقال مجاهد : (أي للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقال مجاهد : يعني المستمتعين من الناس أجمعين) قال ابن كثير : (وهذا التفسير أعم من غيره ؛ فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة ، وغير ذلك من المنافع ...) أقول : هي متاع للخلق أجمعين ، ولكن المتاع في حق المسافرين أظهر عندما يجتاحهم البرد ، وبهذا أقام الله عز وجل حجة رابعة على أنه هو الخالق بإنشائه الشجر الذي هو أصل لمعظم النار في العالم ، ثم ختم الله تعالى هذه المجموعة بقوله : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ أي فنزه ربك عما لا يليق به – أيها المستمع المستدل – عن جحود الجاحدين قياماً بحق ربوبيته ، وتمجيداً له على إنعامه ، رتّب التسبيح على ما عدّد من بدائع صنعه ، وودائع نعمه ، وعوائد إحسانه ، قال النسفي : (بدأ بذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون** ﴾ لأن النعمة فيه سابقة على جميع النعم ثم بما فيه قوامه وهو الحب فقال : ﴿ **أفرأيتم ما تحرثون** ﴾ ثم بما يعجن به ويشرب عليه وهو الماء ، ثم بما يخبز به وهو النار ، فحصول الطعام بمجموع الثلاثة ، ولا يستغني عنه الجسد ما دام حياً) . أقول : ثمّ رتّب على ذلك أن أمر بالتسبيح . لاحظ صلة ذلك بمحور السورة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكُم ثمّ يميتكم ... هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ – نلاحظ أن محور السورة جاء في سياق قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ والملاحظ أنّه بنى في هاتين الآيتين على كونه الخالق ضرورة عبادته وتقواه ووجوب توحيده ، والملاحظ في المجموعة التي مرَّت معنا أنه قد ذكر فيها أنه الخالق ، وبنى على ذلك وجوب الإيمان ﴿ **فلولا تصدقون** ﴾ ووجوب الشكر

﴿ **فلولا تشكرون** ﴾ والشكر ذروة التقوى ، قال تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ وبنى على كونه الخالق وجوب تنزيهه ، وبنى على كونه الخالق أن مواقف الكافرين المكذبين باطلة في الآيتين اللتين بدأت بهما المجموعة : فبنى على كونه الخالق وجوب العبادة والتقوى ، وههنا أبطل بكونه الخالق حجج ومواقف من لا يعبده ولا يتقيه ولا يوحّده .

٢ – مما مَرّ ندرك أن المجموعة الثانية تضيء على ما قبلها ، فتبيّن سلامة سير المقربين ، وسلامة سير أهل اليمين ، وبطلان سير أهل الشمال بمعنى : أن المقرّبين وأهل اليمين هم الذين بنوا البناء الصحيح على ما يقتضيه كون الله عز وجل هو الخالق .

٣ – من الواضح أن سياق السورة الخاص شديد الترابط والاتصال ، فالسورة بدأت بالحديث عن وقوع يوم القيامة وأقسام الناس فيه ، ثم جاءت المجموعة الثانية ، فأقامت الحجة على فساد مواقف أهل الشمال في الدنيا ، وعلى سلامة سير المقربين وأهل اليمين ، والآن تأتي المجموعة الثالثة والأخيرة فتقيم حجة ، وتذكّر ، وتعود للحديث عن أقسام الناس عند الله : مقربين ، وأهل يمين ، وأهل شمال

المجموعة الثالثة

وتمتدّ من الآية (٧٥) إلى نهاية السورة وهذه هي :

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ

وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ملاحظة :

ختمت المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ وختمت المجموعة الثالثة بالأمر نفسه ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ مما كان دليلاً لنا في معرفة مجموعات السورة ، إضافة إلى المعاني ، وكنا ذكرنا من قبل أن دليلنا إلى معرفة المقاطع والفقرات والمجموعات داخل السورة الواحدة هو المعاني أولاً ، وبعض المعالم التي يستأنس بها ، وقل مثل ذلك بالنسبة لأقسام القرآن عامة ، وللمجموعات في كل قسم .

التفسير :

﴿ **فلا أقسم** ﴾ أي : فأقسم ﴿ **بمواقع النجوم** ﴾ أي : منازلها من هذا الفضاء الواسع ﴿ **وإنه لَقَسم لو تعلمون عظيم** ﴾ ولا يعلم عظمته إلا من عرف سعة هذا الكون وكثرة نجومه ومجراته ، وهي مع كثرتها فإنه يستحيل في منطق الأسباب أن يصطدم نجم بنجم ، ولنا في الفوائد كلام عن هذا . قال ابن كثير : (أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظّمتم المقسم به عليه) ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ أي : حسن مرضي ، أو نفّاع جمّ المنافع ، أو كريم على الله ، دلّل بالقسم الذي هو في بابه معجزة – لأن الناس قديماً ما كانوا يعرفون عن موضوع مواقع النجوم وعظمته ما يعرفه الناس الآن ، مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله – دلّل بهذا القسم على أن هذا القرآن كريم ، وأنه من عند الله وحده ، وأنه ﴿ **في كتاب مكنون** ﴾ أي : محفوظ ، وهو اللوح المحفوظ ، والمكنون هو المصون عن أن يأتيه الباطل ، أو المحفوظ عن غير الملائكة المقربين فلا يطّلع عليه من سواهم ﴿ **لا يمسّه إلا المطهرون** ﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة ، وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش

أن هذا القرآن تنزّلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنّه لا يمسّه إلا المطهرون ﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾ قال النسفي : صفة رابعة للقرآن . قال ابن كثير : أي هذا القرآن منزّل من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع ﴿ **أفبهذا الحديث** ﴾ أي : القرآن ﴿ **أنتم مدهنون** ﴾ قال النسفي : أي متهاونون به كمن يدهن في بعض الأمر ، أي يلين جانبه ولا يتصلّب فيه تهاوناً به ، وقال ابن عباس : أي مكذّبون غير مصدقين ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ أي : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أي وضعتم التكذيب موضع الشكر .

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أنه في مقطع المحور يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ ونلاحظ هنا أن المجموعة الثالثة بدأت بالتأكيد على أن هذا القرآن من عند الله ، ودلّلت على ذلك بذكر قَسَم هو في بابه معجزة تدلّل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنكرت على من يكذّب بهذا القرآن ، لاحظ الصلة بين قوله تعالى في مقطع المحور : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا** ﴾ وبين قوله تعالى هنا : ﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون** ﴾ .

٢ - وكما أنكر الله عز وجل على من يكذّب بهذا القرآن ، أنكر على من لا يؤدي شكر رزقه بعبادته ، بل يقابل ذلك بالتكذيب . ولنتذكر أنه ورد في الآيتين الأوليين من مقطع المحور قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ... وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ لاحظ الصلة بين قوله تعالى في مقطع المحور : ﴿ **رزقاً لكم** ﴾ وبين قوله تعالى هنا : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون** ﴾ وهكذا نجد بوضوح كيف أن الآيات كما تصل إلى محورها بسبب ، فإنها تصل إلى محل محورها في مقطعه بسبب ، فتصل بين المحور وسياقه في مقطع الطريقين من سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ...** ﴾ ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ ، وهكذا تستخرج الآيات الشكر بدل الكفر . فبعد ذكر الخلق والإنعام في المجموعة الثانية ، يأتي التذكير بالقرآن الذي يدل على طريق الشكر

لنجد أنفسنا أمام قوله تعالى : ﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ فلا بالقرآن عملتم ، ولا بحق الرزق عليكم قمتم ، فاجتمع لكم تكذيبان وكفران ، وذلك كله يؤكّد أنّ السورة تفصّل في محورها ضمن سياقه : ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ﴿ **وإن كنتم في ريب مِمّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ وهذا مظهر واضح لما ذكرناه من أن السور التي تفصّل في محور من سورة البقرة ، تفصّل في هذا المحور وارتباطاته وامتدادات معانيه . ولنتابع عرض المجموعة الثالثة .

....

﴿ **فلولا إذا بلغت** ﴾ النفس – أي : الروح – عند الموت ﴿ **الحلقوم** ﴾ أي : ممر الطعام والشراب . قال ابن كثير : أي الحلق وذلك حين الاحتضار ﴿ **وأنتم حينئذ تنظرون** ﴾ أي : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ قال ابن كثير : أي بملائكتنا ﴿ **ولكن لا تبصرون** ﴾ قال ابن كثير : أي ولكن لا ترونهم ﴿ **فلولا إن كنتم غير مدينين** ﴾ قال النسفي : أي مربوبين ، وقال ابن عباس : أي محاسبين ﴿ **ترجعونها** ﴾ أي : تردون النفس – وهي الروح – إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في أنكم غير مربوبين ، وغير مقهورين محاسبين . قال النسفي : والمعنى : (إنكم في جحودكم آيات الله في كل شيء ، إن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم سحر وافتراء ، وإن أرسل إليكم رسولاً صادقاً قلتم ساحر كذاب ، وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم صدق نوء كذا ، على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل ، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم ، إن لم يكن ثمة قابض ، وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدىء المعيد) .

كلمة في السياق :

قلنا : إن محور السورة هو : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثم يحييكم ثمّ إليه ترجعون** ﴾ وقد تحدّثت المجموعة الأولى في السورة عن الرجوع ، وتحدّثت المجموعة الثانية عن الإحياء الأول ، وها نحن نرى المجموعة الثالثة تتحدّث عن الموت ، ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **ثمّ يميتكم** ﴾ ثمّ إن المجموعة تنقلنا مرّة ثانية إلى الرجوع : ﴿ **ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون** ﴾ .

ولنتابع عرض المجموعة الثالثة : لقد أقام الله الحجة على المكذبين بإثبات عجزهم عن ردّ الروح إلى الجسد ، فإذا كان عجزهم عن إرجاع الروح واضحاً ، فقد ثبت الحساب والعقاب والدينونة ، ومن ثَمَّ فالله عز وجل يحدثنا عما سيؤول إليه حال هذا الميت ، وهو تلخيص لما ذكر في أول السورة ـــ إذا كان المراد بما يأتي حالهم يوم القيامة ـــ وهناك من ذهب إلى أن الآيات التالية في البرزخ ، فتكون هذه في البرزخ وتلك في يوم القيامة ﴿ **فأما إن كان** ﴾ أي : المتوفى ﴿ **من المقرّبين** ﴾ أي : من السابقين الذين ذكروا في أول السورة ﴿ **فَرَوْح** ﴾ أي : فله استراحة ﴿ **وريحان** ﴾ أي : ورزق ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ مع الراحة والريحان ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين** ﴾ أي : وأما إن كان المتوفى من أصحاب اليمين ﴿ **فسلام لك** ﴾ أي : يا صاحب اليمين ﴿ **من** ﴾ إخوانك ﴿ **أصحاب اليمين** ﴾ أي : يسلّمون عليك ﴿ **وأمّا إن كان** ﴾ المتوفّى ﴿ **من المكذّبين الضالّين** ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة المذكورين من قبل في السورة ، وهم الذين قيل لهم فيها ﴿ **ثمّ إنكم أيها الضالّون المكذّبون** ﴾ ﴿ **فنزل من حميم** ﴾ أي : فضيافة من شراب بلغ الغاية في الحرارة ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ أي : وإدخال فيها . قال النسفي : وفي هذه الآيات إشارة إلى أن الكفر ملّة واحدة ، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين ، لأنهم غير مكذّبين ﴿ **إن هذا** ﴾ أي : الذي أنزل في هذه السورة ﴿ **لهو حق اليقين** ﴾ أي : الحق الثابت من اليقين . قال ابن كثير : أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ شكراً له على ما رزق ، وأنزل من هذا القرآن ، وتنزيهاً له عن تكذيب المكذبين ، وكلام الضالّين ، وبهذا انتهت السورة ملخصة ما ذكر في ابتدائها .

كلمة في السياق :

١ — في المجموعة الثانية جاء قوله تعالى : ﴿ **فلولا تصدقون** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **نحن خلقناكم** ﴾ وههنا بعد أن ذكّر الله عز وجل بالقرآن ، وذكّر بوجوب شكره جل جلاله ، أقام الحجة على أن الإنسان محاسب ، قال : ﴿ **فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ وإذ ثبت العجز فقد ثبت القهر ، وقامت الحجة على الإنسان ، ووجب التصديق ، ومن ذلك ينتقل السياق إلى ما يحدث للميت بحسب عمله ، وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم**

ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ قائمة ، فههنا يرينا الله عز وجل حال الناس عند الرجوع إليه ، وإذ كان الأمر عظيماً ، فإن السورة تختم بالأمر : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ .

٢ - قلنا إن محور سورة الواقعة آت في سياق الآيات الآمرة بالعبادة والتقوى والتوحيد ، والتي بنت ذلك على أن الله هو الخالق ، وأنه منزل القرآن ، وأن له جنة أعدها للعاملين ، وأن له ناراً أعدّها للكافرين ، وقد فصّلت سورة الواقعة في هذا فبرهنت على أن الله هو الخالق ، وبرهنت على اليوم الآخر ، وبرهنت على أن القرآن من عند الله ، وإذا استقامت هذه الأصول فقد فصّلت فيما أعدّه الله للكافرين والشاكرين في ابتداء السورة ونهايتها ، مقيمة الحجة على الكافرين ، ومدللة على صحة سير الشاكرين ، كما أمرت السورة بتسبيح الله عز وجل ، وهو نوع من أنواع العبادة ، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يجعل هذا التسبيح في الركوع ، كما سنرى في الفوائد ، وفي ذلك تفصيل للأمر (اعبدوا) بتبيان بعض ما يدخل فيه .

٣ - يلاحظ أن سورة الواقعة انتهت بقوله تعالى : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ وأن سورة الحديد الآتية بعدها تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **سبّح لله ما في السمٰوات والأرض** ﴾ وذلك من مظاهر ارتباط أواخر السور السابقة ببدايات السور اللاحقة ، مع أن السورة اللاحقة كما سنرى بداية مجموعة جديدة من مجموعات المفصّل .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثاً** ﴾ قال ابن كثير : (أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين . قال السدي : هم جمهور أهل الجنة ، وآخرون عن يسار العرش وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشمال ، وهم عامة أهل النار - عياذاً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم (أي : السابقون) سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء ، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون** ﴾وهكذا قسّمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم ، وهكذا ذكرهم في

قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ الآية ، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه ، روى سفيان الثوري عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ قال : هي التي في سورة الملائكة ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات** ﴾ . وقال ابن جريج عن ابن عباس : هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة الملائكة ، وقال يزيد الرقاشي : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ قال : أصنافاً ثلاثة ، وقال مجاهد : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ يعني : فرقاً ثلاثة . وقال ميمون ابن مهران : أفواجاً ثلاثة ، وقال عبيد الله العتكي عن عمر بن الخطاب : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ اثنان في الجنة ، وواحد في النار . وروى ابن أبي حاتم عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ قال : الضُّرباءُ كل رجل من كل قوم كانوا يعملون عمله وذلك بأن الله تعالى يقول : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون** ﴾ قال : هم الضُّرباءُ .

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ... وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال** ﴾ فقبض بيده قبضتين فقال : « هذه للجنة ولا أبالي ، وهذه للنار ولا أبالي » وروى الإمام أحمد – أيضاً – عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » وقال محمد بن كعب وأبو حرزة يعقوب بن مجاهد ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ هم الأنبياء عليهم السلام ، وقال السدي : هم أهل عليين ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ قال : يوشع بن نون سبق إلى موسى ، ومؤمن آل يس سبق إلى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سبق إلى محمد رسول الله ﷺ ، رواه ابن أبي حاتم عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبي نجيح به . وروى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين . ورواه ابن جرير من حديث خارجة به ، وقال الحسن وقتادة ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ أي : من كل أمة ، وقال الأوزاعي عن عثمان ابن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿ **والسابقون السابقون * أولئك المقربون** ﴾ ثم قال

أولهم رواحاً إلى المسجد ، وأولهم خروجاً في سبيل الله ، وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا كما قال تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموٰات والأرض** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ فمن سَابَق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك المقربون في جنات النعيم** ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : قالت الملائكة : يا رب جعلت لبني آدم الدنيا ، فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون ، فاجعل لنا الآخرة ، فقال : لا أفعل ، فراجعوا ثلاثاً فقال : لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان . ثم قرأ عبد الله : ﴿ **والسابقون السابقون * أولئك المقربون في جنات النعيم** ﴾ وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه الرد على الجهمية ولفظه : فقال الله عز وجل : لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى عن السابقين : ﴿ **ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين** ﴾ قال ابن كثير : (وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين ، فقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري رواها عنهما ابن أبي حاتم وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ولم يحك غيره ولا عزاه إلى أحد ، ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ **ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين** ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت ﴿ **ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين** ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة ، وتقاسمونهم النصف الثاني » ورواه الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة فذكره .

وقد روى من حديث جابر نحو هذا . وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله ﷺ : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » الحديث بتمامه وهو مفرد في صفة الجنة ولله الحمد والمنة ، وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر

الأمم والله أعلم ، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ أي : من صدر هذه الأمة ﴿ **وقليل من الآخرين** ﴾ أي : من هذه الأمة . روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي بكر المزني قال : سمعت الحسن أتى على هذه الآية ﴿ **والسابقون السابقون * أولئك المقربون** ﴾ فقال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين . ثم قال : قرأ الحسن ﴿ **والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثلة من الأولين** ﴾ قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة . وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الأية ﴿ **ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين** ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث بتمامه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » فهذا الحديث - بعد الحكم بصحة إسناده - محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك محتاج إلى القائمين به في أواخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ؛ ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ، ولا تعلق أساسه فيها ولهذا قال عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة » وفي لفظ : « حتى يأتي أمر الله تعالى وهم كذلك » والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها ، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، وفي لفظ : « مع كل ألف سبعون ألفاً - وفي آخر - مع كل واحد سبعون ألفاً » وقد روى الحافظ أبو القاسم عن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أما والذي نفسي بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود ، زمرة جميعها يحيطون الأرض ، تقول الملائكة : لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفاكهة مما يتخيّرون** ﴾ قال ابن كثير : (هذه

الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ويدل على ذلك حديث عكراش ابن ذؤيب الذي رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمه الله في مسنده عن عبد الله ابن عكراش عن أبيه عكراش بن ذؤيب قال : « بعثتني مُرّة في صدقات أموالهم إلى رسول الله ﷺ فقدمت المدينة ، فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بإبل كأنها عروق الأرطى قال : « من الرجل ؟ » قلت : عكراش بن ذؤيب ، قال : « ارفع في النسب » فانتسبت له إلى مرة بن عبيد ، وهذه صدقة مرة بن عبيد ، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال : « هذه إبل قومي هذه صدقات قومي » ثم أمر بها أن توسم بميسم إبل الصدقة ، وتضم إليها ، ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة فقال : « هل من طعام ؟ فأتينا بجفنة كالقصعة كثيرة الثريد والوذر ، فجعل يأكل منها فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى فقال : « يا عكراش كل من موضع واحد فإنه طعام واحد » . ثم أتينا بطبق فيه تمر أو رطب - شك عبيد الله رطباً كان أو تمراً - فجعلت آكل من بين يدي وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق وقال : « يا عكراش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد » . ثم أتينا بماء فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح ببلل كفيه وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً ثم قال : « يا عكراش هذا الوضوء مما غيرت النار » . وهكذا رواه الترمذي مطولاً وابن ماجه جميعاً ... به وقال الترمذي : غريب . وروى الإمام أحمد عن ثابت قال : قال أنس كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا ، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أثنى عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه ، فأتته امرأة فقالت : يا رسول الله رأيت كأني أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة ، فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة فنظرت فإذا فلان بن فلان وفلان بن فلان - فسمعت اثني عشر رجلاً كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك - فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم فقيل : اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ أو البيذج ، قال : فغمسوا فيه فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر فأتوا بصحفة من ذهب فيها بسر ، فأكلوا من بسره ما شاؤوا ، فما يقلبوها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا ، وأكلت معهم ، فجاء البشير من تلك السرية فقال ما كان من رؤيا كذا وكذا فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلاً فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال : « قصي رؤياك » . فقصتها وجعلت تقول فجيء بفلان وفلان كما قال . هذا لفظ أبي يعلى قال الحافظ الضياء : وهذا على شرط مسلم . وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل إذا نزع ثمرة من

الجنة عادت مكانها أخرى ») .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولحم طير مما يشتهون** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال : « آكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » انفرد به أحمد من هذا الوجه . وروى الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه صفة الجنة من حديث إسماعيل ابن علي الحطمي عن نافع عن ابن عمر قال : ذكرت عند النبي ﷺ طوبى فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر هل بلغك ما طوبى ؟ » قال : الله ورسوله أعلم قال : « طوبى شجرة في الجنة ما يعلم طولها إلا الله يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفاً ، ورقها الحلل يقع عليها الطير كأمثال البخت » فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هناك لطيراً ناعماً ؟ قال : « أنعم منه من يأكله وأنت منهم إن شاء الله تعالى » وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **ولحم طير مما يشتهون** ﴾ وذكر لنا أن أبا بكر قال : يا رسول الله إني أرى طيرها ناعمة كأهلها ناعمون ، قال : « من يأكلها والله يا أبا بكر أنعم منها وإنها لأمثال البخت ، وإني لأحتسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر » . وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال : « نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر » فقال عمر إنها لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : « آكلها أنعم منها » وكذا رواه الترمذي وقال : حسن عن أنس . ثم روى ابن أبي حاتم عن عطاء عن كعب قال : إن طائر الجنة أمثال البخت ، يأكل من ثمرات الجنة ، ويشرب من أنهار الجنة ، فيصطففن له ، فإذا اشتهى منها شيئاً أتى حتى يقع بين يديه فيأكل من خارجه وداخله ، ثم يطير لم ينقص منه شيء ؛ صحيح إلى كعب ، وقال الحسن بن عرفة عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً ») .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **في سدر مخضود** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجار عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم قال : أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ في

سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها لتنبت ثمراً ففتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر » . (طريق آخر) روى أبو بكر بن أبي داود عن عتبة بن عبد السلمي قال : كنت جالساً مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال : يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجراً أكثر شوكاً منها – يعني : الطلح – فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون الآخر ») .

٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وطلح منضود** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد : طلح منضود قال : الموز ، قال وروي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقسامة بن زهير وقتادة وأبي حزرة مثل ذلك وبه قال مجاهد وابن زيد وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح ولم يذكر ابن جرير غير هذا القول) .

٧ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وظل ممدود** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرءوا إن شئتم ﴿ **وظل ممدود** ﴾ » ورواه مسلم من حديث الأعرج به . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام اقرءوا إن شئتم ﴿ **وظل ممدود** ﴾ » وكذا رواه مسلم من حديث الأعرج به وكذا رواه البخاري . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين – أو مائة – سنة هي شجرة الخلد » وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن رسول الله قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها واقرءوا إن شئتم ﴿ **وظل ممدود** ﴾ » إسناد جيد ولم يخرجوه وهكذا رواه ابن جرير والبخاري كلهم عن محمد بن عمرو به وقد رواه الترمذي من حديث عبد الرحيم بن سليمان به .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام اقرءوا إن شئتم ﴿ **وظل ممدود** ﴾ فبلغ ذلك كعباً فقال : صدق والذي أنزل التوراة على موسى ، والفرقان على محمد ، لو أن رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأعلى تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرماً ، إن الله تعالى غرسها بيده ، ونفخ فيها من روحه ، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس عن النبي ﷺ في قوله تعالى :

﴿ وظل ممدود ﴾ قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » وكذا رواه البخاري بسنده ، وكذا رواه أبو داود الطيالسي بسنده ، وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها » فهذا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله ، وروى الترمذي عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » ثم قال : حسن غريب . وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال : الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق ظلها قدر ما يسير الراكب في كل نواحيها مائة عام ، قال : فيخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها ، قال : فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا . هذا أثر غريب وإسناده قوي حسن) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ قال ابن كثير : (وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر ، وفيهما أيضاً عن ابن عباس قال : خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » ، وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : بينا نحن في صلاة الظهر إذ تقدّم رسول الله ﷺ فتقدّمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ، ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبيّ بن كعب : يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه قال : « إنه عرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به ، فحيل بيني وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقص منه » . وروى مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر نحوه .

وروى الإمام أحمد عن عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبيد السلمي يقول : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابي فيها فاكهة . قال : نعم ، وفيها شجر تدعى طوبى . قال : فذكر شيئاً لا أدري ما هو ، قال : أي شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك ؟ فقال النبي ﷺ : أتيت الشام ؟ قال : لا . قال : تشبه شجرة بالشام تدعى

الجوزة ، تنبت على ساق واحد وينفرش أعلاها . قال : عظم العنقود ؟ (أي : في شجرة طوبى) قال : مسيرة شهر للغراب الأبقع لا يفتر . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً . قال : فيها عنب ؟ قال : نعم . قال : فما عظم الحبة ؟ قال : هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ، قال : نعم . قال : فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، فقال : اتخذي لنا منه دلواً ؟ . قال : نعم . قال : فإن تلك الحبة لتشبعني وأهل بيتي ؟ قال : نعم وعامة عشيرتك) .

أقول : من قوله عليه الصلاة والسلام : « إنّه عرضت عليّ الجنة ... فتناولت قطفاً من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه » فهمت أن الجنّة غيب من الغيب ، فهذا رسول الله ﷺ رآها عندما دنت له ، ولم يرها غيره ، وإذ كانت الجنة جزءاً من السماء السابعة فهذا يفيد أن السموٰات السبع غيب من الغيب . فهذا الحديث أحد أدلتي فيما ذهبت إليه في هذا التفسير أن السموٰات السبع التي أخبرنا عنها القرآن سموٰات غيبية محجوبة عن الإنسان ، فهي موجودة ولكنها مغيبة عنا ، والسّماء المرئية لنا هي السماء اللغوية فكل ماعلاك فهو سماء ، وندر من الناس من يعرف كيف يحمل لفظ السماء إذا ورد في كتاب أو سنة ، فقد يرد ويراد به مطلق العلو ، وقد يرد ويراد به السحاب ، وقد يرد ويراد به مجرّات هذا الكون ، وقد يرد ويراد به السموٰات السبع .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً * عُرباً أتراباً * لأصحاب اليمين** ﴾ قال ابن كثير : (أي أعدناهن في النشأة الأخرى بعدما كن عجائز رمصاً صرن أبكاراً عرباً ، أي بعد الثيوبة عدن أبكاراً ، عُرباً متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : عرباً أي غنجات ، قال : موسى ابن عبيدة الربذي عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاءً قال : نساء عجائز كن في الدنيا عمشاً رُمصاً » رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم ثم قال الترمذي : غريب ، وموسى ويزيد ضعيفان وروى ابن أبي حاتم عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاءً** ﴾ يعني : الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا ، وروى عبد ابن حميد ... عن الحسن قال أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فولت تبكي قال :

أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاءً ۞ فجعلناهن أبكاراً** ﴾ وهكذا رواه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حميد . وروى أبو القاسم الطبراني عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ **وحور عين** ﴾ قال : « حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ **كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشرة وهو الغرقيء » قلت يا رسول الله : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ **عرباً أتراباً** ﴾ قال : « هن اللواتي قُبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عرباً متعشقات محببات أتراباً على ميلاد واحد » قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » ، قلت : يا رسول الله وبم ذاك ! قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل . ألبس الله وجوههن النورد ، وأجسادهن الحرير . بيض الألوان ، خضر الثياب ، صفر الحلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب : يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كُنّا له وكان لنا » قلت يا رسول الله : المرأة هنا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : يا رب إن هذا كان أحسن خلقاً معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » وفي حديث الصور الطويل المشهور أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم في دخول الجنة ، فيقول الله تعالى قد شفّعتك وأذنت لهم في دخولها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشيء الله ، وثنتين وسبعين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله في الدنيا يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب ، مكلّل باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجاً من سندس وإستبرق ، وإنه ليضع يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها ، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وأنه

لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت ، كبده لها مرآة – يعني : وكبدها له مرآة – فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذكره ولا يشتكي قبلها إلا أنه لا مني ولا منية ، فبينما هو كذلك إذ نودي إنا قد عرفنا أنك لا تَمل ولا تُمل إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة قالت : والله ما في الجنة شيء أحسن منك ، وما في الجنة شيء أحب إليّ منك » . وروى عبد الله بن وهب عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال له : أنطأ في الجنة ؟ قال : « نعم : والذي نفسي بيده دحماً دحماً فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً » وروى الطبراني عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً » . وروى أبو داود الطيالسي : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء » قلت يا رسول الله : ويطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة » ورواه الترمذي من حديث أبي داود وقال : صحيح غريب ، وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء » قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي هذا الحديث عندي على شرط الصحيح والله أعلم) .

....

جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتفلون ولا يتمخّطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » وروى الإمام أحمد والطبراني واللفظ له عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع » . وروى الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين بني ثلاث وثلاثين سنة » ثم قال : حسن غريب ، وروى ابن وهب عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاث وثلاثين في الجنة لا يزيدون عليها أبداً

وكذلك أهل النار » ورواه الترمذي . وروى أبو بكر ابن أبي الدنيا عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعاً بذراع الملك ! على حسن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد جرد مرد مكحلون » وروى أبو بكر بن أبي داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين جرداً مرداً مكحلين . ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة فيكسون منها لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم ») . ا . هـ .

أقول : بمناسبة ما ورد هنا أنّ آدم عليه السلام طوله ستون ذراعاً : حاك في صدري سؤال هو : هل بقي آدم عليه السلام على طوله عندما أهبط إلى الأرض ، أو تغيّر ؟ وكان الأمر عندي محتملاً ، غير أن ما ذكره الدكتور حسن زينو في كتابه (التطور والإنسان) حول العثور على هيكل للإنسان العملاق الذي يعدل حجمه ستة أضعاف إنساننا الحالي ، وما ذكرته بعض الإذاعات [١] من العثور على هيكل إنسان تبلغ خطوته مترين ، كل ذلك رجّح لديّ أن آدم بقي على طوله وحاله عندما أهبط إلى الأرض .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى عن أهل اليمين ﴿ **ثلّة من الأولين * وثلّة من الآخرين** ﴾ قال ابن كثير : (أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين . وروى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود قال - وكان بعضهم يأخذ عن بعض - قال رسول الله ﷺ : « عرضت عليّ الأنبياء وأتباعها بأممها فيمر عليّ النبي في العصابة ! والنبي في الثلاثة ، والنبي وليس معه أحد - وتلا قتادة هذه الآية ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ - قال حتى مرّ عليّ موسى بن عمران في كبكبة من بني إسرائيل ، قال : قلت : ربي من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني إسرائيل ، قال : قلت : رب فأين أمتي ؟ قال انظر عن يمينك في الظراب قال : فإذا وجوه الرجال قال : أرضيت ؟ قال : قد رضيت رب ، قال : انظر إلى الأفق عن يسارك فإذا وجوه الرجال قال : أرضيت ، قلت رضيت رب ، قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد قال سعيد وكان بدرياً قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : « اللهم اجعله

(١) إذاعة الأردن في العشر الأخير من جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ .

منهم » ، قال أنشأ رجل آخر قال : يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك به عكاشة » قال فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم - فداكم أبي وأمي - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الظراب ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فإني قد رأيت ناساً كثيراً قد ناشبوا أحوالهم ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » قال فكبّرنا ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » قال فكبّرنا فقال : « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » قال فكبّرنا قال ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين** ﴾ قال : فقلنا : بيننا من هؤلاء السبعون ألفاً ؟ فقلنا هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا قال فبلغه ذلك فقال : « بل هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين عن قتادة به نحوه ، وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها . روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « هما جميعاً من أمتي ») .

١١ - يلاحظ أن اللام قد دخلت في قوله تعالى : ﴿ **لو نشاء لجعلناه حطاماً** ﴾ على كلمة جعلناه ، بينما لم تدخل على جعلناه من قوله تعالى : ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجاً** ﴾ قال النسفي في تعليل ذلك : (ودخلت اللام على جواب لو في قوله لجعلناه حطاماً ، ونزعت منه هنا لأن لو لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلّق الجزاء بالشرط ، ولم تكن مخلصة الشرط كإن ، ولا عاملة مثلها ، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك ، ولما شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كل أحد به ، وتساوي حالي حذفه وإثباته ، على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ، ولأن هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة ، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب ؛ للدلالة على أن المطعوم مقدّم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى عن النار ﴿ **نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين** ﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد وقتادة : أي تذكر النار الكبرى قال قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : « يا قوم ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار

جهنم » قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ قال : « إنها قد ضربت بالبحر ضربتين أو مرتين حتى يستنفع بها بنو آدم ويُدنوا منها » وهذا الذي أرسله قتادة قد رواه الإمام أحمد في مسنده ، فروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » وروى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية فقال : « إنها قد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً » رواه البخاري ومسلم وفي لفظ لمسلم : « والذي نفسي بيده لقد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرّها » وقد روى أبو القاسم الطبراني ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهي أشد سواداً من ناركم هذه بسبعين ضعفاً » قال الضياء المقدسي : وقد رواه أبو مصعب عن مالك ولم يرفعه وهو عندي على شرط الصحيح) .

١٣ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ قال صاحب الظلال : (ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل ، الذي يدركونه بعيونهم المجردة . ومن ثَمَّ قال لهم : ﴿ **وإنه لقسم – لو تعلمون – عظيم** ﴾ فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضاً لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم .

وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير ، يقول لنا : إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدوداً . مجموعة واحدة – هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية – تبلغ ألف مليون نجم !

« ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً . إن لم يكن مستحيلاً » .

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها في هذا الفضاء الهائل .

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم ، وهو أكبر كثيراً جداً مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة . وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم !) .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وتجعلون رزقكم يقول : شكركم ، أنكم تكذبون تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا » وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن إسرائيل به مرفوعاً ، وكذا رواه الترمذي وقال : حسن غريب وقد رواه سفيان الثوري عن عبد الأعلى ولم يرفعه . وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ؛ يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا . وقرأ ابن عباس (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، وروى مالك في الموطأ عن زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب » أخرجاه في الصحيحين وأبو داود والنسائي كلهم من حديث مالك به . وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا » انفرد به مسلم من هذا الوجه ، وروى ابن جرير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليصبح القوم بالنعمة أو يمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا » قال محمد - هو ابن إبراهيم - فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب فقال : ونحن قد سمعنا من أبي هريرة وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي فلما استسقى التفت إلى العباس فقال : يا عباس ، يا عم رسول الله ، كم أبقى من نوء الثريا ؟ فقال العلماء : يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعاً ، قال :

فما مضت سابعة حتى مطروا ، وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر لا أن ذلك النوء مؤثر بنفسه في نزول المطر ، فإن هذا هو المنهي عن اعتقاده) .

وروى ابن جرير عن إسماعيل بن أمية – فيما أحسبه أو غيره – أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً ومطروا يقول : مطرنا ببعض عثانين الأسد فقال : « كذبت بل هو رزق الله » . ثم روى ابن جرير عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « ما مطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين – ثم قال – ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ يقول قائل : مطرنا بنجم كذا وكذا » . وفي حديث عن أبي سعيد مرفوعاً : « لو قحط الناس سبع سنين ثم مطروا لقالوا مطرنا بنوء المجدع » . وقال مجاهد : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ قال : قولهم في الأنواء مطرنا بنوء كذا وبنوء كذا يقول : قولوا : هو من عند الله وهو رزقه وهكذا قال الضحاك وغير واحد ، وقال قتادة أما الحسن فكان يقول : بئس ما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب ، فمعنى قول الحسن هذا وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ولهذا قال قبله ﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ .

أقول : يستدلّ لمصلحة الأرصاد الجوية بسؤال عمر ، فهو سؤال عن عالم الأسباب ، فالعرب قديماً كانت تعرف من خلال علامات معينة قرب نزول المطر وقلّته وكثرته ، وهذا الذي أصبح الآن علماً برأسه ، له أجهزته واختصاصيوه ، وهذا العلم يقدّم الآن نشرات جوية لمدة طويلة أو قصيرة ، وهذه النشرات قابلة للصواب وللخطأ ، ولا اعتراض عليها ، ولا زال كثيرون من الناس يشركون بالأنواء كأولئكم الذين يقولون مطرنا بتيار كذا وكذا معتقدين أنه ليس لله دخل في ذلك ، أولئك المشركون ، أما المؤمنون فيثبتون عالم الأسباب ويعرفون أن الله هو الفاعل .

١٥ – عرض صاحب الظلال قوله تعالى : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ عرض هذه الآيات بأسلوبه الرائع مبرزاً الحجة في الآيات فقال : (﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم** ﴾ ... كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله : ﴿ **وأنتم حينئذ تنظرون** ﴾ .

هنا . في هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلّفت وراءها الأرض

وما فيها . وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر .

هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً .

هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهي مجال البشر .
هنا يعرفون – ولا يجادلون – أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون .
هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .

هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال : ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ !

وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره – سبحانه وتعالى – وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال : ﴿ **فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ !

فلو كان الأمر كما تقولون : إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين . فدونكم إذن فلترجعوها – وقد بلغت الحلقوم – لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء . وأنتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون !

هنا تسقط كل تعلة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال . ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !) .

١٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنّة نعيم** ﴾ قال ابن كثير : (وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وبعض المباحات ﴿ **فروْح وريحان وجنة نعيم** ﴾ أي فلهم روح

وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم في حديث البراء : « إن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روْح وريحان وجنة ورب غير غضبان » قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **فرَوْح** ﴾ يقول : راحة ، وريحان يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروْح الاستراحة ، وقال أبو حرزة : الراحة من الدنيا ، وقال سعيد بن جبير والسدي : الروْح : الفرح وعن مجاهد ﴿ **فرَوْح وريحان** ﴾ وجنة ورخاء ، وقال قتادة فروح فرحمة وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : وريحان ورزق وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ؛ فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿ **وجنة نعيم** ﴾ قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه ، وقال محمد بن كعب : لا يموت أحد من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو أم من أهل النار ؟ وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ **يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ ولو كتبت ههنا لكان حسناً ، وأجلها حديث تميم الداري ، عن النبي ﷺ : « يقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى فلان فائتني به ، فإنه قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب . ائتني به فلأريحنه ، قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لوناً ، لكل منها ريح سوى صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك » وذكر تمام الحديث بطوله كما تقدم ، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية .

روى الإمام أحمد عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿**فرُوح وريحان** ﴾ برفع الراء وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث هارون - وهو ابن موسى الأعور - به وقال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديثه ، وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده ، وخالفه الباقون فقرأوا ﴿ **فرَوْح وريحان** ﴾ بفتح الراء . وروى الإمام أحمد عن أم هانىء أنها سألت رسول الله ﷺ أنتزاور إذا متنا ، ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يكون النسم طيراً يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها » . هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى يعلق يأكل ، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك ابن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم

يبعثه » . وهذا إسناد عظيم ومتن قويم . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل ملعقة بالعرش » الحديث ، وروى الإمام أحمد عن عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة فسمعته يقول : حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قال : فأكب القوم يبكون فقال : ما يبكيكم ؟ فقالوا : إنا نكره الموت ، قال ليس ذاك ولكنه إذا احتضر ﴿ **فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل والله عز وجل للقائه أحب ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم** ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ، والله تعالى للقائه أكره ، هكذا رواه الإمام أحمد ، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها شاهد لمعناه) .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزلٌ من حميم * وتصلية جحيم ...** ﴾ قال ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين** ﴾ أي : وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ أي : تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم : سلام لك أي : لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله وسلمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ وقال البخاري ﴿ **فسلام لك** ﴾ أي : مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وقد يكون كالدعاء له كقولك : سقياً لك من الرجال إن رفعت السلام فهو من الدعاء وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم** ﴾ أي : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ﴿ **فنزل** ﴾ أي : فضيافة ﴿ **من حميم** ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به

ما في بطونهم والجلود ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ أي : وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته) . ا.هـ .

أقـول : إن هنـاك اتجاهين في هـذه الآيات . الاتجـاه الأول : أن الحديث فيها عما يكون للميت يوم القيامة بعد إذ تقع الواقعة ، وعندئذ تكون خاتمة السورة تتحدّث عما تحدّثت به بدايتها ، والاتجاه الثاني يقول : إن الحديث في هذه الآيات يدور حول ما يستقبل به الميت فور وفاته ، فهي حديث عما يستقبل الميت في البرزخ في الفترة بين الموت وقيام القيامة ، وعلى هذا الاتجاه تكون السورة بدأت بالحديث عن القيامة ، وختمت بالحديث عما قبل ذلك من حياة برزخية ، وموت وحياة أولى .

١٨ - بمناسبة قوله تعالى في خاتمة السورة : ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ **سبح اسـم ربك الأعلى** ﴾ قال رسـول الله ﷺ : « اجعلـوها في سجـودكم » وكذا رواه أبو داود وابن ماجه ، وقال روح بن عبادة عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة » هكذا رواه الترمذي ورواه هو والنسائي أيضاً عن جابر عن النبي ﷺ به وقال الترمذي : حسن غريب لانعرفه إلا من حديث أبي الزبير . وروى البخاري في آخر كتابه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود من حديث محمد بن فضيل بإسناده مثله) .

أقول : وردت ﴿ **فسبّح باسم ربك العظيم** ﴾ في السورة مرّتين ، وفي كل مرة كانت ترد بعد ما تستجاش في النفوس عوامل الشعور بالعظمة ؛ ليأتي التسبيح بعد ذلك خارجاً من أعماق النفس .

وقد أمر رسول الله ﷺ أن نجعل هذا التسبيح في ركوعنا ، فإذا عرفنا أن سورة كاملة قد سيقت للوصول إلى التسبيح في الركوع الذي هو سنّة من سنن الصلاة ندرك أهمية الصلاة في حياة المسلم ، وفي بقاء الإسلام . والملاحظ أن كلّ جزء من أجزاء الصلاة قد جاء في سياق سورة من السور ؛ ليكون لهذا الجزء أرضيته العميقة التي يستند إليها ، فالقيام في الصلاة جاء في سورة ، وقراءة القرآن فيها جاءت في سورة ، والركوع

والسجود جاءا في أكثر من سورة .

وهذا يوصلنا إلى أصل عظيم في الدعوة والتربية : إن كثيراً من الأمور إذا لم تستند إلى أرضية واسعة فإنها تكون معرّضة للخطر ، فلا إله إلا الله مثلاً إذا لم يكن أساسها متيناً فإنّ الطغيان يحاول استئصالها ، ولذلك نجد القرآن قد تحدّث عنها كثيراً ، ولقد ورث المسلمون في العصور المتأخرة شعائر الإسلام دون أن يرثوا مع ذلك الأرضية الواسعة للشعائر فكاد أن يتغلّب أعداء الإسلام على الإسلام ، لولا أن الدعوة الإسلامية المعاصرة قد أعادت الأمر إلى نصابه .

كلمة أخيرة في سورة الواقعة :

سورة الواقعة هي أول سورة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم تأتي بعد ذلك سور مبدوءة بهذه الكلمة أكثر من مرة ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ وبعد التأمل في محلّ هذه السور بالنسبة لما قبلها وما بعدها . وبعد التأمل في مضامينها نلاحظ أن هذه السور لاتأتي في بداية مجموعات ، وليس شرطاً أن تأتي في نهاية مجموعات كذلك ، قد يكون وقد لا يكون ، فسورة الواقعة نهاية مجموعة ، وسورة المنافقون نهاية مجموعة ، بينما سورة النصر ليست نهاية مجموعة مثلاً كما سنرى . وحيثما جاءت سورة مبدوءة بإذا فإنك تجدها مهيجة على العمل والعبادة والتقوى من خلال ذكر ما يبعث على ذلك ، فالتشابه كثير جداً بين مضمون هذه السور .

....

لقد لاحظنا أن سورة الواقعة فصّلت في حيّز قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ بأن فصّلت قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ...** ﴾ فلنتذكر أن بداية سورة الحج هي : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ ولنلاحظ أن أكثر السور المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ فيها حديث عن الساعة ﴿ **إذا وقعت الواقعة** ﴾ ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ مثل هذا يجعلنا نستأنس أن

محور هذه السور هو محور سورة الحج أو حيّزه ، وهو الشيء الذي وجدناه من خلال سورة الواقعة ، وسنجده من خلال السور المشابهة لها .

....

ومن تأمَّلٍ لهذه السور نجد أنها تعظ ، ومن الوعظ تنقلنا إلى معنى هو من باب العبادة أو التقوى ، ففي سورة الواقعة نجد قوله تعالى : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ وفي سورة النصر وهي آخر سورة مبدوءة بـ (إذا) نجد قوله تعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ وقبل ذلك في سورة المنافقون نجد ﴿ **لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ... ﴾ وفي سورة التكوير ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾ وفي سورة الانشقاق ﴿ **فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون** ... ﴾ وفي سورة الزلزلة ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ كل ذلك يجعلنا نستأنس بأن محور هذه السور ، هو إما الأمر ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ... ﴾ في سورة البقرة ، أو في الآيات الآتية في حيّزه ، وعلى كلٍّ فالمعنى هو الذي يرينا إن كانت هذه القاعدة كلية أو أغلبية ، وهو موضوع سنراه أثناء سيرنا . وقد رأينا محور سورة الواقعة .

....

ونلاحظ من خلال المعاني أنه بسورة الواقعة تنتهي المجموعة الأولى من قسم المفصّل ، لتبدأ مجموعات متوالية ، هي مجموعات المسبّحات المبدوءة بسورة الحديد التي بدايتها ﴿ **سبح لله ما في السموٰات والأرض** ... ﴾ ونلاحظ أن سورة الواقعة منتهية بقوله تعالى : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ وأن سورة الحديد مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **سبَّح لله ما في السموٰات والأرض** ﴾ مما يذكرنا بالقاعدة أن نهاية كل سورة من سور القرآن مرتبطة ببداية ما بعدها نوع ارتباط ، أحياناً يكون واضحاً جداً ، وأحياناً يحتاج إلى تأمل ، فسور القرآن إذن من ابتدائها إلى انتهائها متعانقة عناقاً عجيباً . لاحظ مثلاً أن نهاية سورة الفاتحة هي : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ... ﴾ وأن بداية سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ... ﴾ لاحظ ذكر لفظة (الهداية) في نهاية الفاتحة ، وبداية سورة البقرة . لاحظ مثلاً نهاية سورة آل عمران ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ ولاحظ بداية سورة النساء ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ لاحظ وجود لفظ (اتقوا) في النهاية

والبداية ، ولم نحاول فيما قبل المجموعات السابقة أن نقف وقفات طويلة عند هذا الموضوع ، لأن تركيزنا الرئيسي كان منصباً على النسق الذي تمشي عليه أقسام القرآن ومجموعاته ، وهو نفس النسق الذي سارت عليه سورة البقرة .

....

غير أن ظهور الصلات بشكل واضح في السور الست التي مرّت معنا فيما بين نهايات السورة السابقة وبدايات السورة اللاحقة ، جعلنا نركز على هذا المعنى هنا ، وهي ظاهرة تجدها في القرآن كله : أن السورة السابقة توصلك إلى السورة اللاحقة وتمهد لها ، لاحظ مثلاً نهاية سورة يونس ﴿ **واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ وبداية سورة هود ﴿ **الّر * كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت** ... ﴾ تجد الصلة ، لاحظ نهاية سورة هود ﴿ **فاعبده وتوكّل عليه** ... ﴾ ثم ادرس سورة يوسف بعدها ، تجد سورة يوسف درساً في التوكل وهكذا ، إلا أنه كما قلنا : أحياناً تكون الصلة واضحة ، وأحياناً تحتاج إلى تأمل ، ومن هذا المعنى والمعاني الأخرى التي ذكرناها حول ترتيب القرآن نجد أنّ هذا الترتيب للقرآن فيه من أنواع الإعجاز ما لا يحيط به البشر ، فما أكثر جنون أولئكم الذين لا يدركون أسرار هذا الترتيب ، ويطالبون بترتيب آخر أو يعترضون على هذا الترتيب ، وما أكثر ما أخطأ - وغفر الله له - من حاول أن يفسّر القرآن على غير ترتيبه الحالي ، كأن فسّره على حسب ترتيب النزول في زعمه ، وهو موضوع لا توجد أدواته أصلاً ولا أدلته بشكل يستقصي القرآن كله ، وذلك من فعل الله لهذا القرآن ؛ حتى لا تفكر الأمّة إلا بهذا الترتيب الخاص لما يحويه من إعجاز ويترتب عليه من مصالح .

....

لقد رأينا في المجموعة المارة معنا - وهي المجموعة الأولى من المفصّل - كيف أنها فصّلت في مقدّمة سورة البقرة ، والمقطع الأول من القسم الأول من السورة ، ورأينا أدلّة ذلك وتوجيهه ، ورأينا صلة نهاية السورة منها ببداية ما بعدها ، وسنلاحظ في كل المجموعات الآتية من المفصّل أنها تفصّل في حدود هذه الآيات من سورة البقرة ، ولا تتجاوزها لما بعدها ، بينما رأينا أن مجموعات القسم الأول والثاني وبعض مجموعات القسم الثالث تفصّل في هذا ، وفيما يأتي بعده من سورة البقرة ، واقتصار المفصّل على هذا الحدّ من التفصيل يشير إلى أن تفصيل هذه الآيات هو الأساس الذي يبنى عليه

غيره ، كما أن هذا يشير إلى أن المعاني الأولى من سورة البقرة هي البداية والنهاية ، وأنها المعاني التي تحتاج النفس البشرية إلى أن تذكّر بها مرة بعد مرة ، كما أن هذا يشير إلى كثرة المعاني المستكنة في الآيات الثلاثين الأولى لسورة البقرة حتى احتاج تفصيلها إلى عشرات السور .

....

وسنلاحظ فيما سيأتي معنا من السور أن المجموعة الواحدة تفصّل في معنى متسلسل مرتبط بالآيات الأولى من سورة البقرة ، ثم تأتي المجموعة الأخرى فتفصّل في معنى يتكامل مع السياق بحيث يتمّ تكامل متعدّد الجوانب في قسم المفصّل ، بشكل معجز وبديع .

....

ومن مثل ما مَرّ معنا ندرك كيف يأخذ كل إنسان حظه من هذا القرآن ، فمن لا يدرك إلا المعاني الحرفية لكل آية يأخذ حظه كاملاً ، ومن يدرك مع هذا محل الآية مع ما قبلها وما بعدها يأخذ حظّاً آخر ، ومن يدرك وحدة السورة يأخذ حظاً زائداً ، ومن يدرك صلة السورة بمجموعتها يأخذ حظاً جديداً ، ومن يدرك صلة المجموعة بقسمها ، وصلة الأقسم بسورة البقرة ، وسرّ سياق سورة البقرة الخاص يأخذ حظوظاً ومعاني أخرى ، ثم الناس يتفاوتون في هذا كله ، فمن إدراك محدود إلى أوسع منه إلى أوسع ، بما لا يلغى فيه فهم أوسع من فهم دونه ، وكل ذلك هو بعض الشأن في هذا القرآن .

....

هذا كله إذا نظرنا إلى المسألة من خلال قراءة واحدة ، ولكن هناك قراءات ، وأوسع من ذلك أن القرآن أنزل على سبعة أحرف سنرى معناها في كتاب (الأساس في السنة وفقهها) وفي ذلك أسرار كثيرة . فالوقف في قراءة يعطيك معنى ، والوقف في قراءة أخرى يعطيك معنى جديداً ، والإعراب المتعدّد للكلمة الواحدة في القراءة الواحدة – أو في القراءات – يعطيك معاني جديدة ، وكل معنى من هذه المعاني هو صحيح في بابه ، وباجتماعها مع بعضها تتولد عندك معان لا تتناهى ، ولا يستطيع أحد لها حصراً وليس هذا هو كل شيء في هذا القرآن ، بل هذا بعض الشيء .

....

فكتاب هذا شأنه هل يشك إلا مجنون جاهل أعمى في أنه من عند الله عز وجلّ ، كيف ومع تقادم العصور تجد معانيه تسبق العصور ، وتتحدى أن يستطيع أحد أن ينقض معنى منها . وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الثانية من قسم المفصّل نحب أن نذكّر بما يلي :

١ - هناك تكامل بين معاني السورة الواحدة ودليله وحدة معانيها ، وهناك تكامل بين سور المجموعة الواحدة ، والمجموعة التي بين أيدينا تصلح نموذجاً على ذلك ، فقد بدأت المجموعة في الذاريات التي تحدّثت عن القيامة ، وختمت المجموعة بسورة الواقعة ، ولقد تكامل الكلام عن التقوى في سور الذاريات والطور والنجم ، وجاءت سورة القمر - وفيها إنذار - لتدفع نحو التقوى ، وجاءت سورة الرحمن - وفيها تذكير بالنعمة - لتدفع نحو التقوى ، ثم جاءت سورة الواقعة لتكمّل الدفع نحو الوصول .

٢ - وكما أن هناك تكاملاً بين معاني السورة الواحدة ، وتكاملاً بين سور المجموعة ، فإن تكاملاً بين مجموعات القسم كائن ، وسنتعرض لهذا أثناء عرضنا لهذا القسم ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

٣ - وكل قسم من الأقسام يكمّل بقية الأقسام ، فقسم المفصّل يكمّل تفصيل قسم المثاني ، وقسما المثاني والمفصّل يكملان تفصيل قسم المئين ، والأقسام الثلاثة تكمّل تفصيل قسم الطِّوَال ، ولهذا كله قواعده وأسرار انتظامه ، وكلّ ذلك قد ربط بخيوط إلى سورة البقرة ، فكأنها الأصل الذي ينبثق عنه بانتظام فروع أولى ، ثم فروع ثانية ، ثمّ فروع ثالثة ، ثمّ فروع رابعة ، فكأنها شجرة فيها أربع وعشرون طبقة ، كل طبقة لها فروعها وثمارها ، وكل طبقة ترتبط بآيات سورة البقرة بخيوط منتظمة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمّى بقسم المفصَّل
وتشمل سورتي :
(الحديد ، والمجادلة)

كلمة في المجموعة الثانية من قسم المفصَّل

تبدأ سورة الحديد بقوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السموٰات والأرض** ﴾ ثمّ تأتي بعدها سورة المجادلة ، وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **قد سمع** ﴾ ثمّ تأتي بعدها سورة الحشر وهي تبدأ كسورة الحديد بقوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السموٰات وما في الأرض** . ﴾ ثمّ تأتي بعدها سورة الممتحنة وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ... ﴾ ثمّ تأتي سورة الصف ... وهي تبدأ كما بدأت سورة الحديد بقوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السموٰات وما في الأرض** ﴾ ثمّ تأتي سورة الجمعة وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يسبح لله ما في السموٰات وما في الأرض** ﴾ ثمّ تأتي سورة المنافقون وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ... ﴾ ثمّ تأتي سورة التغابن وبدايتها شبيهة ببداية سورة الحديد ﴿ **يسبح لله ما في السموٰات وما في الأرض** ... ﴾ ومن استقراء المعاني نجد أننا أمام عدة مجموعات كل مجموعة تبدأ بسورة فاتحتها كلمتا (سبح أو يسبح) ، والمجموعة الثالثة منها تتألف من ثلاث سور هي : الصف ، والجمعة ، والمنافقون ، وكل من سورتي الصف والجمعة تبدأ بـ (سبح ، يسبح) مع أنهما في مجموعة واحدة ، فنحن في زمرة المسبّحات أمام أربع مجموعات ، المجموعة الأولى منها هي مجموعة الحديد والمجادلة وهي المجموعة الثانية من قسم المفصّل .

....

تفصّل مجموعة الحديد والمجادلة في الآيات السبع والعشرين الأول من سورة البقرة كما سنرى ، فتبرز لنا الكثير من معاني الإيمان والكفر والنفاق ، وما ينبثق عن كلٍّ ، وما يستلزمه كلّ من معان .

....

وهذه المجموعة هي الأولى من مجموعات زمرة المسبّحات التي تقدّم كل منها تفصيلاً جديداً لمعانٍ في سورة البقرة ، والتي تتكامل مع بعضها لتأخذ محلّها في تكامل قسم المفصّل .

☆ ☆ ☆

سورة الحديد

وهي السورة السابعة والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الأولى من قسم
المفصل ، وهي تسع وعشرون آية
وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الحديد :

قدّم الألوسي لسورة الحديد بقوله : (أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة ، وقال النقاش وغيره : هي مدنية بإجماع المفسرين ولم يسلم له ، فقد قال قوم : إنها مكية ، نعم الجمهور - كما قال ابن الفرس - على ذلك .

وقال ابن عطية : لا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً ، لكن يشبه أن يكون صدرها مكياً ، ويشهد لهذا ما أخرجه البزار في مسنده ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي ، وابن عساكر عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه دخل على أخته قبل أن يسلم ، فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد ، فقرأه حتى بلغ ﴿ **آمِنُوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ فأسلم ، ويشهد لمكية آيات أُخر ما أخرج مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه . وغيرهم عن ابن مسعود : ما كان بين أسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ إلا أربع سنين . وأخرج الطبراني ، والحاكم وصححه وغيرهما عن عبد الله بن الزبير أن ابن مسعود أخبره أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله تعالى بها إلا أربع سنين ﴿ **ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ..** ﴾ الآية) .

(ووجه اتصالها - بالواقعة - أنها بدئت بذكر التسبيح وتلك ختمت بالأمر به ، وكان أولها واقعاً موقع العلة للأمر به فكأنه قيل : ﴿ **سبح باسم ربك العظيم** ﴾ لأنه سبح له ما في السموات والأرض ، وجاء في فضلها مع أخواتها ما أخرجه الإمام أحمد ؛ وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عرباض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبّحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وأخرج ابن الضريس نحوه عن يحيى بن أبي كثير ثم قال : قال يحيىٰ : نراها الآية التي في آخر الحشر) .

وقال ابن كثير : والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله تعالى : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة الحديد : (هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ؛ فلا تضن عليها بشيء ، ولا تحتجز دونها شيئاً .. لا الأرواح ولا الأموال ؛

ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور .. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تعتز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين . كما أنها هي الحقيقة التي تشعر القلوب [بالله] ، فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه) .

كلمة في سورة الحديد ومحورها :

نلاحظ أن سورة الحديد تبدأ بالكلام عن الله عز وجل ثمّ تبني على ذلك ، فتأمر بالإيمان والإنفاق ، وتنكر على من لا يؤمن ولا ينفق ، ثمّ تحضّ على الإنفاق ، ثمّ تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى موضوع إرسال الرسل والحكمة فيه ، وموقف الناس منهم ، وبعض الاتجاهات الغالية عند بعض أتباعهم ، وتنتهي بالأمر بالتقوىٰ والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وتتعرّض السورة في سياقها لقضايا الإيمان بالله والرسل والكتب واليوم الآخر والقدر ، كما تتعرّض للنفاق وأسبابه وآثاره ، وعقوبة أهله ، وتركز على الإيمان بالرسول محمد ﷺ . فإذا كانت مقدمة سورة البقرة تتحدّث عن المتقين والكافرين والمنافقين فإن سورة الحديد تعمّق تصورنا لقضية الإيمان والنفاق والكفر ضمن سياقها .

تتألف سورة الحديد من مقدمة ، ومقطع ، وخاتمة .

المقدمة تتحدث عن الله عز وجل .

والمقطع يأمر بالإيمان بالله والرسول والإنفاق .

والخاتمة تأمر بالتقوىٰ والإيمان بالرسول ﷺ ، وتحدثنا عمّا وعد الله المتقين .

....

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٦) وهذه هي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **سبّح لله ما في السموٰات والأرض** ﴾ قال النسفي : أي : ممّا يتأتى منه التسبيح ، ويصح وقال ابن كثير : أي : من الحيوانات والنباتات . ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذي خضع له كل شيء وقال النسفي : (أي : المنتقم من مكلّف لم يسبح له عناداً) ﴿ **الحكيم** ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿ **له ملك السموٰات والأرض** ﴾ فليس لغيره فيهما أدنىٰ ملك ﴿ **يحيي ويميت** ﴾ أي : يحيي الموتىٰ ويميت الأحياء ﴿ **وهو علىٰ كل شيء قدير** ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ **هو الأول** ﴾ أي : القديم الذي كان قبل كل شيء ﴿ **والآخر** ﴾ أي : الباقي فلا يطرأ عليه فناء ولا عدم ﴿ **والظاهر** ﴾ قال النسفي : بالأدلّة الدالّة عليه . ﴿ **والباطن** ﴾ قال النسفي : لكونه غير مدرك

بالحواس ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ فلا شيء إلا وهو معلوم له إجمالاً وتفصيلاً . ﴿ **هو الذي خلق السموٰات والأرض في ستة أيام ثم استوى علىٰ العرش** ﴾ وذلك من مظاهر قدرته ودليل مالكيته ﴿ **يعلم ما يلج في الأرض** ﴾ أي : ما يدخل فيها من غيرها كالأشعة والنيازك والملائكة ، أو ما يدخل في تربتها من حَبّ ومطر وموتىٰ ، وغير ذلك ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ إلى غيرها من أرواح وملائكة وأقمار صناعية ومراكب فضائية ، أو ما يخرج من تربتها من نبات وزرع وثمار ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ من ملائكة وأمر ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ من الملائكة والأرواح والأعمال والدعوات ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ قال النسفي : (بالعلم والقدرة عموماً وبالفضل والرحمة خصوصاً) .

أقول : بعد أن حدثنا في أول الآية عن مظاهر قدرته حدثنا فيما بعد ذلك عن مظاهر علمه ، ثم ختم الآية بقوله : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ قال ابن كثير : (أي : رقيب عليكم شهيد علىٰ أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم ، من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه علىٰ السواء ، وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ويعلم مكانكم ويعلم سركم ونجواكم ...) . قال النسفي : فيجازيكم علىٰ حسب أعمالكم ﴿ **له ملك السموٰات والأرض** ﴾كرر ذكر مالكيته بعد أن ذكر دليل ذلك ليتوصل إلى تقرير رجوع الأمور كلها إليه فقال : ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ أمور الدنيا والآخرة ، فكلها مرجعها إليه ، لأنه وحده المالك المتصرف ، ثمّ دلّل علىٰ مالكيته مرة ثانية فقال : ﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ قال النسفي : (أي : يدخل الليل في النهار ، بأن ينقص من الليل ويزيد من النهار ، ويدخل النهار في الليل بأن ينقص من النهار ويزيد من الليل) وكل ذلك علىٰ أدق ما يكون وبما يحقق لمجموع سكان الكرة الأرضية من المصالح ما لا يحاط به . قال ابن كثير : (أي : هو المتصرف في الخلق ، يقلب الليل والنهار ، ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم صيفاً ثم خريفاً وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه) ﴿ **وهو عليم بذات الصدور** ﴾ أي : يعلم السرائر وإن دقّت وإن خفيت ، ومن كان هذا شأنه فلا شك أن مرجع الأمور كلها إليه سبحانه ، وبهذا انتهت المقدمة بعد أن دلّلت علىٰ مالكية الله للأشياء كلها ، وعلىٰ إحاطة قدرته وعلمه ، وعلىٰ قدمه وبقائه ، وعلىٰ ظهوره وبطونه ، وعلىٰ أنه وحده المتصرف ، وأن مرجع الأمور إليه ، وقدّم لذلك بذكر تسبيح الأشياء له وأنّه العزيز الحكيم وهذا كله يأتي كمقدمة للسورة

التي تأمر بالإيمان بالله ورسوله وتأمر بالإنفاق .

كلمة في السياق :

١ - إن الإيمان بالغيب عليه مدار الإسلام كله ، والإيمان بالله هو مرتكز الإيمان بالغيب ؛ فمنه يتفرّع الإيمان بالرسل ، وعن الإيمان بالله والرسل يتفرّع الإيمان بالملائكة الذين هم الواسطة بين الله والرسل ، وعن الإيمان بالله يتفرّع الإيمان باليوم الآخر والقدر ، وعن الإيمان بالله والرسل يتفرع الإيمان بالكتب ، ومن ثم نلاحظ أن السورة قدّمت بالتعريف على الله وصفاته .

٢ - سيأتي بعد هذه المقدمة مباشرة أمر بالإيمان بالله والرسول والإنفاق ، مما يشير إلى أن المقدمة ذكرت الأساس الذي يقوم عليه الإيمان بالله والرسول والإنفاق ، فإنفاق المسلم أثر عن إيمانه بمالكية الله للأشياء كلها ، ومن ثم فهو يتصرف في المال بما يتفق وأمر الله - عز وجل - الذي هو المالك الأصيل .

٣ - وصفت مقدمة سورة البقرة المتقين بأنهم : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

وقد حدثتنا مقدمة سورة الحديد عن أصل من الأصول في موضوع الإيمان بالغيب ، وعن الأصل الذي ينبثق عنه موضوع الإنفاق ، وكل ذلك مقدمة مباشرة للأمر بالإيمان بالله ورسوله أي : بالشهادتين اللتين تتضمنان أركان الإيمان ، ومقدمة للأمر بالإنفاق الذي هو علامة الإيمان وبرهانه كما قال عليه الصلاة والسلام « والصدقة برهان » .

٤ - نلاحظ أن سوراً كثيرة فيما سبق من قسم المفصّل ركّزت على موضوع الصلاة بشكل أوسع مما ركّزت فيه على موضوع الإنفاق ، كما رأينا ذلك في سورة الذاريات والطور والنجم ، ومن ثم نلاحظ أن هذه المجموعة وهي الثانية في قسم المفصّل تركّز على موضوع الإنفاق أكثر مما تركز على موضوع الصلاة ، وهذا نوع من التكامل بين مجموعات المفصّل ، ومظهر من مظاهر التنوع في الدعوة إلى المعاني التي تضمنتها مقدمة سورة البقرة .

٥ - نلاحظ أن المقطع الرئيسي في السورة - الذي يأتي بين مقدمة السورة وخاتمتها - بدأ بالأمر بالإيمان بالله والرسول ﷺ والإنفاق ، ثمّ ركّز على هذه النقاط

الثلاث بشكل رئيسي ، وجاءت خاتمة السورة لتقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله** ﴾ وهذا كله يشير إلى أن قضية الإيمان بالله والرسول والإنفاق في سبيل الله هي المسار الرئيسي للسورة ، وإذ كان الإيمان يقابله كفر ونفاق ، فإنّ للكفر والنفاق ذكراً في السورة كما هما مذكوران في مقدمة سورة البقرة .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٢٧) وهذا هو :

الفقرة الأولى

المقدمة

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾

المجموعة الأولى من الفقرة الأولى

وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾

المجموعة الثانية من الفقرة الأولى

وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ

وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

الفقرة الثانية

المقدمة

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)

المجموعة الأولى من الفقرة الثانية

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

المجموعة الثالثة من الفقرة الثانية

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا

فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

ملاحظة في السياق :

يبدأ المقطع بآية تأمر بالإيمان بالله والرسول ، وتأمر بالإنفاق ، وتبيّن ما أعد الله للمؤمنين المنفقين ، ثم يبدأ المقطع يناقش ويدعو ، وسنعرض المقطع على أنه فقرتان : الفقرة الأولى منه تتألف من مقدمة ومجموعتين .

الفقرة الأولى

تفسير مقدمة الفقرة الأولى :

﴿ **آمنوا بالله ورسوله** ﴾ أي : صدّقوا بهما ﴿ **وأنفقوا** ﴾ يدخل في ذلك الزكاة والصدقات والإنفاق في سبيل الله ﴿ **مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ قال النسفي : (يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موّلكم إياها للاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فليست هي بأموالكم في الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب ، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى ، وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم وسينقله منكم إلى من بعدكم فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به) . ﴿ **فالذين آمنوا منكم** ﴾ بالله ورسوله ﴿ **وأنفقوا** ﴾ في سبيل الله ﴿ **لهم أجر كبير** ﴾ عند الله تعالى .

كلمة في السياق :

١ – في مقدمة سورة البقرة وصف الله المتقين بأنهم ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ ووصفهم بأنهم ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وههنا في سورة الحديد أمر بالإيمان بالله ورسوله ، والأمر بالإيمان بهما أمر بالشهادتين ، وهذا الذي كان يركّز عليه رسول الله ﷺ ، إذ كان يدعو إلى الشهادتين ويعتبرهما رمز الدخول في الإسلام ، وما ذلك إلا لأن الشهادتين يدخل في مضمونهما كل أركان الإيمان ، فمن آمن بالله والرسول آمن بالملائكة الذين هم الواسطة بين الله والرسل ، ومن آمن بالرسول آمن بالوحي والكتب ، ومن آمن بالله آمن بالقدر ، لأن الإيمان بالقدر فرع الإيمان بالله ، ومن آمن بالله والرسول آمن باليوم الآخر ، ومن ثم ندرك أن الأمر بالإيمان بالله والرسول نوع تفصيل لموضوع الإيمان بالغيب ، وأن يرافق الأمر بالإيمان بالله والرسول ﷺ الأمر بالإنفاق . فذلك يبيّن أهمية الإنفاق في دين الله عز وجل ، وهو موضوع عرفت أهميته واقعياً بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ ارتد من ارتد ، وكان سبب ردة بعض هؤلاء إرادتهم النكوص عن الإنفاق .

٢ – رأينا أن الآية الأولى من المقطع أمرت بالإيمان بالله والرسول ، ثم أمرت بالإنفاق والآن تأتي مجموعتان : مجموعة تحض على الإيمان بالله ، ومجموعة تحض على الإنفاق .

تفسير المجموعة الأولى :

﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ أي : وأيّ عذر لكم في ترك الإيمان بالله ﴿ **والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** ﴾ قال ابن كثير : أي : وأيّ شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ، ويبيّن لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ﴿ **وقد أخذ ميثاقكم** ﴾ أي : وقد أخذ الرسول ﷺ ميثاقكم بالبيعة ، هكذا فسّرها ابن كثير ، وذهب مجاهد وهو الذي اعتمده ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي : مصدقين قال النسفي : (أي : وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بقوله : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ أو بما ركب فيكم من العقول ، ومكنكم من النظر في الأدلة فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين لموجب ما ؟ فإن هذا الموجب

لا مزيد عليه) . ﴿ **هو الذي ينزّل على عبده** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **آيات بينات** ﴾ أي : حججاً واضحات ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات يعني في هذا القرآن ﴿ **ليخرجكم** ﴾ الله أو رسوله ﷺ بدعوته بهذا القرآن ﴿ **من الظلمات إلى النور** ﴾ أي : من ظلمات الكفر والشك والحيرة إلى نور الإيمان واليقين ، قال ابن كثير : أي : من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادّة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿ **وإن الله بكم لرؤوف رحيم** ﴾ أي : كثير الرأفة كثير الرحمة قال ابن كثير : أي : في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه .

كلمة في السياق :

١ - استدل عليهم للإيمان بالله بدعوة رسول الله ﷺ وما استقر في فِطَرهم ، وبما أنزله على رسوله ﷺ من القرآن ، فحال الرسول يدل على الله ، والقرآن يدل على الله ، وما ركّب في الفطرة من بداهة الاعتراف بوجود الله يدل على الله ، فكيف بعد ذلك كله يتأبّى الإنسان عن الإيمان بالله ! ، وقد دللنا في سلسلة الأصول الثلاثة ، على أن النظر العقلي في الكون يدل على الله ، وعلى أن ظواهر القرآن تدل على الله ، وعلى أن حال رسول الله ﷺ ، وما أظهر الله على يديه من المعجزات يدل على الله ، وهذه المجموعة تذكر هذا كله ههنا كأدلة توصل إلى الإيمان بالله ، وفي معرض ذلك ذكرت قضية الإيمان برسول الله ﷺ كبديهية من البديهيات بسبب ما أنزل الله عليه من البينات . فالآية الأولى من المقطع أمرت بالإيمان بالله والرسول ، وأمرت بالإنفاق ، وجاءت المجموعة الأولى من الفقرة الأولى فحثّت على الإيمان بالله ، والآن ستأتي مجموعة ثانية تحثّ على الإنفاق ولم تأت مجموعة خاصة بالإيمان بالرسول ؛ لأن المجموعة التي حثّت على الإيمان بالله تحدّثت ضمناً عمّا يوجب الإيمان بالرسول ﷺ .

٢ - تبدأ الآيات الأولى من سورة البقرة والتي هي محور سورة الحديد بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ، وقد جاء في المجموعة التي مرّت معنا قوله تعالى : ﴿ **هو الذي ينزّل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ وفي ذلك تقرير لكون هذا القرآن منزلاً من عند الله ، وأنه منزه عن الريب ، وأن فيه الهداية ، وأنه يدل على الله . فصلة ما جاء في المجموعة الأولى من الفقرة الأولى بمحور السورة واضحة .

٣ - ثمّ تأتي المجموعة الثانية في الفقرة الأولى من المقطع وفيها حث على الإنفاق ، قال ابن كثير : (ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان وبيّن أنه قد أزال موانعه ، حثّهم على الإنفاق) .

تفسير المجموعة الثانية :

﴿ **وما لكم** ﴾ في ﴿ **ألا تنفقوا في سبيل الله** ﴾ أي : في طريقه ، أي : في طريق الجهاد لإعلاء دينه ﴿ **ولله ميراث السمٰوات والأرض** ﴾ قال النسفي : (أي : يرث كل شيء فيهما ، لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره ، يعني : وأيّ غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله ﷺ ، والله مهلككم فوارث أموالكم ، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله ، ثم بيّن التفاوت بين المنفقين منهم فقال : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ أي : فتح مكة قبل عزّ الإسلام وقوة أهله ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، ومن أنفق من بعد الفتح بدلالة ما بعده عليه ﴿ **أولئك** ﴾ أي : الذين أنفقوا من قبل الفتح ﴿ **أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد** ﴾ أي : من بعد الفتح ﴿ **وقاتلوا** ﴾ في سبيل الله ﴿ **وكلاً** ﴾ أي : كل واحد من الفريقين ﴿ **وعد الله الحسنى** ﴾ أي : المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي : فيجازيكم على قدر أعمالكم . قال ابن كثير : (أي : فلخبرته عز وجل فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه سبحانه وتعالى بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق) ، ثم هيج الله عز وجل على الإنفاق بقوله : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ أي : بطيب نفسه ومراده الإنفاق في سبيله قال النسفي : (واستعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء وقال عمر ابن الخطاب في الآية : هو الإنفاق في سبيل الله) . أقول : وهو الذي يشهد له السياق قال ابن كثير : وقيل هو النفقة على العيال والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ﴿ **فيضاعفه له** ﴾ أي : يعطيه أجره على إنفاقه أضعافاً مضاعفة من فضله ﴿ **وله أجر كريم** ﴾ قال النسفي : أي : وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه . وقال ابن كثير : أي : جزاء جميل ، ورزق باهر وهو الجنة يوم القيامة ، ثم بيّن الله عز وجل متى يكون ذلك ، وأنه يكون في اليوم الذي لا تقبل فيه فدية من كافر أو منافق ، عندئذ يوفّى

هؤلاء المؤمنون أجرهم هذا أحوج ما يكونون إليه . ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات** ﴾ أي : هٰؤلاء المؤمنين المقرضين الله قرضاً حسناً أجر كريم ، يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ أي : يوم القيامة بحسب أعمالهم وفي الآية إشعار بأن هذا النور كان لهم جزاء إيمانهم ، ومن السياق نعرف أن من أعمالهم التي استحقوا بها ذلك الإنفاق . قال ابن كثير : (يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدّقين أنهم يوم القيامة يسعىٰ نورهم بَيْن أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم ...) . قال النسفي : وإنما قال : ﴿ **بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية ، لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحائفهم البيض أفلحوا ، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعَوْن ، سعى بسعيهم ذلك النور ، وتقول لهم الملائكة : ﴿ **بشراكم اليوم جنات** ﴾ أي : دخول جنات ﴿ **تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وأيّ فوز أعظم من دخول الجنة ، وكأن السياق يقول : أيها المؤمنون أنفقوا لتكونوا من هؤلاء ثم قال تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات** ﴾ أي : للمنفقين في سبيل الله أجر كريم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴿ **للذين آمنوا انظرونا** ﴾ أي : انتظرونا ، لأن أهل الإيمان يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة ﴿ **نقتبس من نوركم** ﴾ أي : انتظرونا لنلحق بكم فنستنير بنوركم ﴿ **قيل** ﴾ أي : تقول لهم الملائكة أو المؤمنون طرداً لهم وتهكماً بهم ﴿ **ارجعوا وراءكم** ﴾ أي : إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور ، أو ارجعوا إلى الدنيا ﴿ **فالتمسوا نوراً** ﴾ أي : فالتمسوا النور هنالك بتحصيل سببه وهو الإيمان وليسوا بقادرين ﴿ **فَضُرب بينهم** ﴾ أي : بين المؤمنين والمنافقين ﴿ **بسور** ﴾ أي : بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار قال النسفي : قيل هو الأعراف ﴿ **له باب** ﴾ أي : لذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون منه ﴿ **باطنه** ﴾ أي : باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿ **فيه الرحمة** ﴾ أي : النور أو الجنة ﴿ **وظاهره** ﴾ أي : ما ظهر لأهل النار ﴿ **من قبله** ﴾ أي : من عنده وفي جهته ﴿ **العذاب** ﴾ أي : الظلمة أو النار ﴿ **ينادونهم** ﴾ أي : ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ أي : في الدنيا ؟ يريدون مرافقتهم في الظاهر وادعاءهم أنهم معهم بلسانهم ﴿ **قالوا** ﴾ أي : المؤمنون ﴿ **بلىٰ ولكنكم فتنتم أنفسكم** ﴾ أي : أحرقتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ **وتربصتم** ﴾ أي : بالمؤمنين الدوائر ﴿ **وارتبتم** ﴾ في التوحيد والقرآن والبعث ﴿ **وغرّتكم**

الأمانيّ ﴾ أي : الآمال والطمع في الجاه والدنيا ﴿ **حتىٰ جاء أمر الله** ﴾ أي : الموت ﴿ **وغرّكم بالله الغرور** ﴾ أي : الشيطان ، أي : وغرّكم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم ، أو بأنه لا بعث ولا حساب ﴿ **فاليوم لا يؤخذ منكم** ﴾ أيها المنافقون ﴿ **فدية** ﴾ أي : ما يفتدى به ﴿ **ولا من الذين كفروا** ﴾ أي : لا يؤخذ منهم فدية كذلك ﴿ **مأواكم النار** ﴾ أي : هي مصيركم وإليها منقلبكم ﴿ **هي مولاكم** ﴾ أي : هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿ **وبئس المصير** ﴾ النار . وكأن السياق يقول : يا أيها المؤمنون والمؤمنات أقرضوا الله بالإنفاق في سبيله ، لتأخذوا نوركم ، وتنجوا بأنفسكم ، وتنالوا أجوركم يوم لا يقبل من كافر ولا منافق فدية .

كلمة في السياق :

١ - دعت هذه المجموعة إلى الإنفاق في سبيل الله ، وحضّت عليه من خلال التذكير بأنّ لله ميراث السمٰوات والأرض ، ومن خلال التذكير بحال أهل الإيمان والكفر والنفاق يوم القيامة ، ومن السياق عرفنا أن المنفقين في سبيل الله هم المؤمنون حقاً ، وأن النفاق والكفر يرافقهما البخل ، ومن ثم عرفنا سر اقتران الأمر بالإيمان بالله ورسوله ، مع الأمر بالإنفاق في سبيل الله في الآية الأولى من هذا المقطع .

٢ - من قوله تعالى : ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ...** ﴾ نعلم أن الإيمان الصادق بالله والرسول يرافقهما إنفاق في سبيل الله وجهاد في سبيله .

٣ - ومن السياق عرفنا أن الإيمان يقابله الكفر والنفاق ، وعرفنا من صفات المنافقين : أ - الافتتان أي : قبولهم الفتنة عن دين الله بفتنة الكافرين إياهم وارتياحهم لذلك . ب - والتربّص بانتظار نتائج الصراع بين الكفر والإيمان ، فهم لا يربطون مصيرهم بمصير أهل الإيمان ابتداءً . جـ - والارتياب ، ومن محور السورة نعلم أن الكافرين يرتابون في وجود الله ، وفي وجود اليوم الآخر ، وفي القرآن . د - والاغترار بالأماني والتطلعات الدنيوية ، وأن ذلك كله أثر من آثار تغرير الشيطان بهم ، وهكذا عرفنا تفصيلات جديدة عن المنافقين ، زائدة على التفصيلات التي ذكرتها مقدمة سورة البقرة .

٤ - ممّا ذكرته مقدمة سورة البقرة عن المنافقين : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم** ﴾ والملاحظ أن سورة الحديد ذكرت

أن المنافقين ينادون المؤمنين ويذكّرونهم بهذه المعيّة الكاذبة في الدنيا ، كما ذكرت أنهم لا يستفيدون منها .

٥ - ثمّ تأتي فقرة جديدة نقدّم لها بما يلي :

في مقدمة سورة البقرة كلام عن الإيمان كركن في التقوىٰ ، وعن الإنفاق كركن في التقوىٰ ، ويقابل قضية الإيمان الكفر كرفض صريح للإيمان ، والنفاق كرفض للإيمان مع ادعاء له ، وسورة الحديد حتىٰ نهاية المجموعة الثانية التي مرّت معنا أمرت بالإيمان ، وأمرت بالإنفاق كعلامة على الإيمان ، وتحدّثت عن النفاق والكفر ضمن سياق الأمر بالإيمان والإنفاق كما رأينا ، وبذلك عرفنا تفصيلات عن ركنين في التقوىٰ ، وعما يقابل ذلك وكل ذلك قد مرّ معنا في الفقرة الأولى من المقطع ، وها هي الفقرة الثانية تبدأ معاتبة من لم يخشع قلبه للقرآن ، ولذلك صلة بقوله تعالى في المحور : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ثمّ تعود للكلام عن الرسل والكتب والقدر ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ كما تتحدّث عن الإنفاق في سياق ذلك . إن سورة الحديد تفصيل جديد لمقدمة سورة البقرة : يبدأ من نقطة البداية ؛ التعريف على الله الذي يستتبع إيماناً ، وإنفاقاً ، وجهاداً ، واهتداءً بكتاب الله ، وبعداً عن الصوارف التي تصرف عن ذلك ، فلنر الفقرة الثانية من المقطع ولنا عودة على السياق .

الفقرة الثانية

تفسير مقدمة الفقرة الثانية :

﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ أي : ألم يحن للذين آمنوا ﴿ **أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ أي : القرآن ﴿ **وما نزل من الحق** ﴾ أي : القرآن سمّاه ذكراً ، ووصفه بالحق النازل من السماء لأنه جامع للأمرين للذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء . قال ابن كثير : (يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه) ﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل** ﴾ أي : من قبل القرآن كاليهود والنصارىٰ ﴿ **فطال عليهم الأمد** ﴾ أي : الأجل أو الزمان ﴿ **فقست قلوبهم** ﴾ فلم يعد يؤثر فيها كتاب الله بسبب اتباعهم الشهوات . قال ابن كثير : (نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارىٰ ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله

الذي بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد) . ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾ أي : في الأعمال ، قلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة قال النسفي : (أي : خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين أي : وقليل منهم يؤمنون) .

قال الألوسي : (وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءً شديداً فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب ، ولعله أراد رضي الله تعالى عنه أن الطراز الأول كان كذلك حتى قست قلوب كثير من الناس ، ولم يتأسوا بالسابقين ، وغرضه مدح أولئك القوم بما كان هو ونظراؤه عليه رضي الله تعالى عنهم ، ويحتمل أن يكون قد أراد ما هو الظاهر ، والكلام من باب هضم النفس كقوله رضي الله تعالى عنه : أقيلوني فلست بخيركم) .

كلمة في السياق :

١ - هذه الآية تكاد تكون مقدمة للفقرة الثانية في المقطع ، وفيها تهييج على الخشوع للقرآن ، والخضوع له ، والاتعاظ فيه ، والعمل به ، وتحذير أن تكون هذه الأمة كالأمم السابقة فيما وقعت فيه من قسوة القلب والفسوق عن أمر الله عز وجل ، وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ واضحة ، فبعد التفصيل في قضيتي الإيمان والإنفاق جاء التفصيل لموضوع اتباع الكتاب ، والاتباع هو النتيجة التلقائية للإيمان وبقية أركان التقوىٰ .

٢ - بعد هذه المقدمة للفقرة الثانية تأتي الآن مجموعات سنرى محلها في سياق السورة ، وصلتها بمحور السورة ، وقبل أن نعرض المجموعة الأولى من الفقرة الثانية فلنلخص ما مرّ معنا من السورة .

بدأت السورة بالتعريف على الله عز وجل ، ثم أمرت بالإيمان به وبرسوله ، وبالإنفاق في سبيله ، وذكّرت بكل ما يساعد على ذلك ويحققـه ، ثم أمرت بالخشوع للقرآن ، ونهت عن قسوة القلب والفسوق عن أمر الله ، ثمّ تأتي مجموعات تأمر بما يحقق هذا الخشوع ، وبما يزيل قسوة القلب ، وبما يبعد عن الفسوق ، وذلك بعد

الآية الأولى في الفقرة ، الآية التي رفعت القلب البشري إلىٰ أعلىٰ درجات الاستعداد للتلقي والتذكر والاتعاظ .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية :

﴿ **اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها** ﴾ فهو وحده المحيي ، وعليكم أن تعلموا ذلك ، وأن تتذكّروه ﴿ **قد بيّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ قال النسفي : قيل هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب ، وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض ، وقال ابن كثير : (فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .) .

أقول : إن التذكير بهذا المعنىٰ بعد الآية الأولىٰ يشير إلىٰ أن الإنسان عليه ألا ييأس إن كان قلبه قاسياً وكان فاسقاً ، بل يقبل على الله ، والله يحيي قلبه ، وفي الآية توجيه للدعاة إلىٰ الله أن يذكّروا ، والله عز وجل يحيي موات القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها ، وبعد أن ذكّر الله عز وجل بهذه الحقيقة أعاد التذكير بموضوع الإنفاق ، وموضوع الإيمان بالله ورسله مما يشير إلىٰ أهمية هذه الأمور ابتداءً وانتهاءً ، ومحلها في قضية الاهتداء بكتاب الله والخشوع له ، ومحلها في قضية إحياء القلوب ﴿ **إن المصّدّقين** ﴾ أي : المتصدقين ﴿ **والمصّدّقات** ﴾ أي : المتصدقات ﴿ **وأقرضوا الله قرضاً حسناً** ﴾ . قال ابن كثير : أي : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاءً ممن أعطوه ولا شكوراً . وقال النسفي : (والقرض الحسن أن يتصدّق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة) . ﴿ **يضاعف لهم** ﴾ قال ابن كثير : أي : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلىٰ سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك ﴿ **ولهم أجر كريم** ﴾ قال ابن كثير : أي : ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ، ومآب كريم . قال النسفي : أي : الجنة . ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم** ﴾ قال النسفي : يريد أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا إلىٰ التصديق واستشهدوا في

سبيل الله . ﴿ **لهم أجرهم ونورهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعىٰ بين أيديهم وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال ، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل ، فذاك الذي ينظر الناس إليه هكذا » ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر « والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب فقتله ، فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك في الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك في الدرجة الرابعة » وهكذا رواه علي بن المديني عن أبي داود الطيالسي عن ابن المبارك عن ابن لهيعة ، وقال هذا إسناد مصري صالح ، ورواه الترمذي من حديث ابن لهيعة وقال حسن غريب) . ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ أي : بالقرآن ﴿ **أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أي : النار . قال ابن كثير : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبيّن حالهم . أقول : لما ذكر المؤمنين بالله ورسله ، والمتصدقين في سبيله في سياق الخشوع لكتابه ، ذكر حال المكذبين بهذا القرآن ، الكافرين به يوم القيامة .

....

كلمة في السياق :

بدأت المجموعة بالأمر ﴿ **اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها** ﴾ وجاء بعد هذه الآية وقبلها ما أشعر بأن المراد بالآية حياة القلوب ، حتى إذا أخذ هذا المعنىٰ مداه تأتي آيات مبدوءة بالأمر (اعلموا) هي تتمة المجموعة لتبني على ما مرّ فتذكّرنا بالآخرة ، وذلك هو الدّواء لقسوة القلب .

....

﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب** ﴾ قال النسفي : كلعب الصبيان ﴿ **ولهو** ﴾ قال النسفي : كلهو الفتيان ﴿ **وزينة** ﴾ قال النسفي : كزينة النسوان ﴿ **وتفاخر بينكم** ﴾ قال النسفي : كتفاخر الأقران ﴿ **وتكاثر** ﴾ قال النسفي : كتكاثر الدهقان ﴿ **في الأموال والأولاد** ﴾ أي : مباهاة بهما . قال ابن كثير : أي : إنّ حاصل أمرها عند

أهلها هذا . أقول : إن هذه المعاني كلها من الدنيا التي رغّب الله عنها وزهّد فيها ﴿ **كمثل غيث** ﴾ وهو المطر ﴿ **أعجب الكفار** ﴾ أي : الزرّاع ﴿ **نباته** ﴾ قال ابن كثير : أي : يعجب الزرّاع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ؛ فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ **ثم يهيج** ﴾ أي : هذا النابت بالغيث ﴿ **فتراه مصفراً** ﴾ بعد خضرته ﴿ **ثم يكون حطاماً** ﴾ أي : متفتتاً . قال ابن كثير : (أي : يصير يبساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ، ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير) . وقال النسفي : (شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى وقوي وأُعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً ؛ عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين) . قال ابن كثير : ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير فقال : ﴿ **وفي الآخرة عذاب شديد** ﴾ للكفار ﴿ **ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ للمؤمنين . قال النسفي : (يعني أن الدنيا وما فيها ليست إلا من محقرات الأمور ، وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر ، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام ، وهي العذاب الشديد والمغفرة والرضوان من الله الحميد) ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ أي : لمن ركن إليها واعتمد عليها . قال ابن كثير : (أي : هي متاع فانٍ غارّ لمن ركن إليه ؛ فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها) ، وهكذا عرّفنا الله على حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، مع إقامة الدليل على مجيء اليوم الآخر ، وإذ استقرّت تفاهة الدنيا بالنسبة للآخرة يأتي الآن الأمر بالمسابقة إلى الآخرة . قال النسفي : ولما حقّر الدنيا وصغّر أمرها ، وعظّم أمر الآخرة ، بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة يقول : ﴿ **سابقوا** ﴾ أي : بالأعمال الصالحة أو سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار ﴿ **إلى مغفرة من ربكم** ﴾ قال ابن كثير : حثّ الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عن الذنوب والزّلات ، وتحصّل الثواب والدرجات ﴿ **وجنة**

عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ أي : كعرض السمٰوات كلها والأرض ، ولنا عودة على هذا المعنىٰ في الفوائد . قال النسفي : وذكر العرض دون الطول ؛ لأن كل ماله عرض وطول ؛ فإن عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط ، أو أريد بالعرض البسطة ﴿ **أعدت للذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ أي : هيأت لهم . قال النسفي : وهذا دليل على أنها مخلوقة أي : موجودة الآن فمن يدّعي أنها ستخلق بعدُ فهو مخطىء بنص الآية ﴿ **ذلك** ﴾ أي : الموعود من المغفرة والجنة ﴿ **فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ وهم المؤمنون . قال النسفي : وفيه دليل على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ قال ابن كثير : أي : هذا الذي أهّلهم الله له هو من فضله ومنّه عليهم وإحسانه إليهم ... وبهذا انتهت المجموعة الأولى من الفقرة الثانية .

كلمة في السياق :

١ - يلاحظ أن موضوع الإيمان بالله ورسله تكرر الحديث عنه في هذه المجموعة مرتين ثناءً عليهم وتبياناً لما أعد الله لهم ، وذلك في سياق الأمر بالخشوع ، كما ذكر موضوع الإنفاق في هذه المجموعة بالحثّ عليه وعلى المسارعة فيه ، وهكذا نجد تركيزاً على الإيمان بالله والرّسول في المقطع سواء في ذلك فقرته الأولى أو الثانية .

٢ - يلاحظ أن هذه المجموعة بدأت بالحديث عن الخشوع للقرآن ؛ والإيمان به من أركان الإيمان ، ثم وصلت للحديث عن الآخرة ؛ والإيمان بها ركن من أركان الإيمان ، وها هي أوصلتنا إلى المجموعة الثانية التي تبدأ بالحديث عن القدر ؛ وهو ركن من أركان الإيمان كذلك .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية :

﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض** ﴾ من الجدب وآفات الزروع والثمار وغير ذلك ﴿ **ولا في أنفسكم** ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿ **إلا في كتاب** ﴾ أي : في اللوح المحفوظ ﴿ **من قبل أن نبرأها** ﴾ أي : من قبل أن تخلق الأنفس . قال النسفي : بيّن أن كل شيء كائن بقضاء الله وقدره ، وقال ابن كثير : (يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البريّة) . ﴿ **إن ذلك** ﴾ أي : إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿ **على الله يسير** ﴾ وإن كان عسيراً على العباد . قال

ابن كثير : أي : إنّ علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل ، لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، قال النسفي : ثم علّل ذلك وبيّن الحكمة فيه بقوله ﴿ **لكيلا تأسوا** ﴾ أي : تحزنوا حزناً يطغيكم ﴿ **على ما فاتكم** ﴾ أي : من الدنيا وسعتها ، أو من العافية وصحتها ، أو من كل شيء ترغبون في وجوده وتودّون عدم فوته ﴿ **ولا تفرحوا** ﴾ فرح المختال الفخور ﴿ **بما آتاكم** ﴾ أي : بما أعطاكم . قال ابن كثير : (أي : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس) ، وقال ابن كثير في الآية : (أي : أعلمناكم بتقدم علمنا ، وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم) . قال النسفي : (وليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة تصيبه ، ويحزن عند مضرة تنزل به ، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً ، والحزن صبراً ، وإنما يذم من الحزن الجزع المنافي للصبر ، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر) ﴿ **والله لا يحب كل مختال** ﴾ في نفسه ﴿ **فخور** ﴾ علي غيره ، قال النسفي : لأنّ من فرح بحظه من الدنيا وعظُم في نفسه اختال وافتخر به ، وتكبّر على الناس ، وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكَراً ، والحزن صبراً ثم وصف الله عز وجل المختالين الفخورين بصفة هي أثر عن الاختيال والفخر فقال : ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ أي : ويحضّون غيرهم على البخل ، ويرغّبونهم في الإمساك ، دلّ هذا على أن الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا فلحبهم له ، وعزته عندهم ، يزْورّون عن حقوق الله ويبخلون به ، ويبخّلون غيرهم كذلك ﴿ **ومن يتول** ﴾ قال النسفي : ومن يعرض عن الإنفاق ، أو عن أوامر الله ونواهيه ، ولم ينته عما نهي عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي ﴿ **فإن الله هو الغني** ﴾ عن جميع المخلوقات ﴿ **الحميد** ﴾ في أفعاله .

كلمة في السياق :

ما صلة هذه المجموعة في السياق ؟ .

١ - إن الإيمان بالقضاء والقدر هو علاج الاختيال والفخر اللذين ينشأ عنهما البخل والتبخيل ، وترك الإنفاق في سبيل الله ، ولذلك صلته بسياق السورة التي

تتحدّث عن الإنفاق .

٢ - بعد أن عرض الله عز وجل علينا في المجموعة الأولى من هذه الفقرة حقيقة الدنيا والآخرة ، وأمرنا بالمسابقة إلى الآخرة علّمنا من خلال عرض موضوع القضاء والقدر كيف ينبغي أن يكون موقفنا من الدنيا عندما تأتينا أو تفوتنا ، ولذلك صلته بسياق السورة .

٣ - وموضوع القضاء والقدر له صلته بموضوع الإيمان بالغيب ، وهو أحد مواضيع مقدمة سورة البقرة .

٤ - وقبل الانتقال إلى المجموعة الثالثة في الفقرة الثانية ، فلنلخص ما مَرّ معنا من هذه الفقرة : بدأت الفقرة بالتهييج على الخشوع للقرآن ، والتحذير من قسوة القلب والفسوق ، ثم تحدثت الفقرة عن أمور كلها أساسية للتحقق بالخشوع ، والخلاص من الفسوق وقسوة القلب : من معرفة بالله ، وإيمان به وبرسوله ، ومن إنفاق ، ومن معرفة للدنيا على حقيقتها ، ومعرفة للآخرة على حقيقتها ، ومن إيمان بالقدر ، فإذا استقرت هذه المعاني فإن آية تأتي تتحدّث عن أصل الحكمة في إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وصله ذلك ببداية الفقرة واضحة ، ثم تأتي آيتان تتحدّثان عن موقف أمتين من الوحي المنزل عليهم ممّن حذّرنا الله عز وجل أن تقسو قلوبنا ونفسق ، كما قست قلوبهم وفسقوا ، وصلة ذلك ببداية الفقرة واضحة ، فالمجموعة الثالثة ترتبط ارتباطاً مباشراً ببداية الفقرة الثانية :

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الثانية :

﴿ **لقد أرسلنا رسلنا** ﴾ قال النسفي : يعني أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿ **بالبيّنات** ﴾ أي : بالمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات ﴿ **وأنزلنا معهم الكتاب والميزان** ﴾ أي : الوحي قال النسفي : وقيل الرسل الأنبياء والأول أولى لقوله (**معهم**) لأن الأنبياء ينزل عليهم الكتاب . أقول : وذكر ابن كثير أن المراد بالرسل ههنا الملائكة ولم يذكر غيره ، وفسّر الكتاب بالنقل الصدق عن الله ، وفسّر الميزان بالعدل ، والذي أرجّحه أن المراد بالرسل الرسل البشر ، وأن المراد بالميزان ما توزن به الأشياء ، فالكتاب لإقامة العدل في التصورات والشعائر والشرائع ، والميزان لإقامة العدل في الأشياء التي تكال وتوزن وتقاس ... ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **ليقوم الناس بالقسط** ﴾ قال

ابن كثير : (أي : بالحق والعدل وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق كما قال : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** ﴾ أي : صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾) فهذه هي حكمة إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وفي ذلك درس من دروس وجوب الخشوع للقرآن الذي تحدثت عنه بداية المجموعة ثم قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أي : خلقناه ﴿ **فيه بأس شديد** ﴾ إذا قوتل به ، قال ابن كثير : يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها . أقول : والدبابات والبوارج والقنابل والصواريخ ﴿ **ومنافع للناس** ﴾ أي : في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم ، قال ابن كثير : (أي : في معايشهم كالسكينة والفأس والقدوم والمنشار والإزميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك) وكالسيارات والطيارات والقطارات وسكك الحديد ﴿ **وليعلم الله من ينصره ورسله** ﴾ قال النسفي : باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين ﴿ **بالغيب** ﴾ أي : غائباً عنهم ﴿ **إن الله قوي** ﴾ يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ﴿ **عزيز** ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرّض لنصرته ، قال ابن كثير : أي : هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

....

كلمة في السياق :

١ - ما المناسبة بين الأشياء التي ذكرت في الآية : الكتاب والميزان والحديد ؟ قال النسفي : (والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة أن الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام الدينية ، يبيّن سبل المراشد والعهود ، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود ، ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن البغي والطغيان ، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة يقع بها التعامل ، ويحصل بها التساوي والتعادل ، وهي الميزان . ومن المعلوم أن الكتاب الجامع للأوامر الإلهية ، والآلة الموضوعة للتعامل بالتسوية ، إنما تحض العامة على اتباعهما بالسيف الذي هو حجة الله على من جحد وعنَد ، ونزع عن صفقة

الجماعة اليد ، وهو الحديد الذي وصف بالبأس الشديد) .

٢ - للآية التي مرّت معنا أخيراً صلة بالآية الأولى من الفقرة الثانية ، فهذه الآية بينت أن الحكمة في إنزال الكتب إقامة العدل بين الناس ، ومن ثَمَّ فإن على الأمة أن تخشع لكتاب الله ، ولا تقسو قلوبها ، وفي ذكر الحديد في الآية بيان لوجوب نصرة الله ورسوله بالقتال كلما حدث انحراف عن أمر الله ، كما يجب القتال أصلاً لنصرة شرع الله .

٣ - وأما محلّ الآية في سياق السورة العام وصلتها بالمحور ؛ فمن حيث إن الآية تحدّثت عن الكتب والرّسل ، ونصرة الله بالغيب ، ولذلك صلته بقوله تعالى عن القرآن ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ كما أن له صلة بقوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فمن آثار الإيمان بالغيب استعمال السلاح لنصرة الله ورسوله ، ولقد جاء في الفقرة الأولى من سورة الحديد : ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ وفي هذه الفقرة يذكر الحديد وتذكر الحكمة في خلقه ، وهي أن ينصر المسلمون دين الله ، فما أشدّ تقصير المسلمين إذ أصبحت صناعة السّلاح بيد غيرهم .

٤ - وفي نصرة الله ورسوله بالسلاح - في سياق السورة التي ركّزت على الإيمان والإنفاق - إشارة إلى أن على المسلمين أن ينفقوا من أجل صناعة السلاح وتأمين السلاح .

وتعليقاً على هذه الآية أقول : واضح من الآية أن الله عز وجل خلق الحديد ليضع بيد أوليائه السلاح لينصروه ، وينصروا رسله وشريعته ، فما أشد غفلة المسلمين عندما يكونون أقل الخلق استعمالاً للسلاح ، وتملكاً له وبحثاً عنه على مستوى دولهم وأفرادهم . أليس عجيباً ألا نجد الآن في العالم الإسلامي مصانع سلاح إلا قليلاً ، في الوقت الذي وصلت فيه الدول الكافرة إلى تملّك أنواع من الأسلحة كافية لتدمير العالم مرات ومرات .

ولنعد إلى عرض تتمة المجموعة الثالثة .

....

تتمة تفسير المجموعة الثالثة :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم ﴾ قال النسفي : خُصّا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿ وجعلنا في ذريتهما ﴾ أي : في أولادهما ﴿ النبوة والكتاب ﴾ أي : الوحي ﴿ فمنهم ﴾ أي : فمن الذرية أو المرسل إليهم بدليل ذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مهتدٍ ﴾ أي : فمنهم من اهتدى باتباع الرسل ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي : خارجون عن الطاعة ﴿ ثم قفينا على آثارهم ﴾ أي : على آثار نوح وإبراهيم ومن مضى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ برسلنا ﴾ اللاحقين لهم ﴿ وقفّينا بعيسى ابن مريم ﴾ أي : وأتبعنا بعيسى ابن مريم ﴿ وآتيناه الإنجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ومن على سنتهم ﴿ رأفة ﴾ أي : رقة وهي الخشية ﴿ ورحمة ﴾ أي : بالخلق أو مودة وليناً وتعطفاً بإخوانهم ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أي : ابتدعتها أمة النصارى ، قال النسفي : هي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ... وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها أي : أخرجوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أي : لم نفرضها نحن عليهم ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ قال النسفي : أي : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، وذكر ابن كثير قولاً آخر في معناها : ما كتبنا عليهم ذلك (أي : الرهبانية) إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ قال النسفي : كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه ، قال ابن كثير : (أي : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذمّ لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله . والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل) ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ أي : أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ، أو الذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي : خارجون عن أمر الله عز وجل .

....

كلمة في السياق :

يلاحظ أن الآية الأولى في هذه الفقرة وهي آية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ... ﴾ قد

انتهت بقوله تعالى : ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾ وأن الآيتين الأخيرتين كل منهما انتهت بقوله تعالى : ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾ مما يشير إلى أن الله عز وجل أعطانا نموذجين على انحراف في الناس ، الأول بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام ، والثاني في أتباع عيسى ، وكل ذلك لنجتنب مثل هذا الانحراف ، ومن الانحراف الذي رأيناه في أتباع عيسى ابتداعهم الرهبانية ، وعدم قيامهم بما ألزموا أنفسهم به ، وفسوقهم عن أمر الله ، وكل ذلك مما ينبغي اجتنابه . وبهذا ينتهي الكلام عن المقطع ، وقد رأينا أثناء عرضه سياقه الخاص ، ومحل كل آية وفقرة في سياق السورة العام ، وصلة ذلك بالمحور ، ولم يبق عندنا في السورة إلا آيتان هما خاتمة السورة .



خاتمة السورة

وتشمل الآيتين (٢٨) و (٢٩) وهاتان هما :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ باتباع كتابه ، والإيمان به ، والصلاة له ، والإنفاق في سبيله ﴿ **وآمنوا برسوله** ﴾ محمد ﷺ بالتصديق وبالالتزام بسنته وبالقيام لنصرته ﴿ **يؤتكم كفلين** ﴾ أي : ضعفين ﴿ **من رحمته** ﴾ قال النسفي : لإيمانكم بمحمد ﷺ ، وإيمانكم بمن قبله ، قال ابن كثير : وزادهم ﴿ **ويجعل لكم نوراً تمشون به** ﴾ قال ابن كثير : يعني هدى يُتبصّر به من العمىٰ والجهالة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أي : ذنوبكم ففضّلت هذه الأمة على غيرها بالتضعيف والنور والمغفرة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ فاتقوه وآمنوا برسوله لتنالوا مغفرته ورحمته ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ أي : ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا ﴿ **ألّا يقدرون** ﴾ أي : أنه لا يقدرون ﴿ **على شيء من فضل الله** ﴾ قال ابن كثير : أي : ليتحققوا أنهم لا يقدرون على ردّ ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿ **وأن الفضل بيد الله** ﴾ أي : وليعلموا أن الفضل بيد الله أي : هو مالكه والمتصرف فيه ﴿ **يؤتيه من يشاء** ﴾ من عباده ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ الذي لا يقدّره أحد حقّ قدره .

أقول : هذه الآية من الآيات التي يغيب معناها عن كثير من الناس فليُلاحظ ما يلي : إن اليهود من أهل الكتاب يرون فضل الله وقفاً على موسىٰ ولم يتعده إلى غيره ، فيعطى مثل ما أعطي وأنه وقف عليهم ، فلم تُعط أمة مثل ما أعطوا ، كما أن النصارى

من أهل الكتاب يرون فضل الله وقف عند عيسى فلم يتعدّه إلى غيره من بعده لمحمد ﷺ فيعطى مثل ما أعطي ، وأن فضل الله وقف عليهم فلم تعط أمة مثل ما أعطوا ، ومن ثَمَّ أمر الله عز وجل هذه الأمة بتقواه والإيمان برسوله ﷺ ليعلم هؤلاء جميعاً أنهم لا يستطيعون حصر فضل الله ، وأنهم عاجزون عن نيله ، وأن الله عز وجل مطلق المشيئة ، يؤتي فضله من يشاء ، وكل ذلك يكون من خلال تقوى هذه الأمة وإيمانها برسولها ، فإنّ أفراد هذه الأمّة إذا كانوا متقين مؤمنين ، فإنهم بسلوكهم العملي يعرّفون أهل الكتاب على هذه الحقيقة ، هذا إذا كان تقدير الكلام يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ... أما إذا كان التقدير ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ... لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله** ﴾ فإن المعنى يكون : إن الله عز وجل أعطاكم هذا ليعلم أهل الكتاب الكفرة يوم القيامة أنهم عاجزون عن نيل شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيده ﴿ **يؤتيه من يشاء ...** ﴾ .

....

كلمة في السياق :

١ – جاءت هاتان الآيتان بعد ما ذكر الله عز وجل موقف أمم سابقة من الهدى الذي أنزل عليها ، فجاءتا لتهيّجا المسلمين على التقوى والإيمان ، ولتحولا بين المسلمين وبين الفسوق ، ولذلك صلته بما جاء قبلهما مباشرة .

٢ – نلاحظ أن المقطع الوحيد في السورة بدأ بالأمر بالإيمان بالله ورسوله ﷺ ﴿ **آمنوا بالله ورسوله ...** ﴾ وبعد أن انتهى المقطع جاءت هاتان الآيتان آمرة بتقوى الله ، والإيمان برسوله ﷺ تأكيداً لما بدأ به المقطع .

٣ – وبانتهاء السورة نلاحظ أن السورة بدأت بالتعريف على الله وأسمائه وأفعاله ، ثم أمرت بالإيمان به وبرسوله ، وبالإنفاق في سبيله ، ثم أمرت بالخشوع للقرآن ، وحذّرت من قسوة القلب والفسوق ، ثم ختمت السورة بالأمر بتقوى الله والإيمان برسوله ، وجاء خلال ذلك ما يخدم هذه المعاني ، وكان حصيلة ذلك كله تفصيلاً لقضايا من الإيمان بالغيب ، والإنفاق في سبيل الله ، والاهتداء بكتاب الله ، وما يقابل ذلك من كفر ونفاق وفسوق ، وفي ذلك تفصيل لمقدمة سورة البقرة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سبّح لله ما في السموٰات والأرض** ﴾ قال الألوسي : (قال الجمهور : المراد به معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال ، كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ولسان الحال ، كتسبيح غيرهم ، فإن كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود ، المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وذهب البعض إلى أن التسبيح على حقيقته المعروفة في الجميع وهو مبني على ثبوت النفوس الناطقة والإدراك لسائر الحيوانات والجمادات على ما يليق بكل) .

وقال صاحب الظلال بمناسبة هذه الآية : (هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتتح السورة ؛ فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهيم كل شيء في السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء . ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لا نعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه ... فـ ﴿ **سبح لله ما في السماوات والأرض** ﴾ تعني ﴿ **سبح لله ما في السماوات والأرض** ﴾ ... ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما في السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح . وإن هذا هو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب في لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها .

وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ **يا جبال أوبي معه والطير** ﴾ ... فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء في الأثر : أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن بمكة حجراً كان يسلم عليّ ليالي بعثت . إني لأعرفه الآن » ... وروى الترمذي - بإسناده - عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال : كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله » ... وروى البخاري في صحيحه بإسناده عن أنس بن مالك قال : « خطب رسول الله - ﷺ - إلى لزق جذع . فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حنَّ الجذع حنين الناقة ، فنزل الرسول فمسحه ، فسكن » .

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية : ﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافّات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾ ... ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس** ﴾ ... ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ ... ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولاً من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ قال الألوسي : (أخرج مسلم ، والترمذي ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تسأله خادماً فقال لها : « قولي : اللهم رب السمٰوات السبع ورب العرش الكريم العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، واغننا من الفقر » وقال الطيبي : المعنى بالظاهر في التفسير النبوي الغالب الذي يغلب ولا يُغلب ؛ فيتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء ، إذ ليس فوقه أحد يمنعه ، وبالباطن من لا ملجأ ولا منجى دونه يلتجىء إليه ملتجىء ، وبحث فيه بجواز أن يكون المراد أنت الظاهر فليس فوقك شيء في الظهور ، أي : أنت أظهر من كل شيء ، إذ ظهور كل شيء بك ، وأنت الباطن فليس دونك في البطون شيء ، أي : أنت أبطن من كل شيء إذ كل شيء يعلم حقيقته غيره ، وأنت لا يعلم حقيقتك غيرك ، أو لأن كل شيء يمكن معرفة حقيقته وأنت لا يمكن أصلاً معرفة حقيقتك ، وأيضاً في دلالة الباطن على ما قال خفاء جداً ، على أنه لو كان الأمر كما ذكر ما عدل عنه أجلة العلماء فإن الخبر صحيح ، وقد جاء نحوه من رواية الإمام أحمد ، وأبي داود ، وابن ماجه . وهذه الآية ينبغي لمن وجد في نفسه وسوسة فيما يتعلق بالله تعالى أن يقرأها ، فقد أخرج أبو داود عن أبي زميل أن ابن عباس قال له - وقد أعلمه أن عنده وسوسة في ذلك - : « إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل هو الأول » الآية .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ قال ابن كثير : (أي : رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم كما قال تعالى : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾ فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي ... عن عبد الرحمن بن عامر قال : قال عمر : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : زودني حكمة أعيش بها . فقال : « استح الله كما تستحي رجلاً من صالحي عشيرتك لا يفارقك » هذا حديث غريب . وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن علوية العامري مرفوعاً : « ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان : إن عبد الله وحده ، وأعطى زكاة ماله طيبة به نفسه في كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الرذية ولا الشرطة اللئيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم وزكى نفسه » وقال رجل : يا رسول الله ما تزكية المرء نفسه ؟ فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » . وروى نعيم بن حماد رحمه الله ... عن عبادة ابن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » غريب . وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روينا في الحديث من طرق أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة ، قال :

« وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا : فالأنبياء ، قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحي عليهم ؟ » قالوا : فنحن ، قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها ») .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** ﴾ قال ابن كثير : (والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد ... عن أنس قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم » ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تسبّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ») .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكلاً وعد الله الحسنى** ﴾ قال ابن كثير : (يعنى المنفقين قبل الفتح وبعده كلهم لهم ثواب على ما عملوا وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء كما قال تعالى : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلّاً وعد الله الحسنى * وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً** ﴾ وهكذا الحديث الذي في الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير » وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ؛ فيتوهم عندهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول

وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق ، وفي الحديث : « سبق درهم مائة ألف » ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله قال : فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي ، وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت : لبيك قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ، وفي رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق ردّاح في الجنة لأبي الدحداح » وفي لفظ : « رب نخلة مدلاة ، عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة ») .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ قال ابن كثير : (كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه » . وقال سفيان الثوري عن حصين عن مجاهد عن جنادة بن أبي أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل يا فلان هذا نورك ، يا فلان لا نور لك وقرأ ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ وقال الضحاك : ليس أحدٌ لا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفيء نور المنافقين فقالوا ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا** ﴾ وقال الحسن : ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ يعني على الصراط ، وقد روى

ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى ... عن سعيد بن مسعود أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يحدث أنه سمع أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبي ﷺ قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم » فقال له رجل : يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟ فقال : « أعرفهم محجّلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم ») .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر . روى ابن أبي حاتم بسنده عن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق ، فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال : ﴿ **أو كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يَدَه لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن ، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ **باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ الآية إلا أنه يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن ، ثم روى ابن أبي حاتم أيضاً - بسنده - عن أبي أمامة

قال يبعث الله ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم ، فيتبعهم المنافقون فيقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا ، قال المؤمنون ﴿ **ارجعوا وراءكم** ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور ، وروى أبو القاسم الطبراني ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا** ﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** ﴾ قال ابن كثير : (عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾الآية إلا أربع سنين . كذا رواه مسلم في آخر الكتاب ، وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية . وقد رواه ابن ماجه بسنده عن أبي حازم عن عامر بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه مثله فجعله من مسند ابن الزبير لكن رواه البزار في مسنده ... عن ابن مسعود فذكره وقال سفيان الثوري عن المسعودي عن القاسم قال : ملّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا : حدّثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾ قال : ثم ملّوا فقالوا : حدِّثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث** ﴾ ثم ملّوا ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ وقال قتادة : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع ») .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى أبو جعفر الطبري عن إبراهيم

قال : جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال : يا أبا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر قلبه منكراً ، إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، اخترعوا كتاباً من بين أيديهم وأرجلهم استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم ، وقالوا نعرض على بني إسرائيل هذا الكتاب فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه قال : فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن ثم جعل القرن بين ثَندوتيه فلما قيل له أتؤمن بهذا ؟ قال آمنت به ويومىء إلى القرن بين ثَندوتيه ، وما لي لا أومن بهذا الكتاب ؟ فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن) . أقول : لعلّ الكتاب الذي ذكره ابن مسعود هو التلمود وفيه الطامّات الفظيعة ، وهذا إذا كان المراد ببني إسرائيل اليهود ، أما إذا كان المراد النصارى لأن الحواريين من بني إسرائيل وعامّة من آمن بعيسى في حياته منهم ، فقد يكون المراد بالكتاب ما استقرّت عليه الكنيسة من باطل في زمن قسطنطين .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم** ﴾ قال الألوسي : (أي أولئك هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله تعالى وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية ، وسائر صفات الكمال ، ولهم بما يليق بهم من ذلك ، لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، وقال بعضهم : وصفهم بالشهادة لكونهم شهداء على الناس كما نطق به قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ فعند ربهم متعلق بالشهداء ، والمراد الشهداء على الناس يوم القيامة ، وجوز تعلقه بالشهداء أيضاً على الوجه الأول على معنى الذين شهدوا مزيد الكرامة بالقتل في سبيل الله تعالى يوم القيامة ، أو في حظيرة رحمته عز وجل أو نحو ذلك ، ويشهد لكون الشهداء معطوفاً على الصديقين آثار كثيرة .

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن مؤمني أمتي شهداء ، ثم تلا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم** ﴾ » ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه قال يوماً لقوم عنده : كلكم صديق وشهيد قيل له : ما تقول يا أبا هريرة ؟ قال : اقرؤوا ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ الآية ، وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن مجاهد قال : كل مؤمن صديق وشهيد ثم تلا الآية ،

وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون ، وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان وقمته فمِمّن أنا ؟ قال : « من الصديقين والشهداء » . وينبغي أن يحمل الذين آمنوا على من لهم كمال في ذلك يُعتدُّ به ، ولا يتحقق إلا بفعل طاعات يعتدُّ بها ، وإلا فيبعد أن يكون المؤمن المنهمك في الشهوات الغافل عن الطاعات صديقاً شهيداً ، ويستأنس لذلك بما جاء من حديث عمر رضي الله تعالى عنه : ما لكم إذا رأيتم الرجل يخرق أعراض الناس أن لا تعيبوا عليه ؟ قالوا : نخاف لسانه قال : ذلك أحرى أن لا تكونوا شهداء ، قال ابن الأثير : أي إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا في جملة الشهداء الذين يُستشهدون يوم القيامة على الأمم التي كذبت أنبياءها ، وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام : اللعانون لا يكونون شهداء بناءً على أحد قولين فيه . وفي بعض الأخبار ما ظاهره إرادة طائفة خواص المؤمنين . أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من فرّ بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه ، كتب عند الله صديقاً ، فإذا مات قبضه الله شهيداً ، وتلا هذه الآية ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء** ﴾ – ثم قال – هذه فيهم ، ثم قال : والفرّارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم في درجته في الجنة » ويجوز أن يراد من قوله : « هذه فيهم » أنها صادقة عليهم وهم داخلون فيها دخولاً أولياً ، ويقال : في قوله عليه الصلاة والسلام : « مع عيسى في درجته » المراد معه في مثل درجته وتوجه المماثلة بما مَرّ ، والخبر إذا صح يؤيد الوجه الأول في الآية .

وروي عن الضحاك أنها نزلت في ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام ، وهم أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلي . وحمزة . وطلحة . والزبير . وسعد . وزيد رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وهذا لا يضر في العموم كما لا يخفى) .

١٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن جرير ... عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ » وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة والله أعلم . وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :

« لَلْجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » انفرد بإخراجه البخاري في الرقائق من حديث الثوري عن الأعمش به . ففي الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان) .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ أقول : دأب الباطنيون على السؤال عن هذه الآية وعن أختها في سورة آل عمران يتساءلون إذا كان هذا سعة الجنة فأين النار ؟ يطرحون هذا السؤال طرح تعجيز ، يتصورون أنه لا يستطيع أحد الجواب على هذا السؤال ، للوصول إلى التأويل الباطني الذي يزعمون أن أئمتهم مختصون به ، مع أن الجواب في غاية البساطة ، فالجنة فوق السماء السابعة على القول الصحيح فإذا اعتبرنا عرض السماء والأرض هو قطر السماء والأرض فلا شك أن محيط الدائرة أكبر من قطرها ، وإذا كانت الجنة فوق السماء السابعة فهل معنى هذا أنه لم يبق فراغ توجد فيه النار ! .

١٥ - بمناسبة قوله تعالى عن الجنة : ﴿ **أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ قال ابن كثير : (أي : هذا الذي أهّلهم الله له هو من فضله ومنِّه عليهم ، وإحسانه إليهم ، كما قدمنا في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم . تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » قال فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ : « هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ») .

١٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب** ﴾ قال ابن كثير : (وهذه الآية الكريمة أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله - وروى الإمام أحمد عن أبي هانىء الخولاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموٰات والأرض بخمسين ألف سنة » ورواه مسلم في صحيحه ، وزاد ابن وهب - وهو من رجال سنده - : « وكان عرشه على الماء » ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح) .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾ قال ابن كثير : (أي : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود ... عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم ») .

١٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى ابن أبي حاتم ... عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا ابن مسعود » قلت لبيك يا رسول الله قال : « هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ؟ لم ينجُ منها إلا ثلاث فرق ، فرقة قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة ، فقتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال فقامت بين الملوك والجبابرة فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكر الله تعالى ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** ﴾ » .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي ... عن سهل بن أبي أمامة دخل هو وأبوه على أنس ابن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير وهو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها ، فلما سلّم قال : يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه إن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ؛ فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » ثم غدوا من الغد فقالوا نركب فننظر ونعتبر قال : نعم فركبوا جميعاً فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا خاوية

على عروشها فقالوا : أتعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها ، هؤلاء أهل الديار أهلكهم البغي والحسد ، إن الحسد يطفيء نور الحسنات ، والبغي يصدق ذلك أو يكذبه والعين تزني ، والكف والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه . وروى الإمام أحمد ... عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل » ورواه الحافظ أبو يعلى ... ولفظه : « لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال : أوصني ، فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض . تفرد به أحمد والله تعالى أعلم .

١٩ - عند قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته** ... ﴾ قال ابن كثير : (وقال سعيد بن جبير لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين** ﴾ أي ضعفين ﴿ **من رحمته** ﴾ وزادهم ﴿ **ويجعل لكم نوراً تمشون به** ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم ، ففضلهم بالنور ، والمغفرة ، ورواه ابن جرير عنه . وروى البخاري ... عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار ، فقالوا : لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم ، وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه ، فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار يسير فأبوا ، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ؛ فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخاري .

كلمة أخيرة في سورة الحديد :

فصّلت سورة الحديد في العشرين آية الأولى من سورة البقرة ، فذكرت دوافع النفاق ، وأسباب الكفر والفسوق ، وذكرت بعض معالم الإيمان بالغيب ، وما يقتضيه الإيمان بالغيب من آثار ، وذكرت محلّ الإنفاق في سبيل الله ، والدوافع التي تدفع إليه وعلّمتنا كيف نتفاعل مع كتاب الله ، وعرّفتنا على أن أصل الأصول الإيمان بالله والرسول ، وعرفنا من السورة لِمَ كان الرسول ﷺ يركّز على الشهادتين كبداية لكل شيء ، وهكذا وجدنا تفصيلاً جديداً لبعض معاني مقدمة سورة البقرة بشكل جديد ، وعرض جديد ، وسياق خاص ، وتأتي الآن سورة المجادلة لتفصّل في ما بعد مقدمة سورة البقرة وبشكل يكمّل المعاني التي تعرّضت لها سورة الحديد .



سورة المجادلة

وهي السورة الثامنة والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية والأخيرة من المجموعة الثانية من
قسم المفصل ، وهي اثنتان وعشرون آية
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة المجادلة :

قال الألوسي رحمه الله بين يدي هذه السورة : (بفتح الدال وكسرها ، والثاني هو المعروف ، وتسمى سورة (قد سمع) وسميت في مصحف أبيّ رضي الله تعالى عنه الظهار ، وهي على ما روي عن ابن عباس . وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم مدنية ؛ قال الكلبي ، وابن السائب : إلا قوله تعالى : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ ، وعن عطاء : العشر الأول منها مدني وباقيها مكي ، وقد انعكس ذلك على البيضاوي ، وأنها إحدى وعشرون في المكي والمدني الأخير ، واثنتان وعشرون في الباقي ، وفي التيسير هي عشرون وأربع آيات وهو خلاف المعروف في كتاب العدد .

ووجه مناسبتها لما قبلها أن الأولى ختمت بفضل الله تعالى وافتتحت هذه بما هو من ذلك ، وقال بعض الأجلة في ذلك : لما كان في مطلع الأولى ذكر صفاته تعالى الجليلة ، ومنها الظاهر والباطن ، وقال سبحانه : ﴿ **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم** ﴾ افتتح هذه بذكر أنه جل وعلا سمع قول المجادِلة التي شكت إليه تعالى ، ولهذا قالت عائشة فيما رواه النسائي ، وابن ماجه ، والبخاري تعليقاً حين نزلت : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله تعالى ﴿ **قد سمع** ﴾ » الخ ، وذكر سبحانه بعد ذلك ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما في السموٰات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ الآية ، وهي تفصيل لإجمال قوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين سورتي الحديد والحشر ، مع تواخيهما في الافتتاح - بسبح - إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتأمل) .

ومن تقديم صاحب الظلال رحمه الله لسورة المجادلة نقتطف ما يلي : (وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ؛ وهو يصنعها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده - سبحانه - معها في أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها ؛ وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ؛ وأخذها في حماه وكنفه ، وضمها إلى لوائه وظله ؛ وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله ، وتنتسب إليه ، وتؤلف حزبه في الأرض ، وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعاً) .

كلمة في سورة المجادلة ومحورها :

يلاحظ أن هناك تشابهاً قوياً بين سورة المجادلة وسورة المائدة ؛ تبدأ سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود ، وتبدأ سورة المجادلة بالكلام عن طريق خاطىء لفك عقد الزواج ، وفي سورة المائدة نجد قوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ وفي سورة المجادلة نجد قوله تعالى : ﴿ **فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى** ﴾ وفي سورة المائدة نجد قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يُصلّبوا** ﴾ . ونجد في سورة المجادلة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين ...** ﴾ . ونجد في سورة المائدة كلاماً كثيراً عن الولاء ، ونجد في سورة المجادلة : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ...** ﴾ . ونجد ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ...** ﴾ .

ونجد في سورة المائدة تصريحاً بذكر حزب الله ، ونجد في سورة المجادلة تصريحاً بذكر حزب الله كذلك ، ولا نجد تصريحاً بذكر حزب الله في القرآن كله إلا في هاتين السورتين ﴿ **ألا إن حزب الله هم الغالبون** ﴾ (سورة المائدة) ، ﴿ **ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ (سورة المجادلة) ، وهذا يشير إلى أن محور سورة المجادلة هو محور سورة المائدة .

....

إن محور سورة المائدة من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ فسبب إضلال الله الإنسان يعود إلى اتصاف الإنسان بالفسوق الذي هو نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض ، ومن ثَمَّ جاءت سورة المائدة لتفصّل في ما يحرر من هذه المعاني ليكون الطريق إلى الهداية سالكاً بسلوك طريقها الإيجابي ، وهو الذي فصّلته سورة النساء وأمثالها ، وإن سورة المجادلة تؤدي نفس الدور الذي أدته سورة المائدة ، فهي تحرر من عوامل الضلال . فإذا كانت سورة الحديد

حققت بالمعاني الإيجابية للهداية ، فإن سورة المجادلة تحرر من المعاني السلبية التي تحول دون الهداية .

....

إن هناك متقين وفاسقين ، والفاسقون نوعان : كافرون ومنافقون ، هؤلاء يقفون في طرف ، وهؤلاء يقفون في طرف آخر ، ولا نعني بالفسوق هنا الفسوق النّسبي فهذا قد يقع فيه المؤمنون .

....

وقد لخّصت هذه الآيات – من سورة البقرة – خصائص المتقين : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ولخّصت هذه الآية – من سورة البقرة – خصائص الفاسقين : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ الأولون مفلحون وهؤلاء خاسرون ، وسورة الحديد انصب الكلام فيها على ما يحقق بخصائص المتقين ، وسورة المجادلة ينصب الكلام فيها على ما يحرّر من أخلاق الفاسقين ، والتكامل قائم والتداخل موجود .

....

في القرآن سورتان مبدوءتان بـ (قد) سورة المؤمنون وسورة المجادلة وقد رأينا من قبل أن سورة المؤمنون تفصّل في قوله تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...** ﴾ وفصّلت في قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ...** ﴾ أي في محور سورة المائدة فهي تفصّل – في جملة ما تفصّل – المحور الذي تفصّل فيه سورة المجادلة .

....

تتألف سورة المجادلة من مقدمة ومقطعين ، كل مقطع مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله ...** ﴾ ومن مطلع المقطعين ندرك كيف تتكامل سورة الحديد وسورة المجادلة ، فسورة الحديد تأمر بالإيمان بالله ورسوله ، وسورة المجادلة تتحدث عن محاربة الله ورسوله ، وكما قلنا من قبل فالسورتان تفصّلان في صفات

الفريقين المتقابلين : المتقين والفاسقين لتحققا في التقوىٰ ، وتحررا من الفسوق ، وكما تفصّلان في صفات الفريقين من ناحية فإنهما تتكاملان كمجموعة واحدة ضمن قسم واحد ، كل مجموعة تؤدي دورها في تكميل أختها داخل القسم ، ليؤدي القسم كله دوراً متكاملاً في البناء المكمّل للأقسام الأخرىٰ ، فإذا عرفت هذا كله ، وعلمت بعد ذلك أن هذا القرآن نزل منجّماً خلال ثلاث وعشرين سنة تقريباً حسب الحوادث والنوازل ، أو حسب التدرج في بناء أمة جديدة بما يقتضيه وضع بنائها شيئاً فشيئاً حتىٰ اكتمل القرآن بترتيب الله على صيغته الحالية ، وكان في هذه الصيغة مثل هذا الترتيب العجيب البديع ، الذي يحقق مقاصد جمّة ، والذي نرىٰ فيه الإجمال ، والتفصيل ، والوحدة الجزئية ، والوحدة الكلية ، والسياق الخاص للسورة ، ومحلها في السياق القرآني العام ، وغير ذلك مما رأيناه ونراه من هذا ندرك أن هذا القرآن جلّ أن يكون بشريّ المصدر .

....

تنتهي مقدمة سورة المجادلة بنهاية الآية (٤) ويستمر المقطع الأول فيها حتى نهاية الآية (١٩) ويستمر المقطع الثاني حتى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٢٢) ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وتتألف من أربع آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

التفسير :

﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها** ﴾ أي : تحاورك ، وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت ، ظاهر منها زوجها بأن قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، قال ابن كثير : (وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم) ﴿ **وتشتكي إلى الله** ﴾ كانت تقول يا رسول الله ﷺ « أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ! اللهم إني أشكو إليك » وسنرى تفصيلات ذلك في

الفوائد ﴿ **والله يسمع تحاوركما** ﴾ سنرى تفصيلات الحوار في الفوائد ، ومن رواياته أن رسول الله ﷺ كان يقول لها : « ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » ومن رواياته أنه قال لها : « ما أمرنا في أمرك بشيء » وفي تلك اللحظة نزل الوحي بهذه الآيات على رسول الله ﷺ فكان فيها الفرج والمخرج ﴿ **إن الله سميع** ﴾ يسمع شكوى المضطر ﴿ **بصير** ﴾ بحاله ، ثمّ بيّن الله عز وجل حكم الظهار ﴿ **الذين يظاهرون منكم** ﴾ أي : من العرب . قال النسفي : توبيخ للعرب لأنه كان من أيْمان أهل جاهليتهم خاصة ، دون سائر الأمم . والإمام مالك يرى أن الخطاب للمؤمنين ، وبنى عليه حكماً كما سنرى في الفوائد ، وكونِ الخطاب للمؤمنين هو الذي عليه الجمهور ، وإن خالفوا الإمام مالك في ما بناه عليه . ﴿ **من نسائهم** ﴾ أي : من زوجاتهم ، واستدل الجمهور بهذا النّص على أنّ الأمَة لا ظهار منها ، ولا تدخل في هذا الخطاب ﴿ **ما هنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي : لا تصير المرأة بقول الرجل أنت عليّ كأمي أو مثل أمي أو كظهر أمّي وما أشبه ذلك لا تصير أمّه بذلك ، إنما أمّه التي ولدته . قال النسفي : (يريد أن الأمهات على الحقيقة الوالدات ، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع ، وكذا أزواج رسول الله ﷺ لزيادة حرمتهن ، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة) . فلذا قال : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول** ﴾ أي : تنكره الحقيقة والأحكام الشرعية ﴿ **وزوراً** ﴾ أي : وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ قال ابن كثير : (أي : عما كان منكم في حال الجاهلية وهكذا أيضاً عمّا خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه أبو داود أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته يا أختي فقال : « أختك هي ؟ » فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده ، ولو قصده لحرمت عليه لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك) ، وبعد أن بين الله عز وجل في الآية السابقة أن الظهار من قائله منكر وزور ، بيّن في الآية التالية حكم الظهار فقال : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** ﴾ أي : يعودون لنقض ما قالوا أو لتداركه أو تحليل ما حرّموا قال النسفي : ثم اختلفوا أن النقض بماذا يحصل ؟ فعندنا - أي : الحنفية - بالعزم على الوطء وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة ، وعند الشافعي بمجرد الإمساك ، وهو ألا يطلقها عقيب الظهار ﴿ **فتحرير رقبة** ﴾ قال النسفي - وهو حنفي - : فعليه إعتاق رقبة مؤمنة أو كافرة ، ولم يجز المدبّر وأمّ الولد والمكاتب الذي أدّى شيئاً ، أقول : وعند

الشافعية لا بدّ أن تكون الرقبة مؤمنة كما سنرى في الفوائد ﴿ **من قبل أن يتماسّا** ﴾ قال النسفي : والمماسّة الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة ، أقول : أي : ليس للمظاهر أن يمسّ زوجته هذا النوع من المسّ قبل التكفير ، ونقل ابن كثير عن الحسن البصري أنه لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفّر ، وهذا يفيد أن الحسن البصري فسّر التماسّ بالجماع فقط ، فلو أنه جامع قبل التكفير هل عليه كفارة خاصة لذلك ؟ عامة الفقهاء لا يرون أن عليه كفارة خاصة لذلك ، وإنما عليه التوبة والاستغفار ﴿ **ذلكم** ﴾ أي : الحكم ﴿ **توعظون به** ﴾ أي : تزجرون به . قال النسفي : لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ قال ابن كثير : أي : خبير بما يصلحكم ، عليم بأحوالكم ﴿ **فمن لم يجد** ﴾ أي : الرقبة ﴿ **فصيام** ﴾ أي : فعليه صيام ﴿ **شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع** ﴾ الصيام ﴿ **فإطعام ستين مسكيناً** ﴾ أي : فعليه إطعام ستين مسكيناً ، لكل مسكين نصف صاع من برٍ ، أو صاع من غيره ، ويجب أن يقدّمه على المسيس ، ولكن لا يستأنف إن جامع خلال الإطعام قاله النسفي ﴿ **ذلك** ﴾ الحكم ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ قال ابن كثير : أي : شرعنا هذا لهذا ﴿ **وتلك** ﴾ أي : الأحكام التي وصفنا في الظهار والكفارة ﴿ **حدود الله** ﴾ التي لا يجوز تعديها . قال ابن كثير : أي : محارمه فلا تنتهكوها ﴿ **وللكافرين** ﴾ الذين لا يتّبعونها ﴿ **عذاب أليم** ﴾ أي : مؤلم . قال ابن كثير : (أي : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلّا ، ليس الأمر كما زعموا بل لهم عذاب أليم ، أي : في الدنيا والآخرة) .

....

كلمة في السياق :

١ - علل الله - عز وجل - لتشريعه أحكام الظهار بقوله : ﴿ **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ ومن هنا نفهم أن التشريعات الإسلامية كلها تنبثق عن الإيمان بالله والرسول ، وقبولها علامة الإيمان بالله والرسول والالتزام بها ، يعمّق الإيمان بالله والرسول ، وهذا يعرّفنا على حكمة من حكم مجيء هذا الموضوع في مقدمة السورة التي تتحدث عن محاربة الله والرسول ، وبعد السورة التي أمرت بالإيمان بالله والرسول ﷺ .

٢ - من قوله تعالى في ختام الآيات السابقة : ﴿ **وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ نعلم جهل الذين يتصوّرون أن الإسلام عقائد وعبادات فقط فالإسلام عقائد وشعائر وشرائع يجب الإيمان بها جميعاً وإلا فهو الكفر .

٣ - الظهار في حد ذاته نقض غير صحيح لعقد موثّق هو عقد الزواج ، قال الله عز وجل : ﴿ **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ كما أنّه قطع لما أمر الله به أن يوصل ، وهو البر بالأزواج ، ولذلك صلاته بالمحور ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ .

٤ - ختم الله مقدمة سورة المجادلة بقوله تعالى : ﴿ **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ ثم يأتي بعد ذلك في السورة المقطع الأول وهو مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله كُبتوا ...** ﴾ فالصلة واضحة بين مقدمة سورة المجادلة وبين ما يأتي بعدها مباشرة ؛ فالأحكام الشرعية وجدت لتحقيق الإيمان بالله والرسول ، والرافضون لها والعاملون على تهديمها واستبدالها بغيرها محاربون لله والرسول ولذلك يأتي الحديث عنهم .

٥ - لاحظ التكامل بين سورتي الحديد والمجادلة : في سورة الحديد يأتي قوله تعالى : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله** ﴾ ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء** ﴾ و ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله** ﴾ ، وفي سورة المجادلة يأتي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله كُبتوا** ﴾ و ﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين** ﴾ إنهما سورتان تتعانقان وتتكاملان ، ولا غرابة فهما مجموعة واحدة .

٦ - لاحظ صلة بداية المقطع اللاحق بالمحور : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ إنّ محادّة الله ورسوله يدخل فيها نقض الميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض والكبت الذي تهدّد الله به المحادّين مظهر من مظاهر خسارة الفاسقين .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (٥) إلى نهاية الآية (١٩) وهذا هو :

مقدمة المقطع

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

الفقرة الأولى

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

الفقرة الثانية

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا

ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

الفقرة الثالثة

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

ملاحظة على السياق :

يلاحظ أن المقطع يبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله** ... ﴾ وينتهي بقوله : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ لاحظ صلة ذلك بمحور السورة : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ المشترك في نهاية المقطع ونهاية المحور ، فالمحادون لله ورسوله ﷺ هم الذين ينقضون عهد الله ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ... ويلاحظ أن المقطع يتألف من مقدمة وفقرات المقدمة تتألف من آيتين والفقرات تبتدىء بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر** ﴾ فلنعرض المقطع .

التفسـير

تفسير مقدمة المقطع :

﴿ **إن الذين يحادّون** ﴾ أي : يعادون ويشاقّون ويحاربون ﴿ **الله ورسوله كبتوا** ﴾ أي : أخزوا وهلكوا ﴿ **كما كبت الذين من قبلهم** ﴾ من أعداء الرسل ﴿ **وقد أنزلنا آيات بيّنات** ﴾ أي : واضحات تدلّ على صدق الرسول وصحة ما جاء به ، فلا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ **وللكافرين** ﴾ بهذه الآيات ﴿ **عذاب مهين** ﴾ يذهب بعزّهم وكبرهم قال ابن كثير : أي : في مقابلة ما استكبروا عن اتّباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ أي : كلهم لا يترك منهم أحداً غير مبعوث ، أو مجتمعين في حال واحدة ، والسياق في الكافرين وإن كان البعث للخلق أجمعين ﴿ **فينبئهم بما عملوا** ﴾ قال النسفي : تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم ، يتمنّون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿ **أحصاه الله ونسوه** ﴾ أي : ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا قال النسفي : (أي : أحاط به عدداً لم يفته منه شيء ، ونسوه لأنهم تهاونوا به

حين ارتكبوه ، وإنما تحفظ معظمات الأمور) ﴿ **والله على كل شيء شهيد** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ، ولا ينسى شيئاً .

....

كلمة في السياق :

قررت مقدمة المقطع عقوبة المحادّين لله ورسوله وهي الخزي والذلة في الدنيا والآخرة ، وذكرت لنا مظهراً من مظاهر خزيهم في الآخرة ، وبيّنت أن الحجة قائمة عليهم بآيات الله البينات ، وهذا الكبت لهم في الدنيا والآخرة مظهر من مظاهر الخسار الذي يصيب المحادّين لله ورسوله ، وقلنا من قبل إن المحادّين لله ورسوله هم ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ وقد فهمنا ذلك من سياق هذا المقطع - إذ ينتهي بكلمة (الخاسرون) - ومن محور السورة كذلك ، والآن تأتي فقرة تقرّر وتذكّر بعلم الله المحيط ، وتكاد تكون كالتعليل لما قبلها من كون الله - عزّ وجل - محيطاً علماً بكل شيء فينبّيء الكافرين بما عملوا . فلنر الفقرة :

تفسير الفقرة الأولىٰ :

﴿ **ألم تر** ﴾ بقلبك وعقلك ﴿ **أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ برؤيتك لدقة نظام السمٰوات والأرض ، ودقة ما يجري في السمٰوات والأرض ، فمن رأى بقلبه أفعال الله علم أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض ﴿ **ما يكون من نجوىٰ ثلاثة** ﴾ أي : ما يقع من تناجي ثلاثة نفر ﴿ **إلا هو** ﴾ أي : الله ﴿ **رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنىٰ** ﴾ أي : ولا أقل ﴿ **من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم** ﴾ يعلم ما يتناجون به ، ولا يخفىٰ عليه ما هم فيه ﴿ **أينما كانوا** ﴾ أي : مطّلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ، والملائكة أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه له ﴿ **ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة** ﴾ فيجازيهم عليه ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ قال الإمام أحمد افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآية لتذكّر بإحاطة علم الله في سياق وعيد الذين يحادّون الله ورسوله

وتذكر أن الله عز وجل سينبئهم بما عملوه يوم القيامة ، وفي ذلك من الإنذار للكافرين ، ومن التطمين للرسول ﷺ وأهل الإيمان ما فيه ، ولمّا كانت المحادَّة لله ورسوله ﷺ بدايتها التناجي الآثم ؛ فإن الفقرة التالية تعالج هذا الموضوع ، وتدل المسلم على أدب التناجي الحق ، وأدب المجالس ، وأدب مناجاة رسول الله ﷺ ، مما يشير إلى أن الله عز وجل إذ يطهر المسلم من أخلاق الفاسقين ، فإنّه يحققه في الوقت نفسه بأخلاق المؤمنين ، فالهدم والبناء والتخلية والتحلية كلها تمشي مع بعضها .

تفسير الفقرة الثانية :

﴿ **ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوىٰ** ﴾ أي : التناجي الخفي الظالم ﴿ **ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ أي : للنجوى الظالمة التي فسّر الله مضمونها بقوله : ﴿ **ويتناجون بالإثم** ﴾ أي : بالذنب يفعلونه أو يشيعونه أو يتآمرون آثمين ﴿ **والعدوان** ﴾ على الآخرين ، إما على عرض أو مال أو حق ﴿ **ومعصية الرسول** ﴾ أي : مخالفته والخروج على أوامره وفي ذلك نقض للعهد مع الله ، وقطع لما أمر الله به أن يوصل ، وإفساد في الأرض ﴿ **وإذا جاؤوك حيوك بما لم يُحيِّك به الله** ﴾ قال النسفي : يعني أنهم يقولون في تحيتك : السام عليك يا محمد ، والسام : الموت ، والله تعالى يقول : ﴿ **وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ و ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وهو موضوع سنرى تفصيلاته في الفوائد ﴿ **ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول** ﴾ قال ابن كثير : (أي : يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسّره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا) فقال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم** ﴾ أي : عذاباً ، أي : جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ **يصلونها** ﴾ أي : يدخلونها ﴿ **فبئس المصير** ﴾ أي : فبئس المرجع جهنم ، وقد دلّت الآية على أنه إذا لم تنل الكافر أو المنافق عقوبة في الدنيا ؛ فإن عذاب جهنم كاف . قال ابن كثير : ثم قال الله تعالى مؤدّباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾ قال ابن كثير : أي : كما يتناجىٰ به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومَنْ مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ **وتناجوا بالبر** ﴾ أي : بالفرائض والطاعات

﴿ **والتقوىٰ** ﴾ أي : بترك المعاصي ويحتمل أن يكون المراد بالبر الورع ، وبالتقوىٰ الواجبات من صلاة وزكاة واتباع كتاب ﴿ **واتقوا الله الذي إليه تحشرون** ﴾ للحساب فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر قال ابن كثير : أي : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها ﴿ **إنما النجوى** ﴾ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿ **من الشيطان** ﴾ أي : من تزيينه ﴿ **ليحزن الذين آمنوا** ﴾ أي : ليسوء الشيطان الذين آمنوا عندما يرون أعداء الله يتآمرون عليهم ، ويتغامزون ، ويشيعون الإشاعات ﴿ **وليس** ﴾ ذلك ﴿ **بضارّهم** ﴾ أي : بضار المؤمنين ﴿ **شيئاً إلا بإذن الله** ﴾ أي : بعلمه وقضائه وقدره ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ فإنّه مولاهم فليطمئنوا إلى تدبيره بهم ولهم .

كلمة في السياق :

رأينا في ما مرّ معنا من الفقرة الثانية نهي الله - عز وجل - عن التناجي الظالم الفاسق ، وتأديب الله عز وجل عباده المؤمنين على التناجي العادل التقي ؛ ليقابلوا ذلك التناجي الشقي ، وفي هذا السياق يبيّن الله عز وجل للمسلمين أدبهم في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، فاجتماع يقابل اجتماعاً ، وتناج يقابل تناجياً ، وللفاسقين طرائقهم ، وللمسلمين آدابهم في كلٍ .

....

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس** ﴾ أي : توسّعوا فيها ﴿ **فافسحوا** ﴾ أي : فوسّعوا لبعضكم بعضاً ﴿ **يفسح الله لكم** ﴾ قال ابن كثير : (وذلك أن الجزاء من جنس العمل) وهذا الوعد من الله عز وجل بالإفساح لمن يفسح مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه ، من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك قاله النسفي ﴿ **وإذا قيل انشزوا** ﴾ أي : انهضوا من مجلسكم ليجلس غيركم إذا رأى الإمام ذلك لحكمة من الحكم ﴿ **فانشزوا** ﴾ أي : فانهضوا ، ويحتمل أن يكون المراد : وإذا قيل لكم انصرفوا فانصرفوا ، أو انهضوا لأمر من أمور الدين فانهضوا ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم** ﴾ بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، وخاصة فيما فيه مكروه على النفس ﴿ **والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ أي : ويرفع العالمين منهم خاصة درجات . قال النسفي : وفي الدرجات قولان : أولهما في الدنيا في المرتبة والشرف ، والآخر في الآخرة . قال ابن كثير : (أي : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ،

أو إذا أمر بالخروج فخرج أن يكون ذلك نقصاً في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله والله تعالى لا يضيع ذلك بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره) ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي : خبير بمن يستحق الرفعة والأجر والمكافأة ومن لا يستحقه .

كلمة في السياق :

وبعد أن أدّب الله المسلمين هذا الأدب الرفيع الذي فيه هضم النفس في ذات الله ، وبعد أن علّمهم كيف يكون محور حديثهم في مجالسهم ، تأتي الآن آيتان فيهما أدب مناجاة رسول الله ﷺ ، وذلك في مقابل سوء أدب الكافرين والمنافقين مع رسول الله ﷺ .

....

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول** ﴾ أي : إذا أردتم مناجاته ﴿ **فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة** ﴾ أي : قبل نجواكم . قال ابن كثير : يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي : يساره فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ولهذا قال تعالى : ﴿ **ذلك** ﴾ أي : التقديم ﴿ **خير لكم** ﴾ في دينكم ﴿ **وأطهر** ﴾ من الذنوب لأن الصدقة طهرة ﴿ **فإن لم تجدوا** ﴾ أي : ما تتصدقون به ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي : في ترخيص المناجاة من غير صدقة ، فما أمر بها إلا من قدر عليها ، ثم قال تعالى : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات** ﴾ أي : أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه . قال ابن كثير : أي : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ **فإذ لم تفعلوا** ﴾ ما أمرتم به وشقّ عليكم ﴿ **وتاب الله عليكم** ﴾ أي : خفف عنكم وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة كما أزال المؤاخذة بالذنب عن التائب منه ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ فهذا الذي لا ينبغي التساهل فيه في كل حال . قال النسفي : أي : فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ قال النسفي : وهذا وعد ووعيد ، وبهذا انتهت الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

كلمة في السياق :

بدأ المقطع الأول بالكلام عن عقوبة الذين يحادّون الله ورسوله ، ثم في الفقرة الأولى أكد على موضوع علم الله بكل شيء ، ومن ذلك حديث الناس ، وفي الفقرة الثانية كان الحديث عن المناجاة الظالمة بين أعداء الله عز وجل ، وفي سياق ذلك علّم الله المسلمين أدب المناجاة ، وأدب المجالس ، وأدب خطاب رسول الله ﷺ ، ثـمّ تأتي الفقرة الثالثة وفيها كلام عن تولي الكافرين الذي هو قطع لما أمر الله به أن يوصل من موالاة أهل الإيمان ، وبهذا يكون المقطع قد حدّثنا عن أهم مظهرين من مظاهر محادّة الله ورسوله ، التناجي الظالم ، والموالاة للكافرين فلنر الفقرة الثالثة .

تفسير الفقرة الثالثة :

﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾ قال النسفي : (كان المنافقون يتولّون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم ...) ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾ أي : ما هم منكم يا مسلمون ولا هم من اليهود ، قال ابن كثير : (أي : هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود) . أقول : ويدخل في ذلك كل ولاية من قبل مسلم لكافر . قال ابن كثير : يقول الله تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ﴿ **ويحلفون على الكذب** ﴾ أي : يقولون : والله إنا لمسلمون لا منافقون ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أنهم كاذبون منافقون . قال ابن كثير : (يعني المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ، ولا سيما في مثل حالهم اللعين - عياذاً بالله منه - فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقاً ، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك) ﴿ **أعد الله لهم عذاباً شديداً** ﴾ أي : نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ أي : إنهم كانوا في الزمان الماضي مصرّين على سوء العمل ، قال ابن كثير : أي : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهي موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **اتخذوا أيمانهم** ﴾ الكاذبة ﴿ **جُنَّة** ﴾ أي : وقاية دون أموالهم

ودمائهم ﴿ **فصدوا** ﴾ الناس من خلال أمنهم وسلامتهم ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أي : طاعته والإيمان به قال ابن كثير : (أي : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيْمان الكاذبة ، فظن كثير ممّن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغترّ بهم ، فحصل بهذا صدٌ عن سبيل الله لبعض الناس) . أقول : ما أكثر هذه الصورة في عصرنا ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾ أي : مذل مخز . قال ابن كثير : أي : في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيْمان الكاذبة الخائنة ﴿ **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من** ﴾ عذاب ﴿ **الله شيئاً** ﴾ ولو قليلاً . قال ابن كثير : أي : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أي : ماكثون أبداً ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ أي : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾ أي : فيحلفون لله في الآخرة أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غير منافقين كما يحلفون لكم في الدنيا على ذلك ﴿ **ويحسبون أنّهم** ﴾ في الدنيا ﴿ **على شيء** ﴾ ولذلك فهم يحسبون أنهم على شيء من النفع ثَمَّ بأيْمانهم الكاذبة كما انتفعوا ههنا . قال ابن كثير : ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ **ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ في الدنيا والآخرة ، ذلك وصفهم اللازم لهم ﴿ **استحوذ** ﴾ أي : استولى ﴿ **عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ قال ابن كثير : أي : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليهم الشيطان ، وذروة استحواذ الشيطان على الإنسان أن يصرفه عن صلاة الجماعة ، وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » ﴿ **أولئك حزب الشيطان** ﴾ أي : جنده وأنصاره ، يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ في الدنيا والآخرة . وبهذا انتهى المقطع الأول في السورة .

كلمة في السياق :

١ - لاحظ الصلة بين قوله تعالى في المقطع : ﴿ **اتخذوا أيْمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله** ﴾ وبين آية المحور ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ وبين قوله تعالى في المقطع ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ وبين قوله تعالى في وصف المنافقين في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون**

إلا أنفسهم ﴾ .

٢ - بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين * يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ وقد ختم المقطع بقوله تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ من تشابه البداية والنهاية نعرف وحدة المقطع ، ونعرف أن السياق الرئيسي فيه هو في الذين يحادون الله ورسوله ؛ بدليل مجيء الحديث عنهم في البداية والنهاية والوسط .

٣ - مما جاء في المقطع نعرف بعض صفات المحاربين لله ورسوله : ١ - أنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ٢ - أنهم يوالون الكافرين . ٣ - أنهم كثيرو الحلف الكاذب . ٤ - أنهم ينسون ذكر الله لأن الشيطان مستحوذ عليهم . ومن صلة السورة بمحورها ، ومن وصف هؤلاء بالخسران كما وصف الفاسقون في المحور ، نعلم أن هذه تفصيلات لصفات الفاسقين ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

٤ - من المقطع نعرف بعض مظاهر خسران هؤلاء الفاسقين : الكبت في الدنيا والآخرة والعذاب الشديد في الآخرة .

٥ - وبعد هذه الجولة في الكلام عن المحادّين لله ورسوله يأتي المقطع الثاني ليبدأ بالكلام عن هؤلاء المحادين لله ورسوله وعقوبتهم الدنيوية ، وما يقابل موقفهم الفاسد من موقف صحيح هو موقف أهل الإيمان ، ويستقر الكلام في المقطع الثاني على ذكر اسم حزب الله ، بعد أن استقر الكلام في المقطع الأول على ذكر اسم حزب الشيطان فلننتقل إلى المقطع الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

وهو ثلاث آيات يستمر من الآية (٢٠) إلى نهاية الآية (٢٢) وهذا هو :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

التفسير :

﴿ **إن الذين يحادّون الله ورسوله** ﴾ قال ابن كثير : (يعني : الذين هم في حدّ والشرع في حدّ) فهم مجانبون للحق ، مشاقّون له ، هم في ناحية والهدىٰ في ناحية ﴿ **أولئك في الأذلين** ﴾ أي : في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب ، الأذلّين في الدنيا والآخرة . قال النسفي : (أي : في جملة مَنْ هو أذلّ خلق الله تعالىٰ ، لا نرىٰ أحداً أذلّ منهم) ﴿ **كتب الله** ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ **لأغلبنّ أنا ورسلي** ﴾ قال النسفي : بالحجة والسيف أو بأحدهما . قال ابن كثير : أي : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدّل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ﴿ **إن الله قوي** ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿ **عزيز** ﴾ أي : غالب غير مغلوب . قال ابن كثير : أي : كتب القوي العزيز أنّه الغالب لأعدائه ، وهذا قدر محكم ، وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

بيّن الله عز وجل في هذه الآية أن العاقبة لرسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وأن النصرة لهم ، وأن الذلة لمن يحارب الله ورسوله ، ثمّ تختم السورة بآية تبيّن أن الإيمان الحقيقي هو الذي لا يكون معه موادّة لمن يحارب الله ورسوله أصلاً ، سواء كان المحارب كافراً أصلياً أو منافقاً ، وذلك في سياق السورة التي تتحدّث في سياقها الرئيسي عن المنافقين الذين يحادّون الله ورسوله من خلال التناجي بالباطل ، وموالاة الكافرين ، لتبيّن أن الإيمان الحقيقي لا يجتمع مع الموالاة لأعداء الله .

....

﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله** ﴾ أي : من حاربهما وخالفهما وعاداهما . قال ابن كثير : أي : لا يوادّون المحاربين ولو كانوا من الأقربين ﴿ **ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ قال النسفي : (أي : من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، مهما كانت قرابتهم حتى ولو كانت القرابة كمثل ما ذكر ، والمراد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقّه أن يمتنع ولا يوجد بحال) ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾ أي : جعل في قلوبهم الإيمان ﴿ **وأيدهم بروح منه** ﴾ أي : وقوّاهم بحياة منه . قال ابن كثير : أي : من اتصف بأنّه لا يوادّ من حادّ الله ورسوله ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه فهذا مِمّن كتب الله في قلبه الإيمان ، أي : كتب له السعادة وقرّرها في قلبه وزيّن الإيمان في بصيرته ﴿ **ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم** ﴾ بتوحيدهم الخالص وطاعتهم ﴿ **ورضوا عنه** ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة أو بما قضى عليهم في الدنيا ، وفي ذكر الرضى المتبادل سرّ بديع فسّره ابن كثير بقوله : وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله ؛ عوّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العظيم ﴿ **أولئك حزب الله** ﴾ أي : جنده وأنصار الحق الذي أنزل ودعاة الخلق إليه . قال ابن كثير : أي : عباد الله وأهل كرامته ﴿ **ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ قال النسفي : أي : الباقون في النعيم المقيم الفائزون بكل محبوب ، الآمنون من كل مرهوب ، وقال ابن كثير : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان ثم قال : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ .

وقال صاحب الظلال : (وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين : راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل ... وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان !!

لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية ... إنما هي العقيدة ، والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم ، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله ، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض ، ولا من جنس ، ولا من وطن ، ولا من لون ، ولا من عشيرة ، ولا من نسب ، ولا من صهر ... لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فأنبتت هذه الوشائج جميعاً .

ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشدّه أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصداقة ، مما تعالجه هذه الآية في النفوس ، وهي تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم ، والمفاصلة القاطعة ... إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة ، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام) .

كلمة في السياق :

عرفنا من الآية الأخيرة أنّ المودّة لمن حارب الله ورسوله لا تجتمع مع الإيمان ، وهذه القضية من أهم القضايا التي غفل عنها مسلمو القرن الأخير ؛ فترتب عليها ما ترتب ، والملاحظ أنّ كلمة حزب الله لم ترد في القرآن إلا مرتين ، مرّة في معرض الكلام عن الولاء في سورة المائدة ، ومرّة في معرض الكلام عن المودة في سورة المجادلة فلا يكون الإنسان من حزب الله إلا إذا صفت مودته ، وصفى ولاؤه للمؤمنين ، وحجب ولاءه ومودته عن الكافرين والمنافقين والفاسقين .

....

وقد سبق المقطع الأخير في السورة بفقرة تتحدّث عن الولاء مما يشير إلى صلة المودّة بالولاء ، وجاء ذلك في سياق السورة التي تحرّر من أخلاق الفاسقين ، وتوضح أخلاق المؤمنين ، وهذا المقطع الأخير بيّن لنا كيف ينبغي أن يكون الموقف من الفاسقين جميعاً ، ولذلك صلاته بمحور السورة .

الفـوائـد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها** ﴾ وفي سبب نزولها قال ابن كثير : « روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها** ﴾ إلى آخر الآية ، وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً ، وأخرجه النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير من غير وجه عن الأعمش به . وفي رواية لابن أبي حاتم عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني ! اللهم إني أشكو إليك قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها** ﴾ قالت : وزوجها أوس بن الصامت) .

٢ - بمناسبة الكلام عن الظهار قال النسفي : (والظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، وإذا وضع موضع أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة ، أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ ، أو مكان الأم ذات رحم محرم منه بنسب ، أو رضاع ، أو صهر ، أو جماع ، نحو أن يقول : أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع ، أو عمتي من النسب ، أو امرأة ابني أو أبي ، أو أم امرأتي أو ابنتها فهو مظاهر ، وإذا امتنع المظاهر من الكفارة ، للمرأة أن ترافعه ، وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر ، وأن يحبسه ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار ، لأنه يضرُّ بها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع ، فإن مس قبل أن يكفر استغفر الله ولا يعود حتى يكفر ، وإن أعتق بعض الرقبة ثم مس عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة رضي الله عنه) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال رأيت خلخالها في ضوء القمر قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل » وقال الترمذي : حسن غريب صحيح ورواه أبو داود والنسائي من حديث عكرمة مرسلاً قال النسائي : وهو أولى بالصواب) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **تلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ قال الألوسي : (وقال ناصر الدين البيضاوي : أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ومناسبته لما قبله في غاية الظهور .

قال المولى شيخ الإسلام سعد الله جلبي : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع وسموها اليسا والقانون ، والله تعالى المستعان على ما يصفون . أ.هـ ، وقال شهاب الدين الخفاجي بعد نقله : وقد صنف العارف بالله الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع إذا قابل بينهما ، وقد قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لا يقبل التكميل) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما يكون من نجوىٰ ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ قال النسفي : (وتخصيص الثلاثة والخمسة لأنها نزلت في المنافقين وكانوا يتحلقون للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ، وقيل ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ولا أدنى من عدديهم ولا أكثر إلا والله معهم يسمع ما يقولون ، ولأن أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال ، فذكر - عز وجل - الثلاثة والخمسة وقال : ولا أدنى من ذلك فدل على الاثنين والأربعة وقال ولا أكثر فدل على ما يقارب هذا العدد) .

٦ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه** ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ **ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه** ﴾ قال : اليهود ، وكذا قال مقاتل ابن حيان وزاد كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من

أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى فأنزل الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه** ﴾) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » قلت : ألا تسمعهم يقولون السام عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أو ما سمعت أقول وعليكم ؟ » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيّك به الله** ﴾ وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ») .

٨ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن قول المنافقين : ﴿ **لولا يعذّبنا الله بما نقول** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليكم ثم يقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطىٰ كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله** ﴾ قال ابن كثير : (وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » أخرجاه من حديث الأعمش . وروى عبد الرزاق عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه » انفرد بإخراجه مسلم) . قال الألوسي : (مثل التناجي في ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان ذلك يحزنه) .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالى مؤذناً عباده المؤمنين وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس** ﴾ وقرىء « في المجلس » ﴿ **فافسحوا يفسح الله لكم** ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل كما جاء في الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » وفي الحديث الآخر : « من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ولهذا أشباه كثيرة) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل انشزوا فانشزوا** ﴾ قال الألوسي : (وعمم الحكم فقيل : إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه : قوموا ينبغي أن يجاب ، وفعل ذلك لحاجة إذا لم يترتب عليه مفسدة أعظم منها مما لا نزاع في جوازه ، نعم لا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه ، فقد أخرج مالك ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ولكن تفسحوا وتوسعوا ») .

١٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر ابن الخطاب بعسفان - وكان عمر استعمله على مكة - فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى رجل من موالينا ، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه قارىء لكتاب الله ، عالم بالفرائض ،

قاصّ ، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » وهكذا رواه مسلم من غير وجه عن الزهري به ، وروي من غير وجه عن عمر بنحوه) .

وقال النسفي : (عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغّبكم في العلم ، وعن النبي ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . وعنه ﷺ : « عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين سنة » . وعنه ﷺ : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » . فأعظِم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : خُيّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأُعطي المال والملك معه ، وقال ﷺ : « أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم » . وعن بعض الحكماء : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فات من أدرك العلم . وعن الزبيري : العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال ، والعلوم أنواع فأشرفها أشرفها معلوماً) .

وقال الألوسي : (واستدل غير واحد بالآية على تقديم العالم ولو باهلياً شاباً ، على الجاهل ولو هاشمياً شيخاً ، وهو بناء على ما تقدم من معناها لدلالتها على فضل العالم على غيره من المؤمنين ، وأن الله تعالى يرفعه يوم القيامة عليه ، ويجعل منزلته فوق منزلته ، فينبغي أن يكون محله في مجالس الدنيا فوق محل الجاهل .

وقال الجلال السيوطي في كتاب الأحكام قال قوم : معنى الآية : يرفع الله تعالى المؤمنين العلماء منكم درجات على غيرهم ، فلذلك أمر بالتفسّح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء في المجالس ، والتفسّح لهم عن المجالس الرفيعة انتهى) .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة** ﴾ قال ابن كثير : (وقد قيل إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب قدم ديناراً صدقة تصدّق به ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة ، وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد قال علي رضي الله عنه : آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ؛ كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم ، فكنت إذا

ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم ، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، ثم تلا هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة** ﴾ الآية . وروى ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قال : لا يطيقون قال : « فنصف دينار » قال : لا يطيقون قال : « ما ترى ؟ » قال : شعيرة فقال له النبي ﷺ : « إنك لزهيد » قال فنزلت ﴿ **أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات** ﴾ قال علي : خفف الله عن هذه الأمة ، ورواه الترمذي ... عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة** ﴾ إلى آخرها قال لي النبي ﷺ : « ما ترى ، دينار ؟ » قال : لا تطيقونه وذكره بتمامه مثله ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه ثم قال : ومعنى قوله شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب ورواه أبو يعلى) .

١٥ – بمناسبة قوله تعالى في المنافقين : ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حدثه أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد تقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكلمه فقال : « علام تشتمني أنت وفلان وفلان ؟ » – نفر دعاهم بأسمائهم – قال : فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ . وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين عن سماك به ورواه ابن جرير ، وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثوري عن سماك بنحوه إسناد جيد ولم يخرجوه وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾) .

١٦ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ قال النسفي : (قال شاه الكرماني : علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان ، ويشغل

لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها) .

١٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز** ﴾ قال الألوسي : (أي : بالحجة والسيف وما يجري مجراه أو بأحدهما ، ويكفي في الغلبة بما عدا الحجة تحققها للرسل عليهم السلام في أزمنتهم غالباً ، فقد أهلك سبحانه الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب كقوم نوح . وقوم صالح . وقوم لوط . وغيرهم ، والحرب بين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين وإن كانت سجالاً إلا أن العاقبة كانت له عليه الصلاة والسلام ، وكذا لأتباع الرسل بعدهم ، لكن إذا كان جهادهم لأعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم بأن يكون خالصاً لله - عز وجل - لا لطلب ملك ، وسلطنة ، وأغراض دنيوية ، فلا تكاد تجد مجاهداً كذلك إلا منصوراً غالباً ، وخص بعضهم الغلبة بالحجة لاطرادها وهو خلاف الظاهر ، ويبعده سبب النزول ، فعن مقاتل : لما فتح الله تعالى مكة للمؤمنين ، والطائف ، وخيبر وما حولها قالوا : نرجو أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبد الله بن أبيّ : أتظنون الروم ، وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي** ﴾ ﴿ **إن الله قوي** ﴾ على نصر رسله ﴿ **عزيز** ﴾ لا يغلب على مراده عز وجل) .

١٨ - عند قوله تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله** ... ﴾ قال ابن كثير : (وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره أنزلت هذه الآية ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم : ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ **ولو كانوا آباءهم** ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ **أو أبناءهم** ﴾ في الصدّيق همّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ **أو إخوانهم** ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ **أو عشيرتهم** ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفي حمزة وعلي وعبيدة ابن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ فالله أعلم) .

قال ابن كثير : (ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو

العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم ، وقال عمر : لا أرى ما رأى يا رسول الله ، هل تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتمكّن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين القصة بكمالها) .

١٩ - وبمناسبة الآية الأخيرة في السورة قال ابن كثير : (وقد روى ابن أبي حاتم أنه كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري : اعلم أن الجاه جاهان : جاه يجريه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ) .

٢٠ - وبمناسبة الآية الأخيرة في السورة قال ابن كثير : (وقد روى ابن أبي حاتم عنه عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله : ﴿ **أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ وروى نعيم بن حماد ... عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة فإني وجدت فيما أوحيته إليّ ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله** ﴾ » قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . رواه أبو أحمد العسكري) .

وقال النسفي : (وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه وتلاها ، وقال سهل : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس بمبتدع ولا يجالسه ، ويظهر له من نفسه العداوة ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن أجاب مبتدعاً لطلب عِز الدنيا أو غناها أذله الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ومن لم يصدق فليجرب) .

وقال الألوسي : (وأخرج أحمد ، وغيره عن البراء بن عازب مرفوعاً : « أوثق الإيمان الحب في الله والبغض في الله » . وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم لا تجعل لفاجر - وفي رواية - ولا لفاسق عليّ يداً ولا نعمة فيودّه قلبي ، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله** ﴾ » وحكى الكواشي عن سهل أنه قال : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس إلى مبتدع

ولا يجالسه ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أو عرضاً منها ، أذله الله تعالى بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله تعالى نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب انتهى .

ومن العجيب أن بعض المنتسبين إلى المتصوفة - وليس منهم ولا قلامة ظفر - يوالي الظلمة ؛ بل من لا علاقة له بالدين منهم ، وينصرهم بالباطل ، ويظهر من محبتهم ما يضيق عن شرحه صدر القرطاس ، وإذا تليت عليه آيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم الزاجرة عن مثل ذلك يقول : سأعالج قلبي بقراءة نحو ورقتين من كتاب المثنوي الشريف لمولانا جلال الدين القونوي قدس سره وأذهب ظلمته - إن كانت - بما يحصل لي من الأنوار حال قراءته ، وهذا لعمري هو الضلال البعيد ، وينبغي للمؤمنين اجتناب مثل هؤلاء) .

كلمة أخيرة في سورتي الحديد والمجادلة :

سورتا الحديد والمجادلة شكّلتا مجموعة واحدة وفصّلتا في الآيات السبع والعشرين الأولى من سورة البقرة كما رأينا ، وتكاملتا فيما بينهما ؛ فسورة الحديد عمّقت قضية الإيمان بالله والرسول ﷺ ، وأمرت بذلك وربَّت عليه ، وذكرت المعاني التي توصل إلى الإيمان بالله والرسول ، وجاءت سورة المجادلة لتبيّن أن الحكمة في تشريع الأحكام تعميق الإيمان بالله والرسول ، وذكرت نماذج من محاربة الله والرسول ﷺ ، والمواقف المقابلة لذلك ، فعمّقت السورتان بذلك تصوراتنا عن التقوى والفسوق ، وعن الإيمان والكفر والنفاق ضمن سياق خاص لكل منهما ، وقد رأينا تفصيل ذلك كله وبعد سورة المجادلة تأتي مجموعة ثالثة من قسم المفصّل تتألف من سورتين ، وسنرىٰ أن المجموعة اللاحقة تكمّل مع المجموعتين السابقتين عملية البناء ، وتتكامل معهما ومع ما بعدها ، كل ذلك بنظام عجيب ، وتداخل مدهش ، مع سياق خاص ، ووحدة خاصة . فلنر المجموعة الثالثة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المفصَّل
وتشمل سورتي :
(الحشر ، والممتحنة)

كلمة في المجموعة الثالثة من قسم المفصل

هذه المجموعة تكمّل ما قبلها بشكل واضح ؛ فقد ختمت سورة المجادلة بقوله تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز * لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله** ﴾ وتأتي سورة الحشر لترينا مظهراً من مظاهر نصرة الله لرسوله ﷺ ولترينا مظاهر من اتخاذ أعداء الله أولياء . سورة الحديد فصّلت في موضوع النفاق ، وجاءت سورة المجادلة فأكملت ، وستأتي سورة الحشر لتزيد موضوع النفاق تفصيلاً ، وتأتي سورة الممتحنة لتحذّر من السير في طريق النفاق .

....

وظاهر منذ سورة الحديد أن السور المبدوءة بصيغ (سبح يسبح) إذا جاءت بعد سور لا تظهر فيها هذه الصيغة ، فهي تدلّ على أنها بدايات مجموعات تفصّل في أوائل سورة البقرة ، وهذا واضح جداً من خلال التأمل للمعاني ، ولتسلسل السور وبداياتها .

....

تأتي سورة الحديد مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **سبح** ﴾ ثم تأتي سورة المجادلة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **قد سمع** ﴾ ثم تأتي سورة الحشر مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **سبح** ﴾ ثم تأتي سورة الممتحنة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ثم تأتي سورة الصف مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **سبح** ﴾ ثم سورة الجمعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يسبح** ﴾ ثم تأتي سورة المنافقون مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **إذا** ﴾ ثم تأتي سورة التغابن مبدوءة بقوله : ﴿ **يسبح** ﴾ ثم تأتي سورتا الطلاق والتحريم مبدوأتين بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ... فعلامة بداية المجموعة وجود الفعل سبّح أو يسبّح ، وكلّ تفصيل لاحق لسورة البقرة يكمّل التفصيل السابق بالنسبة للقسم الواحد وبالنسبة للقرآن كله .

....

وواضح أن سورة الحشر تفصّل في مقدّمة سورة البقرة ، وأن سورة الممتحنة تفصّل في المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ، وهي السِّمة الغالبة التي تشترك بها مجموعات قسم المفصّل ، فكلها تقريباً تفصّل ضمن هذه الحدود من سورة البقرة .

سورة الحشر

وهي السورة التاسعة والخمسون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الثالثة من قسم
المفصل ، وهي أربع وعشرون آية
وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الحشر :

قدّم الألوسي لسورة الحشر بقوله : (قال البقاعي : وتسمى سورة - بني النضير - وأخرج البخاري ، وغيره عن ابن جبير قال : قلت لابن عباس سورة الحشر ، قال : قل : سورة بني النضير . قال ابن حجر : كأنه كره تسميتها بالحشر لئلا يظن أن المراد به يوم القيامة وإنما المراد إخراج بني النضير .

وهي مدنية ، وآيها أربع وعشرون بلا خلاف ، ومناسبتها لما قبلها أن في آخر تلك ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي** ﴾ وفي أول هذه ﴿ **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾ وفي آخر تلك ذكر من حادّ الله ورسوله ، وفي أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله ، وأن في الأولى ذكر حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً ، وفي هذه ذكر ما حل باليهود وعدم إغناء تولي المنافقين إياهم شيئاً ، فقد روي أن بني النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبي الذي نعت في التوراة لا تردّ له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة ، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل عليه السلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس بعد أن أخذ بقود رأسه أخوه رضاعاً أبو نائلة سلكان بن سلامة أحد بني عبد الأشهل ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري عند منصرفه من بئر معونة ؛ فهموا بطرح الحجر عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فعصمه الله تعالى ، وبعد أن قتل كعب بأشهر على الصحيح لا على الأثر كما قيل : أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، وكان ذلك سنة أربع في شهر ربيع الأول وكانوا بقرية يقال لها : الزهرة ، فسار المسلمون معه عليه الصلاة والسلام وهو على حمار مخطوم بليف ، وقيل : على جمل ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم حتى إذا نزل صلى الله تعالى عليه وسلم بهم وجدهم ينوحون على كعب ، وقالوا : ذرنا نبكي شجوناً ثم ائتمر أمرك فقال : اخرجوا من المدينة فقالوا : الموت أقرب لنا من ذلك فتنادوا بالحرب ، وقيل : استمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، ودس المنافقون - عبد الله بن أبيّ وأضرابه - إليهم أن لا يخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولننصرنكم ، وإن

أُخرجتم لنخرجَنّ معكم ، فدربوا على الأزقة وحصنوها ثم أجمعوا على الغدر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : اخرج في ثلاثين من أصحابك ، ويخرج منا ثلاثون ليسمعوا منك ، فإن صدقوك آمنا كلنا ففعل فقالوا : كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج لك ثلاثة من علمائنا ، ففعل عليه الصلاة والسلام ، فاشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك ، فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها وكان مسلماً ، فأخبرته بما أرادوا ، فأسرع إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فسارّه بخبرهم قبل أن يصل إليهم ، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم — على ما قال ابن هشام في سيرته — ست ليال ، وقيل : إحدى وعشرين ليلة ، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين ، فطلبوا الصلح فأبى عليه الصلاة والسلام عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من المتاع ، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل سلام بن أبي الحقيق ، وآل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وآل حيي بن أخطب ، فلحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة ، وقبض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أموالهم وسلاحهم ، فوجد خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلثمائة وأربعين سيفاً ، وكان ابن أبيّ قد قال لهم : معي ألفان من قومي وغيرهم أمدكم بها وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فلما نازلهم صلى الله تعالى عليه وسلم اعتزلتهم قريظة ، وخذلهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان ، فأنزل الله تعالى قوله) .

كلمة في سورة الحشر ومحورها :

تفصّل سورة الحشر في مقدمة سورة البقرة ؛ ولذلك فإنك تجد فيها كلاماً عن المؤمنين والكافرين والمنافقين ، وذلك في سياق التعريف على الله عز وجل وأفعاله وأسمائه ، ومن المعلوم أن الإيمان بالله عز وجل هو الركن الأول من أركان الإيمان بالغيب ، ومن خلال هذا ندرك سرّ وحدتها ، وسرّ اتصالها بمحورها ، فهي تعرّفنا على الله من خلال أفعاله ؛ وذلك نوع تفصيل لمقدمة سورة البقرة ، وفي هذا الجو تعرّفنا على صفات المتقين والكافرين والمنافقين ، ولذلك صلاته بمقدمة سورة البقرة .

....

تتألف السورة من مقدمة ومقطعين ، المقدمة هي قوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السموٰت وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ وكل من المقطعين مبدوء بقوله تعالى :

﴿ **هو** ﴾ المقطع الأول يعرّفنا على الله عز وجل من خلال فعله ، والمقطع الثاني يعرّفنا على الله عز وجل من خلال ذكر أسمائه .

....

ونلاحظ أن سورة الحشر بدأت بالتسبيح وبذكر اسمي الله العزيز الحكيم ، وختمت بالتسبيح وبذكر اسمي الله العزيز الحكيم . بدأت بقوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما في السموٰات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ . وختمت بقوله تعالى : ﴿ **يسبح له ما في السموٰات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ . ومن قبل لاحظنا أن سورة الجاثية بدأت بقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ . وختمت بقوله تعالى : ﴿ **وله الكبرياء في السموٰات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

وكما فصّلت سورة الجاثية في مقدمة سورة البقرة فإن سورة الحشر تفصّل في ذلك ، مع أن لكل منهما تفصيلها وسياقها وطريقتها الخاصة في التفصيل .

....

المقدمة والمقطع الأول

ويمتدان من الآية (١) إلى نهاية الآية (٢١) وهذان هما :

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾

المجموعة الأولى من المقطع الأول

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

المجموعة الثانية من المقطع الأول

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ

أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

المجموعة الثالثة من المقطع الأول

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

ملاحظة :

سورة الحشر ذكرت ماذا جرى لبني النضير ، فهي تعطينا عبرة هذه الحادثة من خلال سياق سورة الحشر الخاص فيما يخدم السياق العام للقرآن ، ومن أجل أن يكون عندنا تصور واضح عن القصة ؛ ننقل ملخصاً عنها ليكون ذلك معيناً على الفهم . قال ابن كثير : (ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله المستعان : وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية

الضمري فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين لأدينهما » وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد ؛ فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين ، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها . قال محمد ابن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج — منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس — قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا وقذف في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل ؛ فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال

لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ؛ ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش ، وأبو سعد ابن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها . قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هَمّ به من شأني » فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو ابن حجاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم) .

ملاحظة في السياق :

يلاحظ أن هناك آية واحدة هي مقدمة السورة ، ثم يأتي المقطع الأول ، ويتألف من ثلاث مجموعات مترابطة المعاني ، فلنعرض المقطع على هذا الأساس .

مقدمة السورة

وتتألف من آية واحدة

التفسير :

﴿ **سبّح لله ما في السموٰات وما في الأرض** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى أن جميع ما في السموٰات والأرض من شيء يسبح له ويمجّده ويقدّسه ويصلي له ويوحّده) ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أي : منيع الجناب ﴿ **الحكيم** ﴾ في قدره وشرعه .

كلمة في السياق :

من مقدمة السورة ندرك مضمونها وأن له صلة بتنزيه الله وخضوع الأشياء كلها له ، واتصافه بالعزة والحكمة ، ولذلك فسنرى في السورة مظاهر من عزته ، وحكمته ، ومن قبل أشرنا إلى هذا الموضوع أثناء الكلام عن (آل حم) ، وكيف أن ذكر اسمٍ من أسماء الله عز وجل في ابتداء سورة يشعرنا أن السورة مجلى لظهور هذا الاسم ، وههنا في سورة الحشر نرىٰ فعل الله بالكافرين والمنافقين وذلك من مظاهر عزته ، وتدبير الله

للمؤمنين وذلك من مظاهر حكمته .

تفسير المجموعة الأولىٰ من المقطع الأول :

﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ يعنى : يهود بني النضير ﴿ **من ديارهم** ﴾ حول المدينة المنورة ﴿ **لأول الحشر** ﴾ قال النسفي : (ومعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم إلى الشام ... أو هذا أول حشرهم ، وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام) أقول : هذا كلام من لم يدرك حشرهم الجديد في فلسطين وبلاد الشام فلعل المراد بقوله تعالى : ﴿ **لأول الحشر** ﴾ الإشارة أن لهم حشراً أي : جمعاً وجمعاً وجمعاً فيما بعد ذلك في بلاد الشام ، وأن ما حدث لبني النضير هو أول هذه الظاهرة ، وذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد بأول الحشر أي : أول المكان الذي سيحشر فيه الناس يوم القيامة ، أي : أول بلاد الشام . وهناك اتجاه آخر في التفسير معناه : أن الله عز وجل أخرج هؤلاء من ديارهم لأول حشد حشده رسول الله ﷺ عليهم أي : لأدناه ، والمعنى الأول أولى ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ قال النسفي : أي : لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدّتهم ﴿ **وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله** ﴾ أي : وظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، والتركيب يدلّ على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، كما يدل على شدة اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم ، أو يطمع في غزوهم ، ذكر ذلك كله النسفي وبرهن عليه ﴿ **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أي : من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم ﴿ **وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾ قال ابن كثير : أي : الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين** ﴾ قال النسفي : (والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة ، وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج ، وأما المؤمنون فداعيهم إلى التخريب إزالة متحصنهم ، وأن يتسع لهم مجال الحرب ، ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين : أنهم لما عرضوهم بنكث العهد لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلّفوهم إياه) ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ قال النسفي : (أي : فتأملوا فيما نزل بهؤلاء والسبب الذي استحقوا به ذلك فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتعاقبوا بمثل عقوبتهم وهذا دليل

على جواز القياس) ﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء** ﴾ أي : الخروج من الوطن والأهل والولد ﴿ **لعذّبهم في الدنيا** ﴾ بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿ **ولهم** ﴾ سواء أجلوا أو قتلوا ﴿ **في الآخرة عذاب النار** ﴾ الذي لا أشدّ منه ﴿ **ذلك بأنهم** ﴾ أي : إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم ﴿ **شاقّوا الله ورسوله** ﴾ أي : خالفوا الله ورسوله ، فكذّبوا وعاندوا ﴿ **ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ يعاقب المحاربين له بما يشاء من العقوبات الشديدة في الدنيا والآخرة .

....

كلمة في السياق :

من الآيات التي مرّت معنا في هذه المجموعة عرفنا سنة من سنن الله عز وجل وهي أنّ من شاقّ الله ورسوله ، فإنه يستحق العقاب الشديد ، ومن عقوبات الله الشديدة أن يسلّط على قوم فيجليهم من ديارهم ، وفي ذلك درس للمسلمين ألا يفعلوا فيما يأتي من الزمان فعل هؤلاء فيستحقون العقاب الشديد ؛ ولذلك قال تعالى في الآيات ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ وللأسف فإن بعض ذراري المسلمين فعلوا مثل فعلهم فعوقب الكثير منهم بالجلاء عن أوطانهم ، والآيات عرّفتنا على الله من خلال فعله وسنته ، ولذلك صلته بموضوع الإيمان بالغيب من محور السورة من سورة البقرة ، ولنتابع عرض المجموعة الأولى :

....

﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ اللينة : النخلة أو الكريمة من النخل ، أو ما سوى العجوة منه والمعنى : ما قطعتم من شجرة نخل لبني النضير ﴿ **أو تركتموها قائمة على أصولها** ﴾ فلم تقطعوها ﴿ **فبإذن الله** ﴾ أي : فقطعها وتركها مأذون فيه شرعاً وقدراً . قال ابن كثير : (وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم) والبخاري يروي أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بني النضير وقطّع ، وابن عباس يعلّل ذلك بأنه - عليه السلام - أراد استنزالهم من حصونهم . أقول : وهو نوع من أنواع الضغط في الحروب يراد به تدمير اقتصاد البلد المحارب ، وهؤلاء يراد إجلاؤهم ، ومن ثَمَّ فتقطيع بعض نخلهم وتحريقه يساعد على قطع تعلّقهم بأرضهم ، ثم علّل الله عز وجل الحكمة من الإذن في تقطيع النخيل وإحراقه فقال : ﴿ **وليخزي**

الفاسقين ﴾ قال النسفي : أي : وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها . أقول : وسبق التعليل بالواو يفيد أن هناك مصالح أخرى في هذا التقطيع ، أحدها إذلال أعداء الله عز وجل ، وعدم استئصال الشجر كله فيه إشارة إلى أنه ليس المراد القطع أو التخريب لعينه ، بل المراد مجرد الضغط والإذلال وانتزاع النصر مع الإبقاء على اقتصاد العدو سليماً ليكون غنيمة للمسلمين ، وهذا هو الأصل الذي لا يلجأ إلى غيره إلا في حالة وجود حكمة ومصلحة كما هو الحال في الوضع الذي نحن بصدد دراسته ، وهذا المعنى من مقرّرات الحرب الحديثة ، إذا كان انتزاع النصر يقتضي تخريب اقتصاد عدوّك فدمّره ، وإلا فأبقه ليكون غنيمة لك ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ أي : وما جعله الله فيئاً لرسول الله من أموال بني النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ الركاب : الإبل أي : فلم يكن ذلك بإيجاف خيل أو ركاب منكم والمعنىٰ : فما أجهدتم على تحصيله والاستيلاء عليه خيلاً ولا ركاباً ولا تعبتم في القتال فيه ﴿ **ولكن الله يسلّط رسله على من يشاء** ﴾ قال النسفي : يعني : إنّ ما خوّل الله رسوله في أموال بني النضير شيء لم تحصّلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلّطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلّط رسله على أعدائهم ، فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء ولا يقسّمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي : هو قدير لا يغالب ولا يمانع ؛ بل هو القاهر لكل شيء . قال ابن كثير في الآية : (يقول تعالى مبيناً ما الفيء ، وما صفته ، وما حكمه ؟ . الفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ، ولا إيجاف خيل ، ولا ركاب ، كأموال بني النضير هذه ، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله – عز وجل – في هذه الآيات) .

أقول : دلّت الآية الأخيرة على أن المسلمين إذا قاتلوا استحقوا أربعة أخماس الغنائم ، وقد ينفّل الإمام المسلم المقاتل ، أو المجموعة المقاتلة السلب كله تشجيعاً لهم ، أما إذا لم يقاتلوا ، أو استولوا على أراضٍ بدون قتال مباشر ، فالأمر في هذه الحالة له أحكام خاصة ستفصلها الآيات اللاحقة . قال تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ قال ابن كثير : أي : جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير ﴿ **فلله وللرسول ولذي القربىٰ واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ قال

ابن كثير : إلىٰ آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه . أقول : دلّت الآية على أنّ مصرف الخمس في حال القتال هو مصرف الكل في هذه الحالة ، أي : في حالة مثل حالة فيء بني النضير ، فكل الأموال والغنائم لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وذكر اسم الله للبركة ، وسهما رسول الله ﷺ وقرابته كانا له في حياته كما هو مذهب الحنفية ، والفقراء من آل بيته يدخلون في فقراء المسلمين عامّة ، وعلى هذا فالفيء كله يوزع على اليتامى والمساكين وابن السبيل في مثل هذه الحالة ، وقد بيّن الله عز وجل الحكمة في ذلك بقوله : ﴿ **كي لا يكون** ﴾ المال أو الفيء ﴿ **دُولة بين الأغنياء منكم** ﴾ أي : دائراً بين الأغنياء منكم خاصة ، وليس بين يدي الفقراء منه شيء . قال ابن كثير : (أي : جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقىٰ مأكلة يتقلّب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء) . أقول : دلّ هذا التعليل على أن من الأهداف المراعاة في نظام المال في الإسلام ألا يتجمّع المال بيد الأغنياء ، ومن ثَمَّ حرّم الله عزّ وجلّ الربا والاحتكار ، وشرع نظام الإرث ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قال ابن كثير : (أي : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر) ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿ **إن الله شديد العقاب** ﴾ ممّن خالف الله ورسوله . قال ابن كثير : أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره ، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه ، وبعد أن بيّن الله عز وجل مصارف الفيء إجمالاً فصّل في ذلك . فقال : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله** ﴾ أي : جنته ﴿ **ورضواناً** ﴾ قال ابن كثير : أي : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ﴿ **وينصرون الله ورسوله** ﴾ أي : وينصرون دين الله ويعينون رسوله ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ في إيمانهم وتقواهم وجهادهم ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ قال ابن كثير : أي : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم ﴿ **يحبُّون من هاجر إليهم** ﴾ حتىٰ شاطروهم أموالهم وأنزلوهم منازلهم ، وعرضوا عليهم أن ينزل من كانت له زوجتان عن إحديهما لأخيه إن شاء أن يتزوجها بعد انقضاء عدّتها ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ أي : مما أوتي المهاجرون يعني أن نفوسهم لم تتبّع ما أعطي المهاجرون ، ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه . قال النسفي : وقيل لا يجدون في صدورهم مسّ

حاجة من فقد ما أوتوا ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ قال ابن كثير : يعني حاجة . أي : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك ﴿ **ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ قال ابن كثير : أي : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . قال النسفي : والشحّ : اللؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزَّة حريصة على المنع ، وأما البخل فهو المنع نفسه ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ قال ابن كثير : هؤلاء هم القسم الثالث ممّن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان ﴿ **يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً** ﴾ أي : بغضاً وحسداً ﴿ **للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ قال عمر بن الخطاب عن الآيات الثلاثة الأخيرة : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا وله فيها حق ، ثمّ قال : لئن عشت ليأتينّ الراعي بسرد حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه .

كلمة في السياق :

١ – في سياق ما فعله الله عز وجل بالكافرين من خزي في الدنيا ، وقهر وجلاء ونصرة لرسوله ﷺ ذكر لنا بعض أحكام الفيء ، وفي سياق ذلك عرّفنا الله عزّ وجلّ على بعض سننه ، وفصّل لنا في خصائص المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، أي : أعطانا تصوراً عن الخصائص العليا لأهل الإيمان والتقوى ، مهاجرين ومهاجَراً إليهم ومن يأتي بعدهم ، وبذلك عرفنا : أنّ من خصائص الإيمان الهجرة ، والنّصرة لله ورسوله ، والمحبة للمهاجرين ، والإيثار ، والتحرّر من الشحّ ، والمحبة للسابقين ، والاستغفار لهم ، وبذلك عرفنا تفصيلاً جديداً لخصائص المتقين ، وعرفنا أنواعاً من العذاب العظيم الذي يوقعه الله في الكافرين في الدنيا والآخرة ، ولذلك صلاته مع مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ إن الصلة بين الآية الأخيرة وبين قوله تعالى : ﴿ **ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ واضحة ، فآيات سورة الحشر تعرض علينا خصائص المتقين من خلال سياق سورة الحشر الخاص . وفي قوله تعالى : ﴿ **وليخزي الفاسقين** ﴾ وفي قوله : ﴿ **ولكن الله يسلّط رسله على من يشاء** ﴾ وفي قوله : ﴿ **فأتاهم الله من حيث**

لم يحتسبوا ﴾ ... وفي قوله : ﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار** ﴾ نوع تفصيل لقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشـاوةٌ ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

٢ - بعد أن فصّل الله - عز وجل - خصائص المتقين من خلال سياق سورة الحشر الخاص ، وبعد أن أرانا نماذج من تعذيبه للكافرين في الدنيا ؛ لأنهم يشاقّون الله ورسوله تأتي المجموعة الثانية في المقطع الأول لسورة الحشر ، فتعرفنا على طبيعة المنافقين ، وفي ذلك زيادة تفصيل عن المنافقين ، ولذلك صلته بمقدمة سورة البقرة ، إن مقدمة سورة البقرة عرضت علينا حقيقة المنافقين ، وعرّفتنا عليهم من خلال أقوالهم ، ومثّلت لحالهم ، ومما عرضته لنا أنهم ﴿ **إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلىٰ شياطينهم قالوا إنا معكم** ﴾ وفي المجموعة التالية من المقطع نرى حقيقة معيّة المنافقين للكافرين في اللحظات الحاسمة من الصراع بين الكافرين والمؤمنين ، ومن خلال ذلك ندرك أن سورة الحشر تفصّل في مقدمة سورة البقرة من خلال المواقف العملية . فلنر المجموعة الثانية .

تفسير المجموعة الثانية في المقطع الأول :

﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا** ﴾ كعبد الله بن أبي ، وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ﴿ **يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ يعني : بني النضير والمراد أخوة الكفر ﴿ **لئن أخرجتم** ﴾ من دياركم ﴿ **لنخرجنّ معكم** ﴾ أي : مصيرنا ومصيركم واحد ﴿ **ولا نطيع فيكم أحداً أبداً** ﴾ أي : إن أمرنا فيكم أمراً فلن ننفذه ﴿ **وإن قوتلتم لننصرنّكم** ﴾ أي : فاثبتوا ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ قال ابن كثير : أي : لكاذبون فيما وعدوهم به ، إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيّتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **لئن أخرجوا لا يخرجون معهم** ﴾ فهم كاذبون في ما قالوه لهم في هذا الشأن ﴿ **ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ فهم كاذبون فيما قالوه لهم في هذا الشأن ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ **ليولُنَّ الأدبار** ﴾ أي : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ﴿ **ثم لا يُنصَرون** ﴾ بعد ذلك ، أي : يهلكهم الله

ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم ، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿ **لأنتم** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **أشدُّ رهبة في صدورهم من الله** ﴾ أي : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أي : لا يعرفون الله وعظمته حتى يخشوه حقّ خشيته ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً** ﴾ أي : مجتمعين يعني : اليهود والمنافقين ﴿ **إلا في قرىً محصَّنة** ﴾ أي : في القلاع والحصون ﴿ **أو من وراء جُدُر** ﴾ كالدبابات والمدرعات والمصفحات ، ومن عرف أن نظرية القتال عند اليهود في عصرنا تقوم على التحصينات المكثفة ، والجيوش المحمولة على الدبابات والطائرات والمصفحات ، أدرك أن هذا القرآن من عند الله الذي وسع علمه كل شيء ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أي : عداوتهم بينهم شديدة يعني : أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا يهوداً ويهوداً ، أو يهوداً ومنافقين ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة لأن الشجاع يجبن عند محاربة الله ورسوله ﴿ **تحسبهم جميعاً** ﴾ أي : تحسب اليهود والمنافقين ، أو كلاً منهم مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿ **وقلوبهم شتى** ﴾ أي : متفرقة لا ألفة بينها . قال النسفي : يعني : إن بينهم إحَناً وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ، وهذا تجسير للمؤمنين ، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ **ذلك** ﴾ أي : التفرق ﴿ **بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم . قال النسفي : (أقول : إن سبب التفرق هو أنهم لا يملكون العقل الشرعي الذي يصون شرع الله - عز وجل - إذ الحق وحده يجمع الناس ، فإذا لم يكن حق فلا اجتماع) ﴿ **كمثل الذين من قبلهم قريباً** ﴾ أي : مثل هؤلاء كمثل أهل بدر ، أو كمثل بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ من قبل ﴿ **ذاقوا وبال أمرهم** ﴾ أي : ذاقوا سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي : ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب النار ﴿ **مثلهم** ﴾ أي : مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ، ثم متاركتهم لهم وإطلاقهم ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ أي : كمثل الشيطان إذ استغوى الإنسان بكيده ، ثم تبرأ منه في العاقبة . قال ابن كثير : (يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم . ثم لما حقّت الحقائق وجدبهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان - والعياذ بالله - الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال ﴿ **إني أخاف الله رب**

العالمين ﴾) ﴿ **فكان عاقبتهما** ﴾ أي : عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ، أي : فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له والمراد به في هذا السياق المنافق والكافر ﴿ **أنهما في النار خالدَيْن فيها وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أي : جزاء كل ظالم ، وبهذا انتهت المجموعة الثانية .

كلمة في السياق :

من خلال موقف المنافقين من بني النضير أخذنا تصوراً عن النفاق وأهله ، وفي ذلك تفصيل لما ورد في مقدمة سورة البقرة ، وهكذا من خلال قصة بني النضير أخذنا تفصيلاً لكثير من المعاني الموجودة في مقدمة سورة البقرة ، وتعرّفنا على الله عز وجل وعلى بعض سننه والآن تأتي مجموعة أخيرة في هذا المقطع ، تبني على ما ورد في المجموعتين السابقتين فتخاطب المؤمنين وتطالبهم بالتقوى والعمل لليوم الآخر ، وتعمّق معرفتنا بهذا القرآن . فلنر المجموعة الثالثة في المقطع .

تفسير المجموعة الثالثة في المقطع الأول :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ في أوامره فلا تخالفوها . قال ابن كثير : أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أَمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ **ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغد** ﴾ يعني : يوم القيامة . قال النسفي : سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له ، أو عبّر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد ، وتنكيره لتعظيم أمره ﴿ **واتقوا الله** ﴾ كرّر الأمر بالتقوى تأكيداً ﴿ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ أي : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير . قال النسفي : فيه تحريض على المراقبة ؛ لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله** ﴾ أي : تركوا ذكر الله عز وجل وما أمرهم به ﴿ **فأنساهم أنفسهم** ﴾ قال النسفي : (أي : فتركهم من ذكره إياهم بالرحمة والتوفيق) ﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أي : الخارجون عن طاعة الله . قال ابن كثير في الآية : أي : لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ﴿ **لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة** ﴾ أي : لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة ﴿ **أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾ أي : الناجون من عذاب

الله عز وجل ، قال النسفي : هذا تنبيه للناس ، وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم ، وقلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز العظيم مع أصحاب الجنة ، والعذاب الأليم مع أصحاب النار ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، ثم قال تعالى معظّماً لأمر القرآن ، ومبيّناً علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ، وتتصدّع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله** ﴾ قال النسفي : أي : من شأن القرآن وعظمته أنه لو جعل في الجبل تمييز ، وأنزل عليه القرآن لخشع ، أي : لخضع وتطأطأ وتصدّع ، أي : تشقق من خشية الله ... والمراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشّعه عند تلاوة القرآن وتدّبر قوارعه وزواجره ، قال ابن كثير : أي : فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدّع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره ، وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكّرون** ﴾ فيعقلون فيخشعون ، وبهذا انتهت المجموعة الثالثة وانتهى بانتهائها المقطع الأول .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **سبّح لله ما في السمٰوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ ثم عرّفتنا على الله عز وجل من خلال فعله ببني النضير ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا ...** ﴾ ثم أمرت المؤمنين بالتقوى ، وأمرت بالعمل للآخرة ، وذكّرت بعدم استواء أهل النار وأهل الجنة ، ثم ذكّرت بعظمة هذا القرآن ، وفي ذلك مطالبة بالخشوع والتقوى ، وبعد ذلك يأتي المقطع الثاني وهو يعرفنا على الله - عز وجل - من خلال ذكر أسمائه ، فالسورة تعرفنا في مقطعها الأول على الله من خلال أفعاله ، وتعرفنا على الله في مقطعها الثاني من خلال أسمائه ، وفي وسط ذلك يتوجه الخطاب للمؤمنين بالتقوى ، والعمل للآخرة ، والخشوع وقد فصّلت السورة في أخلاق المتقين والكافرين والمنافقين ضمن سياقها الخاص ، ولنا عودة على هذا الموضوع فيما بعد . فلنر الآن المقطع الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٢٤) أي : إلى نهاية السورة وهذا هو :

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

التفسير :

﴿ **هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي : العالم بجميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر في الظلمات ﴿ **هو الرحمن الرحيم** ﴾ قال ابن كثير : (والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما) فمن كان هو الإله وحده ، ومن كان يعلم الغيب والشهادة ، ومن كانت رحمته تبلغ الأشياء كلها ، فكيف لا يُتقى ؟ ﴿ **هو الله الذي لا إله إلا هو الملك** ﴾ أي : المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ﴿ **القدوس** ﴾ قال النسفي : أي : المنزّه عن القبائح ﴿ **السلام** ﴾ قال النسفي : (أي : الذي سلم الخلق من ظلمه) وقال ابن كثير : (أي : من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله) ﴿ **المؤمن** ﴾ أي : واهب الأمن ﴿ **المهيمن** ﴾ أي : الرقيب على كل شيء الحافظ له ﴿ **العزيز** ﴾ أي : الغالب غير المغلوب . قال ابن كثير : أي : الذي قد عزّ كل شيء فقهره ، وغلب الأشياء فلا يُنال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ﴿ **الجبار** ﴾ أي : العالي العظيم ، الذي يذل له مَنْ دونه ، أو العظيم الشأن في القدرة والسلطان أو القهار ذو الجبروت ﴿ **المتكبّر** ﴾ أي : البليغ الكبرياء والعظمة . قال ابن كثير : أي : الذي لا تليق الجبرية إلا له ،

ولا التكبر إلا لعظمته ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ بعد أن ذكر الله عز وجل ما ذكر من أسمائه الحسنىٰ ، وصفاته العلى ، نزّه ذاته عما يصفه به المشركون ﴿ **هو الله الخالق** ﴾ أي : المقدّر لما يوجده ﴿ **البارىء** ﴾ أي : الموجد ﴿ **المصوِّر** ﴾ الذي أعطىٰ كل شيء صورته ﴿ **له الأسماء الحسنىٰ** ﴾ الدالة على الصفات العلى ﴿ **يسبّح له ما في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ ختم السورة بما بدأها به .

كلمة في السياق :

رأينا أن السورة في سياقها الرئيسي تركّز على التعريف بالله عز وجل ، وتطالب بناءً على هذا التعريف بالتقوى ، والعمل للآخرة ، والخشوع لكتاب الله عز وجل ، وقد ذكرت لنا السورة مظاهر من عزة الله وحكمته ، فكانت مجلى لظهور اسمي الله العزيز الحكيم اللذين بدأت بهما السورة وانتهت ، فرأينا حكمة الله في أفعاله وشرعه فيها ، ورأينا عِزَّة الله عز وجل في انتصاره وانتقامه ، ورأينا في السورة تدبير الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين ، وفعله بالكافرين والمنافقين ، ورأينا مزيداً من خصائص المؤمنين ، وعرفنا مزيداً من صفات المنافقين والكافرين ، ومن ثَمَّ كانت السورة تفصيلاً لمقدمة سورة البقرة ، فمقدمة سورة البقرة تتحدث عن المتقين ، ولا تقوى إلا بمعرفة الله عز وجل ، وقد عرّفتنا السورة على الله عز وجل ، ومن صفات المتقين الاهتداء بكتاب الله عز وجل ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وقد عرفتنا السورة على عظمة هذا القرآن ، وطالبت بالخشوع له ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ...** ﴾ ومن صفات المتقين ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وقد دعتنا السورة للعمل للآخرة ، وأرتنا خصائص للمتقين التي تمثّلت في رجال مهاجرين وأنصار وتابعين لهم بإحسان ، وحدثتنا السورة عن تعذيب الله للكافرين في الدنيا والآخرة ، وحدثتنا السورة عن المنافقين وصفاتهم من خلال موقفهم من بني النضير ، فكان في ذلك كله تفصيل لمقدمة سورة البقرة .

الفوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ قال ابن كثير : (يعني : يهود بني النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن

لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم ، وسيَّرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾ قال صاحب الظلال : (أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلاً على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم . فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها . وهكذا حين يشاء الله أمراً . يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر ، وهو يعلم كل شيء ، وهو على كل شيء قدير) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم** ﴾ قال صاحب الظلال : (ومن ثَمَّ فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية ، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي ، كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولاً عنه ، فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقاً بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده ، وسار وحده ، وبقي حتى اليوم وحده ، نظاماً فريداً متوازن الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات ، متناسقاً تناسق الكون كله ، مذ كان صدوره عن خالق الكون ، والكون متناسق موزون !) .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمِّصات والمتفلّجات للحسن ،

المغيرات خلق الله عز وجل ، قال : فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى ، فقالت إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ؟ قالت : بلى قال : فإن رسول الله ﷺ نهى عنه ، قالت : إني لأظن أهلك يفعلونه ، قال : اذهبي فانظري ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت ما رأيت شيئاً قال : لو كان كذا لم تجامعنا . أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري ، وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه ») .

وقال صاحب الظلال : (فأما القاعدة - قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ... فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآناً أو سنة ... والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان ... وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول - ﷺ - والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها والإمام نائب عن الأمة في هذا وفي هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد ... عن أنس رضي الله عنه قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم » لم أره في الكتب من هذا الوجه . وروى البخاري عن يحيى بن سعيد أنه سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين قالوا : لا إلا أن تقطع

لإخواننا من المهاجرين مثلها قال : « أما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة » تفرد به البخاري من هذا الوجه . وروى البخاري ... عن أبي هريرة قال : « قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال : لا ، فقالوا : أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة قالوا : سمعنا وأطعنا » تفرد به دون مسلم) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ قال ابن كثير : (قال الحسن البصري ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة** ﴾ يعني : الحسد ﴿ **مما أوتوا** ﴾ قال قتادة : يعني فيما أعطي إخوانهم . وكذا قال ابن زيد : ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث روى عن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار ، تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال : « نعم » قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار تقلّب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث ، وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ! قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تُطاق ، ورواه النسائي في اليوم والليلة بإسناد صحيح على شرط الصحيحين) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الأعمش وشعبة ... عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال

رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » ورواه أحمد وأبو داود والنسائي . وروى الليث عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً » . وروى ابن أبي حاتم عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : ﴿ **ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً ، فقال عبد الله : ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ، إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل . وروى سفيان الثوري عن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قني شح نفسي ، لا يزيد على ذلك ، فقلت له فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه . رواه ابن جرير . وروى ابن جرير عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة » .

٨ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ قال ابن كثير : (هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السر والعلانية ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون** ﴾ أي : قائلين ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب ، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً** ﴾ أي : بغضاً وحسداً ﴿ **للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن

عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ الآية . وروى إسماعيل بن علية عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » رواه البغوي وروى أبو داود عن الزهري قال : قال عمر رضي الله عنه : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ قال الزهري : قال عمر رضي الله عنه : هذه لرسول الله ﷺ ، وقرى عرينة وكذا وكذا ، مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامي والمساكين وابن السبيل ، وللفقراء والمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ، والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، والذين جاؤوا من بعدهم فاستوعبت هذه الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . قال أيوب أو قال حظ إلا بعض من تملكون من أرقائكم ، وكذا رواه أبو داود وفيه انقطاع . وروى ابن جرير عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ حتى بلغ ﴿ **عليم حكيم** ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى** ﴾ الآية ثم قال : هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى** ﴾ حتى بلغ ﴿ **للفقراء** ﴾ ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ... والذين جاءوا من بعدهم** ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة ، فليس أحد إلا وله فيها حق ثم قال . لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرد حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه .) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، روى ابن جرير عن أبي إسحاق سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول : إن راهباً تعبَّد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها ، قال : فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده ، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب أنا صاحبك إنك أعييتني ،

أنا صنعت هذا بك ، فأطعني أنجك مما صنعت بك ، فاسجد لي سجدة ، فسجد له فلما سجد قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ، فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء ، متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذّن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب فقال : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ إلى آخر الآية وقرأ الآية التي في الحشر ﴿ **ولتنظر نفس ما قدّمت لغد** ﴾ تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره - حتى قال - ولو بشق تمرة » قال : فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « من سَنَّ في الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة بإسناده مثله) .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن نعيم بن نمحة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه . أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجَل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، وأين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا

بسنانه وبيانه ، إن الله تعالى أثنى علي زكريا وأهل بيته فقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله علمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم . هذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقاة ، وشيخ جرير بن عثمان وهو نعيم بن نمحة لا أعرفه بنفي ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ جرير كلهم ثقاة وقد روي لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر والله أعلم) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع جاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكّت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده ، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع ، وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدّعت من خشيته ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ **ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى** ﴾ الآية وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾) .

١٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **له الأسماء الحسنىٰ** ﴾ قال ابن كثير : (ونذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وتقدم سياق الترمذي وابن ماجه له عن أبي هريرة أيضاً وزاد بعد قوله : وهو وتر يحب الوتر . واللفظ للترمذي : هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ،

اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » وسياق ابن ماجه بزيادة ونقصان وتقديم وتأخير) .

١٤ - بمناسبة الآيات الأخيرة من سورة الحشر قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ؛ ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » ورواه الترمذي ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه) .

كلمة أخيرة في سورة الحشر :

جاءت سورة الحشر بعد سورة المجادلة فكانت نموذجاً للموضوع الرئيسي في سورة المجادلة ، وهو استحقاق الذين يحادّون الله ورسوله الكبت والذلة ، إذ عرضت لنا ما أصاب بني النضير من خزي وإذلال بسبب مشاقّتهم لله وللرسول ، وقد ذكر الله عز وجل في هذه السورة موقف المنافقين وتوليهم للكافرين ، وسنرى أن سورة الممتحنة ستأتي لتبدأ بالنّهي عن تولّي أعداء الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة** ... ﴾ وهكذا تتعانق نهايات السور ببدايات ما بعدها بشكل عجيب ، ولقد رأينا في السورة بعض ملامح الحكمة في توزيع آيات الأحكام على القرآن كله ، فقد عرضت السورة التشريع الذي له علاقة بالفيء في سياق يستخرج التسليم المطلق من المؤمن ، إذ وضعت هذه الأحكام في سياق التذكير بخصائص الإيثار واحتياجات المحتاجين ، وفعل الله عز وجل ، وغير ذلك مما رأيناه بحيث لا يسع الإنسان إلا أن يسلم بالفيء لأهله ، وهكذا فعل الله عز وجل في كل ما أمر به

ونهى عنه إذ جاء في سياق يحمل على التطبيق والالتزام ، وسورة الحشر مع سورة الممتحنة مجموعة برأسها ، ولذلك فإن سورة الحشر تؤلف مع سورة الممتحنة كلاً متكاملاً يظهر ذلك في أن سورة الحشر تحدّثت عن الكافرين وموالاتهم ، وها هي ذي سورة الممتحنة تنهى المؤمنين عن سلوك هذا الطريق .

....

بعد مقدّمة سورة البقرة جاءت دعوة لعبادة الله وتوحيده للوصول إلى التقوى ، وجاءت بشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح ، وكل ذلك في الآيات الخمس الأولى من المقطع الأول من القسم الأول ، والملاحظ أن سورة الحشر عرَّفتنا على الله من خلال أسمائه وأفعاله ، ومعرفة الله هي الأساس الذي تقوم عليه العبادة كما جاء في سورة الحشر قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد** ﴾ وهذا يشير إلى أن سورة الحشر فصّلت في مقدّمة سورة البقرة والآيات الخمس بعدها .

....

وقد جاء في الآيات الخمس قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا** ﴾ وجاء في سورة الحشر قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله** ﴾ فهذه الخصيصة للقرآن تنفي الريب عنه .

....

وبعد مقدّمة سورة البقرة ، وهذه الآيات الخمس ، تأتي آيتان ستفصل فيهما سورة الممتحنة .

☆ ☆ ☆

سورة الممتحنة

وهـي السـورة السـتون بحسـب الرسـم القـرآني
وهي السورة الثانية والأخيرة من المجموعة الثالثة
من قسم المفصل ، وهي ثلاث عشرة آية
وهـي مدنيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الممتحنة :

قدم الألوسي لسورة الممتحنة بقوله : (قال ابن حجر : المشهور في هذه التسمية أنها بفتح الحاء وقد تكسر ؛ فعلى الأول هي صفة المرأة التي أنزلت بسببها ، وعلى الثاني صفة السورة كما قيل لبراءة : الفاضحة ، وفي جمال القراء تسمى أيضاً سورة الامتحان . وسورة المودة ، وأطلق ابن عباس . وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم القول بمدنيتها ، وذكر بعضهم أن أولها نزل يوم فتح مكة فكونها مدنية إما من باب التغليب أو مبني على أن المدني ما نزل بعد الهجرة ، وهي ثلاث عشرة آية بالاتفاق . ومناسبتها لما قبلها أنه ذكر فيما قبل موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر في هذه نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء لئلا يشابهوا المنافقين ، وبسط الكلام فيه أتم بسط . وقيل في ذلك أيضاً : إن فيما قبل ذكر المعاهدين من أهل الكتاب وفي هذه ذكر المعاهدين من المشركين لأن فيها ما نزل في صلح الحديبية ، ولشدة اتصالها بالسورة قبلها فصل بها بينها وبين الصف مع تواخيهما في الافتتاح - بسبح -) .

ومن تقديم صاحب الظلال للسورة نقتطف ما يلي : (هذه السورة حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي والدولة في المجتمع المدني . حلقة من تلك السلسلة الطويلة ، أو من ذلك المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة ، التي ناط بها الله تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية ، في صورة واقعية عملية ، كيما يستقر في الأرض نظاماً ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ؛ تبلغ إليه البشرية أحياناً ، وتقصر عنه أحياناً ، ولكنها تبقى معلقة دائماً بمحاولة بلوغه ؛ وتبقى أمامها صورة واقعية منه ، تحققت يوماً في هذه الأرض) .

(إن العالم الذي يريده الإسلام عالم رباني إنساني . رباني بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه ، ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنساني بمعنى أنه يشمل الجنس الإنساني كله في رحاب العقيدة وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر ما يميز إنساناً عن إنسان ، عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله ، المتضمن كيانه نفحة من روح الله .

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة - كانت في البيئة العربية وما تزال في العالم كله إلى اليوم - عقبات من التعصب للبيت ، والتعصب للعشيرة ، والتعصب للقوم ، والتعصب للجنس ، والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب

النفوس وأهواء القلوب ، من الحرص والشح وحب الخير للذات ، ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية ... وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله في الجماعة التي يعدّها لتحقيق منهج الله في الأرض في صورة عمليه واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة في سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم ، ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوي قربى . وعلى الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى من قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ؛ وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم ، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه . وهو - سبحانه - يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعاً - وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالاً بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت - فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديدُ ساخنٌ !) .

....

كلمة في سورة الممتحنة ومحورها :

تفصّل سورة الممتحنة في محور سورة المائدة ، ومن ثَمَّ فلها مثل بدايتها ، فسورة المائدة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وكذلك سورة الممتحنة ، ونجد في سورة المائدة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** ﴾ ونجد فيها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء** ﴾ وسورة الممتحنة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة** ... ﴾ وقد رأينا من قبل أن سورة المجادلة فصّلت في محور سورة المائدة نفسه ، وكانت خاتمتها ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم والآخر يوادّون من**

حادّ الله ورسوله ... ﴾ وبعد الآيات الخمسة والعشرين الأولى من سورة البقرة والتي تتحدث عن التقوى ، وطريقها ، وأركانها ، ومظاهرها التي فصّلت فيها سورة الحشر ، تأتي آيتان هما قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ هاتان الآيتان تتحدثان عن الأسباب التي يستحق بها الفاسقون الإضلال ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ...** ﴾ . وسورة الممتحنة تأتي لتحدد للمؤمنين ما ينبغي فعله ، وما لا ينبغي فعله ليتحرروا من هذا كله ، ومن ثَمَّ ستلاحظ أن الآية الأولى من سورة الممتحنة تنهى عن موالاة أعداء الله سراً وعلانية ثمّ تقول : ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ...** ﴾ لاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾ لتجد من خلال هذه الملاحظة صدق ما ذكرناه .

....

وتتحدّث سورة الممتحنة عمّن يجوز وصله ، وعمّن لا يجوز ، كما تتحدّث عن عقود واجبة البر كبيعة النساء ، وعقود لا تصح أصلاً ، كما تتحدّث عن مظاهر الإفساد في الأرض ، ولذلك صلاته بمحورها .

....

وقد يتساءل متسائل ، لماذا هذا التركيز كله على الآيات الأولى من سورة البقرة حتى ليكاد يكون قسم المفصّل كله تفصيلاً لذلك ؟ ، والجواب : إن هذه المعاني التي ذكرتها الآيات الأولى من سورة البقرة عليها مدار الإسلام كله ، فبقدر ما تتعمق معانيها في النفس البشرية وتتضح يكون الإسلام قائماً والأمر مستقيماً . ولنعرض سورة الممتحنة على أنها فقرات كل فقرة منها مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها** ﴾ .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (١) إلى الآية (٩) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ
وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ
إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ
بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن
يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ
تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ
قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ
لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

فائدة في سبب النزول :

قال ابن كثير : (كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب ابن أبي بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال : « اللهم عَمِّ عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله ﷺ استجابة لدعائه ، فبعث في أثر المرأة ، فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته . روى الإمام أحمد عن عبيد الله بن أبي رافع أنه سمع علياً رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم

بعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا ؟ » قال : لا تعجل عليَّ ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ : « إنه صدقكم » فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه من غير وجه عن سفيان بن عيينة به ، وزاد البخاري في كتاب المغازي فأنزل الله السورة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ .

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ قال ابن كثير : (يعني : المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع عداوتهم ومصادمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء) . أقول : وللتولي مظاهر متعددة حاولنا أن نحصيها في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) ومن مظاهرها التي يدلّ عليها سبب نزول هذه الآيات أن ينقل المسلم للكافرين أسرار المسلمين ، وأن يطلعهم على مخططاتهم ﴿ **تلقون إليهم بالمودة** ﴾ أي : لا تتخذوا الكافرين أولياء ملقين إليهم بالمودة ، دلّ ذلك على أن إلقاء المودة للكافرين من مظاهر الولاء قال النسفي : والإلقاء عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم ﴿ **وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ أي : لا تتخذوهم أولياء ملقين إليهم بالمودة ، وهذه حالهم أنهم قد كفروا بما جاءكم من الحق الذي هو دين الإسلام والقرآن ، ثم ذكّر بمظاهر كفرهم وعتوّهم فقال : ﴿ **يُخرجون الرسول وإياكم** ﴾ من مكة ﴿ **أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ أي : يُخرجونكم من مكة لإيمانكم بالله ربكم ، أي : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين . قال ابن كثير : (هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده) ﴿ **إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي** ﴾ أي : إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ومبتغين مرضاتي فلا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي . قال

ابن كثير : (أي : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم ، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم) ﴿ **تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم** ﴾ قال ابن كثير : أي : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر . قال النسفي : (أي : تفضون إليهم بمودتكم سراً ، أو تسرّون إليهم أسرار رسول الله ﷺ بسبب المودة) وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم والمعنى : أيّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي وأنا مطلع رسولي على ما تسرّون ﴿ **ومن يفعله منكم** ﴾ أي : ومن يفعل منكم هذا الإسرار ﴿ **فقد ضل سواء السبيل** ﴾ أي : فقد أخطأ طريق الحق والصواب ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً** ﴾ أي : إن يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم يكونوا لكم خالصي العداوة ، ولا يكونوا أولياء ﴿ **ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء** ﴾ أي : بالقتل والشتم . قال ابن كثير : (أي : لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال) ﴿ **وودوا لو تكفرون** ﴾ أي : وتمنّوا لو ترتدون عن دينكم وما دام الأمر كذلك فموادّة أمثالهم خطأ عظيم . قال ابن كثير : (أي : ويحرصون على ألا تنالوا خيراً ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟) وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً . وقال النسفي شارحاً الآية : (يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين ، من قتل الأنفس ، وتمزيق الأعراض ، وردّكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذّالون لها دونه ، والعدو أهمّ شيء عنده أن يقصد أهم شيء عند صاحبه) . ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم** ﴾ أي : قراباتكم ﴿ **ولا أولادكم** ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم ، وتتقربون إليهم محاماة عليهم ثم قال : ﴿ **يوم القيامة يفصل بينكم** ﴾ أي : وبين أقاربكم وأولادكم ، فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يُفرّ منه غداً ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ فيجازيكم على أعمالكم . قال ابن كثير : (أي : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم ، إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء) . ثم قال تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه** ﴾ أي : وأتباعه الذين آمنوا معه ، أي : قد كانت لكم قدوة حسنة في

إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين ﴿ **إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم** ﴾ أي : تبرأنا منكم ﴿ **ومما تعبدون من دون الله** ﴾ أي : تبرأنا منكم ومن آلهتكم ﴿ **كفرنا بكم** ﴾ أي : بدينكم وبطريقتكم وبأشخاصكم التي تمثّل بها هذا الدين والطريقة ﴿ **وبدا بيننا وبينكم العداوة** ﴾ بالأفعال ﴿ **والبغضاء** ﴾ بالقلوب ﴿ **أبداً حتىٰ تؤمنوا بالله وحده** ﴾ فحينئذ نترك عداوتكم وبغضكم . قال ابن كثير : (يعني : وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ...) إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعون ما تعبدون معه من الأنداد ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك** ﴾ قال النسفي : أي : اقتدوا به (أي : في إبراهيم) في أقواله ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر ، وقال ابن كثير : أي : لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسّون بها ، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ﴿ **فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه** ﴾ ثمّ أتمّ الله عز وجل قول إبراهيم لأبيه ﴿ **وما أملك لك من الله من شيء** ﴾ أي : من هداية ومغفرة وتوفيق فكأنه قال له : سأستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار ، ثمّ قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم عليه السلام والذين معه حين فارقوا قومهم ، وتبرؤوا منهم فلجأوا إلى الله عز وجل ، وتضرّعوا إليه فقالوا : ﴿ **ربنا عليك توكلنا** ﴾ لا على أحد سواك ﴿ **وإليك أنبنا** ﴾ أي : أقبلنا ﴿ **وإليك المصير** ﴾ أي : المرجع . قال ابن كثير : أي : توكلنا عليك في جميع الأمور ، وسلّمنا أمورنا إليك ، وفوّضناها إليك ، وإليك المصير أي : المعاد في الدار الآخرة ، وقالوا ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا** ﴾ قال النسفي : أي : لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب . وقال ابن كثير : (قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وكذا قال الضحاك ، وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه واختاره ابن جرير ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا) ﴿ **واغفر لنا ربنا** ﴾ أي : واستر ذنوبنا عن غيرنا ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ **إنك أنت العزيز** ﴾ أي : الذي لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك ، ثم كرر الله عز وجل الحث على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ هذا تهييج للتأسي بإبراهيم ومن معه لكل مؤمن بالله والمعاد ﴿ **ومن يتولَّ** ﴾ عما أمر الله به من الاقتداء بإبراهيم ومن معه ﴿ **فإن الله هو الغني** ﴾ عن الخلق

﴿ **الحميد** ﴾ المستحق للحمد ، وبعد أن أمر الله عز وجل بمعاداة الكافرين والبراءة منهم قال : ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ أي : محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة بأن يوفقهم للإيمان ، وقد كان ذلك للمهاجرين يوم فتح الله مكة فأسلم قومهم وتمّ بينهم التحابّ ﴿ **والله قدير** ﴾ على تقليب القلوب ، وتحويل الأحوال ، وتسهيل أسباب المودة ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ لمن أسلم من المشركين . قال ابن كثير : أي : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب كان ، وبعد أن قرر الله عز وجل أن الأصل بين المسلم والكافر العداء ، وأنه لا ولاء بينهما ذكر من يجوز برّه من الكافرين ، وينبغي القسط فيه ، وحدّد الذين لا تجوز موالاتهم بحال فقال : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم** ﴾ قال النسفي : (أي : تكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً) ﴿ **وتقسطوا إليهم** ﴾ قال النسفي : أي : وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم ، وإذا نهى عن الظلم في حق المشرك فكيف في حق المسلم ﴿ **إن الله يحب المقسطين** ﴾ أي : العادلين والمعنى : لا ينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ولا عن القسط فيهم ، لأن الله عز وجل يحب من اتصف بصفة العدل ثم قال تعالى محدّداً من تجب معاداته ، ولا تجوز موالاته ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم** ﴾ أي : أيدوا هذا الإخراج وعاونوا عليه ﴿ **أن تولوهم** ﴾ أي : أن تعطوهم أيّ مظهر من مظاهر الولاء ﴿ **ومن يتولهم** ﴾ منكم ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ حيث وضعوا التولي في غير موضعه ، ومعنى الآيتين : لا ينهاكم الله عن مبرّة أولئك ، وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء ، وإنما ذكر جواز المبرّة والقسط مع الأولين ، ولم يذكر الولاء ، وذكر تحريم الولاء مع الآخرين ؛ لأن الولاء لا يجوز أن يعطى أبداً إلا لأهل الإيمان . قال ابن كثير : (أي : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم) فمواطنونا من غير المسلمين إذا لم يدخلوا في صراع معنا أو قتال ، وإذا لم يبذلوا جهداً من أجل إخراجنا من بلادنا فهؤلاء يجوز البر لهم ، والعدل فيهم ، أما الولاء لهم فلا ، وأعظم مظاهر الولاء في عصرنا الدخول معهم في حزب واحد ، يعطيهم المسلم من خلاله الولاء ، ويحجبه عن المسلمين ، وأما الذين يريدون استئصال ديننا وفتنتنا عنه فهؤلاء لا ولاء لهم بل عداء ،

لأن الفتنة أكبر من القتل ، ومن ثَمَّ فالعمل الإسلامي المعاصر يجب أن يحدّد علاقته ومواقفه من هؤلاء وأولئك ، ولا بأس بعقد ميثاق وطني مع الذين لا يقاتلون ولا يظاهرون ، ومع الميثاق تكون صلات ومبرات وإقناع وبيان ، ولا شيء يكشف المقاتلين والمظاهرين كالانتساب إلى الأحزاب التي من أهدافها استئصال الإسلام ، فمتىٰ وجد انتساب كان العداء وحجب البر مع البيان ، ومتى لم يوجد انتساب ولا تأييد كان البر والقسط ، وهل يدخل في البر توظيفهم واستعمالهم وإشراكهم في مجلس شورى القطر ، وإشراكهم في الوزارات والجيش ؟ الذي عليه العمل خلال العصور هو هذا مع اشتراط أن يكون السلطان للمسلمين ، والسيطرة لهم ، ومع الأمن من جانب هؤلاء ومحاسبتهم الدقيقة ، أما الآخرون فاستعمالهم من أكبر الجرائم عند الله ، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبّر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلّطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه » فكل من شارك من الكفرة في الأحزاب التي من أهدافها استبعاد الإسلام أو إقصاؤه أو محاربته أو محاربة أهله ، فهؤلاء يجب إسقاط الحقوق المدنية عمّن يبقىٰ منهم حياً بعد القتال ، بأن يطردوا من وظائفهم ، ويحال بينهم وبين أي عمل في الدولة على كل مستوى ، وتبدأ عملية تأليف قلوبهم من خلال أشياء أخرى إن اقتضى الأمر ذلك ، أما المسلمون الذين يشاركون في مثل هذه الأحزاب فهؤلاء إما مرتدون ، أو منافقون ، إلا رجلاً أُمر أن ينتسب ودخل بنيّة صالحة ، فأما المرتد فالقتل إلا إذا تاب ، وأما المنافق فيعامل على ظاهره إلا إذا ظهر منه ما يدل على ارتداده فيقتل حينئذٍ إلا إذا تاب ، وبمقدار ما تصدق التوبة وتظهر آثارها يمكن أن يعامل هؤلاء ، أما أن يعطىٰ هؤلاء إمرة على المسلمين فلا .

كلمة في السياق :

١ - واضح في الفقرة أن السياق انصب على عدم جواز موالاة أعداء الله والإسلام ، ولم يخالط الفقرة شيء ليس له علاقة بهذا الموضوع ، ومن ثَمَّ فسينصبّ كلامنا على صلة الفقرة بمحور السورة .

٢ - قلنا إن محور السورة هو محور سورة المائدة ، فلنعرض هذا المحور ، ولنر صلة ما مر معنا به :

أ - ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ ويلاحظ في الآية الأولى من الفقرة مجيء كلمة (الحق) ﴿ **وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ .

ب - ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ يلاحظ في الآية الأولى من الفقرة ورود قوله تعالى : ﴿ **ومن يفعله منكم** ﴾ أي : إسرار المودّة ﴿ **فقد ضلّ سواء السبيل** ﴾ مما يشير إلى أن من يفعل ذلك دخل في الفاسقين الذين يضلهم الله عز وجل بسبب فسوقهم .

جـ - ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ يلاحظ أن آيات الفقرة ذكرت مظهراً من مظاهر نقض الميثاق مع الله عز وجل وهو موالاة أعدائه .

د - ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ يلاحظ أن الفقرة تحدثت عن الولاء للكافرين الذي هو قطع لما أمر الله به أن يوصل وهو موالاة المؤمنين ، كما ذكرت الفقرة أن برّ مَنْ لم يقاتلنا في الدين ويخرجنا من بلادنا ويؤيد إخراجنا لا يعتبر من هذا القبيل ، كما أن الأرحام والأولاد في المجتمع الكافر لا تعتبر قطيعتهم من باب قطع ما أمر الله به أن يوصل .

هـ - ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ نلاحظ أن الفقرة تعرضت لما يفعله الكافرون بالمؤمنين : ﴿ **يُخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون** ﴾ ﴿ **قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم** ﴾ وهذه جوانب من الإفساد في الأرض واضحة . ومن ثَمَّ فالفقرة قد فصّلت في آيتي سورة البقرة اللتين هما محور السورة ، ومحور سورة المائدة من قبل تفصيلاً واضحاً ، وسنرى صلة الفقرات الآتية بمحور السورة ، وسنرى في ذلك دليلاً واضحاً على صحة ما ذهبنا إليه .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وهي آيتان : وتمتد من الآية (١٠) إلى نهاية الآية (١١) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

فائدة في سبب النزول :

قدّم ابن كثير لتفسير هاتين الآيتين بقوله : (تقدم في سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : على أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا ، وفي رواية على أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا ، وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي ، فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصِّصة للسُّنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة فإن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وقد ذكرنا في ترجمة عبد الله بن أحمد بن جحش من المسند الكبير من طريق أبي بكر بن أبي عاصم ... عن عبد الله بن أبي أحمد قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهجرة ،

فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلّماه فيها أن يردها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصّة ، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان) .

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ سماهن مؤمنات مع أنهن لم يمتحنّ بعد لنطقهن بكلمة الشهادة ، أو لشهادة ظاهر الحال لهن بالإيمان ، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿ **فامتحنوهن** ﴾ أي : فاختبروهنّ بالنظر في الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن وسنرى في الفوائد صيغ الامتحان في زمن رسول الله ﷺ ﴿ **الله أعلم بإيمانهن** ﴾ أي : منكم فإنكم وإن رزتم أحوالهن لا تعلمون ذلك حقيقة ، وعند الله حقيقة العلم به ﴿ **فإن علمتموهن مؤمنات** ﴾ أراد به العلم الذي تبلغه الطاقة البشرية . قال النسفي : (وهو الظن الغالب بظهور الأمارات ، وتسمية الظن علماً يؤذن بأن الظن الغالب وما يفضي إليه القياس جارٍ مجرى العلم ، وصاحبه غير داخل في قوله : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾) . وقال ابن كثير : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً ﴿ **فلا ترجعوهنّ إلى الكفار** ﴾ أي : فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين في حالة علمكم إيمانهن ﴿ **لا هن حلٌ لهم ولاهم يحلون لهن** ﴾ قال ابن كثير : هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة . وقال النسفي : أي : لا حل بين المؤمنة والمشرك لوقوع الفرقة بينهما بخروجها مسلمة ﴿ **وآتوهم ما أنفقوا** ﴾ أي : وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور ﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ قال ابن كثير : يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهنّ فانكحوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك . وقال النسفي : نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات ، ﴿ **إذا آتيتموهن أجورهن** ﴾ أي : مهورهن لأن المهر أجر البضع ، وبه احتج أبو حنيفة رضي الله عنه على أن لا عدّة على المهاجرة ﴿ **ولا تمسكوا بعصَم الكوافر** ﴾ قال ابن كثير : تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن . وقال النسفي : (العصمة ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكوافر جمع كافرة وهي التي بقيت في دار الحرب ، أو لحقت بدار الحرب مرتدة ، أي : لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة

زوجية . قال ابن عباس رضي الله عنهما : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّن بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه) ﴿ **واسألوا ما أنفقتم** ﴾ قال النسفي : من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممّن تزوجها ، ﴿ **وليسألوا ما أنفقوا** ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممّن تزوجها منا ، قال ابن كثير : أي : وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن ؛ وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين ﴿ **ذلكم** ﴾ أي : جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿ **حكم الله يحكم بينكم** ﴾ قال ابن كثير : أي : في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ، قال النسفي : وهو منسوخ فلم يبق سؤال المهر لا منا ولا منهم . أقول : إنما قال النسفي ذلك لعدم تصور أن تعقد معاهدة لا تلاحظ فيها الأحكام الموجودة ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ قال ابن كثير : أي : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في ذلك ﴿ **وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار** ﴾ أي : وإن انفلت أحد منهن إلى الكفار ﴿ **فعاقبتم** ﴾ أي : فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ﴿ **فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا** ﴾ قال النسفي : أي : فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة ، وقيل هذا الحكم منسوخ أيضاً ﴿ **واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون** ﴾ أن تخالفوا أوامره ونواهيه وأحكامه .

كلمة في السياق :

١ - من الملاحظ أن هاتين الآيتين جاءتا تفسران بعض القضايا التي لا تدخل في معاهدة الحديبية ، وهي في ذلك تبيّن معاني لا تدخل في موضوع نقض المواثيق ، ولا في قطع ما أمر الله به أن يوصل ، ولا في موضوع الإفساد في الأرض ، وذلك من خلال ما حكم الله عز وجل به في الآيتين ، كما فصّلتا في مواثيق لا ينبغي أن تعقد ، وقضايا ينبغي أن توصل ، وفساد في الأرض ينبغي أن يزول ، وكل ذلك من خلال عرض الأحكام الخاصة في النساء التي تقيّد اتفاقية الحديبية ، ومن هنا ندرك صلة الفقرة بمحور السورة ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ والصلة التي تنتظم هذه الفقرة مع ما قبلها هي انتظام محور السورة لكل ما ورد في السورة .

٢ - وبعد الفقرة الثانية تأتي فقرة فيها ذكر مضمون بيعة رسول الله ﷺ

للنساء ، وفي ذلك تحديد لأمهات المعاني التي إذا تحققت بها المرأة خرجت عن كونها فاسقة ، ناقضة لعهد الله ، قاطعة لما أمر الله به أن يوصل ، مفسدة في الأرض ، وصلة هذه الآية بما قبلها واضحة ، فما قبلها يتحدث عن المؤمنات المهاجرات ، وهذه تتحدث عن بيعتهن مع غيرهن لرسول الله ﷺ فلنر الفقرة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتتألف من آية واحد هي الآية (١٢) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فائدة في السياق :

مما يدل على صلة هذه الآية بما قبلها ، هذه الرواية التي أخرجها البخاري عن عروة ابن الزبير : (روى البخاري ... عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ إلى قوله ﴿ **غفور رحيم** ﴾ قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « **قد بايعتك** » كلاماً ، ولا والله ما مسَّت يده يد امرأة في المبايعة قط ، ما يبايعهن إلا بقوله : « **قد بايعتك على ذلك** » هذا لفظ البخاري) .

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن** ﴾ قال النسفي : يريد وأد البنات . أقول : بل هي أعَمّ من ذلك ، قال ابن كثير : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرّح نفسها إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه . أقول : وفي جواز إسقاط الجنين وعدمه تفصيل سنراه في الفوائد ، ﴿ **ولا يأتين ببهتان** ﴾ أي : بكذب

﴿ **يفترينه بين أيديهن وأرجلهن** ﴾ قال ابن عباس : يعني : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ يعني : فيما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهنّ عنه من منكر ﴿ **فبايعهن** ﴾ أي : من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها ﴿ **واستغفر لهنّ الله** ﴾ عما مضى ﴿ **إن الله غفور** ﴾ بتمحيص ما سلف ﴿ **رحيم** ﴾ بتوفيق ما ائتلف ، وسنذكر في الفوائد صيغ هذه البيعة في زمن رسول الله ﷺ ونماذج منها ، وكيفية تطبيقات هذه البيعة في عصرنا ، وغير ذلك مما له علاقة بهذا الموضوع

كلمة في السياق :

١ - هذه البيعة نموذج على المعاني التي لا ينبغي أن ينقضها المسلم ، لأنها ميثاق مع الله ورسوله ، ولذلك صلته بمحور السورة ، فلو أن إنساناً نقض هذه البيعة فإنّه يدخل في قوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ كما يدخل في قوله تعالى : ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ كنسبة الأولاد إلى غير آبائهم كما يدخل في قوله تعالى : ﴿ **ويفسدون في الأرض** ﴾ بالشرك والسرقة والزنى وقتل الأولاد وإتيان البهتان والمعصية لله والرسول ﷺ .

٢ - من تحديد مضمون هذه البيعة - وهي البيعة التي كان رسول الله ﷺ يأخذها على النساء بشكل دائم ، وعلى الرجال أول الأمر ، ومن صلة ذلك بمحور السورة - ندرك أن ما ذكره الله عز وجل في هذه الآية هو مظاهر الفسوق الرئيسية عن أمر الله . ولم يبق عندنا في السورة إلا آية واحدة تتحدث عن الموضوع الذي بدأت به السورة ، موضوع النهي عن موالاة الكافرين فلنرها .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة

وهي آية واحدة ، هي الآية (١٣) وهي آخر آية في السورة وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾ قال ابن كثير : (يعني : اليهود والنصارى ، وسائر الكفار مِمّن غضب الله عليه ولعنه ، واستحق من الله الطرد والإبعاد) وحالهم أنهم ﴿ **قد يئسوا من الآخرة** ﴾ أي : من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿ **كما يئس الكفار** ﴾ أي : كما يئسوا إلا أنّه وضع الاسم الظاهر موضع الضمير ﴿ **من أصحاب القبور** ﴾ أي : أن يرجعوا إليهم ، أو كما يئس أسلافهم الذين هم في القبور من الآخرة ، أو كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة ، لأنهم تبيّنوا قبح حالهم ، وسوء منقلبهم ، فيكون المعنى : قد يئس هؤلاء الكافرون من ثواب الآخرة كما يئس موتىٰ الكافرين من هذا الثواب ، وعلى كل فالآية تبيّن تحريم موالاة مَنْ هذا شأنه .

....

كلمة في السياق :

يلاحظ أن السورة ختمت بما بدأت به من النهي عن موالاة الكافرين ، وصلة موضوع الولاء بمحور السورة واضحة ، فولاء الكافرين نقض للميثاق ، وقطع لما أمر الله به أن يوصل ، وإفساد في الأرض ، وهذا شيء يدركه كل بصير بعصرنا ، فعندما والىٰ المسلم الكافرين واقع المسلم هذه الأشياء كلها . وقام سوق هذه الأشياء كلها ، ويبقى الآن سؤال هو : يلاحظ أن السورة بدأت بالكلام عن الولاء ، وختمت به ، فما صلة ما ورد في وسط السورة بهذا ؟ ، يلاحظ أنه ورد في وسط السورة كلام عن بيعة النساء وهجرتهن ، ولا شك أن البيعة والهجرة هما أعظم مظهرين من مظاهر تحرير

الولاء لله والرسول ﷺ والمؤمنين ، فمتى هاجر الإنسان انتقل من ولاء إلى ولاء ، ومتى بايع فقد خلع كل ولاء ، وأعطى كل الولاء لمن بايعه ، فذكر الهجرة والبيعة في هذا السياق يشير إلى طريقي التحرر من ولاء الكافرين ، وهذا موضوع يجب أن نعطيه في عصرنا الأهمية الكبرى والعظمى في عملية نقل ولاء المسلم والمسلمة كما سنرى في الفوائد .

يبقى أن نتساءل : ما الحكمة في عرض قضيتي الهجرة والبيعة من خلال موضوع المرأة ؟ والجواب - والله أعلم - أولاً : لأن ذلك واقعة حال تحتاج إلى جواب ، وقد جعل الله عز وجل جوابها في هذه السورة . ثانياً : لتذكير المسلمين بموضوع المرأة ، على أنه أصل في العمل الإسلامي على كل مستوى وليس فرعاً . ثالثاً : لتبين لنا السورة أن أخذ ولاء المرأة له صلة بأخذ ولاء المجتمع الإسلامي كله ، وأن رعاية شأن المرأة برعاية الأحكام الخاصة بها شيء له وزنه العظيم في قضية التطهير من الفسوق . ولننقل الآن بعض الفوائد المتعلقة ببعض آيات السورة .

الفوائد :

١ - من روايات أسباب نزول صدر سورة الممتحنة هذه الرواية : (في الصحيحين ... عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين ، معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا الكتاب ؟ فقالت : ما معي كتاب ، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؛ فدعني فلأضرب عنقه فقال النبي ﷺ : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال حاطب : والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال : « صدق لا تقولوا له إلا خيراً » فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؛ فدعني فلأضرب عنقه ، فقال : « أليس من أهل بدر ؟ » فقال : « لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا

ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة » أو « قد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم ، هذا لفظ البخاري في المغازي في غزوة بدر) . أقول : يستدلّ بما ورد في هذه الرواية لأمور كثيرة تخصّ أمن المجتمع الإسلامي ، منها جواز التفتيش الدقيق إذا تأكّدت لنا معلومات أمنية ، ومنها جواز التهديد والتعزير لانتزاع الإقرار من العاملين ضدّ أمن المجتمع الإسلامي إذا ثبتت عليهم الخيانة .

تعليق :

علّق صاحب الظلال على حادثة حاطب بقوله : (وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سِرّ الحملة ... وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها ؛ وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل : « ما حملك على ما صنعت » في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثَمَّ يكف الصحابة عنه : « صدق لا تقولوا إلا خيراً » ... ليعينه وينهضه من عثرته ، فلا يطارده بها ، ولا يدع أحداً يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر : « إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعني فلأضرب عنقه » ... فعمر - رضي الله عنه - إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسُّه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله ﷺ فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها ، مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية . في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابسات والظروف .

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو في لحظة ضعفه ، ولكن تصوّره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح ... ذلك حين يقول : (أردت أن تكون لي عند القوم يد ... يدفع الله بها عن أهلي ومالي) ... فالله هو الذي يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها ، إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول : (وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع ... الله ... به عن أهله وماله » فهو الله الحاضر في تصوره ، وهو الذي يدفع لا العشيرة . إنما العشيرة أداة

يدفع الله بها) .

(ولعل حس رسول الله الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله ﷺ : « صدق . لا تقولوا إلا خيراً » .

وأخيراً يقف الإنسان أمام تقدير الله في الحادث ؛ وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله ﷺ بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشري وهو من القلة المختارة . ثم يجري قَدَر الله بكفّ ضرر هذه اللحظة على المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع ، ولا تنفج بالقول : ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه ، ولو أودعناه نحن ما بحنا به ، فلم يرد من هذا شيء ؛ مما يدل على أن أدب المسلمين مع قيادتهم وتواضعهم في الظنّ بأنفسهم واعتبارهم بما حدث لأخيهم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أأصلها ؟ قال : « نعم صلي أمك » أخرجاه في الصحيحين) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن أبي نصر الأسدي قال : سئل ابن عباس كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله ، ثم رواه من وجه آخر عن الأغر ابن الصباح به ، وكذا رواه البزار من طريقه ، وذكر فيه أن الذي كان يحلفهن عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وقال مجاهد : ﴿ **فامتحنوهن** ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن ، أو سخطه أو غيره ولم يؤمنَّ فارجعوهن إلى أزواجهن ، وقال عكرمة : يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك

فذلك قوله : ﴿ **فامتحنوهن** ﴾ وقال قتادة : كان امتحانهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز ، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله ، وحرص عليه ، فإذا قلن ذلك قُبل ذلك منهن ، وقوله تعالى : ﴿ **فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار** ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى عن المؤمنات والمشركين : ﴿ **لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهنّ** ﴾ قال ابن كثير : (هذه الآية التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، وعلى هذا كان أمر أبي العاص ابن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّة شديدة وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا » ففعلوا فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه فوفى له بذلك ، وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ردّ ابنته زينب على أبي العاص وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ومنهم من يقول بعد سنتين وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين ، وقال الترمذي ليس بإسناده بأس ، ولا نعرف وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود ابن الحصين ، وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث وحديث ابن الحجاج - يعني ابن أرطاة - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ ردّ ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد ، فقال يزيد : حديث ابن عباس أجود إسناداً ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب . (ثم قلت) : وقد روى حديث الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وضعفه الإمام أحمد وغير واحد والله أعلم .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين تحتمل أنه لم تنقض عدّتها منه ؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ

نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار ، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس والله أعلم) . أقول : انعقد الإجماع على أنّه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج إلا من مسلم ، أما المسلم فإنّه يجوز له أن يتزوج من مسلمة أو كتابية على خلاف بالنسبة للكتابية في بعض الصور .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوا بِعِصَم الكوافر** ﴾ قال ابن كثير : (تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن . وفي الصحيح ... عن المسور بن مروان بن الحكم أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولا تمسكوا بِعِصَم الكوافر** ﴾ فطلّق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية . وقال أبو ثور عن الزهري : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم ردّه إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى أزواجهم وقال : ﴿ **ولا تمسكوا بِعِصَم الكوافر** ﴾ وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال : وإنما حكم الله بينهم بذلك لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد ، وقال محمد بن إسحاق عن الزهري : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية ، وهي أم عبد الله فتزوجها أبو جهم بن حذيفة بن غانم رجل من قومه ، وهما على شركهما ، وطلق طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فتزوجها بعده خالد بن سعيد بن العاص) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً** ... ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً الآية وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء إنما قولي

لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة » هذا إسناد صحيح ، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة والنسائي أيضاً من حديث الثوري ومالك بن أنس كلهم عن محمد بن المنكدر به ، وقال الترمذي : حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر ، وقد رواه أحمد أيضاً من طريق آخر عن أميمة به وزاد : ولم يصافح منا امرأة ، وكذا رواه ابن جرير بسنده . ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر الرازي عن محمد بن المنكدر حدثتني أميمة بنت رقيقة وكانت أخت خديجة خالة فاطمة من فيها إلى فيّ فذكره ، وروى الإمام أحمد عن سليط بن أيوب بن الحكم بن سليم عن أمه سلمى بنت قيس وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلّت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه في نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأت ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف قال : « ولا تغششن أزواجكن » قالت : فبايعناه ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن ارجعي فسلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما غش أزواجنا ؟ قال فسألته فقال : « تأخذ ماله فتحابي به غيره » وروى الإمام أحمد عن عائشة بنت قدامة - يعني ابن مظعون - قالت : أنا مع أمي رائطة ابنة أبي سفيان الخزاعية ، والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول : « أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصينني في معروف » - قلن : نعم - « فيما استطعتن » فكن يقلن وأقول معهن وأمي تقول لي : أي بنية نعم فكنت أقول كما يقلن . وروى البخاري عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ علينا ولا تشركوا بالله شيئاً ، ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يديها قالت : أسعدتني فلانة فأريد أن أجزيها فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً فانطلقت ورجعت فبايعها ، ورواه مسلم ، وفي رواية فما وفّى منهن امرأة غيرها وغير أم سليم بنت ملحان ، وللبخاري عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح ، فما وفّت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبي سبرة - امرأة معاذ - ، وامرأتان ، أو ابنة أبي سبرة - امرأة معاذ - وامرأة أخرى . وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد كما روى البخاري عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه

حين يجلس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف** ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله ، لا يدري حَسَنٌ – أحد رواة الحديث – من هي قال : « فتصدقن » قال وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام فقال : « أبايعك على ألا تشركي بالله شيئاً ولا تسرقي ولا تزني ولا تقتلي ولدك ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك ولا تنوحي ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى » وقد روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال : « تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ثم قرأ الآية التي أخذت على النساء ﴿ **إذا جاءك المؤمنات** ﴾ فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه » أخرجاه في الصحيحين . وروى محمد ابن إسحاق ... عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء – وذلك قبل أن يفرض الحرب – على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولانزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف وقال : « فإن وفيتم فلكم الجنة » ورواه ابن أبي حاتم ، وقد روى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب فقال : « قل لهن إن رسول الله ﷺ يبايعكنّ على أن لا تشركن بالله شيئاً » وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التي شقّت بطن حمزة متنكّرة في النساء فقالت : إني إن أتكلم يعرفني ، وإن عرفني قتلني ، وإنما تنكّرت فرقاً من رسول الله ﷺ ، فسكت النسوة اللاتي مع هند وأبين أن يتكلمن فقالت هند وهي متنكرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر : « قل لهن ولا يسرقن » قالت هند : والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات ما أدري أيحلهن لي أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فدعاها فأخذت بيده فعاذت به فقال : « أنتِ

هند ؟ » قالت : عفا الله عما سلف ، فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : « ولا يزنين » فقالت : يا رسول الله وهل تزني امرأة حرة ؟ قال : « لا والله ما تزني الحرة – قال – ولا يقتلن أولادهن » قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر ، قال : ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن** ﴾ قال : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ قال : منعهن أن ينحن وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ويقطعن الشعور ، ويدعون بالويل والثبور . وهذا أثر غريب وفي بعضه نكارة والله أعلم ، فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلما لم يكن رسول الله ﷺ يخيفهما بل أظهر الصفاء والودّ لهما ، وكذلك كان الأمر من جانبه عليه السلام لهما . وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا ، وعمر بايع النساء يحلفهن عن رسول الله ﷺ فذكر بقيته كما تقدم وزاد : فلما قال : ولا تقتلن أولادكن قالت هند : ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً ، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . رواه ابن أبي حاتم ، وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه فنظر إلى يدها فقال : « اذهبي فغيري يديك » فذهبت فغيرتها بحناء ثم جاءت فقال : « أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً » فبايعته وفي يدها سواران من ذهب فقالت : ما تقول في هذين السوارين فقال : « جمرتان من نار جهنم » . وروى ابن أبي حاتم ... عن عامر هو الشعبي قال : بايع رسول الله ﷺ النساء وفي يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصينا بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاء النساء يبايعنه جمعهن فعرض عليهن فإذا أقررن رجعن فقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ أي : من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعهن على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصّراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علمه عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ ، فهل عليَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » أخرجاه في الصحيحين ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا يزنين** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾ وفي حديث سمرة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم ، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت :

جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع الله ورسول الله ﷺ فأخذ عليها ﴿ **أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين** ﴾ الآية قال : فوضعت يدها على رأسها حياءً فأعجبه ما رأى منها فقالت عائشة : أقري أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت فنعم إذاً فبايعها بالآية ، وروى ابن أبي حاتم عن عامر هو الشعبي قال : بايع رسول الله ﷺ النساء وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » . فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصي بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءت النساء يبايعنه جمعهن فعرض عليهن فإذا أقررن رجعن ، وقوله تعالى : ﴿ **ولا يقتلن أولادهن** ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن** ﴾ قال ابن عباس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم وكذا قال مقاتل . ويؤيد هذا الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة : « أيما امرأة أدخلت على قوم ما ليس منهم فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين » وقوله تعالى : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ يعني : فيما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر . روى البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء . وقال ميمون بن مهران لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف ، والمعروف طاعة . وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله وهو خيرة الله من خلقه في المعروف . وقد قال غيره عن ابن عباس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح ، وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضاً . وروى ابن جرير عن قتادة في هذه الآية ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ عليهن النياحة ، ولا تحدثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله إن لنا أضيافاً وإنا لنغيب عن نسائنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس أولئك عنيت ، ليس أولئك عنيت » وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كان فيما أخذ النبي ﷺ ألا يحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدّث المرأة حتى يمذي بين فخذيه . وروى ابن جرير عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشترط علينا رسول الله ﷺ من

المعروف حين بايعناه أن لا ننوح ، فقالت امرأة من بني فلان : إن بني فلان أسعدوني فلا حتى أجزيهم ، فانطلقت فأسعدتهن ثم جاءت فبايعت قالت : فما وفّى منهن غيرها ، وغير أم سليم - ابنة ملحان أم أنس بن مالك - وقد روى البخاري هذا الحديث من طريق حفصة بنت سيرين عن أم عطية نسيبة الأنصارية رضي الله عنها . وقد روى نحوه من وجه آخر أيضاً ، فروى عن مصعب بن نوح الأنصاري قال : أدركت عجوزاً لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ قالت : فأتيته لأبايعه فأخذ علينا فيما أخذ أن « لا تنحن » فقالت عجوز : يا رسول الله إن أناساً قد كانوا أسعدوني على مصائب أصابتني ، وأنهم قد أصابتهم مصيبة فأنا أريد أن أسعدهم ، قال : « فانطلقي فكافئيهم » فانطلقت فكافأتهم ثم إنها أتته فبايعته وقال : هو المعروف الذي قال الله عز وجل : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن أسيد بن أبي أسيد البزار عن امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا نعصيه في معروف وأن لا نخمش وجهاً ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً ، وروى ابن جرير عن أم عطية قالت : لما قدم رسول الله ﷺ جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام على الباب وسلم علينا فرددن أو فرددنا عليه السلام ثم قال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن قالت : فقلنا مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله ، فقال : تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، قالت : فقلنا نعم ، قالت : فمدّ يده من خارج الباب أو البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال : اللهم اشهد ، قالت : وأمرنا في العيدين أن نخرج فيه الحيَّض والعواتق ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز ، قال إسماعيل فسألت جدتي - هي أم عطية - عن قوله تعالى : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ قالت : النياحة . وفي الصحيحين من طريق الأعمش ... عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة . وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت - وقال - النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » ورواه مسلم في صحيحه وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ لعن النائحة والمستمعة ، رواه أبو داود .

وروى ابن جرير عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ قال : النوح ، ورواه الترمذي في التفسير ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن غريب .

تعليق :

الإجهاض عند الحنفية مباح لعذر يقدره أولو الاختصاص بقَدْره إذا كان قبل التخلّق الذي يكون عادة بين اليوم الأربعين إلى الخامس والأربعين بعد الحمل ، ومكروه إلا لعذر إذا كان قبل نفخ الروح الذي يتم في نهاية الشهر الرابع ، وحرام بعد ذلك ، ويراعى تقوى الله في مثل هذه المسائل الحرجة فليراجع أهل التقوى والعلم .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كما يئس الكفار من أصحاب القبور** ﴾ قال ابن كثير : (يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم ، أو يبعثهم الله عز وجل ، وقال الحسن البصري ﴿ **كما يئس الكفار من أصحاب القبور** ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات ، وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك ، رواهن ابن جرير ، والقول الثاني معناه : كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير ، قال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود ﴿ **كما يئس الكفار من أصحاب القبور** ﴾ قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه ، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي ومنصور وهو اختيار ابن جرير رحمه الله) .

كلمة أخيرة في سورة الممتحنة ومجموعتها :

كان الموضوع الرئيسي لسورة الممتحنة هو تحريم اتخاذ أعداء الله أولياء ، وإذا تذكرنا أنّ سورة الحشر تحدثت عن المنافقين الذين والوا اليهود ندرك كيف أكملت سورة الممتحنة سورة الحشر ، ولقد رأينا أن سورة الحشر فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، والآيات الخمس بعدها ، وجاءت سورة الممتحنة لتفصّل في الآيتين بعد ذلك ، وهكذا تكاملت المجموعة إنْ في المحور الذي فصّلته ، أو في المواضيع التي طرقتها . فلنر الآن محل هذه المجموعة في قسم المفصّل .

بدأ قسم المفصّل بمجموعة فصّلت في التقوى والكفر ، وضرورة العبادة والشكر ، ثم جاءت المجموعة الثانية ففصّلت في وجوب الإيمان بالله والرسول ، وهما أساس كل

شيء ، وبيّنت عاقبة محاربة الله ورسوله في الدنيا والآخرة ، ثم جاءت المجموعة الثالثة وهي مجموعة الحشر فعرّفت على الله عزّ وجلّ ، وضربت مثلاً عملياً على نتائج محاربة الله والرسول ، وحررت من اتخاذ أعداء الله ورسوله أولياء . وهكذا نجد أن كل مجموعة من المفصّل تكمّل المجموعات السابقة عليها .

....

ولنلاحظ بشكل عام كيف أن السابق يشكّل أساساً يبنى عليه اللاحق ؛ فسورة الحشر عرّفت على الله وعظمته ، وبعد أن عرّفتنا على جلال الله تأتي سورة الممتحنة لتقول في بدايتها : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ ، وسورة الحشر عرّفتنا خِسَّة الذين يوالون أعداء الله عز وجل ، ومصيرهم ومصير أوليائهم ، وسفّهت المنافقين وحقّرتهم ، لأنهم يوالون أعداء الله عز وجل . وجاءت سورة الممتحنة لتقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ ، وسورة الحشر عرّفتنا فعل الله بالكافرين وسُنّته فيهم ، وجاءت سورة الممتحنة لتنهى عن ولائهم ، وتفرض عداوتهم . ورأينا قبل ذلك كيف أن مجموعة سورة الحديد كانت أساساً لما ذكر في مجموعة سورة الحشر ، ومجموعة سورة الذاريات هي الأساس لما ذكر في مجموعة سورة الحديد ، هذا والمجموعات كلها تفصّل في حيّز واحد من سورة البقرة هي الآيات الأولى منها ، وسنرى كيف أن المجموعات اللاحقة تفصّل في هذا الحيز تقريباً ، وكل منها يكمّل ما سواه ، ويبنى كل منها على ما سبقه . والملاحظ أن سور المجموعات السابقة أطول من سور المجموعات اللاحقة في الغالب ، وكأن المعاني الأولى التي عرضتها أوائل سورة البقرة تعرض بتفصيل أوسع ، ثم بتفصيل واسع ، ثم بتفصيل أقل ، حتى إن هذه المعاني لتعرض عليك مرة بصفحة ، ومرة بعشرات الصفحات ، وفي ذلك من الحكمة ما لا يخفى ، وخاصة في موضوع التذكير الذي يسع كل الطبقات وكل الناس ، ويسع وقت كل أحد ، وفي الوقت نفسه يحيط بكل ما ينبغي ، ومن ثَمَّ ندرك لم كانت بعض السور القصيرة تعدل ربع القرآن أو ثلثه أو نصفه .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المفصَّل
وتشمل سور :
الصف ، والجمعة ،
والمنافقون

كلمة في المجموعة الرابعة من قسم المفصل

في سورة الممتحنة رأينا أن الأصل في العلاقة بين أولياء الله وأعداء الله العداء ، وتأتي بعد ذلك سورة الصف لتحدّثنا عن الجهاد والقتال في سبيل الله ، وهو مظهر تبلور العداء إلى عمل إيجابي ، وتأتي سورة الجمعة لتقيم الحجة على اليهود الذين هم عقدة العقد في مواجهة الإسلام ، فسورة الصف تفتح الطريق أمام المقارعة بالسنان ، وسورة الجمعة تفتح الطريق أمام المقارعة بالبيان . وتأتي سورة المنافقون بعد ذلك لترينا نماذج لأناس لا يتحوّل الإيمان عندهم إلى شيء إيجابي ، ضدّ الكفر بل العكس من ذلك هم أداة تعويق وإرباك .

....

سورة الصف تتحدّث عن مظهر من مظاهر الإيمان بالله ورسوله . وسورة الجمعة تتحدّث عن حكمة بعثة رسول الله ﷺ . وسورة المنافقون تحدّثنا عن طائفة لا تظهر فيهم مظاهر الإيمان ، ولا يحققون الحكمة من بعثة رسول الله ﷺ .

....

وسورة الصف تأمر بالجهاد ، وسورة الجمعة تأمر بإقامة الجمعة ، وسورة المنافقون تأمر بالذكر والإنفاق ، فكل منها تؤدي دورها في بناء هذه الأمة . والسور الثلاث تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، فتعطينا مزيداً من التفصيل عما هو مستكنّ في هذه المقدمة ، أو مزيداً من التفصيلات عن الفئات الثلاث التي تحدثت عنها . وإذا كانت مجموعة سورة الحديد بلورت قضية الإيمان بالله والرسول ، ومجموعة سورة الحشر بلورت قضية تميّز الصف المؤمن بالله والرسول ، فإن هذه المجموعة تبيّن ما ينبغي أن ينبثق عن الإيمان بالله وبالرسول ، وتبيّن الحالة الرديّة المتردّية للمنافقين الذين بدلاً من أن يتحوّل الإيمان بالله والرسول عندهم إلى عمل فإنه يظهر بدعاوى وأكاذيب وفتن وتعويقات .

☆ ☆ ☆

سورة الصف

وهي السورة الحادية والستون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الأولى من قسم
المفصل ، وهي أربع عشرة آية
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة الصف :

قدّم الألوسي لتفسير هذه السورة بقوله : (وتسمى أيضاً سورة الحواريين ، وسورة عيسى عليه السلام ، وهي مدنية في قول الجمهور ، وروي ذلك عن ابن الزبير ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقال ابن يسار : مكية ، وروي ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد أيضاً ، والمختار الأول ، ويدل له ما أخرجه الحاكم . وغيره عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه فأنزل الله سبحانه : ﴿ **سبح لله ما في السمٰوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون** ﴾ قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ختمها ، وروي هذا الحديث مسلسلاً يقرأها علينا ، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ، وخلق كثير حتى قال الحافظ ابن حجر : إنه أصح مسلسل يروى في الدنيا إن وقع في المسلسلات مثله في مزيد علوه ، وكذا ما روي في سبب النزول عن الضحاك من أنه قول شباب من المسلمين : فعلنا في الغزو كذا ولم يفعلوا ، وما روي عن ابن زيد من أنه قول المنافقين للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك . وآيها أربع عشرة آية بلا خلاف ، ومناسبتها لما قبلها اشتمالها على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفي ذلك من تأكيد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء الذي تضمنه ما قبل ما فيه) .

ومن تقديم صاحب الظلال لهذه السورة نقتطف ما يلي : (هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح ، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين :

تستهدف أولاً أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة ، وسبقته صور منه تناسب أطواراً معينة في تاريخ البشرية ، وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات ، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد ، الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات ، وأن يظهره على الدين كله في الأرض .

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة ، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض ... يستتبع

شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعوراً يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله - كما أراد الله - وعدم التردد بين القول والفعل ، ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه ، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات) .

....

كلمة في سورة الصف ومحورها :

في مقدمة سورة البقرة كلام عن الاهتداء بكتاب الله من قِبَل المؤمنين بالغيب المقيمين للصلاة ، المنفقين في سبيل الله ، وكلام عن هؤلاء أنهم مفلحون ، وكلام عن الكافرين أن لهم عذاباً عظيماً ، وأن الله قد ختم على قلوبهم ، وكلام عن المنافقين ، وخسار تجارتهم ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ . وفي سورة الصف يدلنا الله عز وجل على التجارة الرابحة المنجية عنده ، وهي الإيمان بالله والرسول والجهاد ؛ مما يشير إلى أن الجهاد في سبيل الله هو أحد ما ينبغي الاهتداء به من كتاب الله ليحقق المسلم فلاحه وتقواه وتربح تجارته ، فالإيمان العملي ينبثق عنه جهاد للكافرين ، ومن ثَمَّ تبدأ السورة بالإنكار على من لا يتجاوز الإيمان عنده حدود الأقوال إلى الأفعال ، مبيّنة أن الفعل هو المظهر الصحيح للإيمان وبالخصوص الجهاد المنظّم في سبيل الله . ثم تذكر السورة مبررات هذا الجهاد من فسوق من فسق ، وجرأة من تجرّأ ، وظلم من ظلم ، وإرادة الله في نصرة دينه ، ثم تدعو السورة إلى الإيمان بالله والرسول والجهاد ، وإلى نصرة الله ورسوله ﷺ .

في مقدمة سورة البقرة كلام عن المتقين والكافرين والمنافقين ، وفي سورة الصف بيان لوجوب الصراع بين المتقين والكافرين ، وإنكار على من لا يتحوّل عنده الإيمان إلى جهاد ، وفي السورة تحديد لطريق الربح ، وبالتالي ففيها بيان لطريق الخسارة الذي يحمل لواءه المنافقون الذين لا يتحوّل الإيمان عندهم إلى شيء إيجابي ، والذين سنأخذ صورة مفصّلة عنهم في السورة الثالثة من هذه المجموعة .

تتألّف سورة الصف من مقدمة هي آية واحدة ، وثلاث فقرات ، كل فقرة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ... ﴾ ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وتتألف من آية واحدة هي الآية الأولى وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾

التفسير :

﴿ **سبّح لله** ﴾ أي : خضع منزهاً لله ﴿ **ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ على الإطلاق طوعاً أو كرهاً ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذي تخضع له الأشياء خضوع ذلّة ﴿ **الحكيم** ﴾ في فعله وشرعه وأمره وقدره .

كلمة في السياق :

الابتداء في السورة بهذه المقدمة إشعار بأن عليكم أن تخضعوا منزهين لله – عز وجل – فتعملوا ، وإشعار بأن ما في السورة من معان هي مجلى لعزة الله تعالى وحكمته .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (٢) إلى نهاية الآية (٩) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا

الله قلوبهم ، أي : خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق ، وقال ابن كثير : أي : فلما عدوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ قال النسفي : أي : لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق .

....

كلمة في السياق :

١ - ذكرنا من قبل أن السورة عندما تفصّل في محور فإنها تفصّل في هذا المحور وارتباطاته وامتدادات معانيه في سورة البقرة ، ويظهر هذا جلياً في سورة الصف فهي تفصّل في مقدّمة سورة البقرة ، وذلك هو محورها ، وتفصّل في ارتباطات المقدمة أي : في الآيات التي تليها مباشرة ، وتفصّل في امتدادات معاني المقدّمة في سورة البقرة ، ولذلك فهي تتعرض للقتال ، وتتعرّض لوجوب نصرة الله ، ولذلك صلته بالتقوى وبالإيمان وبالاهتداء بكتاب الله عز وجل ، وهي مواضيع رئيسية في مقدمة سورة البقرة ، لها امتدادات في سورة البقرة فعلينا ونحن نتحدّث عن سياق سورة الصف أن نتذكّر هذا كله .

٢ - وصف الله عز وجل بني إسرائيل في الآية السابقة بثلاثة أوصاف :

(أ) إيذاؤهم موسى عليه السلام مع علمهم أنه رسول الله ﷺ .

(ب) زيغ قلوبهم عن أمر الله عز وجل . (ج) فسوقهم عن أمر الله ، وضلالهم .

فإذا كانت الطبيعة البشرية فيها مثل هؤلاء فهذا يقتضي قتالاً ، ولذلك فقد شرع القتال في الإسلام ، وحقّت محبّة الله للمجاهدين في سبيله .

٣ - هناك صلة بين المعاني الثلاثة التي ذكرتها الآية : إيذاء موسى ، وزيغ القلوب ، والفسوق ، فالفسوق الكامل هو أثر عن زيغ القلوب ، وزيغ القلوب له علاقة بسوء الأدب مع الرسول .

٤ - هناك صلة بين قوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ وبين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد**

ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ وهذا يفيد أن بني إسرائيل قد توافرت فيهم هذه الخصال كاملة ، ومن ثَمَّ لا يهديهم الله عز وجل بهذا الدين ، ولهذا الدين .

٥ - في قوله تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ تفسير لقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ فالختم على القلوب سببه أعمال أهلها ، وزيغ قلوبهم وفسوقهم بنقض عهد الله ، وقطعهم ما أمر الله به أن يوصل ، وإفسادهم في الأرض . فالآية في محلها خدمت في تبيان حكمة تشريع الجهاد ، وخدمت في تحذير المسلمين أن يسيروا على طريقة بني إسرائيل ، وخدمت في تفصيل شيء من مقدمة سورة البقرة وفي ارتباطات المقدمة وامتدادات معانيها : لاحظ ما يلي :

أ - يقول الله عز وجل : ﴿ **والله يحب المتقين** ﴾ وقال ههنا في السورة : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ مما يفيد تلازم التقوى مع القتال في سبيل الله عز وجل ، فهذا مظهر من مظاهر التفصيل في مقدمة سورة البقرة وامتدادات معانيها .

ب - في مقدمة سورة البقرة كلام عن المتقين والكافرين والمنافقين ، وفي هذه السورة إنكار على نوع من المؤمنين كرهوا القتال عندما فرض عليهم ، وما ذلك إلا لمرض في قلوبهم ، كما قال تعالى في سورة القتال : ﴿ **رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ﴾ وتفسير المرض بالنفاق نصّت عليه مقدمة سورة البقرة ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً** ﴾ فأهل النفاق الذين يخالطون المؤمنين وهم في الظاهر منهم كانوا في الظاهر يتمنّون القتال ، وبعض أهل الإيمان كانوا يتمنّونه كذلك ، فلما فرض عليهم نكل أهل النفاق عنه ، وبناء على هذا نقول : إن الآيات تفهمنا أن الإيمان الحقيقي ينبثق عنه قول يطابق فعلاً ، وأن النفاق ينبثق عنه قول لا يطابق فعلاً ، وأن مما ينبثق عن الإيمان جهاد الكافرين ، ومن ثَمَّ فسورة الصف تعطينا تفصيلاً لقضايا مرتبطة بمقدمة سورة البقرة . قال ابن كثير : (وحمل الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا**

فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيَّدة ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ﴾ الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون** ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز جل دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون** ؟ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير) . فهذا دليل على صلة معاني سورة الصف بما جاء في مقدمة سورة البقرة ولنتابع عرض الفقرة الأولى من سورة الصف :

﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم** ﴾ دلّ ذلك على أن رسالة عيسى عليه السلام كانت إلى بني إسرائيل خاصة ، ونصوص الأناجيل الحالية مع كل ما طرأ عليها تذكر ذلك ، وتؤكده كما سنرى في الفوائد ﴿ **مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة** ﴾ وهذا كذلك موضوع مقرر ومذكور في الأناجيل الحالية على تحريفها ؛ ولذلك فالنصارى يعتمدون كتب العهد القديم على خلاف بينهم في بعض الأمور ، وإنما أذكر هذا لأن في دقة عرض القرآن لمثل هذه الأمور بمثل هذا البيان والإحاطة دليلاً على ربانية مصدره ﴿ **ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ أقول : وهذا كذلك لازالت نصوصه موجودة في الأناجيل الحالية على تحريفها لمن تأمّل أصولها المترجمة عنها ، أو رأى طبعاتها العربية الأولى ، وعرف شيئاً من معاني بعض الكلمات التي لم تترجم ، وقد نقلنا ذلك كله في كتابنا (الرسول ﷺ) في فصل البشارات ، ورأينا نموذجاً عنه في هذا التفسير أثناء الكلام عن سورة الأعراف ، ولنا في الفوائد عودة إليه ، قال النسفي في الآية : يعني أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر ﴿ **فلما جاءهم** ﴾ أي : عيسى أو محمد عليهما السلام ﴿ **بالبينات** ﴾ أي : بالمعجزات ﴿ **قالوا هذا سحر مبين** ﴾ أي : واضح ، فوجود أمثال هؤلاء مع رغبتهم في إنهاء الإسلام مبرر من مبررات مشروعية القتال .

﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام** ﴾ أي : لا أحد أظلم من هذا ، والمعنى : وأي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله ، كأن يقول : هذا سحر ، أو أن الله عز وجل لم يأمر بهذا ، أو أن محمداً ليس رسول الله ﷺ ، أو غير ذلك من الافتراءات على الله ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ لأن سنته ألا يهدي من لا يستحق الهداية بسبب إجرامه ، وأمام مثل هذا الموقف الأظلم ، فإن القتال هو الحل ؛ كي لا نعطي للكفر وللظلم فرصة للظهور والعلو .

....

كلمة في السياق :

رأينا في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ وفي الآية الأخيرة عرفنا سبباً من أسباب ذلك الختم وهو افتراء الكذب على الله الذي هو أشد الظلم لدفع دعوة الإسلام ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

....

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ قال النسفي : هذا تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بتقوّلهم على القرآن ، مثّلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، قال ابن كثير : أي : يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذاك ذلك مستحيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله متمُّ نوره** ﴾ قال النسفي : أي : متم الحق ومبلغه غايته ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ ذلك ، وأمام إرادة الكافرين إطفاء نور الإسلام شرع الله القتال كحل وحيد على أننا لا نُكره أحداً على الدخول في الإسلام . أقول : وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الإسلام في عصرنا حيث يرون أن مراد دول الكفر وأممهم وأذنابهم في الداخل إطفاء نور الله ، ولكن حين يتعارض مرادان : مراد الله ، ومراد خلقه ، فإرادة الله هي النافذة ، وإرادة الله إتمام نوره على رغم الكافرين ، فالمستقبل إذن لهذا الدين . ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى** ﴾ أي : بالقرآن أو بالهداية الشاملة للإنسان

﴿ **ودين الحق** ﴾ أي : دين الله أو الإسلام ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ أي : ليعليه على الدين كله ، أي : على جميع الأديان المخالفة له ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ ومن ثَمَّ فلا بد من القتال لإعلاء دين الهدى والحق على الضلال والباطل لإرغام أنوف أهل الضلال والباطل على أننا لا نكره أحداً على الدخول في الإسلام ، وفي هذه الآية بشارة لهذه الأمة ، كما أن فيها تعليلاً لفرضية القتال وحضّاً وحثّاً ، وبهذه الآية انتهت الفقرة .

كلمة في السياق :

رأينا في الفقرة تعليلاً للأسباب التي لا يهدي الله عز وجل بسببها أهلها ، وفي ذلك تفصيل لبعض المعاني الواردة في مقدمة سورة البقرة عن الكافرين ، كما رأينا كلاماً عن أنواع من الكافرين : يهود ، ونصارى ، ومشركين ، وكافرين ، وفي ذلك نوع تفصيل لما ورد في مقدمة سورة البقرة عن الكافرين ، ورأينا في الفقرة مظهراً من مظاهر النفاق ، وفي ذلك نوع تفصيل لما ذكر في مقدمة سورة البقرة عن المنافقين ، ورأينا في الفقرة مظاهر تنبثق عن الإيمان الحق ، وكل ذلك نوع تفصيل لقضايا مرتبطة بما وصف الله عز وجل به المتقين في أول سورة البقرة ، فالفقرة خدمت مقدمة سورة البقرة ضمن سياقها الخاص الذي رأينا طرفاً من تسلسله والذي ملخصه ما يلي :

بدأت السورة بذكر خضوع الأشياء كلها لله ، وتنزيهها له ، ثم عاتبت المؤمنين على انفصال القول عندهم عن العمل ، لتصل إلى تقرير أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، ثم ذكرت معاني تعرف من خلالها حكمة القتال في سبيل الله ، وإذ تستقر هذه المعاني تأتيك فقرة تذكر طريق الفلاح عند الله وهو إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله ، ولذلك صلته بمقدمة سورة البقرة ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فالفلاح من جملة شروطه الجهاد ، إما لأنه الأثر الصحيح للإيمان بالغيب ، أو لأنه جزء من هدي هذا القرآن الذي يهتدي بهديه المتقون . فلنر الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وهي أربع آيات من الآية (١٠) إلى نهاية الآية (١٣) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ هذا يدل على أنه لا نجاة إلا بهذه التجارة ، قال ابن كثير : ثم فسّر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، والتي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ قال النسفي : (كأنهم قالوا كيف نعمل ؟ فقال تؤمنون ...) وهو بمعنى آمنوا وجاهدوا عند سيبويه ولهذا أجيب بقوله ﴿ **يغفر لكم** ﴾ أي : ولذلك جزم الجواب ، وإنما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ﴿ **ذلكم** ﴾ أي : ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ **خير لكم** ﴾ أي : من تجارة الدنيا والكدّ لها والتصدّي لها وحدها ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ أي : إن كان عندكم علم حقيقي ثم بين لم كان الإيمان بالله والرسول والجهاد خيراً لهم فقال : ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن** ﴾ أي : في جنات إقامة وخلود ، قال ابن كثير : (أي : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات ﴿ **ذلك الفوز العظيم** ﴾

أي : التجارة الرابحة ، والفلاح الكبير ﴿ **وأخرى تحبونها** ﴾ أي : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي : ﴿ **نصر من الله وفتح قريب** ﴾ أي : عاجل ، أي : ولكم إلى هذه المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ، ثمّ فسّرها بأنها النصر والفتح القريب ، قال ابن كثير : (فهي الزيادة وهي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر دينه) ولهذا قال تعالى : ﴿ **وبشّر المؤمنين** ﴾ أي : بشّرهم يا رسول الله بذلك .

كلمة في السياق :

١ – صلة هذه الفقرة بما قبلها واضحة ، فبعد أن قررت الفقرة السابقة ضرورة القتال في سبيل الله ، ومحبة الله لأهله ، تأتي هذه الفقرة لتهيّج على القتال ، وتبيّن ما أعد الله لأهله ، وما وعدهم به إذا آمنوا وجاهدوا .

٢ – جاء في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ وجاء في الفقرة الأولى من سورة الصف ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾ وجاء في الفقرة الثانية من سورة الصف ﴿ **هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ لاحظ كلمة العذاب الأليم المشتركة بين مقدمة سورة البقرة وهذه الآية ، مما يشير إلى أن الله عز وجل في سورة الصف يأمر عباده أوامر تمحّصهم للتقوى والجنة وتخلّصهم من أخلاق النفاق .

٣ – يلاحظ في مقدمة سورة البقرة أن الله عز وجل ختم الكلام عن المتقين بقوله : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وختم الكلام عن المنافقين قبل أن يضرب لهم المثلين بقوله : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ وفي هذه الفقرة من سورة الصف قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله ...** ﴾ فالفقرة إذن تفصّل في التجارة الرابحة .

٤ – يلاحظ أن هناك تشابهاً كبيراً بين الفقرة التي مرّت معنا من سورة الصف ، وبين آيات في سورة البقرة هي قوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وَلَمّا يأتكم مثل الذين خَلَوْا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول**

والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب * يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم * كُتِب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ لاحظ التشابه بين هذه الآيات من سورة البقرة وبين الآية التي مرّت معنا من سورة الصف :

أ ــ جاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ وفي فقرة الصف ورد قوله تعالى : ﴿ **نصر من الله وفتح قريب** ﴾ .

ب – في الآيات السابقة من سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** ﴾ وفي فقرة سورة الصف ورد قوله تعالى : ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ بعد الأمر بالجهاد .

ج – في الآيات السابقة من سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ وفي فقرة سورة الصف ورد قوله تعالى : ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ .

السر في هذا التشابه – والله أعلم – أن آيات سورة البقرة تلك هي امتداد لما جاء في مقدمة سورة البقرة ، فجاءت سورة الصف لتشدّ إلى مقدّمة سورة البقرة هذه المعاني ، وتفصّل في الجميع .

☆　☆　☆

الفقرة الثالثة والأخيرة

وهي آية واحدة هي الآية (١٤) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله** ﴾ أي : أنصار دينه ﴿ **كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله** ﴾ أي : من معيني في الدعوة إلى الله ، أو من جندي متجهاً إلى نصرة الله . قال النسفي : (أي : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : من أنصاري إلى الله) وقال ابن كثير : (يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ **من أنصاري إلى الله** ﴾) قال النسفي : ومعنى من أنصاري إلى الله أي : من الأنصار الذين يختصّون بي ، ويكونون معي في نصرة الله ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله** ﴾ قال ابن كثير : أي : نحن أنصارك على ما أرسلت به ، ومؤازروك على ذلك . قال النسفي : والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً وحواري الرجل صفيه وخالصته ﴿ **فآمنت طائفة من بني إسرائيل** ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ **وكفرت طائفة** ﴾ به ، قال ابن كثير : (أي : لمّا بلّغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوّته ورموه وأمه بالعظائم ...) ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم** ﴾ قال النسفي : فقوينا مؤمنيهم على كفارهم . أقول : يحتمل أن يكون التأييد بالخوارق ، فمن المعروف أن الحواريين قد أمدّوا بالكرامات وخوارق العادات ولم يدخلوا قتالاً . وذهب ابن جرير إلى رأي آخر ذكره ابن كثير ولم يذكر غيره وهو : أن التأييد للذين آمنوا من أصحاب عيسى كان ببعثة محمد ﷺ وسننقل كلامه بالفوائد ، وعلى هذا يكون بين النصرة وبين التبشير بإعلاء الإيمان مئات السنين ، وإني أستبعد هذا الرأي ؛ فالتأييد للحواريين كان بعد رفع عيسى عليه السلام ، وذلك كما قلنا بأنواع الكرامات الكثيرة ، فأصبحوا ظاهرين على غيرهم من بني إسرائيل في أنهم على الحق ، واستجاب لهم خلق كثير في كل مكان ، وههنا ظهرت ظاهرة بولس الانحرافية ، وبدأ الصراع بين الأطراف من جديد ، واستقر الأمر داخل الكنائس لصالح اتجاه بولس بدعم الدولة الرومانية بعد مئات السنين ، ثم

اختلفوا داخل هذا الاتجاه ، ولما بُعث رسول الله ﷺ لم يبق ممن على دين المسيح الصحيح إلا قليل ، يدل على ذلك قصة سلمان الفارسي كما نقلناها في كتابنا (الرسول ﷺ) ، ولا شك أن بعثة رسول الله ﷺ كانت تأييداً للمؤمنين الحقيقيين بعيسى عليه السلام ، إلا أن الآية تشير إلى التأييد الأول داخل بني إسرائيل ، حيث أيِّد الحواريون بالخوارق الكثيرة مما كان لهم به الغلبة على الكافرين بعيسى من بني إسرائيل ، وما يعتمده النصارى من كتب العهد الجديد ، يشير إلى مثل هذا ، وإن كان كل ما يُذكر في كتب العهد الجديد يمثّل مدرسة بولس المحرف لدين المسيح عليه السلام .

كلمة في السياق :

١ – بدأت السورة بتبيان ضرورة موافقة العمل للقول ، وتقرير أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، ثم ذكرت السورة مبررات القتال وأسبابه ، وبشّرت المؤمنين بالظهور ، ثم حضّت على الإيمان بالله والرسول والجهاد في سبيل الله ، مبيّنة ثواب ذلك ، ثم جاء وعد الله للمجاهدين المؤمنين بالنصر والفتح ، ثم جاءت الفقرة الأخيرة تحضّ على نصرة الله ، والتأسي بأصحاب عيسى في ذلك ، وبيان ما أعطى الله أصحاب عيسى من التأييد الذي أمر الله رسوله أن يبشّر به من جاهد ، والذي وعد الله به هذا الدين بقوله : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ ، ولم تزل هذه الأمة مؤيدة منصورة إذا جاهدت ، ولم يزل حملة دين الله وأنصاره يكرمهم الله عز وجل بأنواع التأييدات الربانية بالخوارق والكرامات ، وقبول القلوب لهديهم ، ومع صعوبة الظروف التي يعيشها المسلمون في عصرنا بسبب سيطرة الكفر وأهله على سياسة العالم ، فإن الإسلام يزحف وينتشر ، ومع أنه لا يقاتل اليوم إلا نادراً تحت راية (لا إله إلا الله) فإن التأييدات الربانية تظهر بمظاهر متعدّدة . وعندما يفيء المسلمون إلى دينهم ويبدأون عملية الجهاد شاملة ، فإن خارطة العالم كله ستتغير لصالحهم ، ذلك وعد الله الذي لا يتخلف .

٢ – في مقدمة سورة البقرة وصف للمتقين الذين من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب ، وفي الفقرة الأخيرة نداء لهؤلاء المؤمنين أن ينصروا الله عز وجل ، ووعد ضمني لهم بالتأييد من خلال الكلام عن أسوتهم في ذلك .

٣ – فصّلت سورة الصف في قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ من

مقدمة سورة البقرة ، وفصّلت في قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ وفصّلت في قوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وفصّلت فيما يقابل ذلك من أخلاق الكفر والنفاق ، وسنرى أن سورة الجمعة ستفصّل في مقدمة سورة البقرة ، ولكن في معان أخرى ، ولننقل الآن بعض الفوائد المتعلقة ببعض الآيات .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون** ﴾ قال ابن كثير : (إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به ، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، إذا اؤتمن خان » . وفي الحديث الآخر في الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصلة من نفاق حتى يدعها » فذكر منهن إخلاف الوعد ، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت : تمراً ، فقال : « أما إنك لو لم تفعلي كُتبت عليك كذبة » وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : تزوج ولك عليّ كل يوم كذا ، فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ؛ لأنه تعلّق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة ، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ قال ابن كثير : (فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون - في سبيل الله - من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان . روى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا

للقتال » ورواه ابن ماجه . وروى ابن أبي حاتم ... قال مطرف كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته فقلت : يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك فقد لقيت فهات فقلت كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثكم أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة ، قال : أجل فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذي يحبهم الله عز وجل ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقي العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ وذكر الحديث) .

....

وبمناسبة هذه الآية قال صاحب الظلال : (فليس مجرد القتال . ولكنه هو القتال في سبيله . والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال في ثبات وصمود ﴿ **صفّاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ .

فهو تكليف فردي في ذاته ، ولكنه فردي في صورة جماعية . في جماعة ذات نظام ؛ ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفاً . صفاً سوياً منتظماً ، وصفاً متيناً راسخاً ؛ ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة ، وأن ينشيء مجتمعاً متماسكاً . متناسقاً . فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده ، ويجاهد وحده ، ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته في حالة الجهاد ، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق ، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع : ﴿ **صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ ... بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك ، وتؤدي كل لبنة دورها ، وتسد ثغرتها ، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلّت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء . وإذا تخلّت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء ... إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة ارتباطات الأفراد في الجماعة . ارتباط الشعور ، وارتباط الحركة ، داخل النظام المرسوم ، المتجه إلى هدف مرسوم) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى على لسان المسيح : ﴿ **مبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ قال ابن كثير : (أي : وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد . فعيسى عليه السلام وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملإ بني إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين لا رسالة بعده ولا نبوة . وما أحسن ما أورد البخاري الذي روى ... عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لي أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس تحت قدمي ، وأنا العاقب » ورواه مسلم من حديث الزهري به نحوه .

وروى أبو داود الطيالسي عن أبي موسى قال : سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، والحاشر ، والمقفي ونبي الرحمة والتوبة والملحمة » ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه . وروى محمد ابن إسحاق ... عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال : « دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » وهذا إسناد جيد وروى له شواهد من وجوه أخر) .

أقول : إن الترجمات العربية الأولى للأناجيل كانت تتحدث عن (الفارقليط) وهي كلمة يونانية لم يترجمها المترجمون وقتذاك ، وقد تتبعها المسلمون فتبين لهم أنها تعني أحمد ، فلما انتشر ذلك ترجمها المترجمون في الطبقات اللاحقة باسم المعزي ، أو المخلص . قال الألوسي : (والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته صلى الله تعالى عليه وسلم من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحمّاد ، وبعضهم بالحامد فيكون في

مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد ، وفسره بعضهم بالمخلص لقول عيسى : فالله يرسل مخلصاً آخر فلا يكون ما ذكر بشارة به صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعنوان الحمد لكنه بشارة به ﷺ بعنوان التخليص فيستدل به على ثبوت رسالته ﷺ ، وإن لم يستدل به على ما في الآية هنا) .

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار قصة جرت له مع مستشرق إيطالي سمّاه في كتابه (قصص الأنبياء) وكيف أن المستشرق أقرّ له بأن كلمة الفارقليط مشتقة من الحمد ، وقد توسّعنا في هذا الموضوع في كتابنا (الرسول ﷺ) فليراجع .

قال صاحب الظلال : (وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .

وقد قرىء القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه : ﴿ **النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ ... وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة ، التي كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه !

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير) .

كلمة أخيرة في سورة الصف :

رأينا وحدة سياق سورة الصف ، كما رأينا صلة السورة بمحورها من سورة البقرة وكيف أن السورة شدّت إلى محورها آيات موجودة في أعماق سورة البقرة، وفصّلت في الجميع مما يشير إلى ارتباط وثيق بين معاني مقدمة سورة البقرة ومعاني تلك الآيات ، ممّا يؤكد أن السور التي تأتي بعد سورة البقرة تفصّل في محاور من سورة البقرة وفي ارتباطات هذه المحاور ، وامتدادات معانيها ، وقد رأينا هذا الموضوع من قبل وسنراه كثيراً ، وفي سورة الجمعة نموذج واضح على ذلك .

سورة الجمعة

وهـي الســورة الثانيـة والستــون بحسـب الرسـم القـرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الرابعة من قسم
المفصل ، وهـي إحدى عشـرة آيـة
وهـي مدنيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بين يدي سورة الجمعة :

قدّم الألوسي لسورة الجمعة بقوله : (مدنية كما روي عن ابن عباس ، وابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وإليه ذهب الجمهور ، وقال ابن يسار : هي مكية ، وحكي ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد ، والأول هو الصحيح لما في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة الحديث ، وإسلامه رضي الله تعالى عنه بعد الهجرة بمدة بالاتفاق ، ولأن أمر الانفضاض الذي تضمنه آخر السورة وكذا أمر اليهود المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ **قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم** ﴾ الخ – لم يكن إلا بالمدينة – وآيها إحدى عشرة آية بلا خلاف ، ووجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما ذكر فيما قبل حال موسى عليه السلام مع قومه وأذاهم له ناعياً عليهم ذلك ذكر في هذه السورة حال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفضل أمته تشريفاً لهم لينظر فضل ما بين الأمتين ، ولذا تعرض فيها لذكر اليهود ، وأيضاً لما حكى هناك قول عيسى عليه السلام : ﴿ **ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾ قال سبحانه هنا : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم** ﴾ إشارة إلى أنه الذي بشر به عيسى ، وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه (تجارة) ختم هذه بالأمر بالجمعة وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية . وأيضاً في كلتا السورتين إشارة إلى اصطفاف في عبادة ، أما في الأولى فظاهر ، وأما في هذه فلأن فيها الأمر بالجمعة ، وهي يشترط فيها الجماعة التي تستلزم الاصطفاف إلى غير ذلك ، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم – كما أخرج مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه عن ابن عباس – يقرأ في الجمعة بسورتها و ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ .

وأخرج ابن حبان ، والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة أنه قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ وكان يقرأ في صلاة العشاء الأخيرة ليلة الجمعة سورة الجمعة ، والمنافقون – وفي ذلك دلالة على مزيد شرف هذه السورة) .

ومن تقديم صاحب الظلال للسورة نقتطف ما يلي : (نزلت هذه السورة بعد سورة (الصف) السابقة . وهي تعالج الموضوع الذي عالجته سورة الصف ، ولكن من جانب آخر ، وبأسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة .

إنها تعالج أن تقر في أخلاد الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيراً لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ؛ وأن هذا فضل من الله عليها ؛ وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين – وهم العرب – منة كبرى تستحق الالتفات والشكر ، وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ؛ وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبتة ، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعد ما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ؛ وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفاراً، ولا وظيفة له في إدراكها ، ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين . من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص ، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة . ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة ، وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان .

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى ، في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوّقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح ، وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى ، والاستعداد النفسي لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله ﷺ يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ؛ فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به – على عادة الجاهلية – من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة ! وتركوا رسول الله ﷺ قائماً . فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات) .

كلمة في سورة الجمعة ومحورها :

١ – تبدأ سورة الجمعة بما بدأت به المسبّحات ، مع فارق أن فعل التسبيح فيها جاء بصيغة المضارع ، وأن اسمين آخرين للذات الإلهية قد ذكرا في الآية الأولى منها وهما

(الملك والقدوس) وبهذا يكون قد جاء في الآية الأولى منها أربعة أسماء لله عز وجل ، وهذا يشير إلى أن السورة مجلى لهذه الأسماء كلها .

٢ - بعد الآية الأولى من السورة يأتي قوله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته** ﴾ ويأتي في سياق السورة قوله تعالى : ﴿ **مثل الذين حُمّلوا التوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾ ثمّ يأتي في سياق السورة قوله تعالى : ﴿ **إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ ولذلك كله علاقته بمقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ...** ﴾ .

٣ - وسورة الجمعة تتحدّث عن بعثة الرسول ﷺ : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ ولذلك صلة بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة** ﴾ كما تتحدّث عن كراهية اليهود للموت : ﴿ **قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ... ولا يتمنونه أبداً بما قدّمت أيديهم** ﴾ ولهذا صلة بما جاء في سورة البقرة عن اليهود : ﴿ **ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم ... ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ...** ﴾ . وتعليل هذا أن من امتدادات معاني مقدمة سورة البقرة هذه الآيات ، فجاءت سورة الجمعة تفصّل في مقدمة سورة البقرة وامتدادات معانيها .

٤ - تتألف سورة الجمعة من مقدمة وثلاث فقرات واضحة التمايز ، واضحة الترابط ، أما المقدمة فآية واحدة ، وأما الفقرة الأولى فثلاث آيات ، وأما الفقرة الثانية فأربع آيات ، وأما الفقرة الثالثة فثلاث آيات ، ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

المقدمة والفقرة الأولى

وهما من الآية (١) إلى نهاية الآية (٤) وآياتهما هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

التفسير :

﴿ **يسبح لله ما في السموٰات وما في الأرض** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموٰات وما في الأرض ، أي : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها) قال النسفي : (هذا التسبيح إما أن يكون تسبيح خِلْقة ، يعني : إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الأشباه ، أو تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه في كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ أو تسبيح ضرورة بأن يُجري الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك) ﴿ **الملك** ﴾ أي : المالك للسموٰات والأرض ، المتصرف فيهما بحكمه ﴿ **القدوس** ﴾ أي : المنزّه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ **العزيز** ﴾ الذي لا يمانع ولا يغالب ﴿ **الحكيم** ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، ومعنى الآية : يسبّح لله الملك القدوس العزيز الحكيم ما في السموٰات وما في الأرض ، هذا الإله العظيم المتصف بالمالكية والقدوسية والعزة والحكمة ﴿ **هو الذي بعث في الأمّيين** ﴾ أي : العرب ﴿ **رسولاً منهم** ﴾ أي : من العرب الأميين ،

أي : من أنفسهم ، وسمّي العرب أميين لأنهم لم ينزل عليهم كتاب سابق . قال ابن كثير : (وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنّة عليهم أبلغ وأكثر) ﴿ **يتلو عليهم آياته** ﴾ أي : يقرأ عليهم القرآن ﴿ **ويزكّيهم** ﴾ أي : ويطهرهم من لوثات الشرك وخبائث الجاهلية وسيئات الأخلاق ﴿ **ويعلّمهم الكتاب والحكمة** ﴾ أي : القرآن والسنة ، وهذا يفيد أن تلاوة الآيات شيء وتعليمها شيء آخر ، وأن التزكية شيء زائد على مجرد التلاوة والتعلم ، فالرسول ﷺ يتلو ويعلم ويزكي ، فالتلاوة قراءة وعرض ، والتعليم معنى زائد يراد به تفهيم الكتاب والسنة ، والتزكية معنى زائد على كليهما ﴿ **وإن كانوا** ﴾ أي : وإن كان هؤلاء العرب ﴿ **من قبل** ﴾ أي : من قبل محمد ﷺ ﴿ **لفي ضلال مبين** ﴾ أي : في كفر وجهالة ، قال النسفي : أي :كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه ﴿ **وآخرين منهم** ﴾ أي : بعثه في آخرين من الأميين ﴿ **لما يلحقوا بهم** ﴾ قال النسفي : أي : لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم ، أو هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين ، والمعنى : أن الله بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي الأميين الذين سيأتون من بعدهم ، وهذا يفيد أن رسول الله ﷺ مبعوث إلى العرب إلى قيام الساعة ، وكما قال ابن كثير : وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ قال النسفي : أي : في تمكينه رجلاً أمّياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده له ، واختياره إياه من بين كافة البشر ﴿ **ذلك** ﴾ قال ابن كثير : يعني : ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خصّ به أمته من بعثه عليه الصلاة والسلام إليهم ، وقال النسفي : (أي : الفضل الذي أعطاه محمداً وهو أن يكون نبيّ أبناء عهده ، ونبي أبناء العصور الغوابر) أقول : والعصور البواقي ﴿ **فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ إعطاءه وتقتضيه حكمته ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ الذي عَمّ فضله الجميع وفاضل بهذا الفضل من شاء بما شاء .

كلمة في السياق :

١ - التقديم للسورة بذكر أسماء الله عز وجل الملك القدوس العزيز الحكيم وأن يعقب ذلك الحديث عن بعثة رسول الله ﷺ للأميين يفيد أن اختصاص الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ ، واختصاص العرب بهذا الفضل هو أثر مالكيته ، وأنه ليس في ذلك الاختيار نقص ، لأن الله عز وجل منزّه عن النقائص فهو القدوس ، وأن ذلك أثر عزته

ومظهر حكمته ، فمن اعترض على ذلك فإنه لا يعرف جلال الله . فلا يعترض على ذلك إلا جاهل .

٢ - يلاحظ أن سورة البقرة ذكرت في الآية (١٢٩) على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وأن سورة البقرة ذكرت في الآية (١٥١) قوله تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ وقد رأينا أثناء الكلام عن سورة الصف قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الحسن عندما قال أصحاب رسول الله ﷺ له : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » هذا كله يفيد المنّة ببعثة رسول الله ﷺ بما بعثه الله عز وجل به ، ومن ذلك تلاوة القرآن ، وتعليمه مع الحكمة ، وتزكية الأنفس على ذلك ، ولذلك صلته بمقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ .

٣ - إن ما ذكرناه في النقطة السابقة فيه نموذج على ما ذكرناه من قبل من كون الفقرة السابقة تعرضت لموضوع في أعماق سورة البقرة ، فعرضته في سورة تفصّل في مقدمة سورة البقرة للإشارة إلى أن هذا الموضوع مشدود بسبب إلى تلك المقدمة .

٤ - وبعد أن ذكر الله عز وجل في الفقرة السابقة ما ذكر من بعثة رسول الله ﷺ للأميين ليعلمهم الكتاب والسنة ويزكيهم ، تأتي فقرة تحدّثنا عن تقصير بني إسرائيل في حملهم الكتاب الذي أنزل عليهم ، وفي ذلك درس للعرب ألا يكونوا مثلهم ، كما تتحدث عن دعاوى بني إسرائيل مع الله ، وتفنيدها ، وفي ذلك درس للمدعين من هذه الأمة الذين لا يحملون القرآن حق الحمل ، ويزعمون أنهم من الله عز وجل في المقام الأعلى ، فلنر الفقرة الثانية بعد أن عرضنا صلتها بما قبلها .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٨) وهذه هي :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها** ﴾ قال النسفي : (أي مثل الذين كلّفوا علمها والعمل بما فيها ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها) ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾ السفر : هو الكتاب الكبير ، قال ابن كثير : (يقول تعالى ذاماً اليهود الذين أُعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها ، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، أي : كمثل الحمار إذا حمِّل كتباً لا يدري ما فيها ، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه ، حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه ، فهم أسوأ حالاً من الحمير ؛ لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها) . وقال النسفي : (شبه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها ، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به فلم يؤمنوا به - بالحمار حمل كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهو مثله) . ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا**

بآيات الله ﴾ وهم اليهود ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ بسبب اختيارهم الظلم ، دلّ هذا على أن عدم حمل التوراة حق الحمل تكذيب بها ، وظلم يستحق به صاحبه الإضلال ، وفي ذلك درس لهذه الأمة التي حملت القرآن ألا تكون كتلك الأمة المكذبة الظالمة ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يخاطب اليهود خطاباً ، ويتحدّاهم تحدّياً ، ويذكر حقيقتهم ويؤنّبهم في موضوع يدلّ على أن اليهود مع حملهم السيء للتوراة كانوا يدّعون الدعاوى العريضة مع الله عز وجل ، كحال كثير من هذه الأمة الآن ، لا يعرفون القرآن أصلاً ، ويحاربونه عملياً ، ويزعمون أنهم من الله في المقام الأعلى فلنر الخطاب : ﴿ **قل يا أيها الذين هادوا** ﴾ أي : يا أيها المتهوّدون ، أي : يا أيها اليهود ﴿ **إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾ قال النسفي : أي : إن كان قولكم حقاً وكنتم على ثقة من كلامكم فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه ، أقول : دلّ ذلك على أن ميزان الولاية لله استعداد الإنسان للقاء الله ، وقد نهى رسول الله ﷺ هذه الأمة أن تتمنى الموت ، ومن ثَمَّ قلنا إن ميزان ولاية الله أن يكون عند ولي الله استعداد للقاء الله ، فهو في كل لحظة على استعداد لهذا اللقاء ، ولما كان اليهود أبعد الناس عن هذه الولاية بسبب معرفتهم اليقينية أنهم ليسوا كذلك ، ولعلم الله المحيط بهم ، قال تعالى : ﴿ **ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم** ﴾ أي : بسبب ما قدموا من الكفر والظلم والفجور ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ ولعلمه بهؤلاء اليهود أخبر تعالى عن حالهم هذا ، وفي ذلك معجزة لهذا القرآن ، إذ يخبر عن أمر يتصل بموقف شعب كامل في أمر مستقبل ، ثم لا تجد فرداً من أفراد هذا الشعب يخرج عن هذا الإخبار . ولكن هل هذا الإخبار عمن كان يواجههم رسول الله ﷺ فقط ، فالمعجزة في رفضهم وحدهم ، أم أن هذا الإخبار عنهم قائم إلى قيام الساعة ؟ ظاهر كلام المفسرين الأول ، فهي معجزة لرسول الله ﷺ في عصره . ثم قال تعالى مؤنباً لهم على فرارهم من الموت ، وإنذاراً لهم بالموت كي يرجعوا عما هم فيه من الضلال : ﴿ **قل إن الموت الذي تفرون منه** ﴾ ولا تجسرون أن تتمنّوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿ **فإنه ملاقيكم** ﴾ لا محالة ﴿ **ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب .

كلمة في السياق :

١ - جاءت هذه الفقرة بعد الفقرة التي ذكر الله عز وجل فيها بعثة رسول الله

ﷺ ، فكانت هذه الفقرة بعد تلك تأنيباً ودعوة لليهود ، ودرساً لهذه الأمة ألا يكون حملها لكتابها كحمل اليهود ، وألا يكون لها دعاوى كاذبة ، وأن تكون مستعدة للقاء الله عز وجل .

٢ - حدّد الله عز وجل في أول سورة البقرة صفات المتقين التي من جملتها ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ وحصر الفلاح والهداية فيهم فقال : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ بينما اليهود يدّعون أنّهم هم أولياء الله عز وجل ، وقد نقض الله زعمهم ذلك بتحدّيهم ، وفي ذلك إثبات أن ولايته عز وجل محصورة بهذه الأمة .

٣ - في مقدمة سورة البقرة كلام عن الكافرين الذين ختم الله على قلوبهم ، وفي الفقرة التي مَرّت معنا قال الله عز وجل : ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ بعد أن ذكر أوصاف هؤلاء الظالمين فعلمنا بذلك بعض هؤلاء الذين يستحقون الختم على قلوبهم بسبب أعمالهم .

٤ - في مقدمة سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ وفي الفقرة التي مرت معنا درس لأهل الإيمان في ألا يكون حملهم لكتاب الله كحمل اليهود للتوراة ، ومن ثَمَّ ورد قوله تعالى : ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله** ﴾ .

٥ - يلاحظ أنه قد ورد في سورة البقرة في الآيات (٩٤ - ٩٦) ما يلي : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر والله بصير بما تعملون** ﴾ وهو نفس المعنى الذي تعرضت له سورة الجمعة ، مما يشير إلى أن هذا المعنى في سورة البقرة مشدود إلى مقدمتها بصلة .

٦ - وبعد الدرس الذي أعطاه الله عز وجل للمؤمنين في الفقرة الثانية يتجه الآن الخطاب في الفقرة الثالثة إلى المؤمنين في موضوع هو من أخطر المواضيع الحسّاسة في حياة الأمة الإسلامية ، وهو صلاة الجمعة ، يأتي هذا بعد أن رفع الله عز وجل الاستعداد للتلقي عند المسلم إلى أعلاه بهذا المثل الذي ضربه الله عن اليهود في حملهم السيء للتوراة ، فلنر الفقرة الثالثة .

الفقرة الثالثة

وتمتد من الآية (٩) إلى نهاية السورة ، أي : إلى نهاية الآية (١١) وهذه هي :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي** ﴾ بالأذان ﴿ **للصلاة من يوم الجمعة** ﴾ قال ابن كثير : (إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه ، في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار ... وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة أي : في وقت الظهر بعد الزوال) ﴿ **فاسعوا** ﴾ أي : فامضوا ، قال الفراء : السعي والمضي والذهاب واحد ، وليس المراد به السرعة في المشي . قال ابن كثير : أي : اقصدوا واعمدوا واهتمّوا في سيركم إليها وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع ، وإنما هو الاهتمام بها (أي : بالصلاة) قال قتادة : يعني أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها (أي : إلى الصلاة) وقال النسفي في قوله تعالى : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ أي : امضوا إلى الخطبة عند الجمهور ، وبه استدل أبو حنيفة رضي الله عنه على أن الخطيب إذا اقتصر على الحمد لله جاز ﴿ **وذروا البيع** ﴾ قال ابن كثير : أي : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ؛ ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة ، كما هو مقرر في موضعه ، وقال النسفي في قوله تعالى : ﴿ **وذروا**

البيع ﴾ : (أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا ، وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال ؛ فقيل لهم بادروا تجارة الآخرة ، واتركوا تجارة الدنيا ، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ، وذروا البيع الذي نفعه يسير) ﴿ **ذلكم** ﴾ أي : السعي إلى ذكر الله ﴿ **خير لكم** ﴾ من البيع والشراء ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ إن كان عندكم علم حقيقي . قال ابن كثير : أي : ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم ، أي : في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون ﴿ **فإذا قضيت الصلاة** ﴾ أي : فإذا أُديت الصلاة ، أي : فإذا فُرغ منها ﴿ **فانتشروا في الأرض** ﴾ قال النسفي : أمر إباحة ﴿ **وابتغوا من فضل الله** ﴾ قال النسفي : (المراد بذلك الرزق ، أو طلب العلم ، أو عيادة المريض ، أو زيارة أخ في الله) . قال ابن كثير : لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء ، وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ﴿ **واذكروا الله كثيراً** ﴾ قال النسفي : أي : واشكروه على ما وفقكم لأداء فرضه ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أي : لتفلحوا في دنياكم وأخراكم ، قال ابن كثير في تفسير الأمر بالذكر في هذا المقام : أي : في حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكراً كثيراً ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها** ﴾ خصّ التجارة بالذكر لأنها كانت أهمّ عندهم ﴿ **وتركوك قائماً** ﴾ أي : على المنبر تخطب ، والآية تعاتب على حادثة وقعت ثم لم يعد المسلمون إلى ذلك بعد هذا الدرس ﴿ **قل ما عند الله** ﴾ من الثواب ﴿ **خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين** ﴾ أي : لمن توكّل عليه وطلب الرزق في وقته . وقال النسفي : أي : لا يفوتهم رزق الله بترك البيع فهو خير الرازقين ، وهذه الآية عتاب لمن فعل ذلك من أصحاب رسول الله ﷺ ، وتحذير لكل من يفضّل لهواً أو تجارة أو عملاً على الاستماع لخطبة الجمعة ، ووعد لكل من يفضّل خطبة الجمعة على أي : شيء آخر بالأجر والرزق والتعويض .

كلمة في السياق :

١ - قدّم الله عز وجل للأمر بصلاة الجمعة بشيئين : أولاً : تبيان ما بعث به الرسول ﷺ ، وصلاة الجمعة شرعت لإحيائه والتذكير به ، والحث عليه . ثانياً : موقف بني إسرائيل من التوراة ، وصلاة الجمعة شرعت لتبعد المسلمين عن الإهمال لأمر

الله ، فالصّلات بين فقرات السورة قائمة .

٢ - إن ذكر تشريع الجمعة وبعض ما يتعلق بها في سياق سورة الجمعة يعطينا دلالات معينة منها : أن صلاة الجمعة وخطبتها ينبغي أن تحقّق ما بعث من أجله محمد ﷺ ، وأن تجنّب هذه الأمة ما وقعت فيه بنو إسرائيل ، وفي ذلك درس لخطيب الجمعة وللمستمع ، هذا وقد ذكر في الفقرة الأخيرة كل ما ينهض على أداء الجمعة ، ويبعد عن إهمالها ، كما ذكر مقدمة لذلك كل ما يبعث عليها ، وفي ذلك درس من دروس هذا القرآن إذ يجعل التكليف في إطار يحمل على غاية الالتزام .

٣ - رأينا صلة الفقرتين الأوليين بمقدمة سورة البقرة ، وأما صلة الفقرة الأخيرة فمن حيث إن مقدمة سورة البقرة ذكرت أن من صفات المتقين ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ وإقامة صلاة الجمعة من أهم ما يدخل تحت قوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ وفي ذلك نوع تفصيل لما يدخل تحت إقامة الصلاة من مقدمة سورة البقرة .

٤ - نلاحظ أن صفات المتقين في مقدمة سورة البقرة ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ ، ونلاحظ أن الله عز وجل قال في الفقرة الأخيرة : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ مما يشير إلى أن الفقرة الأخيرة تفصّل في طريق الفلاح الذي أجملته الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ، وهكذا رأينا صلة فقرات سورة الجمعة كلها بمحورها من سورة البقرة ، ورأينا كذلك وحدة سياق السورة ، وصلة فقراتها ببعضها ، ولعل القارىء لا يغيب عنه ذكر اسم الله الملك في ابتداء السورة ، وذكر قوله تعالى : ﴿ **والله خير الرازقين** ﴾ في آخرها مما يؤكد أن السورة مجلى لظهور أسماء الله التي وردت في أولها . ولنكتف الآن بهذا القدر عن سياق السورة ولنذكر بعض الفوائد المتعلقة ببعض آياتها .

الفـوائـد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم** ﴾ قال ابن كثير : (الأمّيّون هم العرب كما قال تعالى : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيّين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد** ﴾ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر كما قال تعالى

في قوله : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وكذا قال تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ وقوله : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن القرآن : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم ، وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى – وله الحمد والمنة – على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، أي : نزراً يسيراً ممن بقي على ما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ولهذا قال تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ وذلك لأن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ، فبدّلوه وغيّروه وقلّبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكّاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدّلوا كتبهم وحرّفوها وغيّروها ، وأوّلوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقرّبهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى – وله الحمد والمنة – جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين) .

وقال صاحب الظلال : (قيل إن العرب سُموا الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون – في الأعم الأغلب – وروي عن النبي ﷺ أنه قال : الشهر هكذا وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال : « إنا نحن أمة أمّية لا نحسب ولا نكتب » ... وقيل : إنما سُمي من لا يكتب أمياً لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

وربما سُموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم : إنهم « جوييم »

باللغة العبرية أي : أميون . نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! - والنسبة في العربية إلى المفرد ... أمة ... أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم . فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذلة . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أي : يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير) .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ يقع بعض المفسرين في خطأ هو أنهم يرجعون الضمير إلى غير الأميين الذين هم العرب ، وقد ضعّف النسفي هذا الاتجاه ، بينما لم يذكر ابن كثير غيره مع أن الظاهر أن الضمير يعود على العرب ، ومنشأ الغلط يعود إلى فهم خاطىء لحديث ، فلننقل هذا الحديث وتفسير ابن كثير للآية ثم نعلّق عليه ، قال ابن كثير : (روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء » ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق ... عن أبي هريرة به ، ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ، لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ **وآخرين منهم** ﴾ بفارس ، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل ، وإلى اتباع ما جاء به ، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ **وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم** ﴾ قال : هم الأعاجم ، وكل من صدّق النبي ﷺ من غير العرب . وروى ابن أبي حاتم عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » ثم قرأ : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ يعني : بقية من بقي من أمة محمد ﷺ) . أقول : إن الرسول ﷺ لم يفسّر بأن المراد بالآخرين هم فارس ، بل قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء » ولكون كلام الرسول ﷺ ورد في سياق السؤال عن هؤلاء الآخرين ، ظنّ الظانّون أن المراد بالآخرين فارس أو الأعاجم ، وعندي أن الأمر ليس كذلك ، فالآية

واضحة ولكن الرسول ﷺ أراد أن يلفت النظر إلى أن غير العرب كذلك سيكون لهم حظ أعلى من هذا الدين ، فذكر الفرس ، والآية كما فسرناها أقوى رد على من يزعم من العرب أن هذا الإسلام لجيل انتهى ، وأن هذا الجيل لا يخاطب به ، وأقوى دعوة لعرب اليوم من أجل أن يلحقوا بالسابقين من أسلافهم ، وأعظم حجة على أن العرب في كل الأجيال هم المخاطبون الأوائل بهذه الرسالة ، ومن ثَمَّ فعليهم بالدرجة الأولى تقع مسؤولية حملها ، ولهم حق القيادة إن قاموا بحقها ، ويشهد ذلك قوله تعالى من قبل : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ فالاستبدال يكون في حال التولي ، فمتى يعقل عرب اليوم هذا ؟ وقوله تعالى : ﴿ **لمّا يلحقوا بهم** ﴾ فيه إشارة إلى فضل السابقين ، ولذلك قال الألوسي بمناسبة هذه الآية : (وقد صرحوا أنه لا يبلغ تابعي - وإن جل قدراً - في الفضل مرتبة صحابي ، وإن لم يكن من كبار الصحابة، وقد سئل عبد الله بن المبارك عن معاوية ، وعمر بن عبد العزيز أيهما أفضل ؟ فقال : الغبار الذي دخل أنف فرس معاوية أفضل عند الله من مائة عمر بن عبد العزيز ؛ فقد صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقرأ : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ الخ فقال معاوية : آمين ، واستدل على عدم اللحوق بما صح من قوله عليه الصلاة والسلام فيهم : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » على القول بأن الخطاب لسائر الأمة ، وأما قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » فمبالغة في خيريّتهم كقول القائل في ثوب حسن البطانة : لا يدرى ظهارته خير أم بطانته) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكلّم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول له أنصت ليس له جمعة ») . أقول : إن هذا الحديث يدل على أن ذكر الجمعة والأمر به في سياق هذه السورة مرتبط بالمعاني التي تقدمته وسبقته فكانت مقدمة له .

٤ - بمناسبة الكلام عن اليهود وعدم تمنّيهم الموت في قوله تعالى : ﴿ **ولا يتمنونه أبداً** ... ﴾ قال ابن كثير : (وقد قدّمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس**

فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص النّاس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر والله بصير بما يعملون ﴾ ... وقد استوفينا الكلام هناك ، وبيّنا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران ﴿ **فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ ومباهلة المشركين في سورة مريم ﴿ **قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً** ﴾ وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه ، قال فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » ورواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم) .

٥ - يلاحظ أن الله عز وجل قال في سورة البقرة : ﴿ **ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم** ﴾ وقال ههنا : ﴿ **ولا يتمنونه أبداً** ﴾ هناك قال : ﴿ **ولن** ﴾ وهنا قال : ﴿ **ولا** ﴾ قال النسفي : (لا فرق بين لا ولن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فأتي مرة بلفظ التأكيد ﴿ **ولن يتمنوه** ﴾ ومرة بغير لفظه ﴿ **ولا يتمنونه** ﴾) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم** ﴾ قال ابن كثير : (وفي معجم الطبراني ... عن الحسن عن سمرة مرفوعاً : « مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بديْن ، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : يا ثعلب ديني فخرج له حُصَاص فلم يزل كذلك حتى تقطّعت عنقه ») .

٧ - بمناسبة الكلام عن الجمعة في السورة قال ابن كثير : (إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار ، وفيه كمل جميع الخلائق ؛ فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموٰات والأرض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، وفيه تقوم

الساعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح . وروى ابن أبي حاتم عن قرثع الضبي عن سلمان قال : قال أبو القاسم ﷺ : « يا سلمان ما يوم الجمعة ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « يوم الجمعة يوم جمع الله فيه أبواكم - أو أبوكم - » وقد روى عن أبي هريرة من كلامه نحو هذا فالله أعلم ، وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة ، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلّوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم ، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدىء فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة ، كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا به أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد » لفظ البخاري وفي لفظ لمسلم : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل يوم الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ؛ نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة ، المقضي بينهم قبل الخلائق » وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ قال ابن كثير : (المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يُفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذّن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان هذا لكثرة الناس كما رواه البخاري رحمه الله حيث روى عن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن ، وكثر الناس ، زاد النداء الثاني على الزوراء يعني يؤذن به على الدار التي تسمى الزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول أن النداء كان في الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام ثم تقام الصلاة ، وذلك النداء الذي يحرم عنده الشراء والبيع إذا نودي به ، فأمر عثمان رضي الله عنه أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس . وإنما يؤمر

بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقيِّم المريض ، وما أشبه ذلك من الأعذار كما هو مقرر في كتب الفروع) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ قال ابن كثير : (وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن** ﴾ وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها (فامضوا إلى ذكر الله) فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه لما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار ، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » لفظ البخاري وعن أبي قتادة قال : بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال فلما صلى قال : « ماشأنكم ؟ » قالوا : استعجلنا إلى الصلاة ، قال : « فلا تفعلوا : إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » أخرجاه . وروى عبد الرزاق ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، ولكن ائتوها وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » . رواه الترمذي ... عن أبي سلمة عن أبي هريرة بمثله . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة في قوله : ﴿ **فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ يعني : أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها وكان يتأول قوله تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السعي** ﴾ أي : المشي معه ، وروي عن محمد بن كعب وزيد ابن أسلم وغيرهما نحو ذلك) .

وبمناسبة هذا النص قال الألوسي : (إنما يجب إتيان الجمعة من مكان يسمع فيه النداء ، والمسألة خلافية فقال ابن عمر ، وأبو هريرة ، ويونس ، والزهري : يجب إتيانها من ستة أميال ، وقيل : من خمسة ، وقال ربيعة : من أربعة ، وروي ذلك عن الزهري ، وابن المنكدر ، وقال مالك ، والليث : من ثلاثة ، وفي بحر أبي حيان . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يجب الإتيان على من في المصر سمع النداء ، أو لم يسمع ، لا على من هو خارج المصر ، وإن سمع النداء ؛ وعن ابن عمر ، وابن المسيب ، والزهري ، وأحمد ، وإسحق على من سمع النداء ، وعن ربيعة على من إذا سمع وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة ، وكذا استدل بذلك من قال بوجوب الإتيان إليها ، سواء كان إذن عام

أم لا ، وسواء أقامها سلطان ، أو نائبه ، أو غيرهما أم لا ، لأنه تعالى إنما رتّب وجوب السعي على النداء مطلقاً كذا قيل ، وتحقيق الكلام على ذلك كله في كتب الفروع المطولة) .

وقال ابن كثير : (ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها لما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل » ولهما عن سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام . يغسل رأسه وجسده » رواه مسلم ، وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « على كل رجل مسلم في سبعة أيام غسل يوم وهو يوم الجمعة » رواه أحمد والنسائي وابن حبان . وروى الإمام أحمد عن أوس بن الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غسَّل واغتسل يوم الجمعة ، وبكّر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها » وهذا الحديث له طرق وألفاظ وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسّنه الترمذي ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قَرّب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة . فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » أخرجاه . ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ، ويتسوّك ويتنظف ويتطهر ، وفي حديث أبي سعيد المتقدم : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم والسواك ، وأن يمسّ من طيب أهله » وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومَسّ من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » وفي سنن أبي داود وابن ماجه عن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته » وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : « ما على أحدكم إن

وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته » رواه ابن ماجه) .

١٠ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا قُضِيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ قال ابن كثير : (كما كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ؛ فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبي حاتم . وروي عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرة لقول الله تعالى : ﴿ **فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ أي : في حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وإعطائكم ، اذكروا الله ذكراً كثيراً ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة ، ولهذا جاء في الحديث : « من دخل سوقاً من الأسواق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة » وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً) .

وبمناسبة الأمر بالانتشار في الأرض وابتغاء فضل الله قال الألوسي : (وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : لم يؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ في الله تعالى ، وأخرج نحوه ابن جرير عن أنس مرفوعاً ، والأمر للإباحة على الأصح ، فيباح بعد قضاء الصلاة الجلوس في المسجد ، ولا يجب الخروج ، وروي ذلك عن الضحاك ، ومجاهد . وحكى الكرماني في شرح البخاري الاتفاق على ذلك وفيه نظر ، فقد حكى السرخسي القول بأنه للوجوب ، وقيل : هو للندب ، وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه عن عبد الله بن بسر الحراني قال : رأيت عبد الله بن بسر المازني صاحب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا صلى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة ثم رجع إلى المسجد ، فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي ، فقيل له : لأي شيء تصنع هذا ؟ قال : إني رأيت سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا يصنع وتلا هذه الآية : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة** ﴾ الخ . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : إذا انصرفت يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم بالشيء وإن لم تشتره ، ونقل عنه القول بالندبية وهو الأقرب والأوفق) .

أقول : فهم بعضهم من الآية حرمة التعطيل يوم الجمعة ، وليس الأمر كذلك ؛ فقد رأينا أن هناك من فهم قوله تعالى : ﴿ **وابتغوا من فضل الله** ﴾ بأن المراد به طلب الفضل الأخروي بأن يعود الإنسان مريضاً ، أو يزور أخاً في الله ، وقد رأينا أن الأمر للإباحة على الأصح ، فإذا ما فرّغ المسلم يوم الجمعة لبعض الحاجات فذلك مباح له ، بل نرجو أن يكون مأجوراً في ذلك إن شاء الله .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضُّوا إليها وتركوك قائماً** ﴾ قال ابن كثير : (يعاتب الله تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً** ﴾ أي : على المنبر تخطب ، هكذا ذكره غير واحد من التابعين منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة ، وزعم مقاتل بن حيان : أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها ، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم ، وقد صح بذلك الخبر فقد روى الإمام أحمد عن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ورسول الله ﷺ يخطب ، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها** ﴾ أخرجاه في الصحيحين من حديث سالم به . وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر ابن عبد الله قال : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقدمت عير إلى المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً » ونزلت هذه الآية ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً** ﴾ وقال كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفي قوله تعالى : ﴿ **وتركوك قائماً** ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً . وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكّر الناس ، ولكن ههنا شيء ينبغي أن يُعلم وهو : أن هذه القصة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدّم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل) .

قال الألوسي - وهو حنفي - : (واستدل بما وقع في القصة على أقل العدد المعتبر في جماعة الجمعة بأنه اثنا عشر ، بناءً على ما في أكثر الروايات من أن الباقين بعد

الانفضاض كانوا كذلك ، ووجه الدلالة منه أن العدد المعتبر في الابتداء يعتبر في الدوام ، فلما لم تبطل الجمعة بانفضاض الزائد على اثني عشر دل على أن هذا العدد كاف ، وفيه أن ذلك كان دالاً على صحتها باثني عشر رجلاً بلا شبهة ، لكن ليس فيه دلالة على اشتراط اثني عشر ، وأنها لا تصح بأقل من هذا العدد ، فإن هذه واقعة عين أكثر ما فيها أنهم انفضوا وبقي اثنا عشر رجلاً وتمت بهم الجمعة ، وليس فيها أنه لو بقي أقل من هذا العدد لم تتم بهم ، وفيما يصنع الإمام إن اتفق تفرق الناس عنه في صلاة الجمعة خلاف : فعند أبي حنيفة إن بقي وحده ، أو مع أقل من ثلاثة رجال يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع ، وعند صاحبيه : إذا كَبّر وهم معه مضى فيها ، وعند زفر إذا نفروا قبل القعدة بطلت لأن العدد شرط ابتداءً فلا بد من دوامه كالوقت ، ولهما أنه شرط الانعقاد فلا يشترط دوامه كالخطبة ، وللإمام أن الانعقاد بالشروع في الصلاة ولا يتم ذلك إلا بتمام الركعة ، لأن ما دونها ليس بصلاة ، فلا بد من دوامه إلى ذلك بخلاف الخطبة ؛ لأنها تنافي الصلاة فلا يشترط دوامها) .

كلمة أخيرة في سورة الجمعة :

إن سورة الجمعة نموذج للسورة التي لها سياقها الخاص ، وهي تفصّل في محور سورة البقرة مع شدها لهذا المحور معاني مرتبطة به في أعماق سورة البقرة ، وكل ذلك فصّلناه من قبل ، وصلة بدايتها بنهاية سورة الصف واضحة : فسورة الصف تنتهي بالدعوة إلى نصرة الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله** ﴾ وتبدأ سورة الجمعة بالكلام عن بعثة رسول الله ﷺ ومضمونها ، وهو الشيء الذي ينبغي أن يُنصر ، وفي أثناء الكلام عن محور سورة المنافقون تفصيلات حول السورتين فلننتقل إلى الكلام عن سورة المنافقون .

☆ ☆ ☆

سورة المنافقون

وهـي الســورة الثالثـة والســتون بحسـب الرسـم القـرآني
وهي السورة الثالثة والأخيرة من المجموعة الرابعة
من قسم المفصل ، وهي إحدى عشرة آية
وهـي مدنيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة المنافقون :

قدّم الألوسي لسورة (المنافقون) بقوله : (مدنية وعدد آياتها إحدى عشرة آية بلا خلاف ، ووجه اتصالها أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم وهم المنافقون ، ولهذا أخرج سعيد بن منصور ، والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرِّض بها المؤمنين . وفي الثانية بسورة المنافقون فيقرع بها المنافقين ، وقال أبو حيان في ذلك : إنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً عن المنافقين واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة ، إذ كان الوقت وقت مجاعة جاء ذكر المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبع بقبائح أفعالهم وأقوالهم ، والأول أولى) .

ومن تقديم صاحب الظلال لهذه السورة : (وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين ، ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله ، والغفلة عن ذكره اشتغالاً بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات) .

وفي سبب نزول هذه السورة نذكر هذه الروايات نقلاً عن ابن كثير : (وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري وكان أجيراً لعمر بن الخطاب ، وسنان بن يزيد قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا فقال سنان : يا معشر الأنصار ، وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين ، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا ، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على مَنْ عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا

عنكم من بلادكم إلى غيرها ، فسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غليم عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخبره الخبر ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله مُرْ عباد بن بشر فليضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « فكيف إذا تحدّث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ، ولكن ناد يا عمر الرحيل » فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم ، وكان عند قومه بمكان ، فقالوا : يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل ، وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير رضي الله عنه فسلّم عليه بتحية النبوة ثم قال : والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها ، فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل » قال : فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل ، ثم قال : ارفق به يا رسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً ، فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا ، وصدر يومه حتى اشتد الضحى ، ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مَسّ الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقون .

وقد روى ابن أبي حاتم رحمه الله عن محمد بن مسلم أن عروة بن الزبير وعمرو ابن ثابت الأنصاري أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع ، وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر ، فبعث رسول الله خالد بن الوليد فكسر مناة ، فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك ، أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز ، وهم حلفاء الأنصار ، فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي ، فقال البهزي : يا معشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار وقال المهاجري : يا معشر المهاجرين ، فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ، ثم حجز بينهم فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا : قد كنت ترجى وتدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب - وكانوا يدعون كل حديث الهجرة الجلابيب - فقال عبد الله بن أبي عدو الله : والله لئن رجعنا

إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخشن – وكان من المنافقين – : ألم أقل لكم لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا ؟ فسمع بذلك عمر بن الخطاب ، فأقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه – يريد عمر عبد الله بن أبي – ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : « أوَ قاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟ » فقال عمر : نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ، ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ : « أوَ قاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟ » قال : نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه ، فقال رسول الله ﷺ : « اجلس » ثم قال رسول الله ﷺ : « آذنوا بالرحيل » فهجر الناس فسار يومه وليلته والغد حتى منع النهار ، ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاث سارها من قفا المشلل ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : « أي عمر أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟ » فقال عمر : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه ، فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً » وأنزل الله عز وجل ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة** ﴾ الآية وهذا سياق غريب وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه ، وروى محمد بن إسحاق بن يسار أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستلّ سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك فقال له : ما لك ويلك ؟ فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء رسول الله ﷺ – وكان إنما يسير ساقة – فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه فقال ابنه

عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن ، وروى أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل ، قال : وجاء النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك ، فإني أكره أن أرى قاتل أبي) .

كلمة في سورة المنافقون ومحورها :

تحدّثت مقدمة سورة البقرة عن المتقين والكافرين والمنافقين ، وقد فصّلت سورتا الصف والجمعة في مواضيع تتعلق بصفات المتقين والكافرين ، ورأينا في سورة الصف ما ينبغي أن ينبثق عن الإيمان ، ورأينا في سورة الجمعة الأصل الذي ينبثق عنه كل شيء ، وهو بعثة رسول الله ﷺ ، كما رأينا في سورة الجمعة شيئاً له علاقة بالصلاة ، وفي سورة الصف ذكر الجهاد بالمال ، وله صلة بالإنفاق ، وهذا كله له علاقة بصفات المتقين . وذكرت في السورتين قضايا مرتبطة بموضوع الكفر الذي لا يهدي الله أهله فذكر في سورة الصف قوله تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ وذكر فيها ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ وذكر في سورة الجمعة قوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ وفي ذلك كله تفصيل لسبب الختم الذي يختم به الله على قلوب الكافرين فلا يقبلون موعظة ، وفي ذلك تفصيل لما ورد في مقدمة سورة البقرة من كلام عن الكافرين ، ويأتي بعد ذلك في مقدمة سورة البقرة الكلام عن المنافقين ، والملاحظ أن سورة المنافقون تفصيل لبعض ما ورد عن المنافقين في سورة البقرة فمثلاً : في مقدمة سورة البقرة نجد قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ ونجد في الفقرة الأولى من سورة المنافقون قوله تعالى : ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ .

وفي مقدمة سورة البقرة نجد قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ **وإذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم** ﴾ والآية الأولى من سورة المنافقون تقول : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله** ... ﴾ .

وفي مقدمة سورة البقرة نجد قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ .

وسورة المنافقون تدل على الطريق الذي ينجي من الخسارة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ .

ومن هذه الموافقات ندرك أنّ سورة المنافقون تفصّل في مقدمة سورة البقرة بما يكمّل تفصيل سورتي الصف والجمعة ، ولتذكّر المحور الذي تفصّل فيه سورة المنافقون ، نذكر الآيات الواردة في المنافقين من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون * الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير** ﴾ . وتبيان كيفية التفصيل سنراه أثناء عرض السورة ، لكنّا هنا نسجّل ملحوظة هامة وهي :

بعد أن قررت آيات سورة البقرة حقيقة النفاق ذكرت لنا ثلاثة مواقف للمنافقين نتعرف عليهم من خلالها ، كل موقف مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **وإذا** ﴾ .

﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا ...** ﴾ .
﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا ...** ﴾ .
﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ...** ﴾ .

والملاحظ أن سورة المنافقون تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد**

إنك لرسول الله ... ﴾ . ثم بعد آيتين يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ...** ﴾ . ثم بعد هذه الآية مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ...** ﴾.

وهكذا نجد أن سورة المنافقون تزيدنا تفصيلاً عن المنافقين بما يشبه الاستمرار لما ورد في سورة البقرة في عرض مواقفهم للتعريف بهم . وتختم السورة بخطاب المؤمنين بمعانٍ هي في الواقع تحرير من أخلاق رئيسية للمنافقين كما سنرى .

....

تتألف سورة المنافقون من فقرتين : الفقرة الأولى منهما تمتد حتى نهاية الآية (٨) والفقرة الثانية تمتدّ حتى نهاية السورة فلنبدأ عرض السورة .

....

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) حتى نهاية الآية (٨) وهذه هي :

المجموعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

المجموعة الثانية

* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

المجموعة الثالثة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾

المجموعة الرابعة

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى :

﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله** ﴾ قال ابن كثير : أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك مدّعين أن شهادتهم اللسانية تواطىء

شهادة قلوبهم وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال : ﴿ **والله يعلم إنك لرسوله** ﴾ أي : إن الأمر كما يدل عليه قولهم ، ولكن الله الذي يعلم أنك رسوله يشهد أنهم كاذبون في ادّعاءاتهم ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ قال ابن كثير : أي : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، ولهذا كذّبهم بالنّسبة إلى اعتقادهم ﴿ **اتخذوا أيْمانهم جُنَّة** ﴾ قال النسفي : (أي : وقاية من السبي والقتل ، وفيه دليل على أن لفظة (أشهد) يمين ؛ لأنهم قالوا نشهد وسمّاها الله عز وجل يميناً) قال ابن كثير : أي : اتقوا الناس بالأيْمان الكاذبة ، والحلفان الآثمة ، ليصدّقوا فيما يقولون ، فاغترّ بهم من لا يعرف جلية الأمر ، فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون ، وصدّقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا الغرر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَصَدّوا عن سبيل الله** ﴾ بتظاهرهم بالإسلام ، وإبطانهم غيره ، فجرُّوا كثيراً من الناس وراءهم في الطرق المظلمة ، ولا يظهر هذا في عصر كما يظهر في عصرنا ، إذ نجد الملايين من المسلمين تترك سبيل الله وتسير وراء المنافقين الذي يحلفون أنهم مسلمون ، وهم في واقع الأمر كفار ، يريدون أن يحملوا الناس على ما هو كفر ، وجماهير المسلمين غافلة ، حتى أضحت حقائق الإسلام غريبة ، وأصبح الكفر وأفكاره ومبادؤه وما يقدم عليه كأنه مُسَلّمات ﴿ **إنهم** ﴾ أي : المنافقين ﴿ **ساء ما كانوا يعملون** ﴾ في نفاقهم وصدّهم الناس عن سبيل الله ﴿ **ذلك** ﴾ قال النسفي : إشارة إلى قوله : ﴿ **ساء ما كانوا يعملون** ﴾ أي : هذا هو الحكم على عملهم كله بالسوء ، أي : ذلك القول هو الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ، أو أن ذلك إشارة إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والتستُّر بالأيْمان ﴿ **بأنهم** ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ **آمنوا ثم كفروا** ﴾ أي : دخلوا في الإسلام بالنطق بالشهادتين ، ثم كفرت قلوبهم بعد ذلك ، ﴿ **فطُبع على قلوبهم** ﴾ أي : فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم ، ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ أي : لا يتدبّرون ، قال ابن كثير : أي : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي ، وسبب ذلك كله هو رجوعهم عن الإيمان إلى الكفر عقوبة لهم . قال ابن كثير : (أي : إنما قدّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبدالهم الضلالة بالهدى) .

كلمة في السياق :

عرَّفنا الله عز وجل في الفقرة السابقة على مظهر من مظاهر الطبيعة المنافقة ، وعلى حقيقة بواطنها ، وعلى الخطر الذي يهبُّ منها على الصف الإسلامي ، وعلى الدعوة إلى الله ، وعلى العقوبة التي يعاقبهم الله عز وجل بها ، وهي الطبع على قلوبهم ، فلنر صلة الفقرة بمحور السورة فلنتنبه جيداً :

١ - بدأ الكلام عن المنافقين في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ لاحظ كلمة (يكذبون) في المحور ثمّ لاحظ أنّه في المجموعة التي مرَّت معنا من السورة عرض الله عز وجل علينا أنهم كذلك يكذبون في ادعائهم أنهم مؤمنون برسول الله ﷺ مع حلفهم الأيمان على ذلك ، قال تعالى : ﴿ **والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ .

٢ - في مقدمة سورة البقرة وصف الله عز وجل المنافقين بقوله : ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون** ﴾ وفي المجموعة التي مرّت معنا أرانا الله عز وجل أنهم يكذبون حتى على رسول الله إذا لقوه ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ...** ﴾ .

٣ - في مقدمة سورة البقرة قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً** ﴾ أي : عندما دخلوا في الإسلام ﴿ **فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم** ﴾ فكفروا ﴿ **وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون** ﴾ لاحظ ﴿ **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** ﴾ ثم لاحظ أنه في المجموعة السابقة ورد قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ وهذا يفيد أنهم أصبحوا في غاية الكفر ، فكما ختم الله على قلوب الكافرين ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ طبع على قلوب المنافقين ﴿ **فطبع على قلوبهم** ﴾ من هذا كله ندرك صلة المجموعة بمحور السورة من سورة البقرة وهذا يوضح لنا أن التفصيل لأي محور فيه مزيد بيان وزيادة معان .

٤ - جاء في سورة البقرة حديث عن النفاق في بدايتها ثمّ جاءت ثلاث آيات

تتحدث عنهم فيما بعد وهي الايات (٢٠٤)، (٢٠٥)، (٢٠٦). ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام** * **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** * **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد** ﴾. لاحظ قوله تعالى: ﴿ **يعجبك قوله** ﴾ ثم لاحظ أن المجموعة القادمة من الفقرة الأولى في سورة المنافقين تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ مما يشير إلى أن المجموعة الثانية تفصّل في هذا، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الآيات الموجودة في أعماق سورة البقرة مشدودة إلى ما سبق ذكره عن المنافقين في مقدمة سورة البقرة، ومن كل ما مَرَّ ندرك أن لسورة المنافقون سياقها الخاص في تبيان ملامح المنافقين، ولها كذلك صلتها بمحورها من سورة البقرة والمعاني المرتبطة بهذا المحور من سورة البقرة كلها.

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى:

﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ قال النسفي: (والخطاب في ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم** ﴾ لرسول الله، أو لكل من يخاطب ﴿ **وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ كان ابن أبيّ رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً، وقوم من المنافقين في مثل صفته، فكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ فيستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم)، وقال ابن كثير: (أي: وكانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن) ﴿ **كأنهم خُشُب مُسَنَّدة** ﴾ أي: إلى حائط. قال النسفي: (شبهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المُسنَّدة إلى الحائط، لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع، أو لأنهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام) ﴿ **يحسبون كل صيحة عليهم** ﴾ قال ابن كثير: أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون - لجبنهم - أنه نازل بهم، وقال النسفي: (أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارّة لهم، لخيفتهم ورعبهم، يعني إذا نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة، ظنوه إيقاعاً بهم)

أقول : المنافق يظن أن كل حديث بين اثنين هو المقصود فيه ، ويظن أنّه هدف التآمر ، ومن ثَمَّ فإن أي حركة مهما كان نوعها يظنها موجهة ضدّه ﴿ **هم العدو** ﴾ قال النسفي : أي : هم الكاملون في العداوة ، لأن أعدى الأعداء العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدويّ ﴿ **فاحذرهم** ﴾ ولا تغتر بظاهرهم فإنهم لا يألون الإسلام وأهله خبالاً وغدراً إن استطاعوا ﴿ **قاتلهم الله** ﴾ قال النسفي : دعاء عليهم أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿ **أنّى يؤفكون** ﴾ أي : كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال ، وفي النص تعجيب من جهلهم وضلالتهم ، وعدولهم عن الحق وانصرافهم عنه .

كلمة في السياق :

في هذه المجموعة أعطانا الله عز وجل مزيداً من الإيضاحات عن الطبيعة المنافقة في كونها تحسن الكلام في الدنيا ، وفي كونها لا حياة فيها ، لأنه لا عمل صالحاً لها ، وفي كونها كثيرة الجبن شديدة الشك ، وفي كون المنافقين أشد الناس عداوة للإسلام وأهله ، وفي كونهم مصروفين صرفاً تاماً عن الخير ، فالمجموعة الثانية تزيدنا إبصاراً في شأن المنافقين ، ومن قبل رأينا صلة هذه المجموعة بقوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام** ﴾ وقد جاء في هذه المجموعة قوله تعالى : ﴿ **وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾ وورد ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾ وفي سورة البقرة إيضاح لكيفية ظهور عدائهم ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾ وفي هذه المجموعة أمر بالحذر منهم فلا يعطون فرصة ، وما أقل الحذر من المنافقين في عصرنا ، وما أكثر الذين يعطونهم فرصاً . ثمّ تأتي المجموعة الثالثة لتزيدنا بياناً في شأن المنافقين .

تفسير المجموعة الثالثة من الفقرة الأولى :

﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لَوَّوْا رؤوسهم** ﴾ أي : عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً ﴿ **ورأيتهم يصدّون** ﴾ أي : يعرضون ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ عن الاعتذار والاستغفار ، قال ابن كثير : أي : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك ، واحتقاراً لما قيل لهم ... ثم جازاهم الله على ذلك فقال : ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم** ﴾ أي : سواء عليهم

الاستغفار وعدمه ، لأنهم لا يلتفتون إليه ، ولا يعتدُّون به لكفرهم ، أو لأن الله لا يغفر لهم ﴿ **لن يغفر الله لهم** ﴾ أي : ما داموا على النفاق ﴿ **إن الله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ بسبب نقضهم لمواثيقهم مع الله ، وبسبب قطعهم لما أمر الله به أن يوصل ، وبسبب إفسادهم في الأرض ، وهي مظاهر الفسوق كما رأيناها في سورة البقرة .

كلمة في السياق :

زادتنا هذه المجموعة عن المنافقين وضوحاً فعرفنا من خلالها أنهم فاسقون ، أي : تظهر فيهم علامات الفسوق كلها كما عرضتها سورة البقرة ، كما عرفنا أنهم متّصفون بالكبر والصدود عن أي دعوة خيّرة لصالحهم الأخروي ، وعرّفنا الله عز وجل أنّه لا ينفعهم استغفار الآخرين لهم حتى ولو كان المستغفر لهم رسول الله ﷺ . وأما صلة المجموعة بمحور السورة من سورة البقرة ، فالملاحظ أن الآيات التي نقلناها من أعماق سورة البقرة تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾ وههنا ورد قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله** ... ﴾ والصلة بين الموقفين واضحة ، وكلها تعبِّر عن كبرهم ، وقد حدثنا الله عز وجل في سورة البقرة عن مظهر من مظاهر هذا الكبر ، وههنا يحدثنا عن مظهر آخر ، وهكذا نرى كيف أن سورة المنافقون تفصّل في محورها ، وفيما هو امتداد لمحورها في سورة البقرة بشكل دقيق واضح ، وبعد ذلك تأتي مجموعة رابعة تحدثنا عن نماذج من عداء المنافقين ، وعن كيدهم للإسلام وأهله ، فهي تكاد تكون تبياناً لقوله تعالى : ﴿ **هم العدو** ﴾ فيما مَرّ معنا من السورة وتبياناً لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾ فلنر المجموعة الرابعة ، مع ملاحظة أنها تعرض لنا نموذجين على عداء المنافقين ، وسنذكر ذلك في الفوائد .

تفسير المجموعة الرابعة من الفقرة الأولى :

النموذج الأول :

﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضّوا** ﴾ أي :

حتى يتفرقوا ﴿ **ولله خزائن السموٰات والأرض** ﴾ أي : وله الأرزاق والقسم فهو الرزاق لجميع خلقه ، أفلا يرزق المسلمين ﴿ **ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ أي : لا يعلمون الحقائق ، ومن ثَمَّ فهم يهذون بما يزيّن لهم الشيطان .

كلمة في السياق :

رأينا أن الله عز وجل وصف المنافقين بأنهم ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾ وقد رأينا في هذه الآية نموذجاً على عدائهم ، فلا تكاد تواتيهم فرصة إلا ويهتبلونها للكيد والضرر تحريشاً بالمسلمين وتحريضاً عليهم ، وهذا والسلطان ليس لهم ، فإذا كان السلطان لهم فكما قال الله تعالى : ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ...** ﴾ ، والملاحظ أن قولهم ﴿ **لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا** ﴾ داخل في قطع ما أمر الله به أن يوصل وهو إحدى صفات الفاسقين ، كما فصّلتها سورة البقرة ، والملاحظ أن ذكر الفاسقين قد ورد قبل الآية السابقة مباشرة ، وعلى هذا فالآية نموذج على تحقّق المنافقين بصفات الفاسقين كلها ، كما هي نموذج على عداء المنافقين للإسلام وأهله وذلك مما يوجب حذر المسلمين من المنافقين .

النموذج الثاني :

﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة** ﴾ قال هذا عبد الله بن أبي مقفلهم من غزوة بني المصطلق كما سنرى ﴿ **ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل** ﴾ يعنون بالأعز أنفسهم ، وبالأذل رسول الله ، قال تعالى : ﴿ **ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ أي : ولله الغلبة والقوة ، ولمن أعزّه الله وأيّده من رسوله ومن المؤمنين وهم الأخصاء بذلك ، كما أن الذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين ﴿ **ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ ومن ثَمَّ يقولون ما يقولون .

كلمة في السياق :

في هذه الآية نموذج آخر على كيد المنافقين وعدائهم ، فمتى وجدوا متنفّساً ، أو أحداً يسمع لهم يبدأون عملية التحريض ضد المسلمين مع السباب لهم ، هذا والسلطان ليس لهم ، فكيف إذا صار السلطان لهم ، ولذلك فإنّ على المسلمين أن يكونوا دائمي الحذر منهم ، وكما أن في الآية نموذجاً على عدائهم ، ففي الآية نموذج على نقضهم المواثيق ، أو قطعهم ما أمر الله به أن يوصل ، وعلى إفسادهم في الأرض ، ففي

الآية نموذج على موقف تظهر به صفات الفاسقين كلها دفعة واحدة . وبعد أن قصّ الله علينا نموذجين من مواقف المنافقين المعبّرة عن عدائهم ، والتي هي أثر عن فسوقهم ، تأتي الفقرة الثانية في السورة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وفيها تحرير للمؤمن من أخلاق المنافقين ، ودعوة له لمواقف مكافئة لمواقف المنافقين ، وفيها تعريض ضمني بأخلاق أخرى للمنافقين .



الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٩) إلى نهاية الآية (١١) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم** ﴾ أي : لا تشغلكم ﴿ **أموالكم** ﴾ والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها بالنماء وطلب النتاج ﴿ **ولا أولادكم** ﴾ وسروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والقيام بمؤنهم ﴿ **عن ذكر الله** ﴾ قال النسفي : أي : عن الصلوات الخمس أو القرآن . أقول : ذكر الله منه المفروض وهو كالصلوات الخمس ، ومنه المندوب كالسنن الرواتب وأذكارها ، وقراءة القرآن والاستغفار ، ولا شك أن النّهي أوّل ما ينصب على الانشغال عن الفرائض ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ أي : ينشغل بالدنيا عن ذكر الله ، قال النسفي : وقيل من يشتغل بتثمير أمواله عن تدبير أحواله ، وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾ قال النسفي : (أي : في تجارتهم حيث باعوا الباقي بالفاني) قال ابن كثير في الآية : يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبراً لهم بأنه من تلهّى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلق له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الآية ختمت بقوله تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك** ﴾ أي : يشتغل بالأموال والأولاد عن ذكر الله ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾ وأنه ورد في مقدمة سورة البقرة عن المنافقين قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ ويلاحظ أنه بعد آيات في سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ لاحظ كلمة (الخاسرون) هنا وفي الآية التي مَرَّت معنا من سورة المنافقون .

إذا لاحظت ما مَرّ تدرك أن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله هو من صفات المنافقين ، فالآية إذن تضيف صفة جديدة من صفات المنافقين إلى معلوماتنا ، وهذا يشبه قوله تعالى في سورة النساء في وصف المنافقين ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى** ﴾ ولكن الآية عرضت هذه الصفة من خلال أمر المؤمنين بعدم الانشغال عن الذكر ، مما يشير إلى أن الطريق الوحيد للخلاص من النفاق هو الإقبال على ذكر الله ، مضافاً إلى ذلك الإنفاق الذي تأمر به الآية اللاحقة :

﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾ يدخل في ذلك الواجب أولاً كالزكاة وصدقة الفطر والنفقة المفروضة ، ثم يدخل بعد ذلك المندوب ، و (من) في الآية للتبعيض ممّا يدل على أن الله لم يكلفنا مالنا كله ﴿ **من قبل أن يأتي أحدكم الموت** ﴾ قال النسفي : أي : من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما ييئس معه من الإمهال ، ويتعذّر عليه الإنفاق ﴿ **فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق** ﴾ أي : هلّا أخّرت موتي إلى زمان قليل فأتصدّق ﴿ **وأكن من الصالحين** ﴾ أي : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قال ابن كثير : فكل مفرّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات ، كان ما كان ، وأتى ما هو آت وكل بحسب تفريطه ... ثم قال تعالى : ﴿ **ولن يؤخّر الله نفساً** ﴾ عن الموت ﴿ **إذا جاء أجلها** ﴾ المكتوب في اللوح المحفوظ ، قال ابن كثير : أي : لا يُنظر أحداً بعد حلول أجله وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ، ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ قال النسفي : والمعنى : أنكم إذا علمتم أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه ، وأنه هاجم لا محالة ، وأن الله عليم

بأعمالكم ، فمجاز عليها من منع واجب وغيره ، لم يبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجب ، والاستعداد للقاء الله تعالى .

كلمة في السياق :

وصف الله المتقين في أول سورة البقرة بقوله : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وهذا يعني أن الكافرين والمنافقين لا ينفقون ، وهذا الذي صرَّح به القرآن في أكثر من مكان كقوله تعالى : ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ و ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ فعندما يأتي أمر للمؤمنين بالإنفاق في سورة (المنافقون) فذلك يفيد أن عدم الإنفاق من صفات المنافقين ، كما يفيد أن الإنفاق مع الذكر هو الطريق للخلاص من النفاق ، وعلى هذا فالفقرة الأخيرة زادتنا معرفة في أخلاق المنافقين ، ودلّتنا على طريق الخلاص من النفاق بما لا يخرج عن التحقق بصفات المتقين .

الفوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن المنافقين في سورة (المنافقون) ذكر ابن كثير هذا الحديث : (روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل صخب بالنهار) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضّوا ولله خزائن السموٰات والأرض** ﴾ قال صاحب الظلال رحمه الله : (وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم - لخسة مشاعرهم - يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسّهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضّوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين !

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه

تحت وطأة الضيق والجوع !

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله ، وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ، ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق .

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان ... ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكّرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية : ﴿ **ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى أبو عيسى الترمذي عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة ، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت فقال رجل : يا ابن عباس اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكافر ، فقال : سأتلوا عليك بذلك قرآناً ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدق وأكن من الصالحين** ﴾ إلى قوله ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير . وروى الترمذي أيضاً ... بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ بنحوه ثم قال : وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره عن أبي جناب عن الضحاك عن ابن عباس من قوله وهو أصح وضعف أبو جناب الكلبي . (قلت) ورواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع والله أعلم . وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له فيلحقه دعاؤهم في قبره ») .

كلمة أخيرة في سورة (المنافقون) ومجموعتها :

لن نضيف شيئاً إلى ما ذكرناه من قبل حول المجموعة الرابعة وسياقها سوى التذكير بإعطاء الذكر والإنفاق والجهاد في سبيل الله مكانهم الصحيح في هذا الدين ومن أنفسنا ، ونخصّ بالذكر صلاة الجمعة والصلوات المفروضة ، والزكاة وصدقة الفطر ، والعمل المتواصل بكل الوسائل المشروعة لجعل كلمة الله هي العليا . ونضيف أنه بقدر ما نزيد يزيد الله لنا ، وبقدر ما نقيم من فرائض ونوافل تتمحص قلوبنا للإيمان ، وتتحرر من الكفر والنفاق ، فلينتبه الغافلون عن الذكر إلى الذكر ، ولينبَّه الغافلون عن الإنفاق إلى الإنفاق ، ولينبه الغافلون عن الجهاد إلى الجهاد ، فإن ذلك هو طريق التحقق بالتقوى ، وإذ كان طريق التحقق بالتقوى في سورة البقرة جاء بعد مقدمتها فقد فصّلت السور الثلاث وهي تفصّل المقدمة بما يحقق بالتقوى ، وبما يبعد عن الكفر والنفاق ، ولننتقل إلى المجموعة الخامسة من قسم المفصّل وهي آخر مجموعة من زمرة المسبّحات .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة

من القسم الرابع من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المفصَّل
وتشمل سور :
التغابن ، والطلاق ، والتحريم ،
والملك ، والقلم

كلمة في المجموعة الخامسة من قسم المفصّل :

هذه المجموعة تفصّل بانتظام ما فصّلته سور خمس من قسم الطوال ، فسورة التغابن تفصّل في محور سورة آل عمران ، وسورة الطلاق تفصّل في محور سورة النساء حتى لتسمى سورة النساء الصغرى ، وسورة التحريم تفصّل في محور سورة المائدة ، وسورة الملك تفصّل في محور سورة الأنعام ، وسورة القلم تفصّل في محور سورة الأعراف ، وسنرى أدلة ذلك كله ، ولعل في هذا مقنعاً أن في هذا القرآن نوعاً من الترتيب خاصاً .

....

وبهذه المجموعة تنتهي زمرة المسبّحات ، فآخر سورة في المسبّحات هي سورة التغابن ، وعلى هذا فالمسبّحات وزّعت على أربع مجموعات ، كل منها أكملت الأخرى ، وجاءت المجموعة الأخيرة فأكملت البناء الذي أسست له المجموعات الثلاث من المسبّحات ، بل والمجموعة الأولى من قسم المفصّل ، إذ لا نجد سورة مبدوءة بـ (يا أيها) في كل ما مَرّ معنا من قسم المفصّل إلا في هذه المجموعة .

....

وهكذا نجد في قسم المفصّل تفصيلاً بعد تفصيل ، وفي كل مرة نجد تذكيراً ومعاني جديدة من خلال الكلمة المفردة والآية المفردة ، والمجموعة والفقرة والمقطع والسورة ، والسياق الخاص والعام ، بشكل لا تنتهي عجائبه ، ولا تنتهي فوائده ، وكل يأخذ من هذه البحار على قدر استعداده ، ومع هذا كله فإن لهذا القرآن خصائص غير هذه ، إنه كلام الله ومجلى صفاته ، ولذلك فقد وصف الله عز وجل هذا القرآن ببعض ما وصف به ذاته ، فوصفه بالعلو والحكمة فقال : ﴿ **وإنه في أمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ ومن أسماء الله العلي والحكيم ، ووصفه بالعزة فقال : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز** ﴾ والله عز وجل من أسمائه العزيز ، ومن عزة هذا القرآن أنه لا يصل إلى قلب قذر ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ ومن عزته أنه لا يبقى على إهمال ، يقول عليه الصلاة والسلام : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها » فكتاب هذا شأنه هل يمكن أن يتصور عاقل أنه بشريّ المصدر ، إن الذي يتصور أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ ، ومن إنشائه وتأليفه مع كون هذا القرآن هذا شأنه يعطي محمداً من الخصائص ما يستحيل أن تتجمع في كل البشر .

هل رأيتم في تاريخ العالم أن أحداً من البشر يخرج على يده شيء من أعظم الأشياء ثم لا ينسبه إلى نفسه ، إن هذا يتنافى مع الطبيعة البشرية أصلاً . فأن يقول محمد ﷺ نفسه عن هذا الكتاب أنه من عند الله ، وأنه ليس إلا ناقلاً عن الله عز وجل ، وأنه أول الملتزمين بذلك ، فهذا وحده كافٍ للتدليل على أن هذا القرآن من عند الله ، فكيف إذا كان في هذا القرآن من مجالي صفات الله وأسمائه ما يدل على أنه كتاب الله ، فكيف إذا كان مع ذلك غيره وغيره ؟ .

☆ ☆ ☆

سورة التغابن

وهي السورة الرابعة والستون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الخامسة من قسم
المفصل ، وهي ثماني عشرة آية
وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله وآلِه وأصحابِه

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بين يدي سورة التغابن :

قدّم الألوسي لسورة التغابن بقوله : (مدنية في قول الأكثرين ، وعن ابن عباس . وعطاء بن يسار أنها مكية إلا آيات من آخرها ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم** ﴾ الخ ، وعدد آياتها تسع عشرة آية بلا خلاف ، ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر هناك حال المنافقين وخاطب بعد المؤمنين ، وذكر جل وعلا هنا تقسيم الناس إلى مؤمن . وكافر ، وأيضاً في آخر تلك ﴿ **لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم** ﴾ وفي هذه ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ وهذه الجملة على ما قيل : كالتعليل لتلك ، وأيضاً في ذكر التغابن نوع حث على الإنفاق قبل الموت المأمور به فيما قبل ، واستنبط بعضهم عُمْرَ النبي ﷺ ثلاثاً وستين من قوله تعالى في تلك السورة ﴿ **ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها** ﴾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة) .

كلمة في سورة التغابن ومحورها :

قلنا من قبل : إن وجود الفعل سبّح يسبّح بعد انتهاء مجموعة ، علامة على بداية مجموعة جديدة تفصّل في أول سورة البقرة ، وهذه سورة التغابن جاءت بعد سورة (المنافقون) ، وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يسبّح لله ما في السمٰوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير** ﴾ وهذا أول شيء نستأنس به على أن سورة التغابن تفصّل في مقدمة سورة البقرة .

....

ويلاحظ أن سورة الحديد ركّزت على موضوع الإيمان بالله والرسول ، والخضوع للقرآن ، والإنفاق ، وفي سورة التغابن نجد قوله تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير** ﴾ ونجد ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً** ﴾ ونلاحظ أن سورة الحديد ورد فيها ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ وورد فيها قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ وأن سورة التغابن يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ وهذا ثاني شيء نستأنس به على أن سورة التغابن تفصّل في مقدمة سورة البقرة .

....

ويلاحظ أن سورة آل عمران التي فصّلت في مقدمة سورة البقرة قد ورد في أوائلها قوله تعالى : ﴿ **هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾ وأن سورة التغابن قد ورد في أوائلها قوله تعالى : ﴿ **خلق السمٰوات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صُوَرَكم** ﴾ ويلاحظ أنّه قد ورد في سورة آل عمران ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾ وأنه ورد في سورة التغابن قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ وقد اعتبر بعض العلماء أن هذه الآية مفسرة أو ناسخة لآية آل عمران ، وبهذا كذلك نستأنس على أن سورة التغابن تفصّل في محور آل عمران أي : في مقدمة سورة البقرة .

....

نلاحظ أن مقدمة سورة البقرة تحدثت عن المتقين والكافرين والمنافقين ، وأن سورة التغابن تحدّثت عن الكافرين والمؤمنين ، ولا ننسى أن النفاق مظهر من مظاهر الكفر ، وأن مما ختمت به آيات المتقين في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وأن سورة التغابن ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ مما يشير إلى أن الحديث في السورتين متحد المآل ، وهذا كذلك مما نستأنس به على أن سورة التغابن تفصّل في مقدمة سورة البقرة .

....

فإذا أضيف إلى هذا كله ، أن سورة (المنافقون) نهاية مجموعة ، وأن ما بعد سورة التغابن سورة الطلاق المبدوءة بـ (يا أيها) والتي تدل على أنها تفصّل فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، يتأكد لنا — نتيجة لهذا كله — أن سورة التغابن تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وسنرى أثناء عرض السورة أن المعاني نفسها تدلنا على ذلك .

....

تتألف سورة التغابن من فقرتين واضحتين : الأولى منهما تمتدّ حتى نهاية الآية (١٣) ، والثانية منهما تمتدّ حتى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (١٨) فلنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٣) وهذه هي :

المجموعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

المجموعة الثانية

فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا

يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

بين يدي الفقرة :

هذه الفقرة توصلنا إلى حقيقة الإيمان ، حتى إذا عرّفتنا على حقيقة الإيمان ومضمونه وما يستلزمه ، تأتي الفقرة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ لتوجّه أهل الإيمان إلى معان رئيسية يجب أن يتنبّهوا إليها وأن يطبقوها ، وأن يتحققوا بها . تتألف الفقرة الأولى من مجموعتين : مجموعة تقرّر وتناقش ، ومجموعة تأمر بناءً على ما سبق من تقرير وإقامة حجة .

ومن مجموع السورة نخرج بتفصيلات لها علاقة بالإيمان والتقوى ، وتفصيلات لما يتضمنه الإيمان ، من إيمان بالله ورسله ، واليوم الآخر والقدر ، وما يترتب على ذلك من سلوك كما تبيّن لنا بعض قواطع الطريق .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى

﴿ **يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض** ﴾ عبودية له ، وتنزيهاً له ، ودلالة عليه ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾ قال ابن كثير : (أي : هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدّره) وقدم الجار والمجرور على كلمتي الملك والحمد ليدل - بتقديمهما - على اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأن

الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدىء كل شيء والقائم به ، وكذا الحمد ؛ لأن أصول النعم وفروعها منه ، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء ، وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده . أهـ النسفي ، ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ قال ابن كثير : أي : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ قال ابن كثير : أي : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بدّ من وجود مؤمن وكافر ، قال النسفي : أي : فمنكم آت بالكفر وفاعل له ، ومنكم آت بالإيمان وفاعل له ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ قال ابن كثير : أي : وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتمّ الجزاء ، وقال النسفي : (أي : عالم وبصير بكفركم وإيمانكم ، اللذين هما من عملكم والمعنى : هو الذي تفضّل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم ، وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين ، فما بالكم تفرقتم أمماً ، فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، وقدّم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم ، وهو ردّ لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وقيل هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ، ومنكم مؤمن به) . والله بعملكم النابع عن كفركم أو إيمانكم بصير ﴿ **خلق السمٰوات والأرض بالحق** ﴾ قال ابن كثير : أي : بالعدل والحكمة ، وقال النسفي : أي : بالحكمة البالغة ﴿ **وصوّركم فأحسن صوركم** ﴾ قال ابن كثير : أي : أحسن أشكالكم ، وقال النسفي : (أي : جعلكم أحسن الحيوان كله وأبهاه ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب ، ولكن الحسن على طبقات ، فصورة الإنسان غير خارجة عن حد الحسن ، وقالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان) ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أي : المرجع والمآل فأحسنوا سرائركم كما أحسن صوركم ، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية ، ومكنونات الضمائر وما تظهره فقال : ﴿ **يعلم ما في السمٰوات والأرض ، ويعلم ما تسرّون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور** ﴾ قال النسفي : (نبّه بعلمه ما في السمٰوات والأرض ، ثم بعلمه بما يسره العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه بذات الصدور أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه فحقّه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه ، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد ، وكل ما ذكره بعد قوله : ﴿ **فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ في معنى الوعيد على الكفر

وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته) ﴿ **ألم يأتكم** ﴾ أيها البشر ﴿ **نبأ** ﴾ أي : خبر ﴿ **الذين كفروا من قبل** ﴾ يعني : أمثال قوم نوح وهود وصالح ولوط ﴿ **فذاقوا وبال أمرهم** ﴾ أي : في الدنيا ، أي : فذاقوا وبال تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حلّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي : في الدار الآخرة مضافاً إلى العذاب الدنيوي ﴿ **ذلك** ﴾ العذاب الذي أصابهم في الدنيا وما أعدّه لهم من العذاب في الآخرة ﴿ **بأنه** ﴾ أي : بأن الشأن والحديث ﴿ **كانت تأتيهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي : بالحجج والدلائل والبراهين والمعجزات ﴿ **فقالوا أبَشَر يهدوننا** ﴾ أي : استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر ، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ، قال النسفي : (أنكروا الرسالة للبشر ولم ينكروا العبادة للحجر) ﴿ **فكفروا** ﴾ بالرسل ﴿ **وتولّوا** ﴾ عن الإيمان ، قال ابن كثير : أي : كذّبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿ **واستغنى الله** ﴾ أي : عنهم ، قال النسفي : أطلق ليتناول كل شيء ومن جملته إيمانهم وطاعتهم ﴿ **والله غني** ﴾ عن خلقه ﴿ **حميد** ﴾ على صنعه ﴿ **زعم الذين كفروا** ﴾ الزعم : ادعاء العلم ﴿ **أن لن يبعثوا** ﴾ يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ **قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤُنّ بما عملتم** ﴾ أي : لتخبرن بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها ﴿ **وذلك** ﴾ البعث ، ﴿ **على الله يسير** ﴾ أي : بعثكم ومجازاتكم على الله سهل ، وبهذا انتهت المجموعة الأولى وهي كالأساس للمجموعة الثانية .

كلمة في السياق :

هذه المجموعة قرّرت أموراً وأقامت حججاً :

١ - تسبيح ما في السمٰوات والأرض لله . ٢ - مالكية الله عز وجل للأشياء كلها . ٣ - أن كل نعمة ظاهرة وباطنة هي من الله عز وجل ٤ - اتصاف الله عز وجل بالقدرة المطلقة . ٥ - انقسام البشر إلى قسمين كبيرين مؤمنين وكافرين ، وذلك من مظاهر اتصافه بكمال القدرة . ٦ - اتصاف الله عز وجل بصفة البصر التي تحيط بالظواهر والبواطن . ٧ - أن الله عز وجل هو وحده خالق السمٰوات والأرض ، وأن خلقه لهما كان لحكمة وليس عبثاً . ٨ - وأن تصويره البشر على ما هم عليه أثر حكمته . ٩ - وأن إلى الله المرجع . ١٠ - وأن علمه محيط بما في السمٰوات وما في الأرض وأنه يعلم ما يسرّه البشر وما يعلنونه ، وأنه عليم بما في الصدور . ١١ - وأنه

عذب الكافرين السابقين ؛ بسبب كفرهم برسل الله عز وجل ومعجزاتهم ؛ وبسبب استكبارهم أن يهديهم البشر ؛ وزعمهم أن الله لن يبعثهم وهذا يقتضي نفي الحكمة الإلهية .

هذه معان تعرضت لها المجموعة الأولى من السورة لتبني عليها المجموعة الثانية ، مطالبة البشر بأمور ، ومن ثَمَّ نرى المجموعة الثانية تبدأ بالأمر : ﴿ **فآمنوا** ﴾ فكأن المجموعة الثانية تقول بسبب ما مَرّ معكم من معان في المجموعة الأولى فافعلوا كذا وكذا ، وكل الأوامر اللاحقة تأتي بناءً على المعاني التي وردت في المجموعة الأولى ، فلنر المجموعة الثانية ولنعرضها على مطالب .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى

المطلب الأول :

﴿ **فآمنوا بالله ورسوله** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **والنور الذي أنزلنا** ﴾ قال النسفي : يعني : القرآن لأنه يبين حقيقة كل شيء ، فيهتدى به كما يهتدى بالنور ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أي : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية ؛ فليكن إيمانكم صحيحاً سليماً .

كلمة في السياق :

يأتي هذا الأمر بعد أن عرّفنا الله على ذاته وصفاته وأفعاله ، وبعد أن عرّفنا عاقبة الذين كذّبوا الرسل وكذّبوا ما جاءوا به ، ومن ثَمَّ فإن الأمر يأتي بناءً على ما مَرّ من معان في المجموعة الأولى .

المطلب الثاني :

﴿ **يوم يجمعكم** ﴾ أي : واذكروا يوم يجمعكم على أحد قولين للمفسرين في تقدير العامل في (يوم) وسنرى القول الثاني فيما بعد ﴿ **ليوم الجمع** ﴾ أي : الذي يُجمع فيه الأولون والآخرون ، قال ابن كثير : (وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة ، وذلك أن أهل الجنة يغبنون

أهل النار ، وكذا قال قتادة ومجاهد ، وقال مقاتل بن حيان لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار) ، وقال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ : (أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة أنهم قالوا : يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار ، فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما في التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد ، واختير للمبالغة ، وإلى هذا ذهب الواحدي . وقال غير واحد : أي : يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً ، بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، وبالعكس ، ففي الصحيح : « ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ؛ ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ؛ ليزداد حسرة » وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم يغبنون حقيقة السعداء ، بنزولهم في منازلهم من النار ، أو جعل ذلك تغابناً مبالغة على طريق المشاكلة ، فالتفاعل على هذا القول على ظاهره وهو حسن ، إلا أن التغابن فيه تغابن السعداء والأشقياء على التقابل ، والأحسن الإطلاق ، وتغابن السعداء على الزيادة ثبت في الصحاح ، واختار ذلك محيي السنة حيث قال : التغابن تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد بالمغبون مَنْ غبن في أهله ومنازله في الجنة ، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان) ، قال ابن كثير : (وقد فسّر ذلك (أي : التغابن) بقوله تعالى : ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير** ﴾) وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة .

كلمة في السياق :

أمر الله عز وجل في هذا المطلب بتذكّر يوم القيامة ، وما يكون فيه من تغابن حيث يغبن الكافرون المكذبون ، ويربح المؤمنون العاملون ، وفي تحديد صفات الرابحين والخاسرين أمْر بتلك الصفات ، وتنفير من هذه الصفات ، وهذا الأمر مبني على ما ورد في مقدمة السورة من معان ، أي : فبسبب من إنصاف الله بما ذكر ، وبسبب من المعاني التي ذكّرتم بها من انقسام البشر إلى كافر ومؤمن ؛ فتذكروا يوم القيامة وما يكون فيه ، وآمنوا واعملوا لتكونوا من الرابحين ، ولا تكونوا من الخاسرين .

المطلب الثالث :

﴿ **ما أصاب من مصيبة** ﴾ أي : شدّة ومرض وموت أهل وسجن وفقد مال إلى غير ذلك مما يقتضي هَمّاً ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أي : إلا بعلمه وتقديره ومشيئته . قال النسفي : كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ وإذن فلا هداية للقلب إلا بإيمان كامل بالله وصفاته وأفعاله ، والتسليم له جل جلاله ، وسنرى مجموع الأقوال في الآية في الفوائد ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ فآمنوا به وسلّموا له .

....

كلمة في السياق :

رأينا في المجموعة الأولى أن الله عز وجل ذكر مالكيته للأشياء ، وذكر علمه ، وذكر تقديره ، كما عرّفنا على ذاته جل جلاله وأفعاله ، وههنا عرّفنا على أن المصائب كلها منه ، وأن الإيمان الكامل بالله به هداية القلب ، فكأنه قال آمنوا بأن الخير والشر من الله ، واستسلموا لحكم الله ، فبذلك تنالون هداية الله بقلوبكم ، وتتخلصون من الكفر ، وكأن السياق أفاد : أيها البشر بسبب ما عرفتموه عن الله في المجموعة الأولى فعليكم أن تعرفوا أن المصائب من الله ، وأن عليكم أن تستسلموا لقضاء الله عز وجل ، وأن هذا هو طريق الهداية لقلوبكم .

المطلب الرابع :

﴿ **وأطيعوا الله** ﴾ بطاعة كتابه ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ بطاعة شخصه في حياته ، وطاعة سنته بعد وفاته ﴿ **فإن توليتم** ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿ **فإنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ أي : فعليه التبليغ وقد فعل .

كلمة في السياق :

في المجموعة الأولى عرّفنا الله عز وجل على ذاته ، ولفت نظرنا إلى مصير المكذّبين بالرسل ، وقد أمرنا في المطالب السابقة بالإيمان بالله والرسول والقرآن ، وتذكر اليوم الآخر ، والتسليم لقضائه ، وفي هذا المطلب أمرنا بالطاعة لله والرسول ، فبعد أن أمرنا بالإيمان بأركان الإيمان أمرنا بالطاعة لله والرسول .

المطلب الخامس :

﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ فليس غيره متصفاً بالألوهية ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ قال ابن كثير : فالأول (أي : قوله : لا إله إلا هو) خبر عن التوحيد ، ومعناه معنى الطلب ، أي : وحِّدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه .

كلمة في السياق :

بعد أن أمر الله عز وجل في المطالب السابقة بما أمر ، ذكّر بكونه هو وحده الإله ؛ ليبعث المؤمن على التنفيذ الخالص ، وذكّر بوجوب التوكل عليه وحده ؛ لكي لا يخشى المسلم من الالتزام ؛ ولكي يصبر على المصيبة ، وبهذا انتهت المجموعة الثانية بعد أن حددت للبشر ما ينبغي عليهم فعله ليكونوا من المؤمنين ، ولا يكونوا من الكافرين ، فالمجموعة الأولى ذكرت المعاني التي تعين على تحقيق مطالب المجموعة الثانية ، وبهذا اكتملت الفقرة الأولى من السورة ، وقد عرّفتنا على قضايا الإيمان والطريق إليه ، حتى إذا تبين الطريق وتبيّنت الأسس ولفت النظر إلى كل ما يحقق بهذا الإيمان ، وآن الأوان ليخاطب من بين البشر كلهم أهل الإيمان الذين ذكرهم الله في بداية السورة ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ تأتي الفقرة الثانية في السورة لتخاطب أهل الإيمان وحدهم ، بما ينبغي أن يحذروه من مطبات الطريق وعوائقه وما ينبغي أن يحققوه ويفعلوه .



الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (١٤) إلى نهاية الآية (١٨) أي : إلى نهاية السورة وهذه هي

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم مَنْ هو عدو للزوج والوالد ، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح ، قال مجاهد : يحمل الرجل (أي : ابنه وزوجه) على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل - مع حبه - إلا أن يطيعه ﴿ **فاحذروهم** ﴾ يعني على دينكم ، والضمير للأزواج والأولاد ، أي : فاحذروهم أن يقطعوكم عن السير ، أو يلفتوكم عن الآخرة ، أو يضلوكم عن الطريق ، أو يحبوكم في الدنيا ، أو ينزلوكم من المقام الأعلى إلى المقام الأدنى ، أو يثبّطوكم عن خير ، أو يوقعوكم في شر ، وقال النسفي : أي : لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدو فكونوا منهم على حذر ، ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ﴿ **وإن تعفوا** ﴾ قال النسفي : أي : عنهم إذا اطّلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿ **وتصفحوا** ﴾ أي : وتعرضوا عن التوبيخ ﴿ **وتغفروا** ﴾ أي : وتستروا ذنوبهم ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي : يغفر لكم ذنوبكم ، ويكفّر عنكم سيئاتكم ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أي : اختبار وابتلاء من الله

تعالى لخلقه ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، وقال النسفي : أي : بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما ﴿ **والله عنده أجر عظيم** ﴾ أي : في الآخرة ، قال النسفي : وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم ، ولم يدخل فيه (من) كما في العداوة لأن الكل لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب ، بينما يخلو بعضهم عن العداوة ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ أي : جهدكم ووسعكم وطاقتكم . قال النسفي : قيل هو تفسير لقوله : ﴿ **فاتقوا الله حق تقاته** ﴾ الواردة في آل عمران ، وقال ابن كثير : وقد قال بعض المفسرين كما رواه مالك عن زيد بن أسلم أن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران . أقول : واعتبارها مفسرة أولى ﴿ **واسمعوا** ﴾ أي : ما توعظون به ﴿ **وأطيعوا** ﴾ أي : فيما تؤمرون به وتنهون عنه ، قال ابن كثير : أي : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدّموا بين يدي الله ورسوله ، ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زجرتم ﴿ **وأنفقوا** ﴾ أي : في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿ **خيراً لأنفسكم** ﴾ أي : إنفاقاً خيراً لأنفسكم ، قال النسفي : وهو تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر ، وبيان أن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا . قال ابن كثير : أي : وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم ، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة ﴿ **ومن يوق شُحّ نفسه** ﴾ بأن لا يبخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ وحدهم ، دلّ ذلك على أنه لا فلاح إلا بالخروج من شحّ النفس ﴿ **إن تقرضوا الله** ﴾ قال النسفي : بنية وإخلاص ، وذكر القرض تلطف في الاستدعاء ﴿ **قرضاً حسناً يضاعفه لكم** ﴾ قال النسفي : (أي : يكتب لكم بالواحدة عشراً أو سبعمائة إلى ما شاء الله من الزيادة) وقال ابن كثير : أي : مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدّقتم من شيء فعليه جزاؤه ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أي : ويكفّر عنكم السيئات ﴿ **والله شكور** ﴾ أي : يقبل القليل ويعطي الجزيل ، قال ابن كثير : أي : يجزي على القليل بالكثير ﴿ **حليم** ﴾ قال ابن كثير : أي : يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلّات والخطايا والسيئات . وقال النسفي : أي : يقبل الجليل من ذنب البخيل ، أو يضعف الصدقة لدافعها ولا يعجل العقوبة لمانعها ﴿ **عالم الغيب** ﴾ أي : يعلم ما استتر من سرائر القلوب ، ومكنونات الغيوب ﴿ **والشهادة** ﴾ قال النسفي :

أي : ما انتشر من ظواهر الخطوب . أقول : ومرئيات العيون ﴿ **العزيز** ﴾ أي : المتّصف بالعزّة ﴿ **الحكيم** ﴾ المتصف بالحكمة .

كلمة في السياق :

١ - في الفقرة الأولى أوصل إلى حقيقة الإيمان ، ثم جاءت الفقرة الثانية لتحذر المؤمنين من فتنة الأولاد والأزواج ، ولتأمرهم بالتقوى والسمع والطاعة والإنفاق للوصول إلى الفلاح ، وختمت السورة بالتعريف على الله عز وجل ، كما بدأت ، وبهذا تمّت السورة .

٢ - فلنبحث عن صلة السورة بمحورها :

أ - ذكرت الآيات الأولى من سورة البقرة أن من صفات المتقين الاهتداء بكتاب الله ، وقد أمرت السورة بذلك ، وذكرت الآيات الأولى أن من صفات المتقين الإيمان بالغيب ، وقد فصّلت فيه السورة وأمرت به ، وذكرت موجباته ، وعدّدت بعض أركانه ، وذكرت الآيات الأولى من سورة البقرة أنّ من صفات المتقين الإنفاق ، والسورة أمرت به ، وكما تعرضت مقدمة سورة البقرة للكفر والإيمان فقد ذكرت السورة الكفر والإيمان قدراً وشرعاً ، وأنكرت على الكافرين كفرهم ، ودلّت على طريق الإيمان وموجباته .

ب - ذكرت مقدمة سورة البقرة المتقين وخصائصهم ، وجاءت سورة التغابن لتضع الأساس ، ثم لتبني عليه قضية الإيمان ، ثم لتأمر بعد ذلك بالتقوى عامة ، وتخصّ بعض جوانبها بالذكر .

٣ - خُتمت صفات المتقين في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وقد جاء ههنا قوله تعالى : ﴿ **ومن يوق شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ مما يشير إلى أن الشحّ عامل رئيسي في النكوص عن التقوى عامة ، وهذا يبرز محل الإنفاق في قضية التقوى ، قال عليه الصلاة والسلام : « والصدقة برهان » .

٤ - من كلّ ما مرّ ندرك أنّ سورة التغابن فصّلت في القضيتين الرئيسيتين اللتين تعرضت لهما مقدمة سورة البقرة : الكفر والإيمان ، بتبيان أن الله عز وجل خالقهما ، وبالدلالة على الطريق الشرعي للتحقق بالتقوى ، وللتخلص من الكفر . وستأتي بعد سورة التغابن سورة الطلاق لتفصّل فيما بعد مقدمة سورة البقرة ، أي : في محور سورة

النساء ، ولننقل بعض الفوائد المتعلقة ببعض آيات السورة .

الفوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ قال النسفي : (يهد قلبه للاسترجاع عند المصيبة حتى يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أو يشرحه للازدياد من الطاعة والخير ، أو يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعن مجاهد إن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، وإن ظُلم غفر) ، وقال ابن كثير في الآية : (يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله** ﴾ قال ابن عباس بأمر الله يعني : عن قدره ومشيئته ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه ، وعوّضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ، ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ : يعني : يهدي قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وقال الأعمش عن أبي ظبيان قال : كنا عند علقمة فقرئت عنده هذه الآية ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ فسئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرها ، وقال سعيد ابن جبير ومقاتل بن حيان ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ يعني : يسترجع يقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

وفي الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » وروى أحمد عن علي بن رباح أنه سمع جنادة بن أبي أمية يقول : سمعت عبادة بن الصامت يقول : إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد في سبيل الله » قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله . قال : « لا تتهم الله في شيء قضى لك به » لم يخرجوه) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم** ﴾ قال الألوسي : (أي : إن بعضهم كذلك فمن الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وقد شاهدنا من الأزواج من قتلت زوجها ، ومن أفسدت عقله بإطعام بعض المفسدات للعقل ، ومن كسرت قارورة عرضه ، ومن مزقت كيس ماله - ومن ، ومن - وكذا من الأولاد من فعل نحو ذلك ﴿ **فاحذروهم** ﴾ أي : فكونوا منهم على حذر ، ولاتأمنوا غوائلهم وشرهم ، والضمير للعدو فإنه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام في الأصنام : ﴿ **فإنهم عدو لي** ﴾ فالمأمور به الحذر عن الكل ، أو للأزواج ، والأولاد جميعاً ، فالمأمور به إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو ، وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدو) .

وقال ابن كثير في الآية : (يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والوالد بمعنى : أنه يلتهي به عن العمل الصالح كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ **فاحذروهم** ﴾ قال ابن زيد : يعني : على دينكم ، وقال مجاهد ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ قال : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه ، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم** ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهمّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾ وكذا رواه الترمذي وقال : حسن صحيح) .

وقال صاحب الظلال : (ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمداً . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معاً ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ والتنبه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً ... إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية . ويمس

وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي ، وفي ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده . فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدواً له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعوّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا . كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه ، اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله ... وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات ... وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن .

ومن ثَمَّ اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة التحذير من الله ؛ لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبا بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة ؛ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » ورواه أهل السنن من حديث حسين بن واقد به ، وقال الترمذي : حسن غريب إنما نعرفه من حديثه ، وروى الإمام أحمد عن الشعبي حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة فقال لي : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليه من ابنة حمد ، ولوددت أن بمكانه سبع القوم فقال : « لا تقلّن ذلك فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قبضوا » ثم قال : « ولئن قلت ذاك إنهم لمجبنة محزنة إنهم لمجبنة محزنة » تفرد به أحمد ، وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الولد ثمرة القلوب وإنهم مجبنة محزنة » ثم قال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم

بشيء فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » وقد قال بعض المفسرين كما رواه مالك عن زيد بن أسلم : إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران وهي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرَّحت جباههم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ فنسخت الآية الأولى ، وروي عن أبي العالية وزيد ابن أسلم وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك) . أقول : هي مفسّرة وليست ناسخة - والله أعلم - لاحظ صلة هذه الآية بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ مما يشير إلى أن هذه الآية في سورة البقرة ألصق بمعاني مقدّمتها .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول : « من يقرض غير ظلوم ولا عديم » .

....

كلمة أخيرة في سورة التغابن وزمرة المسبحات :

لاحظنا أن المسبّحات كلها فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، كما لاحظنا أن المسبّحات كلها اشتركت في وجود النداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فيها . فهي تفصّل في الأساس ، وطريق تحقيق هذا الأساس ، وبشكل يكمّل بعضه بعضاً ، ونلاحظ أنّ اسمي (العزيز الحكيم) قد وردا فيها جميعاً ، إما في الأول ، أو في الآخر أو في الأول والآخر بآن واحد ، كما رأينا ذلك في سورة الحشر ، ورأينا أن الضمير (هو) ورد في أوائلها جميعاً - تقريباً - في بداية آية ما عدا سورة الصف . ﴿ **هو الأول والآخر ...** ﴾ سورة الحديد . ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ سورة الحشر . ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم** ﴾ سورة الجمعة . ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ سورة التغابن . مما يشير إلى أنّ المسبّحات عامة ركزت على نقطة البداية الأولى التي ينبثق عنها كل المعاني ، وهي موضوع الإيمان

بالله عز وجل ، فالإيمان بالله يتفرّع عنه الإيمان بأركان الإيمان ، والتقوى أثر عنه ، ومن ثَمَّ كان تفصيلها لمقدمة سورة البقرة تفصيلاً من نوع جديد ، إذ إن فيها تركيزاً على الأوليات ، وعلى ما ينبغي أن ينبثق عنها عملياً ، وقد ختمت المسبّحات بسورة التغابن التي هي بداية لمجموعة تفصّل في محاور سور خمس من القسم الأول - قسم الطوال - بينما كان ما قبلها من المجموعات يفصّل فيما دون ذلك ، مما يشير إلى أنه بانتهاء المسبّحات يكون قد تَمَّ تفصيل كامل للمعاني القرآنية الرئيسية ، وذلك في قسم المفصّل ، وكان للمسبحات ومجموعاتها في هذا التفصيل الدور الأعظم . وسورة التغابن ركّزت في مواضيع مقدمة سورة البقرة العملية تركيزاً شديداً ، وركّزت على موضوع السمع والطاعة كثيراً كمقدمة لسورة الطلاق ذات الأحكام التشريعية ، وركّزت على موضوع الفتنة في الأولاد والأزواج كمقدمة لسورة التحريم التي فيها ذكر لموضوع الأهل والزوجات ، وركّزت على موضوع الخَلق كمقدمة لسورة الملك التي هي تفصيل لهذا المقام ، وركّزت في موضوع الفتنة بالأموال كمقدمة لسورة (القلم) التي تعرض قصة أصحاب الجنة وفتنتهم ، ومن هذا ندرك أن سورة التغابن مقدّمة لمجموعتها ، وبهذه المناسبة نقول : إن مقدمة سورة البقرة كانت المقدمة المناسبة لما بعدها ، وأن ما بعدها كان مناسباً لما بعده وهكذا ، وفي كل مرّة يأتي تفصيل جديد لسورة البقرة فإن تناسقاً ما يكون بين سور المجموعات المفصّلة ، فما كان تفصيلاً لمقدمة سورة البقرة يكون مقدمة لما بعده ، ومرتبطاً به برباط وثيق ، فالسورة التي تفصّل في مقدمة سورة البقرة هي نفسها مقدمة مناسبة لما بعدها ، والسور التي تفصّل فيما بعدها ترتبط بها كرباط ما بعد مقدمة سورة البقرة بمقدمتها ، بحيث تلقي المقدمة أضواءها على ما بعدها ، ويلقي ما بعد المقدمة أضواءه على المقدمة ، وكل ذلك بشكل مدهش عجيب . فلنر الآن سورة الطلاق أو سورة النساء الصغرى .

☆ ☆ ☆

سورة الطلاق

وهـي السـورة الخامسـة والسـتون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الخامسة من قسم
المفصل ، وهي اثنتا عشرة آية
وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

بين يدي سورة الطلاق :

قدّم الألوسي رحمه الله لسورة الطلاق بقوله : (وتسمى سورة - النساء القصرى - كذا سماها ابن مسعود كما أخرجه البخاري ، وغيره ، وأنكره الداوودي ، فقال : لا أرى القصرى محفوظاً ولا يقال لشيء من سور القرآن : قصرى . ولا صغرى ، وتعقبه ابن حجر بأنه رَدّ للأخبار الثابتة بلا مستند والقصر والطول أمر نسبي ، وقد أخرج البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال : طولى الطوليين ، وأراد بذلك سورة الأعراف - وهي مدنية بالاتفاق - .

واختلف في عدد آياتها ففي البصري إحدى عشرة آية ، وفيما عداه اثنتا عشرة آية ، ولما ذكر سبحانه فيما تقدم ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ وكانت العداوة قد تفضي إلى الطلاق ، ذكر جل شأنه هنا الطلاق وأرشد سبحانه إلى الانفصال منهن على الوجه الجميل ، وذكر عز وجل أيضاً ما يتعلق بالأولاد في الجملة) .

ومن تقديم صاحب الظلال رحمه الله لسورة الطلاق نقتطف ما يلي : (هذه سورة الطلاق ، يبيّن الله فيها أحكامه ، ويفصّل فيها الحالات التي لم تفصّل في السورة الأخرى (سورة البقرة) التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ، ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة) .

(ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة ، وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين ، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره ، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي ، وإيثار الجميل . والإطماع في الخير . والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق ، وفي اليسر والعسر .

يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام ، حتى ليوجّه الخطاب إلى النبي ﷺ بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، وزيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ،

والأمر المشدد في كل حكمة بالدقة في مراعاته ، وتقوى الله في تنفيذه ، ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب ! إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ؛ وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارّين بأعنف وأشد ما يلقاه عاصٍ ؛ وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير) .

(علام يدل هذا ؟ إن له عدّة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجدّيته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد ، إنّه يدل ابتداءً على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي .

فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن ؛ في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ؛ وفي كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل) .

(والدلالة الثانية لسياق السورة ، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال في القرآن كله ، هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ؛ واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية - لا كما ينظر إليها في العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة ، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها) .

(والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإسلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها ، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم ، عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها ، ومن ثَمَّ لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير ، ولا يكتفي بالتوجيه ويستخدم هذا وذاك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة) .

(والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد ، هو أنها كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلّفة من رواسب الجاهلية ، وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف ، مما اقتضى هذا التشديد ، وهذا الحشد من المؤثرات النفسية ، ومن التفصيلات الدقيقة ، التي لا تدع

مجالاً للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقراً في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين ، ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية .

ولم يكن الحال هكذا في شبه الجزيرة وحدها ، إنما كان شائعاً في العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أو ما هو أسوأ من الرقيق في جنبات الأرض جميعاً . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار ، وإلى المرأة كأنها شيطان يغري بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذي سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات ... وليدة لا توأد ولا تهان . ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيباً أو بكراً . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة وفي سورة البقرة وغيرها .

شرع الإسلام هذا كله . لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض ! ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء ! ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي ! ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى ! ولا لأن هاتفاً واحداً في الأرض هتف بتغيير الأحوال ... إنما كانت هي شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء للأرض ... أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة ، وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة ، وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

هذا دين رفيع ... لا يعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلا منكوس . ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه) . أ . هـ .

....

كلمة في سورة الطلاق ومحورها :

تبدأ سورة الطلاق بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم** ﴾ والخطاب للنبي ﷺ في هذه الآية خطاب لأمته بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **إذا طلقتم النساء** ﴾ مما يدل على أنّ الخطاب للأمة

كلها ، قال النسفي : خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب لأن النبي ﷺ إمام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم يا فلان افعلوا كذا إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه قدوة قومه ، فكان هو وحده في حكم كلهم وسادّاً مسدّ جميعهم .

....

إن محور سورة الطلاق هو محور سورة النساء أي : الآيات التي جاءت بعد مقدمة سورة البقرة والتي هي : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون * وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأْتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ .

....

نلاحظ أن سورة النساء بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ والآية الأولى من سورة الطلاق فيها ﴿ **واتقوا الله ربكم** ﴾ ونلاحظ في سورة الطلاق تركيزاً عظيماً على التقوى ففيها ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ وفيها ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾ وفيها ﴿ **ومن يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ﴾ وفيها ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ...** ﴾ وهكذا فالسورة تركز على التقوى ، وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **اعبدوا ربكم ... لعلكم تتقون** ﴾ واضحة .

....

وهذه السورة ركّزت على التقوى من خلال عرض قضية عِدّة المطلقات ، ومن خلال عرض أحكام تصفية آثار العلاقة الزوجية ، مما يشير إلى أن العبادة لله عز وجل يدخل فيها الالتزام بأحكام الله عز وجل عامة ، وتنفيذها وتطبيقها ، وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ... لعلكم تتقون** ﴾ واضحة المعنى ،

وكما تعرضت آيات المحور لخلق الله عز وجل السماء والأرض ، فكذلك تعرضت سورة الطلاق ، وكما تعرضت آيات المحور لإنزال القرآن على رسول الله ﷺ فكذلك تعرّضت سورة الطلاق لذلك كما سنرى .

. . . .

وموضوع الطلاق تعرضت له سورة البقرة في أواخر أواسطها ، وتوسعت فيه ، وههنا تأتي سورة الطلاق لتتحدث عن جانب من جوانبه مشدوداً إلى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ مما يشير إلى صلة هذا الموضوع بقضية العبادة والتقوى .

. . . .

وكون سورة الطلاق آتية بعد سورة التغابن التي فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، وقبل سورة التحريم المفصّلة في محور سورة المائدة ، أي : في الآيتين بعد الآيات التي ذكرناها كمحور لسورة الطلاق ، فهذا يؤكد أن سورة الطلاق تفصّل في هذا المحور المذكور . ولنبدأ عرض السورة ولنعرضها على فقرات .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٣) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي** ﴾ قال ابن كثير : خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً ﴿ **إذا طلقتم النساء** ﴾ قال النسفي : (أي : إذا أردتم تطليقهن ، وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف لـه منزلة الشارع فيه) ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ أي : فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ، وذلك بأن تطلق المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها الثلاثة ، التي بها تنقضي عدتها ، فلا تطلق في حيض ، ولا في طهر جامعها فيه ، وذلك من أجل أن تستقبل عدتها بأخصر وقت ، ومن أجل أن

يطلقها زوجها وهو في كامل إدراكه وتفكيره وتعقله ، ملاحظاً في ذلك حالته النفسية ، وفي ذلك من الحكم الكثير مما سنراه في الفوائد ، قال النسفي (وهو حنفي) : (والمراد أن تطلق المدخول بهن من المعتدات بالحيض في طهر لم يجامعن فيه ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن ، وهذا أحسن الطلاق) . أقول : وسنرى في الفوائد ما هو أحسن الطلاق ؟ ، وما هو حسنه ؟ ، وما هو الطلاق البدعي ؟ ، فالآية هنا دعت لأحسن الطلاق ، وذلك بأن يطلق الرجل زوجته تطليقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه ، وينتظر انقضاء عدتها ، وهي ثلاثة قروء ، على خلاف بين العلماء في تفسير القرء ، فالشافعية يعتبرونه الطهر ، والحنفية يعتبرونه الحيض ، فمتى طهرت من حيضتها الثالثة عند الحنفية وقع الطلاق بائناً ، أي : مفرِّقاً ، أما قبل انتهاء العدة فالطلقة رجعية ، أي : يحقّ له أن يراجعها في العدّة دون عقد جديد بالقول بأن يقول : راجعتك ، أو بالفعل بأن يعاملها معاملة الأزواج من مسّ بشهوة ، أو قبلة أو جماع ، أما بعد انقضاء العدة فلا بدّ من عقد جديد بشروطه ، والطلقة وقعت في الحالتين بمعنى : أنه لم يبق للزوج حق إلا في طلقة واحدة ، ثم تكون بالثالثة البينونة الكبرى التي لا تحل معها لزوجها الأول إلا بعد أن تتزوج غيره ، فيدخل بها ثم يطلقها ، وتنقضي عدتها ، وعندئذ تحل لزوجها الأول ، ﴿ **وأحصوا العدَّة** ﴾ قال النسفي : (أي : واضبطوها بالحفظ ، وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن ، وخوطب الأزواج لغفلة النساء) ، وقال ابن كثير : (أي : احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج) ﴿ **واتقوا الله ربكم** ﴾ أن تخالفوا أمره ونهيه وحدوده وأحكامه ، أو تزوّروا أو تتلاعبوا في شيء من أحكام شرعه أو حقوق عباده ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن** ﴾ قال ابن كثير : (أي : في مدّة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدّة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج ، لأنها متعلقة لحق الزوج أيضاً) وقال النسفي : (أي : لا تخرجوهن حتى تنقضي عدّتهن من بيوتهن أي : مساكنهن التي يسكنّها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ، وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى ، وفيه دليل على أن السكنى واجبة ... ومعنى الإخراج : أن لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن ، وكراهة لمساكنتهن ، أو لحاجة لهم إلى المساكن ، وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر) ﴿ **ولا يخرجن** ﴾ بأنفسهن إن أردن ذلك ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبيّنة ، فتخرج

من المنزل . والفاحشة المبيّنة تشمل الزنا ... وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذّت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال ﴿ **وتلك** ﴾ أي : الأحكام المذكورة ﴿ **حدود الله** ﴾ أي : شرائعه ومحارمه ﴿ **ومن يتعدّ حدود الله** ﴾ أي : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ، ولا يأتمر بها ﴿ **فقد ظلم نفسه** ﴾ أي : بفعل ذلك ، لأنه عرّضها لعقوبة الله في الدنيا والآخرة ﴿ **لا تدري** ﴾ أيها المخاطب ﴿ **لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ قال النسفي : (بأن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها ، والمعنى : فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، ولا تخرجوهن من بيوتهنّ لعلّكم تندمون فتراجعون) وقال ابن كثير : (أي : إنما أبقينا المطلّقة في منزل الزوج في مدة العدّة لعلّ الزوج يندم على طلاقها ، ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل) . وقد بنى على هذه الآية كثير من الفقهاء كثيراً من الأحكام سنراها في الفوائد ، ثم قال تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالى فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أي : شارفن على انقضاء العدة ، وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة الكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه ، والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ **بمعروف** ﴾ أي : محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن) . وقال النسفي : (أي : فإذا قاربن آخر العدة ﴿ **فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف** ﴾ أي : فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار ، وهو أن يراجعها في آخر عدّتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها) ﴿ **وأشهدوا ذوي عدل منكم** ﴾ أي : من المسلمين ، قال النسفي : يعني وأشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعاً ، وهذا الإشهاد مندوب إليه لئلا يقع بينهما التجاحد . وذهب عطاء إلى وجوبه . فقال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال تعالى ، إلا أن يكون من عذر . أقول : إن في إبقاء المرأة في بيت زوجها في العدّة ما يدل على أن الإشهاد مندوب إليه ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ أي : لوجهه خالصاً ، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر ﴿ **ذلكم** ﴾ أي : الحث على إقامة الشهادة لوجه الله من أجل القيام بالقسط ﴿ **يوعَظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أي : إنما ينتفع به هؤلاء ،

وقال ابن كثير : (أي : هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأنه شرع هذا ، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الإشهاد في الرجعة كما يجب عنده في ابتداء النكاح ، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها) ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ قال ابن كثير : أي : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي : من جهة لا تخطر بباله ، قال النسفي : (هذه جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة والمعنى : ومن يتق الله فطلّق للسنة ولم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه ويعطه الخلاص ﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه ، ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله ﴿ **ذلكم يوعظ به** ﴾ أي : ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة) ﴿ **ومن يتوكل على الله** ﴾ أي : ومن يكل أمره إلى الله عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿ **فهو حسبه** ﴾ أي : كافيه في الدارين ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾ أي : منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدراً** ﴾ قال النسفي : أي : تقديراً وتوقيتاً وهذا بيان لوجوب التوكل على الله ، وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوفيقه ، لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل .

كلمة في السياق :

١ - إن الأمر بالتقوى والتوكل في سياق الكلام عن الطلاق والعدّة سببه أن الطلاق يقتضي زواجاً جديداً وعقداً ، وبقاء المعتدة في بيت الزوجية يقتضي إنفاقاً عليها ، وإرجاع المعتدة أو تفريقها يكاد أن يكون قفزة بالمجهول ، وكل ذلك يقتضي توكلاً ويحتاج إلى تقوى .

٢ - يلاحظ أن سورة التغابن - وهي السورة السابقة على سورة الطلاق - أمرت بالتوكل ، وأمرت بالتقوى بقدر الاستطاعة ، وأمرت بالإنفاق ، ومما ذكّرت به كون الأزواج فتنة ، وأن بعض الأزواج أعداء لأزواجهن ، وندبت إلى العفو والصفح ، وصلة ذلك ببداية سورة الطلاق واضحة ، فتشريع الطلاق مرتبط بوجود حالات من

العلاقات الزوجية لا تحتمل ، ومع أن الله عز وجل ندب إلى العفو والصفح فهناك حالات لا حل لها إلا الطلاق ، وقد أمر الله بالطلاق بشكل تستنفد فيه كل إمكانية لإبقاء العلاقة الزوجية ، حتى إذا لم يبق مناص كان الخلاص بمعروف ، فصلة أوائل سورة الطلاق بأواخر سورة التغابن واضحة ، وأن تكون سورة التغابن مقدمة لسورة الطلاق فذلك أيضاً واضح .

٣ - وبعد أن بيّن الله عز وجل عدة المطلقة طلاقاً رجعياً إذا كانت تحيض ، فإنه يبيّن عدّة من لا تحيض لكبر أو صغر أو لسبب ، كما يبيّن عدّة الحامل .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٤) إلى نهاية الآية (٥) وهذه هي :

وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

التفسير :

﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم** ﴾ بأن أصبحن لا يحضن لكبر سنهن ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ أي : إن أشكل عليكم حكمهن ، وجهلتم كيف يعتددن ﴿ **فعدّتهن ثلاثة أشهر** ﴾ أي : فهذا حكمهن ، قال النسفي : (وقيل إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة ،

فعدتهن ثلاثة أشهر ، وإذا كانت عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك) ﴿ **واللائي لم يحضن** ﴾ قال النسفي : هن الصغائر وتقديره ، واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر ، فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها . قال ابن كثير : (يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة - وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها - إنها ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية سورة البقرة ، كذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض ، أي : عدتهن كعدّة الآيسة ثلاثة أشهر ولهذا قال تعالى : ﴿ **واللائي لم يحضن** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ فيه قولان (أحدهما) وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهري وابن زيد إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه ، (والقول الثاني) إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر) ﴿ **وأولات الأحمال** ﴾ عدتهن ﴿ **أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ قال النسفي : والنص يتناول المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن ، وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما : عدة الحامل المتوفى زوجها أبعد الأجلين . وقال ابن كثير : (يقول تعالى : ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نصّ هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنة النبوية ، وقد روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر ؛ عملاً بهذه الآية ، والتي في سورة البقرة) ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾ أي : ييسّر له من أمره ويحلل من عقده بسبب التقوى ، قال ابن كثير : أي : يسهل له أمره وييسّره عليه ، ويجعل له فرجاً قريباً ، ومخرجاً عاجلاً . أقول : التذكير بهذا في هذا السياق يفيد أن على المسلم ألا يبالي إلا بتنفيذ حكم الله ، والله يعده أن تكون أموره كلها إلى تيسير ﴿ **ذلك** ﴾ أي : ما علم من حكم هؤلاء المعتدات ﴿ **أمر الله** ﴾ أي : حكمه وشرعه ﴿ **أنزله إليكم** ﴾ بواسطة رسوله ﷺ . قال النسفي : أي : من اللوح المحفوظ ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿ **يكفر عنه سيئاته** ﴾ فلا يحاسب عليها ﴿ **ويعظم له أجراً** ﴾ أي : ويكثر له الجزاء ، قال ابن كثير : أي : يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

كلمة في السياق :

١ - في سورة البقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **والمطلّقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ وورد قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن**

بأنفسهن أربعة أشهر ﴾ فعلم من هذا وهذا عدّة المرأة في حالتين ، وتساءل بعض الصحابة عن عدّة المرأة في حالات أخر كما قال ابن كثير ناقلاً عن ابن جرير : (وقال أبي بن كعب : يا رسول الله إن عِدداً من عِدد النساء لم تذكر في الكتاب : الصغار والكبار وأولات الأحمال ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق فروى ... عن أبي بن كعب قال : قلت لرسول الله ﷺ : إن ناساً من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا لقد بقي من عدّة النساء لم يذكر في القرآن : الصغار والكبار اللائي قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل قال : فأنزلت التي في النساء القصرى ﴿ **واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن** ﴾ وهكذا نجد أن سورة الطلاق تفصّل في موضوعات طرقتها سورة البقرة ، أو تكمّلها ، وفي ذلك إشارة إلى ارتباط هذه الآيات وهذه المعاني في الطريق إلى التقوى ، ومن ثَمَّ جاءت في سياق سورة تفصّل في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ولذلك كثر الكلام عن التقوى في سياق السورة .

٢ - بعد أن فصّل الله عز وجل في العدّة وأحكامها ، ورأينا أن من أحكامها أن لا تخرج المعتدّة من بيتها تأتي فقرة لتبيّن ما له علاقة بالسكن والنفقة للمعتدة ، حاملاً أو غير حامل .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتدّ من الآية (٦) إلى نهاية الآية (٧) وهذه هي :

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ

فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

التفسير :

﴿ **أسكنوهن** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها ﴿ **من حيث سكنتم** ﴾ قال ابن كثير : أي : عندكم ، وقال النسفي : أي : أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم أي : بعض مكان سكناكم ﴿ **من وُجْدِكم** ﴾ الوجد : الوسع والطاقة ، قال النسفي : كأنه قيل أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه . وقال قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه ، قال النسفي - وهو حنفي - : (والنفقة والسكنى واجبتان لكل مطلقة لها عدّة) ﴿ **ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن** ﴾ قال النسفي : (أي : ولا تستعملوا معهن الضرار لتضيّقوا عليهن في السكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهنّ ، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج) . وقال مقاتل بن حيان : يعني : يضاجرها لتفتدي منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه ، وقال الثوري عن أبي الضحى : يطلقها ، فإذا بقي يومان راجعها ﴿ **وإن كُنَّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾ قال النسفي : (وفائدة اشتراط الحمل أن مدة الحمل ربما تطول فيظن ظان أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل فنفى ذلك الوهم) وقال ابن كثير : (قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كله في الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق على الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، ثم اختلف العلماء هل النفقة لها بواسطة الحمل أم للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره ، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم

الفروع) ﴿ **فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن** ﴾ قال ابن كثير : (أي : إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بنّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة) ، وقال النسفي : (يعني هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من ظئرهن ، أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿ **فآتوهن أجورهن** ﴾ فحكمهن في ذلك حكم الأظآر ، ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهنّ ما لم يبنّ خلافاً للشافعي رحمه الله) ﴿ **وائتمروا بينكم** ﴾ أي : تشاوروا على التراضي في الأجرة ، أو ليأمر بعضكم بعضاً ، والخطاب للآباء والأمهات ﴿ **بمعروف** ﴾ أي : بما يليق بالسنّة ، ويحسن في المروءة ، فلا يماكس الأب ، ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما ، وهما شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليه ﴿ **وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى** ﴾ قال ابن كثير : (أي : وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ، ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها ، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها) ، وقال النسفي : (أي : وإن تضايقتم فلم ترض الأم بما ترضع به الأجنبية ولم يزد الأب على ذلك ﴿ **فسترضع له أخرى** ﴾ فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، وقوله له أي : للأب أي : سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه) ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته** ﴾ قال ابن كثير : أي : لينفق على المولود والده ، أو وليه بحسب قدرته ، وقال النسفي : أي : لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه : يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ﴿ **ومن قدر عليه رزقه** ﴾ أي : ومن ضيّق عليه رزقه ﴿ **فلينفق مما آتاه الله** ﴾ أي : مما رزقه الله ، أي : فلينفق على قدر قوّته ﴿ **لا يكلّف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ أي : إلا ما أعطاها ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ أي : سيجعل الله بعد ضيق في المعيشة سعة ، وهذا وعد لذي العسر باليسر .

كلمة في السياق :

بانتهاء الفقرة الثالثة ينتهي الكلام عن أحكام العدة ، وتأتي الآن فقرة رابعة تعظ وعظاً عاماً ، مهدّدة ومنذرة أن تخالَف أوامر الله ورسوله ، ومبشّرة الذين يلتزمون

بأحكام الله ، ويلاحظ أن الوعظ في ابتداء الفقرة انصبّ مخاطباً القرى دون الأفراد ، وكأن في ذلك إنذاراً للأمم التي تعتمد قوانين تخالف شرع الله .

نقل :

عقّب صاحب الظلال عند نهاية الفقرة الأخيرة بقوله : (وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ؛ ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضاً ولا غباراً يملأ النفوس ويغشى القلوب ، ولم يترك بعده عقابيل غير مستريحة بعلاج ، ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوساوس والهواجس التي تثور في القلوب ، فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسّع على مطلقته أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التي تضيق بنفقة الإعسار ، أو تطمع في زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى ، والضيق بعد الفرج ، والرزق من حيث لا يحتسب . وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ما تخلفه حالة الخلاف والشقاق التي أدت إلى الطلاق . من غيظ وحنق ومشادة وغبار في الشعور والضمير ... فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل ، ونسم عليه من رحمة الله والرجاء فيه ؛ ومن ينابيع المودة والمعروف التي فجّرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل ، وهذه اللمسات المؤثرة العميقة ، وهذا التوكيد الوثيق المتكرر ... هذه كلها هي الضمانات الوحيدة في هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين يملك مكايدة صاحبه حتى تنفقىء مرارته إذا كانت الحواجز هي فقط حواجز القانون !! وبعض الأوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة : ﴿ **لا تضاروهن** ﴾ يشمل النهي عن ألوان من العنت لا يحصرها نص قانوني مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية ، وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر ، المحيط بكل شيء علماً . وإلى التعويض الذي يعده الله للمتقين في الدنيا والآخرة . وبخاصة في مسألة الرزق التي تكرر ذكرها في صور شتى ،

لأنها عامل مهم في تيسير الموقف ، وتندية الجفاف الذي تنشئه حالة الطلاق .

وإن الزوجين ليفارقان - في ظل تلك الأحكام والتوجيهات - وفي قلوبهما بذور للود لم تمت ، ونداوة قد تحيي هذه البذور فتنبت ... ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يصبغ به الجماعة المسلمة ، ويشيع فيها أريجه وشذاه .

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله ، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلّق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكرهم بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتقي ولا يطيع . كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع) .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة

وتمتدّ من الآية (٨) إلى نهاية الآية (١١) وهذه هي :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **وكأين من قرية** ﴾ أي : وكثير من القرى ﴿ **عتت** ﴾ أي : عصت ﴿ **عن أمر ربها ورسله** ﴾ أي : أعرضت عنه على وجه العتوّ والفساد ، قال ابن كثير : أي : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿ **فحاسبناها حساباً شديداً** ﴾ قال النسفي : بالاستقصاء والمناقشة ﴿ **وعذّبناها عذاباً نُكراً** ﴾ أي : منكراً فظيعاً ﴿ **فذاقت وبال أمرها** ﴾ أي : غبّ مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفع الندم ﴿ **وكان عاقبة أمرها خُسْراً** ﴾ أي : خساراً وهلاكاً ، قال النسفي : والمراد حساب الآخرة وعذابها ، وما يذوقون فيها من الوبال ، ويلقون من الخسر . أقول : الظاهر من كلام ابن كثير أنه حمل ما مرّ على عذاب الدنيا ﴿ **أعدّ الله لهم عذاباً شديداً** ﴾ قال ابن كثير : أي : في الدار الآخرة ، مع ما عجّل لهم من العذاب في الدنيا ، ثم قال تعالى بعد ما قصّ من خبر هؤلاء : ﴿ **فاتقوا الله يا أولي الألباب** ﴾ أي : يا أولي الأفهام المستقيمة ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ أي : صدّقوا بالله ورسله ، دلّ ذلك على أن المؤمن وحده هو ذو العقل والفهم ، والمعنى : فاتقوا الله يا أيها المؤمنون أن تكونوا مثلهم ؛ فيصيبكم ما أصابهم ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكراً** ﴾ يعني القرآن ، فلا يليق بكم بعد أن أنزل الله إليكم هذا الذكر ألا تتقوه ﴿ **رسولاً** ﴾ هل المراد بكلمة رسول هنا (محمد ﷺ) فيكون التقدير : قد أنزل الله إليكم ذكراً ، أرسل به رسولاً ، أو أن القرآن نفسه رسول من الله إليكم ، قولان من مجموعة أقوال للمفسرين ﴿ **يتلو عليكم** ﴾ أي : الرسول أو القرآن ﴿ **آيات الله مبيّنات** ﴾ موضحات فإن أريد بالتالي رسول الله ﷺ تكون الآيات البينات هي نفس القرآن ، وإن أريد بالتالي القرآن يكون المراد بالآيات المبينات ما تحدّث به القرآن عن آيات الله في الآفاق والأنفس ، وما كان ويكون ﴿ **ليخرج** ﴾ الرسول أو القرآن بتلاوة الآيات ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور** ﴾ أي : من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً** ﴾ في تنكير الرزق معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمنين من الثواب .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن عرضت الفقرات الثلاث الأولى بعض الأحكام الشرعية ، والسنن الإلهية ، جاءت الفقرة الرابعة تبشّر وتنذر ، وتقرر وتأمر ، فبشّرت المؤمنين ، وأنذرت المخالفين ، وذكرت ما أعدّ الله للصالحين ، وأمرت المؤمنين أولي الألباب بتقوى الله ، ولو أنك تأملت الآيات الثلاث من سورة البقرة والتي جاءت بعد آيتي ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ لرأيت فيها المعاني التي تعرضت لها الفقرة الرابعة : جاء بعد الآيتين اللّتين ذكرناهما من البقرة قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا** ﴾ ويقابلها في الفقرة ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ...** ﴾ ثم جاء بعد آية من سورة البقرة ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً ...** ﴾ يقابلها ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً** ﴾ وهكذا نجد أن سورة الطلاق تفصّل في محورها من سورة البقرة ضمن سياقها الخاص .

٢ - ولم يبق عندنا من سورة الطلاق إلا آية واحدة ، هذه الآية تلقي أضواءها على كل ما مَرَّ ، وهي بمثابة الحضّ على الالتزام والإيمان ، هذه الآية هي الفقرة الخامسة في السورة فلنرها .

☆ ☆ ☆

الفقرة الخامسة

وهي نهاية السورة أي الآية (١٢) وهذه هي :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

التفسير :

﴿ **الله الذي خلق سبع سمٰوات** ﴾ قال النسفي : أجمع المفسرون على أن السمٰوات سبع ﴿ **ومن الأرض مثلهن** ﴾ قال النسفي : قيل ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية . أقول : وهل المراد بالأرضين السبع أن الكرة الأرضية سبع طبقات سميت كل طبقة منها أرضاً ، أو المراد بها سبع من الكواكب السيارة لها خواص الأرض ، أو المراد بها سبع أرضين مثل أرضنا تابعة لشموس مثل شمسنا ؟ أقوال سنرى تحقيقها في الفوائد ﴿ **يتنزّل الأمر بينهن** ﴾ قال النسفي : أي : يجري أمر الله وحكمه بينهن وملكه ينفذ فيهن ﴿ **لتعلموا** ﴾ من تأملكم لخلقه السمٰوات والأرضين ﴿ **أن الله على كل شيء قدير** ﴾ ولولا ذاك ما كان مثل هذا الخلق ﴿ **وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً** ﴾ وإلا فكيف خلق هذه السمٰوات والأرضين على مثل هذه الدقة ؟! . لاحظ أن سورة النساء انتهت بقوله تعالى : ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ وأن سورة الطلاق قد انتهت بقوله تعالى : ﴿ **وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ - في ختم السورة بهذه الآية تبيان لكون أحكام الله عز وجل في غاية الإحكام ، كيف لا وهو المحيط علماً بكل شيء ، كما أن فيها تبياناً لقدرة الله على إيجاد ما وعد وأوعد ، كيف لا وهو القادر على كل شيء .

٢ - أمر الله عز وجل في محور السورة من سورة البقرة عبادَه بالعبادة والتقوى ؛ قياماً بحق الشكر له على ما خلقهم ، وخلق لهم الأرض والسماء ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم**

الأرض فراشاً والسماء بناءً ﴾ والملاحظ أن الله عز وجل ختم سورة الطلاق بذكر خلق السموٰات والأرضين ليهيّج عباده على الإيمان والالتزام ، وفي ذلك كذلك مظهر من مظاهر التفصيل ، واتصال سورة الطلاق بمحورها من سورة البقرة ، والملاحظ أن المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ختم بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سموٰات** ﴾ وقد جاء في خاتمة سورة الطلاق بعض هذا مما يؤكد صلة السورة بمحورها وامتداداته وارتباطاته ، وأن السياق الخاص للسورة كان واضح الترابط والاتصال ، فلا نقف أكثر من ذلك عنده . ولنبدأ بنقل بعض الفوائد المتعلقة بالسورة .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدّتهن** ﴾ قال ابن كثير : (وروى البخاري عن ابن شهاب قال : أخبرني سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل » هكذا رواه البخاري ههنا وقد رواه في مواضع من كتابه ومسلم ولفظه : « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة وموضع استقصائها كتب الأحكام ، وأحسن لفظ يورد ههنا مارواه مسلم في صحيحه من طريق ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة يسأل ابن عمر - وأبو الزبير يسمع - : كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ليراجعها » فردها وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » قال ابن عمر : وقرأ النبي ﷺ ﴿ **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾ في قبل عدتهن . وروى الأعمش عن عبد الله في قوله تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال : الطهر من غير جماع ، وروي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك ، وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال : لا يطلقها وهي حائض ، ولا في طهر قد جامعها فيه ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها

تطليقة . وقال عكرمة ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ العدة : الطهر ، والقرء الحيضة أو أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا يدري حبلى هي أم لا . ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه : طلاق السنة ، وطلاق بدعة : فطلاق السنة : أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها ، والبدعي : هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ،وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع والله سبحانه وتعالى أعلم) .
أقول : الحكمة في أنّه لا ينبغي أن يطلق الإنسان زوجته وهي حائض كي لا يطيل عليها العدّة ، والحكمة في ألا يطلقها في طهر جامعها فيه لأنّه لا يعرف هل حملت أو لم تحمل ، فإذا حملت من جماعه هذا فإن عدّتها ستطول كثيراً وفي ذلك إضرار بها .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ أقول : الطلاق ثلاثة أنواع : طلاق رجعي ، وطلاق بائن بينونة صغرى ، وطلاق بائن بينونة كبرى . فالطلاق الرجعي : هو أن يطلق الرجل زوجته المدخول بها طلقة واحدة بلفظ الطلاق ، فهذا رجعي بمعنى أنه يحقّ له أن يراجعها ما دامت في العدّة ، ولذلك فعليه أن يبقيها في بيته ، وأن يقدّم لها نفقتها ، فإذا انقضت عدتها فقد أصبح الطلاق بائناً ، فلا ترجع إليه إلا بعقد جديد بشروطه . والطلاق البائن بينونة صغرى : هو طلاق الرجل زوجته قبل أن يدخل بها، أو طلاقه إياها بألفاظ الكنايات ، أو طلاقه إياها طلاقاً رجعياً مع عدم إرجاعها حتى انقضت عدتها . وأما الطلاق البائن بينونة كبرى : فهو أن يطلقها ثلاثاً ، فهذا يبينها منه بينونة كبرى فلا يجوز له أن يتزوجها مرة ثانية إلا بعد أن تتزوج زوجاً غيره ، ثمّ يطلقها الثاني وتنقضي عدتها منه .

والطلاق حسن وأحسن وبدعي . فالأحسن أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، وينتظر حتى تنقضي عدتها فيقع عليه في هذه الحالة طلاق واحد ، والحسن أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، ثمّ ينتظر حتى يأتي الطهر اللاحق فيطلقها فيه طلقة ثانية ، ثمّ ينتظر الطهر الثالث فيطلقها فيه طلقة ثالثة ، فعندئذ تبين منه بينونة كبرى ، وعليها العدّة . والطلاق البدعي ما سوى ذلك ، كأن يطلقها في الحيض ، أو يطلقها في طهر جامعها فيه ، أو يطلقها تطليقتين ، أو ثلاثاً دفعة واحدة ، وهناك معارك فقهية تدور في هذه

الأمور فلتراجع في كتب الفروع . والفقهاء مجمعون على أن المطلقة طلاقاً رجعياً تجب لها النفقة والسكنى ، ومختلفون في بعض صور الطلاق هل تجب فيها النفقة والسكنى للمرأة في العدّة أو لا ، وقد رأينا أن مذهب الحنفية يوجب النفقة والسكنى لكل مطلقة لها عدّة .

ولأحسن الطلاق ميزة هي أن المرأة تراجع نفسها والرجل يراجع نفسه خلال فترة العدّة ، ولذلك يندب للمرأة أن تتشوّف له وتتزيّن . والجواذب في هذه الحالة كثيرة إذ تمضي عليها فترة طويلة تشتاق بها إلى العشرة وهو كذلك ، فما لم يكن النفور له مبرراته الكبرى فلا بدّ أن يتراجعا ، لذلك علّل الله عز وجل لعدم إخراجها من بيتها بقوله : ﴿ **لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو عليّ هذه الآية ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم » قال : فجعل يتلوها ويرددها عليّ حتى نعست ثم قال : « يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة ؟ » قلت : إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة قال : « كيف تصنع إذا أخرجت من مكة ؟ » قال : قلت : إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام ؟ » قلت : إذاً والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال : « أو خير من ذلك » قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع ولو كان عبداً حبشياً » .

وروى ابن أبي حاتم عن شتير بن شكل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ وإن أكبر آية في القرآن فرجاً ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ رواه ابن جرير ، وروي أيضاً من طريق سالم بن أبي الجعد مرسلاً نحوه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ابن أبي الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدَر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » ورواه النسائي

وابن ماجه من حديث سفيان وهو الثوري به . وقال محمد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابني عوف فقال له رسول الله ﷺ : « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله » وكانوا قد شدوه بالقدّ ، فسقط القد عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها وأقبل ، فإذا بسرح القوم الذين كانوا قد شدوه ، فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب فقال أبوه : عوف ورب الكعبة ، فقالت أمه : واسوأتاه وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد ، فاستبقا الباب والخادم ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلاً ، فقصّ على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتيَ رسول الله ﷺ فأسأله عنها ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعاً بمالك » ونزل ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وروى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكّله إليها » .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا غلام إني معلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف » وقد رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته ، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل ») .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عن يحيى قال : أخبرني أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال : أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة ،

فقال ابن عباس : آخر الأجلين قلت أنا : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها فقالت : قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها ، هكذا أورد البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر ، وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل ، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت ، فلما تعلت من نفاسها خُطِبت ،فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تنكح فنكحت ، ورواه البخاري في صحيحه ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عنها كما روى مسلم بن الحجاج عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها ، وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته ، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة ، وكان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجمّلت للخُطّاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : مالي أراك متجمِّلة ؟ لعلّك ترجين النكاح ، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي . هذا لفظ مسلم ورواه البخاري مختصراً) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن أبي سنان قال سأل عمر ابن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللّين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاءه الرسول فأخبره فقال : رحمه الله تعالى تأوّل هذه الآية ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله** ﴾) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ قال ابن كثير :

(وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره ههنا فروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدرون على شيء ، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسبغة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم أبشر أتانا رزق الله ، فاستحثها فقال : ويحك ابتغي إن كان عندك شيء ، قالت : نعم ، هنيهة ، ترجو رحمة الله ، حتى إذا طال عليه الطول ، قال : ويحك قومي فابتغي إن كان عندك شيء فائتني به ؛ فإني قد بلغت وجهدت ، فقالت : نعم ، الآن نفتح التنور فلا تعجل ، فلما أن سكت عنها ساعة ، وتحينت أن يقول لها قالت : من عند نفسها لو قمتُ فنظرت إلى تنوري ، فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن من جنوب الغنم ، ورحييها تطحنان ، فقامت إلى الرحى فنفضتها ، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم ، قال أبو هريرة : فوالذي نفس أبي القاسم بيده هو قول محمد ﷺ : « لو أخذت ما في رحييها ولم تنفضها لطحنتا إلى يوم القيامة » .

وروى في موضع آخر ... عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته ، ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال فرجع الزوج فقال : أصبتم بعدي شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم من ربنا ، فأمَّ إلى الرحى فذكر للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة ») .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن** ﴾ قال صاحب الظلال : (وبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع يتنزّل أمر الله - ومنه هذا الأمر الذي هم بصدده في هذا السياق . فهو أمر هائل إذن ، حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطيقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين ، ويتسامع به الملأ الأعلى وخلق الله الآخرون في السماوات والأرضين . فهي مخالفة بلقاء شنعاء ، لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه من الظلمات إلى النور) .

* * *

كلمة أخيرة في سورة الطلاق :

إن الشيء الذي نلفت إليه النظر في هذه الكلمة عن سورة الطلاق هو ما نجده في هذه السورة من إعجاز واضح ، فالسورة تحدّثت عن أحكام شرعية غزيرة ، وعبّرت عنها بما رأيناه ، فليتأمَّل المتأمّلون هل بإمكان بشر أن يصوغ هذه المعاني كلها بمثل هذه الصياغة الدقيقة الجامعة الواسعة المعاني ، وبهذا الأسلوب ، وبهذه السلاسة ، وبهذا الجرس ، وبهذا التسلسل ، وبهذا البيان ، وبما يتفق مع روح القرآن كله ، وبما يؤدي دوره ضمن الوحدة القرآنية ، هل بإمكان بشر - كائناً من كان - أن يفعل هذا ؟ أغنى الصباح عن المصباح ، متى احتاج النهار إلى دليل . ولننتقل إلى سورة التحريم .



سورة التحريم

وهي السورة السادسة والستون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الخامسة من قسم
المفصل ، وهي اثنتا عشرة آية
وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

بين يدي سورة التحريم :

قدم الألوسي لسورة التحريم بقوله : (ويقال لها : سورة المتحرم ، وسورة (لم تحرم) ، وسورة النبي ﷺ ، وعن ابن الزبير : سورة النساء . والمشهور أنها مدنية ، وعن قتادة أن المدني منها إلى رأس العشر ، والباقي مكي ، وآيها اثنتا عشرة آية بالاتفاق ، وهي متواخية مع التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإماء ، وبينهما من الملابسة ما لا يخفى ، ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة ، ولذا ختمت بذكر زوجيه صلى الله تعالى عليه وسلم في الجنة آسية امرأة فرعون . ومريم بنت عمران قاله الجلال السيوطي عليه الرحمة) .

ومن تقديم صاحب الظلال لهذه السورة نقتطف ما يلي : (وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ﷺ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته ﷺ وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك ... ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه) .

(وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التي كانت تقع في حياة الرسول ﷺ وفي حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية في السورة .

بمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار . كما ورد مشهد الكافرين في هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط ، كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقّت النفخة من روح الله ، وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) .

☆ ☆ ☆

كلمة في سورة التحريم ومحورها :

قلنا إن محور سورة التحريم هو محور سورة المائدة أي قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ۞ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ لاحظ أن سورة المائدة يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ ﴿ **لا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم ... لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم** ﴾ وهذه سورة التحريم تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم ۞ قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم** ﴾ وتأمر سورة التحريم بالتوبة النصوح ، وجهاد الكافرين والمنافقين ، وصلة ذلك بنقض الميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض واضحة ، والملاحظ أن آيتي سورة البقرة اللتين قلنا إنهما محور سورة التحريم تبدآن بقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً** ﴾ وأن سورة التحريم يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلاً** ﴾ وههنا نحب أن نسجّل ملاحظة .

في هذه المجموعة وردت سورتان مبدوءتان بـ (يا أيها) ، وفي المجموعة القادمة سترد سورتان مبدوءتان بـ (يا أيها) سورتا المزمل والمدثر ، وفي القسم الأول من أقسام القرآن وردت سورتان مبدوءتان بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها** ﴾ هما سورتا النساء والمائدة ، وقلنا إن محور السورة الأولى من كل هذه السور هو ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ وقلنا إن محور السورة الثانية من كل هذه السور هو ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً** ﴾ والملاحظ أن سورة التحريم يرد فيها ذكر المثل بقوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلاً ...** ﴾ وأن سورة المدثر يرد فيها قوله تعالى : ﴿ **وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ لاحظ ذكر المثل ولاحظ المطابقة الحرفية بين قوله تعالى في سورة البقرة عن المثل : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً** ﴾ أليس في وجود مثل هذه المعاني دليل على صحة ما اتجهنا إليه في فهم السياق الكلي للقرآن والوحدة القرآنية ، ولنعد إلى الكلام عن سورة التحريم .

إن لسورة التحريم سياقها الخاص ككل سورة ، كما أنها تفصّل في محورها ، وسنرى ذلك كله بالتفصيل أثناء عرضها .

تنقسم السورة إلى فقرتين واضحتين : تبدأ الفقرة الأولى بـ ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وتنتهي بـ ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وتبدأ الفقرة الثانية بقوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلاً** ﴾ . تنتهي الفقرة الأولى بنهاية الآية (٩) ، وتنتهي الفقرة الثانية بنهاية السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتستمر من الآية (١) حتى نهاية الآية (٩) وهذه هي .

المجموعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

المجموعة الثانية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

ملاحظة :

لفهم السورة فهماً دقيقاً يحسن أن نذكر رواية في أسباب النزول تعين على الفهم : قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية ، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي قال : « ألا ترضين أحرمها فلا أقربها » قالت : بلى ، فحرمها وقال لها : « لا تذكري ذلك لأحد » فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي لِمَ تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك** ﴾ الآيات كلها ، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفّر عن يمينه وأصاب جاريته ، وروى الهيثم بن كليب في مسنده عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ لحفصة : « لا تخبري أحداً وإن أم إبراهيم عليّ حرام » فقالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : « فوالله لا أقربها » قال : فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال : فأنزل الله تعالى ﴿ **قد فرض الله لكم تحِلّة أيمانكم** ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الضياء المقدسي في كتابه المستخرج) ، وسنرى في الفوائد روايات أخرى في سبب النزول يفيد بعضها أنّ الذي حرّمه الرسول ﷺ على نفسه هو شربه العسل عند زينب بنت جحش زوجته رضي الله عنها .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك** ﴾ من ملك اليمين على حسب الرواية التي نقلناها ، أو من شرب العسل عند زينب بنت جحش زوجته عليه الصلاة والسلام ﴿ **تبتغي** ﴾ بالتحريم ﴿ **مرضات أزواجك** ﴾ وفي هذا ما فيه ، قال النسفي : لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿ **والله غفور** ﴾ أي : قد غفر لك فعلتك ﴿ **رحيم** ﴾ أي : قد رحمك فلم يؤاخذك به ﴿ **قد فرض الله لكم تحِلَّة أيمانكم** ﴾ قال النسفي : أي : قد قدّر الله لكم ما تحلّلون به أيمانكم وهي الكفارة ، أو قد شرع لكم تحليلها بالكفارة ﴿ **والله مولاكم** ﴾ أي : سيدكم ومتولي أموركم . قال النسفي : وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم ، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم أنفسكم ﴿ **وهو العليم** ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿ **الحكيم** ﴾ فيما أحلّ وحرّم ﴿ **وإذ أسرّ النّبي إلى بعض أزواجه** ﴾ وهي حفصة ﴿ **حديثاً** ﴾ هو تحريمه مارية ، أو تحريمه شرب العسل على نفسه عند زينب رضي الله عنها ﴿ **فلمّا نبأت به** ﴾ أي : فحين أخبرت به ، والتي أخبرتها به هي عائشة رضي الله عنها ﴿ **وأظهره الله عليه** ﴾ أي : وأطلع الله نبيه ﷺ على إفشائها الحديث على لسان جبريل ﴿ **عرّف بعضه** ﴾ أي : أعلم ببعض الحديث ﴿ **وأعرض عن بعض** ﴾ فلم يخبر تكرّماً ، قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ﴿ **فلمّا نبأها به** ﴾ أي : فلمّا نبأ النبي ﷺ حفصة بما أفشت من السّر إلى عائشة ﴿ **قالت** ﴾ حفصة ﴿ **من أنبأك هذا قال نبأني العليم** ﴾ بالسرائر ﴿ **الخبير** ﴾ بالضمائر ﴿ **إن تتوبا إلى الله** ﴾ قال النسفي : خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾ أي : إن تتوبا إلى الله فقد استمعت قلوبكما لأمر الله استماع قبول ﴿ **وإن تظاهرا عليه** ﴾ أي : وإن تتعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره أو في الاستمرار على حاليكما في صنع ما لا يحبه ﴿ **فإن الله هو مولاه** ﴾ أي : وليّه وناصره ، وفي ذكر الضمير (هو) إيذان بأنه سبحانه يتولى ذلك بذاته ﴿ **وجبريل** ﴾ أي : أيضاً وليّه ﴿ **وصالح المؤمنين** ﴾ أي : كذلك أولياؤه ، وصالح المؤمنين : هو كل من آمن وعمل صالحاً ﴿ **والملائكة** ﴾ على تكاثر عددهم ﴿ **بعد ذلك** ﴾ أي : بعد نصرة الله وجبريل وصالحي المؤمنين ﴿ **ظهير** ﴾ أي : مظاهرين له ، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن** ﴾ قال النسفي : (فإن قلت

كيف تكون المبدلات خيراً منهن ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين ؟ قلت : إذا طلقهن رسول الله ﷺ لإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهن) ﴿ **مسلمات** ﴾ أي : داخلات في الإسلام ، ومتصفات به ، أو مستسلمات لله ورسوله ﴿ **مؤمنات** ﴾ أي : مقرّات مخلصات ﴿ **قانتات** ﴾ أي : مطيعات ﴿ **تائبات** ﴾ من الذنوب أو راجعات إلى أمر الله وإلى أمر رسوله ﷺ ، أي : أصبحت التوبة لهنّ خلقاً ﴿ **عابدات** ﴾ أي : لله بأصناف العبادة من صلاة وذكر ﴿ **سائحات** ﴾ أي : صائمات ، قال النسفي : (وقيل للصائم سائح لأن السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه فشبّه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره) أقول : وفي هذه الأوصاف جماع الخيرية في المرأة ، فمن ربّى امرأة فليحققها بهذه الأوصاف ، ومن اختار امرأة فليختر من تجمّعت بها هذه الأوصاف ؛ فإنها الأوصاف التي حدّدها الله عز وجل فيمن يختارها لرسوله ﷺ ﴿ **ثيّبات وأبكاراً** ﴾ أي : منهن ثيبات ومنهن أبكار ، وفي ذلك إشارة إلى أن العبرة في الخصائص لا في الثيوبة والبكارة ، هذه الخصائص التي ينبغي أن تفطن لها كل مسلمة فتتحقق بها ، وهي كما قال صاحب الظلال : (الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذي يعمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكر في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته) .

....

كلمة في السياق :

١ - مجيء هذه الآيات بعد سورة الطلاق واضح الدلالة ففي الآيات نموذج على حالة يحسن معها الطلاق حتى من أعظم الناس ، وأكملهم رسول الله ﷺ ، ومجيء هذه الآيات في المجموعة التي مقدّمتها سورة التغابن - السورة التي نصّت على قوله تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم** ﴾ - واضح الحكمة ، إذ الآيات هنا تشير إلى مظهر من مظاهر الخطأ ترتكبه حتى أعظم النساء ، وأكرمهن في حق الزوج حتى ولو كان هو رسول الله ﷺ .

٢ - رأينا في الآيات فظاعة أن تفشي المرأة سر زوجها ، مهما كان هذا السر ،

ورأينا تأديب الله عز وجل لمن يفعل ذلك ، ورأينا الخصائص العليا التي ينبغي أن تتحقّق بها الزوجة المثلى ، وفي ذلك درس لأزواج رسول الله ﷺ أن يكنّ كذلك ، ولفت نظر لكل مسلم أن يُربّي على هذا ، وأن يختار مثل هؤلاء ، والتسلسل على الشكل التالي : حادثة حدثت رتّب عليها رسول الله ﷺ ما رتّب واستكتم ، فعاتبه الله على ما رتّبه ، وعاتب من أفشى سرَّه ، وشدّد في العقاب ، وطالب بالتوبة ، ورفع الهمّة إلى معان ، كل ذلك مع غيره رأيناه في المجموعة .

٣ - ما صلة هذه المجموعة بمحور السورة ؟ في المجموعة عتاب على تحريم الحلال ، وتبيان للمخرج منه بأن يعتبر يميناً ويكفّر عنه ، وفي ذلك إنكار على صيغة من صيغ التوثيق ، وإنكار على أي عملية إرضاء لأي جهة بتحريم ما أحل الله ، وتبيان المخرج بأن تعتبر الصيغة يميناً ، وعلى صاحبها الكفّارة ، وصلة ذلك بالمواثيق واضحة ، إذ فيها تبيان أن التكفير عن اليمين ، أو ما له صفة اليمين في موافقة أمر الله لا يعتبر نقضاً لميثاق الله . وفي المجموعة عتاب على إفشاء السر ، والسرّ أمانة ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة ، فخيانة الأمانة نقض للعهد ، وإفساد في الأرض ، وفي المجموعة عتاب على التظاهر على رسول الله ﷺ ، والتظاهر على رسول الله قطع لما أمر الله به أن يوصل ، ونقض للمواثيق مع الله عز وجل ، وإفساد في الأرض ، فالمجموعة تربّي وتقرر وتحرّر وتفتح الطريق للأوبة ، وفي المجموعة بيان لخصائص المرأة التي إن تحققت بها فإنها تخرج عن كونها فاسقة ، هذه الخصائص هي الإسلام ، والطاعة ، والإيمان ، والتوبة ، والعبادة ، والصوم ، ولذلك صلاته بمحور السورة من سورة البقرة .

٤ - وبعد أن ذكر الله عز وجل الخصائص العليا للمرأة المسلمة في آخر آية من المجموعة الأولى تأتي أول آية في المجموعة الثانية لتقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ...** ﴾ وهذا يشير إلى أن المجموعة الأولى كانت مقدمة للمجموعة الثانية .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الأولى

النداء الأول :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾ قال النسفي : (أي : قوا

أنفسكم بترك المعاصي ، وفعل الطاعات ، وأهليكم بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم : ناراً) وقال علي رضي الله عنه : أي : أدّبوهم وعلّموهم ، وقال ابن عباس : أي : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله ، وأمروا أهليكم بتقوى الله ، وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله ، وتأمرهم به ، وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية قذّعتهم عنها ، وزجرتهم عنها ، وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلّم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه . ثمّ وصف الله عزّ وجلّ هذه النار التي أمرنا أن نقي أنفسنا وأهلينا إياها فقال : ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ قال النسفي : (أي : نوعاً من النار لا تتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب) . قال ابن كثير في تفسير هذه الحجارة : (قيل المراد بها الأصنام التي تعبد لقوله تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ وقال ابن مسعود ومجاهد وأبو جعفر الباقر والسدي : هي حجارة من كبريت ، زاد مجاهد : أنتن من الجيفة) ﴿ **عليها** ﴾ أي : على هذه النار ، أي : يلي أمرها وتعذيب أهلها ﴿ **ملائكة** ﴾ قال النسفي : يعني : الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿ **غلاظ شداد** ﴾ قال النسفي : (أي : في أجرامهم غلظة وشدّة ، أو غلاظ الأقوال شداد الأفعال) قال ابن كثير : (أي : طباعهم غليظة وقد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، تركيبهم في غاية الشدّة والكثافة والمنظر) ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ قال النسفي : وليست الجملتان في معنى واحد ، إذ معنى الأولى : أنهم يتقبّلون أوامره ويلتزمونها ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ولا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه) ، وقال ابن كثير في الآية : (أي : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ، ليس بهم عجز عنه ، وهؤلاء هم الزبانية) ثم أخبر تعالى عمّا يقال للكافرين عند دخولهم النار ﴿ **يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم** ﴾ أي : لأنه لا عذر لهم ، أو لأنه لا ينفعهم الاعتذار ﴿ **إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ أي : في الدنيا فلا ظلم ، قال النسفي : أي : يقال لهم ذلك عند دخولهم النار ، وقال ابن كثير : أي : يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن عاتب الله عز وجل رسوله ﷺ ذلك العتاب ، وعاتب زوجتيه

ذلك العتاب ، وعرّف كل مؤمن أن الأمر جد ، والحساب دقيق ، جاء النداء آمراً كل مؤمن بوقاية نفسه وأهله من عذاب الله .

٢ - قبيل آيتي محور سورة التحريم ورد قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ ، ثمّ نذكر أن آية المحور الأولى قد ورد فيها ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ فبناءً على الموقف من القرآن يحكم بالكفر أو بالإيمان ، ويستحق الإنسان الجنة أو النار التي وقودها الناس والحجارة . ومن رؤية معاني سورة البقرة ، وصلة النداء ههنا فيها نستطيع أن نقدّر ما يدخل في هذا النداء : يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً بالإيقان بهذا القرآن ، وبأنه منزَّل من عند الله على رسول الله ، وبالتسليم له ، وبالعلم بأنه الحق من عند الله ، ولا تكونوا كالكافرين في شكّهم وارتيابهم واعتراضهم وأخلاقهم التي بسببها أضلّهم الله ؛ بما نقضوا من مواثيق ، وبما قطعوا من أرحام ، وبما أفسدوا في الأرض إن الأمر بوقاية النفس والأهلين من النار إنما يكون بالوفاء ، وبالصلة ، وبالإصلاح .

٣ - ولما كان الإنسان لا يخلو من ذنب فإن النداء الثاني يأتي مطالباً بالتوبة النصوح كبداية طريق للسير في الوقاية من النار .

النداء الثاني :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾ أي : صادقة أو خالصة ، قال النسفي : أي : توبة ترفو خروقك في دينك ، وترمّ خللك ، ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أي : تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها في صاحبها ، واستعماله الجدّ والعزيمة في العمل على مقتضياتها ، وقال ابن كثير : أي : توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلمّ شعث التائب وتجمعه وتكفّر عما كان يتعاطاه من الدناءات ﴿ **عسى ربكم** ﴾ قال ابن كثير : (وعسى من الله موجبة) ولذا قالوا : لم يزل الملوك والرؤساء والأمراء يجيبون بعسى ، ولعلّ ، ويقع منهم ذلك - عادة - موقع القطع والبت ، فكيف لا تكون (عسى) من ملك الملوك موجبة ، ومن ثَمَّ فتكفير السيئات بالتوبة النصوح

محقق ﴿ **أن يكفِّر عنكم سيئاتكم** ﴾ أي : يمحوها ﴿ **ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ وذلك إن تبتم توبة نصوحاً ﴿ **يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه** ﴾ أي : يوم لا يذل الله النبي والمؤمنين ، وذلك يوم القيامة ، قال النسفي : فيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ﴿ **نورهم** ﴾ أي : نور المؤمنين يوم القيامة ﴿ **يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ يضيء لهم طريق الوصول إلى الجنة ﴿ **يقولون** ﴾ إذا انطفأ نور المنافقين يوم القيامة كما ورد في سورة الحديد ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا** ﴾ يخشون مغبّة ذنوبهم في تلك اللحظة الهائلة ﴿ **إنك على كل شيء قدير** ﴾ ومن ذلك قدرتك على إتمام النور ، وغفران الذنب ، وفي ختم الآية بالدعاء بالمغفرة يوم القيامة تذكير للمؤمن أن يتوب في الدنيا ، ويستغفر لينفعه ذلك إذا طلب المغفرة يوم القيامة ، وهكذا تجد بداية الآية ونهايتها تصبّان في موضوع واحد ، وهو تهييج المؤمن على التوبة والاستغفار .

كلمة في السياق :

١ - بعد أن ذكر الله عز وجل في المجموعة الأولى ما يعلم به أن الأمر جد ، وطالب في النداء الأول من الفقرة الأولى أن يقي الإنسان نفسه وأهله من النار ، دلّ في النداء الثاني على بداية الطريق للسير الجادّ بالخلاص من الذنب كله صغيره وكبيره ، وذلك بالتوبة النصوح ، وصلة ذلك بالنداء الأول واضحة ، وصلة ذلك بالمجموعة الأولى أيضاً واضحة ، فالمجموعة الأولى ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ وههنا بيّن أن المراد بالتوبةِ التوبةُ النصوح ، وكان النداء عامّاً ليشمل كل المؤمنين ، لأنه ما من مؤمن يخلو من ذنب فإذا كانت أمهات المؤمنين يؤمرن بالتوبة فبقية الخلق أولى .

٢ - لم يحدد النداء الأول أو الثاني ما به تتحقق وقاية النفس والأهل من النار ، ولا ما ينبغي أن يتاب منه ، ومن المحور نعلم أن ذلك محدّد بقوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ فالوفاء بعهود الله ، ووصل ما أمر به أن يوصل ، والإصلاح في الأرض ، هي طريق الوقاية من النار ، والتوبة واجبة من كلّ ما يناقض ذلك ، ودليل هذا هو مجيء النداء الثالث آمراً رسول الله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، وقد رأينا من قبل أن قوله تعالى : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد**

الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ ينتظم الكافرين والمنافقين ، فالسياق يتوجه لخطاب رسول الله ﷺ ، آمراً إياه بمجاهدة الذين يرفضون وقاية أنفسهم وأهليهم من النار ، والذين يرفضون التوبة ، فلنر النداء الثالث الذي تختم به المجموعة الثانية من الفقرة الأولى من سورة التحريم .

النداء الثالث :

﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار** ﴾ قال النسفي : بالسيف ﴿ **والمنافقين** ﴾ قال النسفي : بالقول الغليظ والوعد البليغ ، وقيل بإقامة الحدود عليهم ، وقال ابن كثير : يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ أي : في الدنيا فيما تجاهدهما به من القتال ، والمحاجّة باللسان ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أي : في الآخرة ﴿ **وبئس المصير** ﴾ أي : المآل جهنم .

كلمة في السياق :

١ - اعتدنا كثيراً أن نرى بداية مقطع تشبه نهايته ، وههنا نرى أن الفقرة الأولى من سورة التحريم بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وانتهت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ بدأت المجموعة بعتاب رسول الله ﷺ على تحريمه ما أحلّ الله ، وانتهت بأمره بمجاهدة الكفار والمنافقين ، مبيّنة في الوسط أخلاق المؤمنين : أنهم يتوبون إذا أذنبوا ، وأنهم يقون أنفسهم وأهليهم ناراً ، وفي الفقرة ورد قوله تعالى : ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾ وصلة ذلك بالأمر بالجهاد واضحة . ففي حادثة جزئية يذكر الله عز وجل أنّه ينصر رسوله ، فكيف في الصراع الكبير بين الإيمان وبين الكفر والنفاق .

٢ - سياق السورة الرئيسي ينصبّ على معاتبة زوجتي رسول الله ﷺ بدليل أن المجموعة الأخيرة تضرب مثلين لامرأتين مسلمتين وامرأتين كافرتين ، وَذِكْرُ زوجتين كافرتين في المثل - في الوقت الذي تظاهرت فيه زوجتان على رسول الله ﷺ - دليل على أن السياق الرئيسي ينصبّ على تأديب زوجتي رسول الله ﷺ تارة من خلال الخطاب المباشر ، وتارة من خلال الخطاب العام ، ومن كل ذلك يأخذ المسلمون رجالاً

ونساءً درساً كبيراً في وجوب الوقوف عند الحدود .

٣ – إن محور سورة التحريم هو الذي حدّد الصفات المشتركة للكافرين والمنافقين . وههنا يأتي الأمر بجهادهم ، فهذا مظهر من مظاهر ارتباط السورة بمحورها ، ولعله اتضح لك بما ذكرناه حتى الآن السياق الخاص للسورة ، وصلة أجزائها ببعضها ، وصلة السورة بمحورها ، ولعلّ ما سيأتي يزيد هذا كله وضوحاً ، فلننتقل الآن إلى عرض الفقرة الثانية في السورة .



الفقرة الثانية

وتستمر من الآية (١٠) إلى نهاية السورة أي : إلى الآية (١٢) وهذه هي :

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

ملاحظة على السياق :

لاحظ صلة هذه الآيات بأوائل السورة : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ... ﴾ ﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط** ... ﴾ وهذا يشير - كما قلنا - إلى أن السياق الرئيسي يصبّ في تأديب زوجتي الرسول ﷺ ؛ ليكون في ذلك درس كبير لكل مؤمن ومؤمنة على مدى العصور ، وسنرى في كلام النسفي ما يشير إلى ما ذكرناه ، فليتأمله القارىء إذا وصل إليه .

التفسير :

﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا** ﴾ قال ابن كثير : (أي : في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿ **امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين** ﴾ أي : نبيّين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً ، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ، ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط ﴿ **فخانتاهما** ﴾ أي : في الإيمان ،

لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يُجدِ ذلك كله شيئاً ، ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً** ﴾ أي : لكفرهما) ، قال النسفي : أي : فلم يغن الرسولان عنهما أي : عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من الزواج إغناءً ما من عذاب الله ﴿ **وقيل** ﴾ للمرأتين عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ **ادخلا النار مع** ﴾ سائر ﴿ **الداخلين** ﴾ الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء ، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط ﴿ **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا** ﴾ قال ابن كثير : وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين ، أنهم لا تضرّهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ﴿ **امرأة فرعون** ﴾ قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضَرَّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . ﴿ **إذ قالت** ﴾ امرأة فرعون ﴿ **رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة** ﴾ قال ابن كثير : (قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار) أي : لأنها قالت (عندك) قبل أن تذكر (بيتاً في الجنة) ﴿ **ونجني من فرعون وعمله** ﴾ قال ابن كثير : أي : خلّصني منه فإني أبرأ إليك من عمله . أقول : الظاهر أنها طلبت الخلاص من فرعون بالموت ﴿ **ونجني من القوم الظالمين** ﴾ أي : من قوم فرعون جميعاً ، قال النسفي : وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ﴿ **ومريم ابنة عمران** ﴾ أي : وضرب الله مثلاً مريم ابنة عمران ﴿ **التي أحصنت فرجها** ﴾ أي : حفظته وصانته ، قال ابن كثير : الإحصان هو العفاف والحرية ، وقال النسفي : (أي : من الرجال) ﴿ **فنفخنا فيه من روحنا** ﴾ أي : فنفخ جبريل من روح الله في الفرج ، أي : من روح خلقها الله ، وأضافها لنفسه تشريفاً ، وأضاف جل جلاله النفخ لذاته الشريفة لأنه الآمر به ﴿ **وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه** ﴾ قال ابن كثير : أي : بقدَرِه وشرعه ﴿ **وكانت من القانتين** ﴾ أي : من الطائعين . قال النسفي : لما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين (الذكور والإناث) غلّب ذكوره على إناثه ، قال النسفي عن الفقرة الثانية : (مثل الله عز وجل حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة ، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما ، فلم يغن الرسولان عنهما - أي : عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من الزواج - إغناءً ما من عذاب الله ، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة ادخلا النار مع سائر الداخلين

الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء ، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط ، ومثّل حال المؤمنين في أن صلة الكافرين لا تضرهم ، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله ، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً . وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه ، وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين ، وأن لا يتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ) .

....

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من خلال كلام النسفي صلة الفقرة الأخيرة ببداية السورة ، ورأينا من قبل صلة ضرب هذين المثلين بمحور السورة الذي فيه ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً** ... ﴾ .

٢ - في محور السورة ورد قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ وفي الفقرة الأخيرة رأينا أن مدار النجاح عند الله على الإيمان ، ومدار الخسران على الكفر ، ورأينا أن مما وصف الله عز وجل به مريم ﴿ **وصدّقت بكلمات ربها وكتبه** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ في المحور واضحة .

٣ - وفي السورة دروس للأسرة المسلمة ألا يرضي الزوج زوجته بمخالفة شرعية ، وألا تفشي المرأة سِرَّ زوجها ، وألا تعاديه وتظاهر عليه ، وأن تكون الزوجة مسلمة مؤمنة قانتة عابدة تائبة صائمة ، وأن على الرجال أن يقوا أنفسهم وأهليهم النار ، وأن على الجميع أن يتوبوا إلى الله ، وأن على المرأة أن تحقق إيمانها بنفسها ، ولا تغتر بأنها زوجة رجل صالح ، ومن تلاحم هذه المعاني ندرك جوانب من السياق الخاص للسورة .

٤ - ولعل القارىء يدرك صلة آيات السورة ببعضها لأول نظرة إلا آية ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ فإن صلتها بما قبلها وبما بعدها تحتاج إلى تأمل .

أ - بدأت السورة بعتاب الرسول ﷺ لأنه حرّم ما أحلّ الله ابتغاء مرضاة أزواجه ، وقد رأينا أنّ سياق السورة انصبّ على تأديب الأزواج ، ولمّا كان إرضاء الأزواج قد يترتب عليه ترك الجهاد لأنّه كثيراً ما تحاول المرأة أن تصرف زوجها عن شؤون الجهاد ، ليلتفت إلى شؤون العيال ، فجاءت الآية تأمر بالجهاد في سياق السورة .

ب - مما يراه كل عامل في الدعوة إلى الله تأثير الزوجة على زوجها ، حتى ليبلغ الأمر ببعضهم أن يكون الزواج في حقه هو نقطة الانعطاف من الإيمان إلى الكفر ، وكل ذلك مرده إرضاء الزوجة ، فأن تأتي سورة في القرآن تحذّر من هذا المنعطف نحو الفسوق ، وتحمل على بذل الجهد للتقويم من خلال مخاطبة أعظم الخلق شأناً في عتابه ﷺ على حادثة جزئية ، وإعطائها هذا الحجم الكبير ، فذلك مظهر من مظاهر حكمة هذا القرآن ، ومظهر من مظاهر إحاطة الله علماً بكل شيء ، ولعله بهذا الذي ذكرناه ، قد اتّضح صلة الأمر بالجهاد في سياق هذه السورة ، ولعلّه بذلك قد اكتملت لنا معرفة السياق الخاص للسورة ، وصلتها بمحورها .

الفوائد :

١ - تذكر بعض الروايات أن سبب نزول صدر سورة التحريم هو حادثة تحريمه عليه الصلاة والسلام على نفسه مارية القبطية ، وهناك روايات تذكر أن سبب النزول هو تحريمه ﷺ شرب العسل على نفسه عند زينب ، وهناك روايات أخرى ولا يبعد أن يكون ذلك كله قد كان في زمن واحد ، وقد كنا ذكرنا في ابتداء تفسير السورة بعض الروايات التي تذكر أن سبب النزول هو تحريمه مارية رضي الله عنها ، وههنا نذكر إحدى الروايات التي تذكر أن سبب النزول هو تحريمه شرب العسل على نفسه عند زوجته زينب رضي الله عنها . (روى البخاري عند هذه الآية ... عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ، إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً ») ، ومن أجل التوفيق بين هذه الرواية والرواية الأخرى قال الألوسي : (يحتمل أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد شرب عسلاً عند زينب كما هو عادته ، وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت

فحرم العسل ، واتفق له عليه الصلاة والسلام قبيل ذلك أو بعيده أن وطىء جاريته مارية في بيتها في يومها على فراشها فوجدت ، فحرم صلى الله تعالى عليه وسلم مارية ، وقال لحفصة ما قال تطييباً لخاطرها واستكتمها ذلك ، فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القصتين فاقتصر بعض الرواة على إحداهما . والبعض الآخر على نقل الأخرى ، وقال كلّ : فأنزل الله تعالى ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ الخ ، وهو كلام صادق ، إذ ليس فيه دعوى كلٍ حصر علة النزول فيما نقله ، فإن صح هذا هان أمر الاختلاف) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي لِمَ تحرِّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك ... قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الطبراني ... عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾ قال : حرم رسول الله ﷺ سريته ، ومن ههنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته ، أو زوجته ، أو طعاماً ، أو شراباً ، أو ملبساً ، أو شيئاً من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة ، وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما ، أو أطلق التحريم فيهما في قول ، فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن** ﴾ قال ابن كثير : (وروى البخاري عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن** ﴾ فنزلت هذه الآية ، وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن منها في نزول الحجاب ، ومنها في أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ ، وروى ابن أبي حاتم عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب : بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ فاستقريتهن أقول : لتكفنّ عن رسول الله ﷺ أو ليبدّلنه الله أزواجاً خيراً منكن ، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن ؟ . فأمسكت ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً** ﴾ وهذه المرأة التي ردّته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة كما ثبت ذلك في صحيح البخاري) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾ قال ابن كثير :

(وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مُروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » هذا لفظ أبي داود وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وروى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ مثل ذلك . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ، ومجانبة المعاصي وترك المنكر ، والله الموفق) .

وقال الألوسي بمناسبة هذه الآية : (وروي أن عمر قال حين نزلت : يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « تنهوهن عما نهاكم الله عنه ، وتأمروهن بما أمركم الله به ، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » ، وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وجماعة عن علي كرم الله وجهه أنه قال في الآية : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم ، والمراد بالأهل على ما قيل : ما يشمل الزوجة والولد والعبد والأمة . واستدل بهاعلى أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ، وأدخل بعضهم الأولاد في الأنفس ، لأن الولد بعض من أبيه ، وفي الحديث : « رحم الله رجلاً قال : يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معه في الجنة » ، وقيل : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهّل أهله) .

وقال صاحب الظلال بمناسبة هذه الآية : (هذا أمر ينبغي أن يعيه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيداً . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ؛ وإلى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشىء البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات) .

٥ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن سماك بن حرب سمعت النعمان بن بشير يخطب سمعت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾ قال : يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه ، وروى الثوري ... عن عمر رضي الله عنه قال : التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، أو لا يريد أن يعود فيه ، وقال

أبو الأحوص وغيره ... عن النعمان سئل عمر عن التوبة النصوح فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ثم لا يعود إليه أبداً . وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله ﴿ **توبة نصوحاً** ﴾ قال : يتوب ثم لا يعود .

وقد روي هذا مرفوعاً فروى الإمام أحمد عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « التوبة من الذنب : يتوب منه ثم لا يعود فيه » تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف والموقوف أصح والله أعلم ، ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رَدّه إليه بطريقه . وروى ابن أبي حاتم ... عن الحسن يقول : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته ، فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجبّ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبت في الصحيح : « الإسلام يجبّ ما قبله ، والتوبة تجبّ ما قبلها » وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات - كما تقدم في الحديث وفي الأثر - ثم لا يعود فيه أبداً . أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك ، لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها » ؟ وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى والله أعلم) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن رجل من بني كنانة قال : صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول : « اللهم لا تخزني يوم القيامة » ، وقال محمد بن نصر المروزي : عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم ، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم ، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم » فقال رجل يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ قال : « غرٌّ محجلون من آثار الطهور ، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم

بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم ») .

٧ - بمناسبة قوله تعالى عن زوجتي نوح ولوط : ﴿ **فخانتاهما** ﴾ قال ابن كثير : (وليس المراد بقوله : ﴿ **فخانتاهما** ﴾ في فاحشة ؛ بل الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء كما قدمنا في سورة النور ، قال سفيان الثوري ... سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول في هذه الآية ﴿ **فخانتاهما** ﴾ قال : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه ، وقال العوفي عن ابن عباس قال : كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تطلع على سِرّ نوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء . وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : ما بغت امرأة نبي قط ، إنما كانت خيانتهما في الدين) .

٨ - بمناسبة الكلام عن زوجة فرعون ومريم عليهما الرضوان في السورة ، قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة ... عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ») .

وقال صاحب الظلال : (ودعاء امرأة فرعون وموقفها مَثَلٌ للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره . فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي ... ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاءً تستعيذ بالله منه ، وتتفلَّت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية ... وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة

- كما أسلفنا - أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة ... وحدها ... في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، والمقام الملوكي ... في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء ... وحدها ... في خضم هذا الكفر الطاغي !

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات ، وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوقات ، وكل هذه الهواتف . ومن ثَمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد . الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى) .

(وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر . بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها ... وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله لأزواج النبي ﷺ بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة ، ويضربهما للمؤمنات من بعد في كل جيل) .

كلمة أخيرة في سورة التحريم :

بدأت سورة التحريم بعتاب رسول الله ﷺ على تحريم ما أحل الله عز وجل ، ثم ثنّت بعتابه زوجتيه على التظاهر عليه وإفشاء سِرّه ، ثم جاء الأمر العام لأهل الإيمان بوقاية الأنفس والأهلين من النار ، ومن سياق السورة نفهم أن عملية الوقاية تقتضي عدم الرضوخ لرغبات الزوجات ، وتقتضي تأديب الزوجات ، وحمل الأنفس والأهل على الطاعة الكاملة ، ثمّ جاء الأمر لكل المؤمنين بالتوبة النّصوح . كبداية طريق إلى الجنة ، ثم جاء أمر للنبي ﷺ بالجهاد ، مما يشير في سياق السورة إلى أن أدب المسلم الجهاد الدائم ، وذلك يقتضي منه عدم الرضوخ لأي معنى يصرفه عن هذا الجهاد ، سواء كان مانعاً أسرياً أو غيره ، كما أن مجيء هذا الأمر في هذا السياق يشير إلى أن كل من تحقق بصفة الكفر أو النفاق فقد وجبت مجاهدته كائناً من كان قريباً أو بعيداً ، ثم ضرب الله مثلين لامرأتين كافرتين لم ينجّهما كونهما تحت رسولين من العذاب ، وضرب مثلين لامرأتين صالحتين إحداهما كانت زوجة كافر لم يضرها كفره عند الله ، والثانية لم تتزوج أصلاً ، وكانت في القمة من الصلاح والولاية ، وفي ذلك درس لزوجات رسول الله ﷺ ولكل مؤمنة في هذا العالم .

. . . .

مما مَرّ ندرك أن السورة حذّرت من منزلقات خطرة في الطريق ، وحررت من معانٍ خطرة في الطريق ، ووضعت المعالم التي مَنْ سار عليها من الرجال والنساء تحرّر من السير في طريق الضلال .

....

وقد رأينا صلة السورة - بفقرتيها - بالمحور . فالسورة فيها مثلان من أمثال القرآن ، وفيها إخراج لقضية عن أن تعتبر نقضاً لميثاق الله ، وفيها ذكر لمعان تدخل في نقض الميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والإفساد في الأرض ، وفيها دعوة للسير في الطريق الموصل إلى رضوان الله ، وفيها أمر بجهاد الفاسقين كفاراً ومنافقين . وصلة ذلك كله بمحور السورة واضحة ، وقد رأيناها .

....

وقد ختم صاحب الظلال الكلام عن سورة التحريم بقوله : (وأخيراً فإن هذه السورة قطعة حية من السيرة ، رسمها القرآن بأسلوبه الموحي . لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير القرآني أكثر إيحاء ، وأبعد آماداً ، وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان ... كما هو شأن القرآن) .

☆ ☆ ☆



سورة الملك

وهي السورة السابعة والستون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الخامسة من قسم
المفصل ، وهي ثلاثون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله وآلِهِ وأصحابِه

ربنا تقبَّل منا، إنك أنت السميعُ العليم

بين يدي سورة الملك :

قال الألوسي في تقديمه لهذه السورة : (ووجه مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ضرب مثلاً للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبيين عظيمين ، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم ، وهما محتوم لهما بالسعادة ، وأن أكثر قومهما كفار افتتح هذه بما يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه ، وقيل إن أول هذه متصل بقوله تعالى في آخر سورة الطلاق : ﴿ **الله الذي خلق سبع سمٰوات** ﴾ لما فيه من مزيد البسط لما يتعلق بذلك ، وفصل بسورة التحريم لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها ، وقد جاء في فضلها أخبار كثيرة منها ما مرّ آنفاً ، ومنها ما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له : تبارك الذي بيده الملك » ومنها ما جاء في حديث رواه الطبراني وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود ، وآخر رواه عنه جماعة وصححه الحاكم : من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرأ الٓمٓ تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك كل ليلة لا يدعهما في سفر ولا حضر ، ولهذا ونحوه قيل يندب قراءتها كل ليلة) .

وقال صاحب الظلال عن هذه السورة : (وهذه السورة - سورة تبارك - تعالج إنشاء تَصوُّر جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تَصوُّر واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم في السماوات ، وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير ، وفي العالم الآخر كالجن وخزنتها ، وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة ، في هذه الأرض . كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، فترى هناك يد الله المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبعثة من

قدرة الله . وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض - على سعتها - إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء .

....

إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهي تبني من قواعد التصور الإسلامي جوانب رئيسية هامة ؛ فهي تقر في الضمير حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيداً للحشر والجزاء . وحقيقة الكمال والجمال في صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره - سبحانه - مع كل مخلوق ... وجملة من هذه الحقائق التي يقوم عليها تصور المسلم . هذا التصور الذي ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذي يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة ...) .

كلمة في سورة الملك ومحورها :

قلنا من قبل إن محور سورة الملك هو محور سورة الأنعام أي : هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ وذلك واضح من أدنى تأمل للسورة : تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور * الذي خلق سبع سمٰوات طباقاً** ﴾ وصلة هذا المعنى بالآيتين المذكورتين من سورة البقرة لا تخفى ، وفي السورة نجد قوله تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ...** ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ لا تخفى . وفي السورة نجد قوله تعالى : ﴿ **قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه**

تحشرون ﴾ وصلة ذلك بقوله : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ لا تخفى ، فكون السورة تفصيلاً للآيتين المذكورتين في سورة البقرة واضحة جداً .

....

فسورة التغابن فصّلت في محور سورة آل عمران ، وسورة الطلاق فصّلت في محور سورة النساء ، وسورة التحريم فصّلت في محور سورة المائدة ، وسورة الملك فصّلت في محور سورة الأنعام ، وسنرى أن سورة القلم فصّلت في محور سورة الأعراف ، وهكذا تجد كيف أن هذا القرآن يسير على نسق واحد من أوله إلى آخره ، وعلى تسلسل معيّن . ونلاحظ أن سورة التغابن بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يسبّح لله ما في السموٰات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * وهو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ وأن سورة الملك تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك** ﴾ فالصلات واضحة بين السورتين مما يؤكد أن سورة التغابن هي مقدمة لسور مجموعتها .

....

وسورة التحريم انتهت بمثلين لكافرتين ، ومؤمنتين ، وسورة الملك تأتي لتقيم الحجة على الكفر وأهله ، فالسورة تأخذ محلها في مجموعتها وفي تفصيلها لمحورها ، كما أن لها سياقها الخاص ووحدتها . وسنعرض السورة على أنها فقرتان : الفقرة الأولى حتى نهاية الآية (١٤) ، والفقرة الثانية حتى نهاية السورة ، ولنبدأ عرض السورة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (١٤) وهذه هي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

التفسير :

﴿ **تبارك** ﴾ أي : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿ **الذي بيده الملك** ﴾ قال النسفي : أي : بتصرفه في الملك والاستيلاء على كل موجود ، وهو مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، قال ابن كثير : يمجّد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك أي : هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لقهره وحكمته وعدله ﴿ **وهو على كل شيء** ﴾ من المقدورات أو من الإنعام والانتقام ﴿ **قدير** ﴾ أي : قادر على الكمال والتمام ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً** ﴾ قال النسفي : والمعنى : خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعمّ الأمير والأسير ، فيظهر منكم ما علم أنه يكون منكم ؛ فيجازيكم على عملكم لا على علمه بكم ﴿ **أحسن عملاً** ﴾ أي : أخلصه وأصوبه ، فالخالص أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السنة ، والمراد أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل ، وسلّط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ، فما وراءه إلا البعث والجزاء الذي لا بدّ منه ، وقدّم الموت على الحياة ، لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه ، فقدّم لأنه فيما يرجع إلى ما سيقت له الآية أهم . ولما قدّم الموت الذي هو أثر صفة القهر على الحياة التي هي أثر اللطف قدّم صفة القهر على صفة اللطف بقوله : ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أي : الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿ **الغفور** ﴾ أي : الذي يمحو ذنوب أهل الإساءة والزلل إذا تابوا ﴿ **الذي خلق سبع سمٰوات طباقاً** ﴾ أي : طبقة بعد طبقة ، ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ أي : من اختلاف واضطراب ، وعن السدي : من عيب ، وحقيقة التفاوت عدم التناسب ، كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه ، وفي ذكر اسم الرحمن في قوله تعالى : ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ تعظيم لخلقهن ، وتنبيه على سبب سلامتهن من التفاوت وهو أنه خلْق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب . قال ابن كثير : أي : بل هو (أي : الخلق) مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ، ولا تنافر ، ولا مخالفة ، ولا نقص ، ولا عيب ، ولا خلل ﴿ **فارجع البصر** ﴾ أي : ردّه إلى السماء حتى يصحّ عندك ما أخبرت به بالمعاينة فلا تبقى معك شبهة فيه . قال ابن كثير : أي : انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ﴿ **هل ترى من فطور** ﴾ قال قتادة : أي : هل ترى خللاً يا ابن آدم . أقول :

والفطور جمع فطر وهو في الأصل : بمعنى الشق والصدع واستعمل هنا بمعنى الخلل ﴿ **ثم ارجع البصر** ﴾ أي : كرر النظر ﴿ **كرتين** ﴾ أي : مرتين ، أي : مرّة مع الأولى ، وقيل سوى الأولى فتكون ثلاث مرات ، وقيل لم يرد الاقتصار على مرتين ، بل أراد به التكرير بكثرة ، أي : كرِّر نظرك ودقّقه هل ترى خللاً أو عيباً ، وجواب الأمر : ﴿ **ينقلب** ﴾ أي : يرجع ﴿ **إليك البصر خاسئاً** ﴾ أي : ذليلاً صاغراً ، أو بعيداً عن أن يرى عيباً ﴿ **وهو حسير** ﴾ أي : كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ، ولا يرى نقصاً . قال ابن كثير : ولمّا نفى عنها في خلقها النقص بيّن كمالها وزينتها فقال : ﴿ **ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ قال النسفي : أي : بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح ، والمصابيح : السرج فسمّيت بها الكواكب . أقول : ولعل المراد بهذه المصابيح الكواكب السيارة وحدها كما سنرى في الفوائد ﴿ **وجعلناها رجوماً** ﴾ قال النسفي : والرجوم جمع رجم أو هو مصدر سمي به ما يرجم به ﴿ **للشياطين** ﴾ قال النسفي : ومعنى كونها رجوماً للشياطين أي : ينفصل عنها شهاب قبس يؤخذ من نار فيقتل الجني أو يخبله . قال ابن كثير : عاد الضمير في قوله : وجعلناها على جنس المصابيح لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدّة منها . أقول : وليس شرطاً أن يكون الانفصال آنياً بل قد يكون الانفصال قد تمّ من قبل ، ومن المعلوم أنّه في هذا الفضاء تسبح أشياء كثيرة سوى النجوم والكواكب ، كما أنّه من المعلوم أن كوكباً سياراً سوى التسعة قد انفجر منذ زمن بعيد ، وخلّف وراءه كويكبات ، وعلى كل فالنيازك التي تدخل جو الأرض ويصل بعضها إلى الأرض أحياناً هي من مادة الأرض والكواكب ؛ لأن المادة واحدة ، ولنا عودة على هذا الموضوع ﴿ **وأعتدنا لهم** ﴾ أي : للشياطين ﴿ **عذاب السعير** ﴾ أي : في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا . قال ابن كثير : أي : جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى ﴿ **وللذين كفروا** ﴾ أي : وأعتدنا للذين كفروا ﴿ **بربهم** ﴾ من الشياطين ومن الإنس ﴿ **عذاب جهنم وبئس المصير** ﴾ أي : المآل والمنقلب ﴿ **إذا ألقوا فيها** ﴾ أي : إذا طرحوا في جهنم كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿ **سمعوا لها** ﴾ أي : لجهنم ﴿ **شهيقاً** ﴾ قال ابن جرير يعني : الصياح . وقال النسفي : أي : صوتاً منكراً ، شبّه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿ **وهي تفور** ﴾ أي : تغلي بهم غليان المرجل بما فيه ﴿ **تكاد تميّز** ﴾ أي : تتميز يعني : تتقطع وتتفرق ﴿ **من الغيظ** ﴾ على الكفار . قال النسفي : فجعلت

كالمغتاظة عليهم استعارة لشدة غليانها بهم ، وقال ابن كثير : أي : تكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها وحنقها بهم ﴿ **كلما ألقي فيها فوج** ﴾ أي : جماعة من الكفار ﴿ **سألهم خزنتها** ﴾ أي : مالك وأعوانه من الزبانية توبيخاً لهم : ﴿ **ألم يأتكم نذير** ﴾ أي : رسول يخوّفكم من هذا العذاب ﴿ **قالوا بلى قد جاءنا نذير** ﴾ هذا اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأنه تعالى أزاح عللهم ببعث الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿ **فكذبنا** ﴾ أي : فكذبناهم ﴿ **وقلنا ما نزّل الله من شيء** ﴾ أي : مما تقولون أيها الرسل من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ **إن** ﴾ أي : ما ﴿ **أنتم إلا في ضلال كبير** ﴾ هل هذا من كلام الكفار لرسلهم ، أو من كلام الخزنة للكفار ؟ قولان للمفسرين . قال النسفي : (قال الكفار للمنذرين : ما أنتم إلا في خطأ عظيم ، فالنذير بمعنى الإنذار ، ثم وصف به منذروهم لغلوهم في الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذاراً ، وجاز أن يكون هذا كلام الخزنة للكفار على إرادة القول ، ومرادهم بالضلال : الهلاك ، أو سموا جزاء الضلال باسمه كما سمى جزاء السيئة والاعتداء سيئة واعتداء ، ويسمى المشاكلة في علم البيان ، أو كلام الرسل لهم حكوه للخزنة ، أي : قالوا لنا هذا فلم نقبله) . ذكر تعالى في الآية عدله في خلقه ، وأنه لا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ﴿ **وقالوا** ﴾ أي : الكفار ﴿ **لو كنا نسمع** ﴾ الإنذار سماع طالب الحق ﴿ **أو نعقل** ﴾ أي : نعقله عقل تأمّل ﴿ **ما كُنّا في أصحاب السعير** ﴾ أي : في جملة أهل النار . قال النسفي : وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل ، وأنهما حجتان ملزمتان . قال ابن كثير : (أي : لو كانت لنا عقول ننتفع بها ، أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنّا على ما كنّا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم) ﴿ **فاعترفوا بذنبهم** ﴾ أي : بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿ **فَسُحقاً لأصحاب السعير** ﴾ أي : فبعْداً لهم عن رضى الله وكرامته ، اعترفوا أو جحدوا ، فإن ذلك لا ينفعهم ﴿ **إنّ الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ قال النسفي : أي : قبل معاينة العذاب ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ للذنوب ﴿ **وأجر كبير** ﴾ أي : الجنة . قال ابن كثير في الآية : (يقول تعالى مخبراً عمّن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه ، إذا كان غائباً عن الناس فينكف عن المعاصي ، ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أي : تكفّر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل) ثم قال تعالى منبّهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿ **وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به** ﴾ أي : ليستو عندكم

إسراركم وجهركم في علم الله بهما ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ قال النسفي : (أي : بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها ، فكيف لا يعلم ما تكلمتم به) . وقال ابن كثير : أي : بما يخطر في القلوب ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ أي : ألا يعلم الخالق للقول القولَ ﴿ **وهو اللطيف** ﴾ أي : العالم بدقائق الأشياء ﴿ **الخبير** ﴾ أي : العالم بحقائق الأشياء . قال النسفي : وفيه إثبات خلق الأقوال فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد .

كلمة في السياق :

١ - قلنا إن محور السورة هو محور سورة الأنعام ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ فلنر كيف فصّلت الفقرة الأولى من سورة الملك في هذا المحور :

أما قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ فقد فصّل فيه قوله تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ إذ علّل لحكمة خلق الموت والحياة .

وأما قوله تعالى : ﴿ **فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ فنلاحظ أن قوله تعالى : ﴿ **الذي خلق سبع سمٰوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ تفصيل له ، إذ لفت النظر إلى كيفية الاستدلال به على وجود الله والإيمان به .

وأقامت الفقرة الحجة على الكافرين بدقّة هذا الكون وتحدثت عن ما أعد الله للكافرين من عذاب ، وكيف أن الكافرين يوم القيامة يندمون على كفرهم ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل** ﴾ فالفقرة أقامت الحجة على الكافرين بظاهرة الخلق وظاهرة العناية ، وتحدثت عمّا يقع للكافرين يوم القيامة ، وتحدّثت الفقرة عن مقتضى من مقتضيات الإيمان الحقيقي بالله وهو الخشية من الله ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب** ... ﴾ فمن تأمّل الفقرة التي مرّت معنا وجد أنها كلها تصبّ في تفصيل آيتي المحور ومعانيها ، وما ذكرناه كاف للتدليل على ذلك .

٢ - بدأت السورة بالكلام عن الله عز وجل ، ومالكيته ، وقدرته ، وخلقه

الموت والحياة ، وحكمة ذلك ، ثم تحدثت عن خلقه السموات ودقّة الخلق ، وأمرت بتكرار النظر للوصول من خلاله إلى اليقين الكامل ، ثم تحدثت عن تزيين السماء الدنيا بالكواكب ، ورجم الشياطين بها ؛ ليصل النص إلى الكلام عن عذاب الشياطين والكافرين يوم القيامة ، ودخولهم النار ، وتوبيخ الملائكة لهم ، واعتراف الكافرين بمواقفهم التي استحقوا بها العقاب ، واعترافهم أنهم كانوا بلا سمع ولا عقل ، وفي هذا السياق يحدّثنا الله عز وجل عن الذين يستحقون مغفرته وجنته ، وهم الذين يخشون ربهم بالغيب ، ومجيء هذا المعنى في سياق إقامة الحجة على الكافرين يوحي بأن المظهر الحقيقي للإيمان بالله هو خشية الله عز وجل ، وههنا يذكّرنا الله عز وجل بما يستثير في قلوبنا الخشية منه ، وهو علمه بسرنا وجهرنا ، ويذكر لنا الدليل على ذلك أنه هو الذي خلق هذا السّر والجهر ، ومن تأمل هذه المعاني وجدها على صلة كاملة بقوله تعالى في المحور : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

٣ - يلاحظ أن الفقرة الثانية من سورة الملك تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ وهي كما ترى شديدة الصلة بالآية الثانية من المحور ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وكذلك بقية الفقرة ، فكأن الفقرة الأولى أشدّ لصوقاً بمعاني الآية الأولى من المحور ، والفقرة الثانية أشدّ لصوقاً بمعاني الآية الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتد من الآية (١٥) إلى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٣٠) وهذه هي

مقدمة الفقرة

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

المجموعة الأولى

ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

المجموعة الثانية

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

التفسير :

﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً** ﴾ أي : لينة سهلة ، مذلّلة مسخّرة معبّدة للإنسان يستطيع أن يستفيد منها ويطمئن فيها ﴿ **فامشوا في مناكبها** ﴾ أي : في جوانبها استدلالاً واسترزاقاً ، أو في جبالها وطرقها . قال ابن كثير : أي : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات . أقول : وهذا مظهر من مظاهر تذليلها وتسخيرها ﴿ **وكلوا من رزقه** ﴾ أي : من رزق الله فيها ، وهذا مظهر ثانٍ من مظاهر تسخيرها أن أوجد فيها كل ما يحتاجه الإنسان لرزقه ﴿ **وإليه النشور** ﴾ أي : المرجع يوم القيامة . قال النسفي : أي : وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم .

كلمة في السياق :

١ - يلاحظ أن الرجوع إلى الله قد ذكر في الآية الأولى من آيتي المحور : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ ثم جاءت الآية الثانية في المحور وهي كالدليل على ما ورد في الآية الأولى من خلق الموت والحياة والرجوع إلى الله فقالت : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ ونلاحظ أن الرجوع إلى الله في السورة ذكر هنا بجانب تذليل الله عز وجل الأرض للإنسان ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ فالرجوع إلى الله ذكر ههنا بجانب المعنى الذي يرجع إلى آية المحور الثانية

فما فهمناه هناك من السياق نراه ههنا صراحة .

٢ - بدأت السورة بالكلام عن خلق الموت والحياة ، وحكمة ذلك ، وسارت في سياقها الرئيسي في عرض مظاهر الخلق ، حتى استقرت على الآية الأخيرة لتبدأ حواراً مع الكافرين بالله واليوم الآخر ، فبعد أن أقامت الحجة على الكافرين ، وبعد أن لفتت نظر الإنسان إلى وجوب الشكر ، تبدأ السورة في الخطاب المباشر للإنسان لتقتلع جذور الكفر بالله واليوم الآخر في مجموعتين متلاحقتين : الأولى عمادها الاستفهام ، والثانية عمادها الأمر (قل) .

٣ - لاحظ أن محور السورة يبدأ بهذا الخطاب ﴿ **كيف تكفرون** ... ﴾ وأن الآية الأولى من المجموعة القادمة تقول : ﴿ **أأمنتم** ﴾ لاحظ التشابه ، فآية المحور فيها خطاب للإنسان الكافر ، وآية المجموعة الأولى وما بعدها فيها خطاب مباشر للإنسان الكافر ، وآية المحور تبدأ باستفهام ، والمجموعة تبدأ باستفهام ، وفي الاستفهام هنا تعجيب وإنكار كما أنه هناك كذلك .

تفسير المجموعة الأولى من الفقرة الثانية

﴿ **أأمنتم من في السماء** ﴾ أي : أأمنتم الله عز وجل ﴿ **أن يخسف بكم الأرض** ﴾ من تحتكم ﴿ **فإذا هي تمور** ﴾ أي : تضطرب وتتزلزل بكم جزاءً لكم على كفركم ، أوَ ليس هو الذي جعلها لكم ذلولاً ، أوَ ليس القادر على خلقها كما هي قادراً على أن يفعل فيها هذا ﴿ **أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً** ﴾ أي : حجارة . قال ابن كثير : أي : ريحاً فيها حصباء تدمغكم ﴿ **فستعلمون كيف نذير** ﴾ أي : إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم . قال ابن كثير : أي : كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلّف عنه وكذّب به ﴿ **ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ؟ لقد كان عظيماً شديداً أليماً ، فكيف يأمن هؤلاء تعذيبي لهم على كفرهم . قال النسفي : ثم نبّه الله على قدرته على الخسف وإرسال الحاصب بقوله : ﴿ **أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات** ﴾ أي : باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿ **ويقبضن** ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ﴿ **ما يمسكهن** ﴾ أي : في الجو ﴿ **إلا الرحمن** ﴾ قال ابن كثير : أي : بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه . وقال النسفي : أي : ما يمسكهن عن الوقوع عند القبض

والبسط إلا الرحمن بقدرته ﴿ **إنه بكل شيء بصير** ﴾ قال ابن كثير : أي : بما يصلح كل شيء من مخلوقاته . وقال النسفي : أي : يعلم كيف يخلق وكيف يدبّر العجائب . أقول : لفت الله عز وجل النظر إلى بديع صنعه في خلقه الطير على ما هو عليه ، وجعله سنن الكون تخدمه ، إلى بصارته تعالى في الأشياء وخلقها ، وهذا يقتضي من الإنسان إيماناً وخشية ، لا كفراً وأمناً ، ثم قال تعالى منكراً عليهم أمنهم ، وحاملاً لهم على خشيته : ﴿ **أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن** ﴾ قال ابن كثير : أي : ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم ، وقال النسفي : والمعنى : من المشارُ إليه بالنصر غير الله ؟ أقول : وإذ كان الجواب بالنفي فإن الله عزّ وجل يقول : ﴿ **إن الكافرون إلا في غرور** ﴾ أي : ما هم إلا في غرور عندما يأمنون عذابه أو يتكلون على غيره ، أو يكفرون به ، أو يعبدون سواه ، ثم قال تعالى : ﴿ **أمَّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه** ﴾ قال ابن كثير : (أي : من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده أي : لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله عز وجل وحده لا شريك له) يعلمون ذلك ، ويعبدون غيره . وفي الصيغة إنكار عليهم في كفرهم ، ومطالبة لهم أن يؤمنوا ولكن لما كانوا قد وصلوا إلى حالة من الكفر لم يعد لهم معها رجعة إلى الإيمان قال : ﴿ **بل لجُّوا** ﴾ أي : تمادوا ﴿ **في عتوٍّ** ﴾ أي : استكبار عن الحق ﴿ **ونفور** ﴾ أي : وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتبعوه . قال ابن كثير : أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم ، وضلالهم ... في معاندة واستكبار ، ونفور على أدبارهم عن الحق لا يسمعون له ، ولا يتبعونه . أقول : ثم ضرب الله مثلاً لحال الكافر والمؤمن ، منه يفهم أن هؤلاء الكافرين في غاية الضلال . فقال : ﴿ **أفمن يمشي مكباً على وجهه** ﴾ أي : ساقطاً على وجهه يعثر كل ساعة ويمشي معتسفاً ﴿ **أهدى** ﴾ أي : أرشد ﴿ **أمَّن يمشي سوياً** ﴾ أي : مستوياً منتصباً سالماً من العثور والخرور ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ على طريق مستو . قال ابن كثير : (وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبّاً على وجهه ، منحنياً لا مستوياً على وجهه ، أي : لا يدري أين يسلك ، ولا كيف يذهب ، بل تائه ضال . أهذا أهدى ﴿ **أمَّن يمشي سوياً** ﴾ أي : منتصب القامة ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أي : على طريق واضح بيِّن ، وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة ، و هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم ، مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم) . وبهذا انتهت

المجموعة الأولى من الفقرة الثانية .

كلمة في السياق :

١ - استثارت المجموعة كوامن النفس البشرية لإيصالها إلى خشية الله عز وجل ، وبإدراكنا لهذا المعنى ندرك صلة المجموعة بما قبلها من سياق السورة ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير * هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور * أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير * أَوَلم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير * أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتوٍّ ونفور * أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم** ﴾ .

٢ - أنذرت المجموعة الكافرين بأنواع من الإنذارات ، ثم مثّلت لحالهم وعجّبت من حالهم ، وأنكرت عليهم هذا الحال ، وصلة ذلك بمحور السورة ﴿ **كيف تكفرون بالله** ... ﴾ واضحة .

٣ - يلاحظ أن سورة سبأ محورها هو نفس محور سورة الملك ، ومن ثَمَّ فقد ورد في سورة سبأ قوله تعالى : ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ ، وأن المجموعة التي مَرّت معنا بدأت بقوله تعالى : ﴿ **أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير** ﴾ .

٤ - من سياق السورة عرفنا أن هناك صنفين من البشر : صنفاً يخشى الله عز وجل وهو الذي يمشي سوياً على صراط مستقيم ، وصنفاً لا يخشى الله عز وجل وهو الذي يمشي مكبّاً على وجهه ، ومن السورة عرفنا أن الصنف الأول هو المهتدي ، وأن كل الحجج العقلية والنقلية بجانبه ، وأن الصنف الثاني هو الضال ، ولا عقل ولا سمع

بجانبه ، وبذلك عرفنا الآثار العملية للكفر بالله ، والآثار العملية للإيمان بالله عز وجل ، فخشية الله عز وجل هي الأثر الصحيح للإيمان بالله ، والأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة هو الأثر اللعين للكفر بالله ، فالسورة إذن تفصّل في المحور من حيث إنها توضح حجج المحور وتبين تفصيلات فيها ، ومن حيث إنها تلفت النظر إلى آثار الكفر بالله عز وجل ، لقد عَرّفتنا السورة على الله عز وجل ، ودلّتنا عليه ، وأقامت الحجة على الكافرين به ، وعَنّفتهم على أمنهم من عقابه ، وبشّرت المؤمنين الخائفين من عذابه ، ومثّلت لحال هؤلاء وهؤلاء .

٥ - ولقد استقرت المجموعة التي مرّت معنا على تبيان حال الكافرين والمؤمنين ، ومن ثَمَّ تأتي المجموعة الثانية في الفقرة الثانية آمرة رسول الله ﷺ أن يقول لهؤلاء الكافرين معاني محددة ؛ ولذلك تتكرر كلمة (قل) في المجموعة التالية .

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

الأمر الأول :

﴿ **قل هو الذي أنشأكم** ﴾ قال ابن كثير : أي : ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ أي : العقول والإدراك ، قال النسفي في علة تخصيص السمع والبصر والفؤاد بالذكر : خصّها (أي : بالذكر) لأنها آلات العلم ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ أي : تشكرون شكراً قليلاً هذه النعم لأنكم تشركون بالله ولا تخلصون له العبادة . قال ابن كثير : أي : قلّما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره .

كلمة في السياق :

١ - ذكّر الله عز وجل في هذه الآية الإنسان بابتداء خلقه ، وبما أنعم عليه من أمهات النعم ، وبيّن له أن ذلك يقتضي منه الشكر ، وفي ذلك إنكار على الكافرين الذين لجوا في عتو ونفور ، وإقامة حجة عليهم ، واستخراج للشكر من المؤمنين ، وهكذا عرفنا صفة ثالثة من صفات أهل الإيمان : الأولى : خشية الله ، والثانية : المشي المستقيم على الصراط المستقيم ، والثالثة : الشكر على ما أنعم الله به ، وهي كلها لوازم الإيمان بالله .

٢ - يلاحظ أن آية المحور الأولى قالت : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ وأن الأمر الأول ههنا كان ﴿ **قل هو الذي أنشأكم** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾ ويلاحظ أن الأمر الثاني في هذه المجموعة يقول : ﴿ **قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في المحور : ﴿ **فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ فكلمة (ترجعون) في المحور ، وكلمة (تحشرون) في الآية التي ستأتي معنا الآن متلازمتان ، فالصلة على أتم الوضوح بين المحور والسورة ، فلنر الأمر الثاني .

الأمر الثاني :

﴿ **قل هو الذي ذرأكم في الأرض** ﴾ قال النسفي : أي : خلقكم ، وقال ابن كثير : أي : بثّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ أي : للحساب والجزاء . قال ابن كثير : (أي : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات يجمعكم كما فرّقكم ، ويعيدكم كما بدأكم) ولما كان الكفار ينكرون الحشر أصلاً - كأثر عن كفرهم بالله عز وجل - فقد أخبرنا الله عز وجل عن هذا الإنكار للمعاد واستبعاد الكافرين له . فقال : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد** ﴾ أي : الذي تعدوننا به من أننا سنحشر ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أي : في كونه ، فأعلمونا زمانه ، قال ابن كثير : أي : متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق . أقول : علامة صدق الرسول والمؤمنين عندهم تتمثّل في قدرتهم على تحديد الزمن الذي يجيء فيه اليوم الآخر ، وليس الأمر كذلك ، فمجيء اليوم الآخر قضية عقلية نقلية ، هي أثر عن الإيمان بالله ، وقد شاء الله عز وجل ألا يعلم أحد بزمنها لحكمة ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ **قل إنما العلم عند الله** ﴾ قال ابن كثير : أي : لا يعلم وقت ذلك على اليقين إلا الله عز وجل ، لكنّه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿ **وإنما أنا نذير** ﴾ أي : منذر ﴿ **مبين** ﴾ قال النسفي : أي : أبين لكم الشرائع ، وقال ابن كثير : أي : وإنما عليّ البلاغ وقد أديته إليكم ﴿ **فلما رأوْه** ﴾ أي : الوعد يعني : العذاب في اليوم الموعود ﴿ **زلفة** ﴾ أي : قريباً منهم ﴿ **سيئت وجوه الذين كفروا** ﴾ أي : ساءت رؤية الوعد وجوههم ، بأن علتها الكآبة والمساءة ، وغشيتها القترة

والسواد . قال ابن كثير : أي : لما قامت القيامة ، وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلمّا وقع ما كذّبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما هم هناك من الشر ، أي : فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ... ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿ **هذا الذي كنتم به تدَّعون** ﴾ أي : تستعجلون . قال النسفي : من الدعاء أي : تسألون تعجيله ، وتقولون : ائتنا بما تعدنا ، أو هو من الدعوى أي : كنتم بسببه تدّعون أنكم لا تبعثون .

كلمة في السياق :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون** ﴾ دليل ضمني على مجيء اليوم الآخر ، فمتى ثبت أن الله عز وجل هو الذي خلق البشر وبثّهم في الأرض ، لم يعد مستغرباً أن يحشرهم ، فمن بدأهم لا يعجزه أن يخلقهم مرة ثانية ويحشرهم ، وهكذا نجد أن الأمر الثاني يؤكد مضمون الأمر الأول ، ويزيد عليه .

٢ - ولما كان الكافرون منهمكين في الكفر ، ومستمرين عليه ، ومستكبرين ونافرين ﴿ **بل لجّوا في عتو ونفور** ﴾ فإنهم يتضايقون من الإنذار باليوم الآخر ، ومن التذكير بالله ، ومن المنذرين والمذكّرين ، ولذلك يتمنون لهم الهلاك ، ومن ثَمَّ أمر الله رسوله ﷺ أن يبيّن لهم أنّه سواء هلك المؤمنون أو لم يهلكوا ، فالأمر سواء بالنسبة لتعذيب الكافرين ، وليس لهم مفر من التعذيب ، فليفكّروا في صلب ما هم فيه ، وفي ذلك إرجاع للكافر إلى أصل الموضوع . وتعليم لنا أن نبقي الكافر في النقطة الرئيسية فلا يصرفنا عنها إلى فرعيات .

....

الأمر الثالث :

﴿ **قل** ﴾ قال ابن كثير : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿ **أرأيتم إن أهلكني الله** ﴾ أي : إن أماتني الله ﴿ **ومن معي** ﴾ من أصحابي ﴿ **أو رحمنا** ﴾ أي : أو أخّر آجالنا ﴿ **فمن يجير الكافرين من عذاب أليم** ﴾ أي : من ينجّيهم من عذاب النار . قال ابن كثير : (أي : خلّصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب

والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم) .

كلمة في السياق :

في الآية التي مرّت معنا دعوة للكافرين أن يؤمنوا ، وأن يتركوا ما هم عليه من كفر ، وألّا تنسيهم أمانيّهم الفاجرة الظالمة في حق المؤمنين حقيقة ما أمامهم ، والآن يأتي أمر رابع يأمر الله به رسوله ﷺ أن يعلن هو والمؤمنون عن إيمانهم بالله ، وتوكلهم عليه ، في مقابل كفر هؤلاء الكافرين ، وتمنّيهم أن يهلك رسول الله والمؤمنون ، وصلة هذا الأمر بما قبله لا تخفى .

الأمر الرابع :

﴿ **قل هو الرحمن** ﴾ في ذكر الرحمن هنا إشارة إلى أن أهل الإيمان مرحومون ، وأن ما يتمناه الكافرون لهم هو محض ضلال ، ففعل الله بالمؤمنين دائماً محفوف بالرحمة ﴿ **آمنا به** ﴾ أي : صدّقنا به ولم نكفر به كما كفرتم ، فنحن محل ظهور آثار رحمته ﴿ **وعليه توكّلنا** ﴾ في جميع أمورنا ، أي : فوَّضنا إليه أمورنا ، فمهما فعل فينا فنحن راضون مستسلمون ، وهو جل جلاله حسبنا ﴿ **فستعلمون من هو في ضلال مبين** ﴾ نحن المؤمنين به المتوكلين عليه ، أم أنتم الكافرين به المعتمدين على الأسباب . قال ابن كثير : أي : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

في هذه الآية رد على رغبة الكافرين بهلاك رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وفيها تبيان لأثر جديد من آثار الإيمان بالله وهو التوكل عليه ، وفيها بيان لكون الكافرين بالله الذين لا يتوكلون عليه في ضلال واضح ، ثمّ تأتي آية أخيرة فيها دليل على أن الله وحده هو أهل للإيمان به وأهل للتوكل عليه ، وفيها دليل على افتقار خلقه إليه ، ومن ثَمَّ ففيها إنكار على من يكفر به وهذه هي :

الأمر الخامس :

﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أي : أخبروني ﴿ **إن أصبح ماؤكم غوراً** ﴾ أي : غائراً ذاهباً في الأرض ، فلا نهر ولا عين ولا بئر ، بل يُذهبه الله عز وجل في باطن الأرض حيث

لا تستفيدون منه ﴿ **فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ قال ابن كثير : أي : نابع سائح جار على وجه الأرض ، أي : لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه ، وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة فلله الحمد والمنة .

كلمة في السياق :

١ - رأينا صلة الآية الأخيرة بما قبلها مباشرة ، وأما صلتها ببداية فقرتها - أي : بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ - فمن حيث إنّ للماء المعين صلة كبيرة بتذليل الأرض ، والأكل من أرزاقها . وأما صلة الآية الأخيرة بمحور السورة - أي : بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ - فمن حيث إنّ مما خلقه الله عز وجل في هذه الأرض للإنسان هذه المياه التي لولاها لتعذرت الحياة .

٢ - واضح أن السورة آخذة آياتها برقاب بعضها ، و متعانقة ضمن سياق واضح المعالم ، يبدأ بالتعريف على الله ، ثم ينذر الكافرين ، ثم يأمر الرسول ﷺ أن يخاطب هؤلاء الكافرين الخطاب ، تلو الخطاب حتى تنتهي السورة ، وقد رأينا ذلك كله وصلته بالمحور ، ولنا عودة على سياق السورة في الكلمة الأخيرة عنها .

....

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة** ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بني آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ، ثم دار بقاء » ورواه معمر عن قتادة) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين** ﴾ أقول : الذي أميل إليه أن المراد بالمصابيح الكواكب السيارة ، والذي رجّح ذلك عندي هو ما يلي :

أ - يلاحظ أن القرآن عبّر عن الشمس بالسراج ، ومن المعلوم أن النجوم في هذا

الكون كلها من نوع الشمس ، والكواكب السيارة وحدها ليست من هذا القبيل ، والله تعالى قال في سورة الصافات : ﴿ **إنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾ وههنا قال : ﴿ **ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ .

ب - من المعلوم أن الأحاديث النبوية تشير إلى أن بُعد السماء الدنيا عن الأرض خمسمائة سنة ، ومن المعلوم أن النجوم تبعد عن الأرض كثيراً ، حتى إن أقرب نجم يبعد عن الأرض أربع سنين ضوئية ، وعلى هذا فليس بين الأرض والسماء إلا الكواكب السيارة فهي المصابيح .

(ج) من المستبعد أن تكون الشهب آتية من نجوم هذا الكون ، فالأقرب أنها أجزاء من الكواكب السيارة ، والله عز وجل حدّثنا أن هذه الشهب من هذه المصابيح ، وهذا يرجّح أن المراد بالمصابيح الكواكب السيارة ، وهذا موضوع شائك لا أجزم فيه ، ولكنني أذكر رأياً لعلّه يفيد الباحثين .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيحين : « سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً** ﴾ قال صاحب الظلال : (فمما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف : ﴿ **ذلولاً** ﴾ ... الذي يطلق عادة على الدابة ، مقصود في إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة ، هي دابة متحركة ... بل رامحة راكضة مهطعة !! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها ، و لاتتعثر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول !

إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة ، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة ، ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء ... ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً مطمئناً معافى لا تتمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلاؤه ، بل لا يرتج مخّه ، ولا يدوخ ،

ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها في حياة هذا الإنسان ، بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض . فدورة الأرض حول نفسها هي التي تنشأ عنها الليل والنهار ، ولو كان الليل سرمداً لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمداً لاحترقت الحياة كلها من الحر ... ودورتها حول الشمس هي التي ينشأ عنها الفصول . ولو دام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله ... أما الحركة الثالثة - فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها بعد . ولا بد أن لها ارتباطاً بالتناسق الكوني الكبير .

والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ، وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعاً ... ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكّرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، في هذا التعبير الذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول . والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى تلك الأرض المذلّلة للسير فيها ، كما جعل لها ضغطاً جوياً يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتعذّر أو تعسّر على الإنسان أن يسير ويتنقل - حسب درجة ثقل الضغط - فإما أن يسحقه أو يعوقه . ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان ، أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله ، كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولاً ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولو كانت صخوراً صلدة - كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها - لَتعذر السير فيها ، ولَتعذر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتتت هذه الصخور الصلدة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتوياً على العناصر التي تحتاج الحياة إليها . بالنسب الدقيقة التي لو اختلت ما قامت الحياة ، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١ ٪ تقريباً ، ونسبة الأزوت أو النتروجين هي ٧٨ ٪ تقريباً ، والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من

عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة ... ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبُعْد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها ... إلى آخره ... إلى آخره . وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولاً . وهي التي جعلت فيها رزقاً وهي التي سمحت بوجود الحياة . وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق ، وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته . ليشعر بيد الله - الذي بيده الملك - وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله ، وتذلل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها . ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطّم بمن عليه وما عليه !) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشي سوياً على صراط مستقيم** ﴾ قال ابن كثير : (هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ الآيات أزواجهم أشباههم . روى الإمام أحمد رحمه الله عن نفيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾ قال صاحب الظلال : (والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ، معجزة أعجب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل . وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد .

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لمحة : « تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ، ولا يعلم إلا الله أين تنتهي . ويقول العلم : إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن ، التي تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن .

والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة . وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس » .

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركّبت هذه الأقواس - التي تبلغ عدة آلاف كل منها - تركيباً خاصاً ؟ وما الحيز الذي وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة . هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى ! وفي الأذن مئة ألف خلية سمعية . وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب » .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التي تحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الإبصار . وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية ... وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية » .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات . ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض ، وبالنسبة للعدسات ... وعدسة عينيك تختلف في الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة ، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً » .

فأما الأفئدة فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنساناً . وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف بها الإنسان في هذا الملك العريض) .

كلمة أخيرة في سورة الملك :

إن محور سورة الملك قد أنكر على من يكفر بالله ، مقيماً عليه الحجة من خلال ظاهرتي الحياة والعناية ، مقرراً موضوع الرجوع إلى الله كبديهية ، متحدثاً عن خلق الله السموٰات السبع ، وقد جاءت سورة الملك مفصّلة في ذلك كله ضمن سياقها الخاص بها ، تحدثت عن الله عز وجل وعن حكمته في خلق الموت والحياة ، وعن خلق السموٰات السبع ، وعن تزيينها بالكواكب ، وعن حكمة وجود الكواكب لتصل إلى

الكلام عن عذاب الشياطين والكافرين في نار جهنم ، لتذكر بعد ذلك جزاء الذين يخشون ربهم ، ثم تذكر معاني تستثير فيها الخشية ، ثم تأمر بعد ذلك رسول الله ﷺ أن يقول للكافرين معاني محددة ، وبهذا أقامت السورة الحجة تلو الحجة على الكافرين ، وأنكرت عليهم الكفر وما يتفرع عنه ، وبينت ما يستدعيه الإيمان بالله عز وجل وفصّلته ، فكانت بمجموعها تفصيلاً لمحورها وبياناً لحكمة الخلق التي تعرض لها المحور ، وكنا ذكرنا من قبل أن محور سورة الملك هو محور سورة الأنعام ، وكما أنه بعد سورة الأنعام سورة الأعراف فبعد سورة الملك سورة القلم التي تفصّل في محور سورة الأعراف . فلننتقل إلى الكلام عن سورة (القلم) .

☆ ☆ ☆

سورة القلم

وهي السورة الثامنة والستون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة والأخيرة من المجموعة الخامسة من
قسم المفصل ، وهي اثنتان وخمسون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله وآلِهِ وأصحابِهِ

ربنا تقبلْ منا، إنك أنتَ السميعُ العليمُ

بين يدي السورة :

قدّم الألوسي لسورة القلم بقوله : (هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة فقد نزلت - على ما روي عن ابن عباس - اقرأ باسم ربك ثم هذه ثم المزمل ثم المدثر ، وفي البحر إنها مكية بلا خلاف فيها بين أهل التأويل ، وفي الإتقان استثنى منها ﴿ **إنا بلوناهم** ﴾ إلى ﴿ **يعملون** ﴾ ومن ﴿ **فاصبر** ﴾ إلى ﴿ **الصالحين** ﴾ فإنه مدني حكاه السخاوي ، وفي جمال القراء وآيها ثنتان وخمسون آية بالإجماع ، ومناسبتها لسورة الملك على ما قيل من جهة ختم تلك بالوعيد ، وافتتاح هذه به ، وقال الجلال السيوطي في ذلك : أنه تعالى لما ذكر في آخر الملك التهديد بتغوير الماء ، استظهر عليه في هذه بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة بطائف طاف عليها وهم نائمون ، فأصبحوا ولم يجدوا له أثراً حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق ، وإذا كان هذا في الثمار - وهي أجرام كثيفة - فالماء الذي هو لطيف أقرب إلى الإذهاب ؛ ولهذا قال سبحانه هنا : ﴿ **وهم نائمون فأصبحت كالصريم** ﴾ وقال جل وعلا هناك : ﴿ **إن أصبح ماؤكم غوراً** ﴾ إشارة إلى أنه يسري عليه في ليلة كما أسرى على الثمر في ليلة . انتهى ، ولا يخلو عن حسن ، وقال أبو حيان فيه : إنه ذكر فيما قبل أشياء من أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه تعالى الواسع ، وأنه عز وجل لو شاء لخسف بهم الأرض ، أو لأرسل عليهم حاصباً ، وكان ما أخبر به سبحانه هو ما أوحى به إلى رسوله ﷺ فتلاه عليه الصلاة والسلام وكان الكفار ينسبونه في ذلك مرة إلى الشعر ، ومرة إلى السحر ، ومرة إلى الجنون ، فبدأ جل شأنه هذه السورة الكريمة ببراءته صلى الله تعالى عليه وسلم مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه) .

....

كلمة في سورة القلم ومحورها :

قلنا إن محور سورة القلم هو محور سورة الأعراف ، ومحور سورة الأعراف هو القاعدة الكلية التي ختمت بها قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة ، وهي ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ودليل ذلك واضح من معاني السورة ، ومن التشابه بين آيات فيها وبين سورة الأعراف ففي السورة

نجد قوله تعالى : ﴿ **فلا تطع المكذبين** ﴾ وفي السورة نجد قوله تعالى : ﴿ **فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ لاحظ صلة الآيتين بقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ ولاحظ صلة الآية الثانية بقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ونكتفي بهذه الإشارة في هذا المقام فسنرى تفصيلات ذلك أثناء عرض السورة .

....

والملاحظ أن سورة (نٓ) وسورة (قٓ) وسورة (صٓ) كل منها مبدوء بحرف واحد ، وتنتهي نهاية متشابهة .

فسورة (صٓ) تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ .

وسورة (قٓ) تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ .

وسورة (نٓ) تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ .

ومن قبل رأينا أن سورة (صٓ) نهاية مجموعة ، وسورة (قٓ) نهاية مجموعة ، وهذا يجعلنا نستأنس بأن سورة (نٓ) نهاية مجموعة ، وإن اختلفت محاور هذه السور الثلاث بحسب النهاية التي تستقر عليها المجموعة التي وردت فيها .

....

ونلاحظ أن سورة الملك انتهت بقوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين * قل أرأيتم ...** ﴾ فسورة الملك منتهية بآيات تخاطب رسول الله ﷺ وسورة (نٓ) تبدأ بخطاب رسول الله ﷺ : ﴿ **نٓ * والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم * فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون** ﴾ فالصلة واضحة بين نهاية سورة الملك وبداية سورة (نٓ) .

....

وفي سورة التغابن نجد قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد** ﴾ وصلة ذلك بمضمون سورة (نٓ) واضحة . فمما ورد في سورة (نٓ) قوله تعالى : ﴿ **فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون** ﴾ ومما ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون** ﴾ وذلك يؤكد صلة سورة (نٓ) بسورة التغابن ، ومن قبل قلنا إن سورة التغابن هي مقدمة مجموعتها .

....

ولنبدأ عرض السورة على فقرات .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى وهي المقدمة للسورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٧) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

التفسير :

﴿ نٓ ﴾ قال النسفي : الظاهر أن المراد به هذا الحرف من حروف المعجم ، وقال ابن كثير : قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ، وأن قوله تعالى : ﴿ نٓ ﴾ كقوله : ﴿ صٓ ﴾ ، ﴿ قٓ ﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطّعة في أوائل السور ، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته هنا . أقول : وفي ترجيح هذين الإمامين هذا القول ، دليل على أنه لم يثبت شيء عن رسولنا عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن ، ومن ثَمَّ فكل كلام غير هذا الكلام لا يصلح أن يلتفت إليه أو يعوّل عليه ؛ ولذلك فإننا لا نذكره ولا نشير إليه ﴿ **والقلم** ﴾ قال ابن كثير : الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ، وقال النسفي : أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿ **وما يسطرون** ﴾ قال ابن كثير : يعني : وما يكتبون . وهل الضمير يعود على كل كاتب ، أو على الملائكة ، أو على الكاتبين الخير من البشر ؟ وأرجّح الأخير فصار المعنى : والقلم وكتابة الكاتبين به من أولئك الذين يحققون الحكمة من خلقه إذ يستعملونه في الخير ، وجواب القسم : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك** ﴾ أي : ما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وغيرها ﴿ **بمجنون** ﴾ قال ابن كثير : أي : لست ولله

الحمد بمجنون كما يقول الجهلة من قومك ، المكذّبين بما جئتهم به من الهدى والحق المبين ، فنسبوك فيه إلى الجنون . قال النسفي : وهو جواب قولهم ﴿ **يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ أقول : إن اتهام رسول الله ﷺ بالجنون هو المفرّ الذي يفر إليه كل مكذب برسول الله ﷺ ، ومن ثَمَّ نسمع في عصرنا اتهام الرسول ﷺ بالصرع وغيره كتعليل لما يحدث له عليه الصلاة والسلام عند الوحي - وحاشاه - ، وفي عرض الله عز وجل هذه الشبهة بهذا الشكل ردٌّ لها فإن الرسول ﷺ قد أُنعم عليه بأعظم نعمة في الوجود ، فكيف تجتمع هذه النعمة مع الجنون ؟ إن مثل هذا الكلام لا يقوله إلا إنسان حرم نعمة التفكير ، ثم قال تعالى : ﴿ **وإن لك لأجراً** ﴾ أي : ثواباً ﴿ **غير ممنون** ﴾ أي : غير منقطع . قال ابن كثير : أي : بل إن لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . أقول : نفى الله عن رسوله ﷺ تهمة الجنون ، وذكّره بنعمته عليه بالنبوة ، وبما أعدّه له في الآخرة ؛ ردّاً عنه وتسلية له ، ثم أثنى الله عز وجل على رسوله الثناء الأعلى فقال : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ قال عطية : أي : لعلى أدب عظيم ، وقال معمّر عن قتادة : سئلت عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن ، قال ابن كثير : ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له ، وخلقاً وتطبّعه وترك طبعه الجبلي ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم ، وكل خُلق جميل . أقول : في الثناء على رسول الله ﷺ هذا الثناء الكريم ردّ على من اتّهمه بالجنون ، فمن رأى مضمون ما أنعم الله على رسوله من الوحي ، ومن عرف كمالات أخلاقه لا يشك أنه ما عرف تاريخ البشرية إنساناً كمحمد ﷺ ، فهل يصح في العقول بعد ذلك أن يتهم الرسول ﷺ بالجنون ؟ ثم وعد الله رسوله ﷺ وأوعد أعداءه فقال ﴿ **فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون** ﴾ أي فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك مَنْ المفتون الضال منك ومنهم . والمفتون هو الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه ، وفسر ابن عباس والنسفي المفتون بالمجنون لأنه فتن - أي : محن - بالجنون ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ قال ابن كثير : أي : هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ، ويعلم الحزب الضال عن الحق ، وقال النسفي : أي هو أعلم بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله ، وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون . أقول : وقد شهد الله وهو الأعلم أن رسوله هو العاقل المهتدي

وهم المفتونون الضالون عن صراط الله عز وجل .

كلمة في السياق :

١ - بعد هذه المقدمة يأتي قوله تعالى في الفقرة اللاحقة كما سنرى : ﴿ **فلا تطع المكذبين** ﴾ مما يشير إلى أن الذين اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون هم المكذبون ، ولذلك صلته بمحور السورة من سورة البقرة ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ فالمقدمة تحدثت عما يفر إليه الكافرون المكذبون بآيات الله ، فاتهام الرسول ﷺ بالجنون هو مستندهم في الكفر والتكذيب ، وقد ردّ الله عز وجل عليهم .

٢ - محور السورة من سورة البقرة فيه قوله تعالى : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ومقدمة سورة (نٓ) تحدثت عمّن أنزل عليه الهدى ، وأفهمتنا أنه محل نعمة الله عز وجل ، وأنه على كمال الأخلاق ، وبهذا عرفنا بماذا يتصف من يختاره الله عز وجل لرسالته ، كما عرفنا من المقدمة أن من اتهم الرسول ﷺ فإنّه مفتون ضالّ .

٣ - بعد هذا التأسيس الذي مَرَّ معنا في المقدمة ، والذي عرفنا فيه خصائص الرسول ﷺ ، وعرفنا فيه الردّ على الاتهام الرئيسي الموجّه له ﷺ ، تأتي فقرة تنهى رسول الله - وهو القدوة - عن طاعة المكذبين ، وعن طاعة من اتصف ببعض الصفات ، ومن الفقرة الثانية تعرف مواقف أخرى للمكذبين ، وتعرف صفاتهم ، وتعرف أنهم هم المفتونون ، وأنهم هم الضالون ، يشهد على ذلك أخلاقهم نفسها ، فلنر الفقرة الثانية .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية

وتمتدّ من الآية (٨) إلى نهاية الآية (١٦) وهذه هي :

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

التفسير :

﴿ **فلا تطع المكذبين** ﴾ قال ابن كثير رابطاً بين هذه الآية وما قبلها : (يقول تعالى كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم ، والخُلق العظيم فلا تطع المكذبين) وقال النسفي : (في الآية تهييج على معاصاتهم) ثم علّل الله عز وجل للنهي بقوله : ﴿ **ودُّوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ أي : ودّوا لو تلين لهم فيلينون لك . دلّ هذا على أن أهل الكفر والتكذيب تنصبّ محاولاتهم على أن يتخلى صاحب الدعوة عن شيء من دعوته ، وهم في مقابل ذلك مستعدّون لأن يلينوا في دعوتهم ، ولكن شتان بين إدهانهم وإدهان صاحب الحق ، فصاحب الدعوة إذا لان فذلك على حساب الحق ، وأما هم فإذا لانوا فذلك على حساب الباطل ، وما أرخص الباطل وأغلى الحق ، وكما نهى الله عز وجل رسوله عن طاعة المكذبين ، فإنه ينهاه بعد ذلك عن طاعة كل من اتصف بخصال حدّدها له : ﴿ **ولا تطع كل حلّاف** ﴾ أي : كثير الحلف في الحق والباطل . قال النسفي : وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ﴿ **مهين** ﴾ أي : حقير في الرأي والتمييز والكلمة مشتقة من المهانة وهي القلة والحقارة ، وفسّر ابن عباس المهين بالكذاب ، وإنّما ذمّ الحلّاف لأنّ كثرة حلفه دليل على اجترائه على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها ﴿ **همّاز** ﴾ أي : عيّاب طعّان مغتاب ﴿ **مَشّاءٍ بنميم** ﴾ أي : نقّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم ، والنميم والنميمة بمعنى

واحد : وهي السعاية بين الناس بالإفساد ﴿ **منّاع للخير** ﴾ الخير هو المال هنا ، أو للإسلام ﴿ **معتد** ﴾ أي : مجاوز في الظلم حدّه ، أو معتد في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحدّ المشروع ﴿ **أثيم** ﴾ أي : كثير الآثام ، أي : يتناول المحرّمات ﴿ **عُتُلٍ** ﴾ أي : غليظ جاف ﴿ **بعد ذلك** ﴾ أي : بعد كل ما مَرّ من المثالب فهو غليظ جاف ﴿ **زنيم** ﴾ أي : دعي ينتسب إلى غير أهله ، وفسّر ابن عباس الزنيم بأنّه الدعي الفاحش اللئيم ﴿ **أن كان ذا مال وبنين** ﴾ هذه الآية تحتمل تقديرين : التقدير الأول : ولا تطع من كانت هذه صفاته لكونه ذا مال وبنين ، أي : لا تطعه ليساره وحظه في الدنيا . والتقدير الثاني : أن الآية متعلقة بما بعدها وهي : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ أي : خرافاتهم . فصار التقدير : ألِأنه كان ذا مال وبنين كذّب وقال عن آياتنا أساطير الأولين ، ولم يذكر ابن كثير إلا التقدير الثاني . قال : (مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل ، وأعرض عنها ، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين) . ثم قال تعالى مهدداً مَنْ هذه صفاته : ﴿ **سَنَسِمُه على الخرطوم** ﴾ الخرطوم : الأنف ، قال النسفي : وتخصيص الأنف بالذكر لأن الوسم عليه أبشع . قال ابن جرير : أي : سنبيّن أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ، ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى عليهم السّمة على الخراطيم ، وقال آخرون : أي : سنسمه سمة أهل النار ، يعني : بسوء وجهه يوم القيامة ، وعبّر عن الوجه بالخرطوم ، ونموذج هذا الصنف في زمن رسول الله ﷺ الوليد بن المغيرة كما قال الجمهور .

كلمة في السياق :

١ - نهى رسول الله ﷺ في هذه الفقرة عن طاعة صنفين هما المكذبون ومن اتصف بالصفات العشر المذكورة : الحلف ، والمهانة ، والهمز ، والنميمة ، ومنع الخير ، والاعتداء ، وارتكاب الإثم ، ومقابلة نعمة الله بكفرانها ، وقوله تعالى في الصنف الثاني : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ يشير إلى أن كلاً من الصنفين مكذّب ، إلا أن العرض أشعر أنه يمكن أن يوجد إنسان متصف بهذه الصفات حتى ولو لم يعلن تكذيبه ، فالمكذبون هذه أخلاقهم ، ولذلك صلته بمحور السورة ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ . فالفقرة عرفتنا على صفات الكافرين والمكذبين ، وذكرت لنا بعض ما يعذّبون به ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ .

٢ - وهكذا عرفنا من السورة أن لله رسولاً أنعم الله عليه بالوحي والخُلق

العظيم ، وأن هناك مكذبين متّصفين بأخسّ الأخلاق يتهمون الرسول ﷺ بالجنون وحاشاه ، وبهذا يستأهلون العذاب ، وعرفنا أن أدب المسلم ألا يطيع هؤلاء ، وصلة ذلك كله بمحور السورة واضحة ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

٣ - لاحظنا أن من صفات المكذبين أنهم ﴿ **أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ فهؤلاء من صفاتهم مقابلة النعمة بالكفر ، ومحاربة آيات الله ووصفها بالأساطير ، ثمّ تأتي فقرة تبيّن أن الله عز وجل يعطي هؤلاء ما يعطيهم امتحاناً واستدراجاً ، وأن أمامهم العذاب في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وهذا كله نراه من خلال مثل يضربه الله عز وجل لهؤلاء في الفقرة الثالثة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة

وتمتدّ من الآية (١٧) إلى نهاية الآية (٣٣) وهذه هي :

إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا

ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

التفسـير :

﴿ **إنا بلوناهم** ﴾ أي : إنا اختبرنا هؤلاء المكذبين ﴿ **كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ الجنة : هي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ **إذ أقسموا ليصرمنَّها مصبحين** ﴾ أي : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء ، وقال النسفي : أي : حلفوا ليقطعن ثمرها داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء ﴿ **ولا يستثنون** ﴾ قال النسفي : (أي : ولا يقولون إن شاء الله ، وسمي استثناء - وإن كان شرطاً صورة - لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث إن معنى قولك لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد) ، وقال ابن كثير : ولا يستثنون أي : فيما حلفوا به ، ولهذا حنّثهم الله في أيمانهم ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك** ﴾ أي : نزل عليها بلاء من عند الله . قال ابن كثير : أي : أصابتها آفة سماوية ﴿ **وهم نائمون** ﴾ أي : في حال نومهم . ﴿ **فأصبحت كالصريم** ﴾ أي : فصارت الجنة كالليل المظلم ، أي : احترقت فاسودّت ، أو كالصبح أي : صارت أرضاً بيضاء بلا شجر ، وقيل كالمصرومة ، أي : كأنها صرمت لهلاك ثمرها . قال ابن كثير : قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ﴿ **فتنادَوْا مصبحين** ﴾ أي : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ أي : القطع قائلين : ﴿ **أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين** ﴾ أي : إن كنتم مريدين صرامه ﴿ **فانطلقوا** ﴾ أي : ذهبوا ﴿ **وهم يتخافتون** ﴾ أي : يتسارّون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين . قال ابن كثير : أي : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم ، ثم فسّر الله تعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ﴿ **أن لا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين** ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ، ثم قال الله تعالى واصفاً حالهم في ذهابهم ﴿ **وغدَوْا على حرد** ﴾ أي : قوة وشدة ، أو جد أو غيظ ، أو حرد على المساكين ﴿ **قادرين** ﴾ أي : عند أنفسهم على

المنع ، أي : قادرين عليها وعلى منع منفعتها عن المساكين فيما يزعمون ويرومون ﴿ **فلما رأوها** ﴾ أي : فلما رأوا جنتهم محرّقة ﴿ **قالوا** ﴾ في بديهة وصولهم ﴿ **إنا لضالّون** ﴾ أي : ضللنا جنتنا ، وليست هذه هي ؛ لما رأوا من هلاكها ، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أي : حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا .
قال ابن كثير : (أي : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهي على الحالة التي قال الله - عز وجل - قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار ، إلى أن صارت سوداء مدهمة ، لا يُنتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ **إنا لضالون** ﴾ أي : قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها ، قاله ابن عباس وغيره ، ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هي فقالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أي : بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب) . ﴿ **قال أوسطهم** ﴾ أي : أعدلهم وخيرهم ﴿ **ألم أقل لكم لولا تسبّحون** ﴾ قال النسفي : (أي : هلا تستثنون ؛ إذ الاستثناء التسبيح لالتقائهما في معنى التعظيم لله ؛ لأن الاستثناء تفويض إليه والتسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم ، أو لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كأنّ أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين ، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة ، فعصوه فعيّرهم ولهذا ﴿ **قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ . فتكلموا بعد ما حدث الذي حدث بما كان يدعوهم إلى التكلم به أولاً ، وأقروا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف وترك الاستثناء ونزهوه عن أن يكون ظالماً . قال ابن كثير : أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أي : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، ويحيل كل واحد منهم اللائمة على الآخر ، ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحد ﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين** ﴾ أي : بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء . قال ابن كثير : أي : اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها** ﴾ أي : خيراً من هذه الجنة ، قيل رغبوا بدلها في الدنيا ، وقيل احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ﴿ **إنا إلى ربنا راغبون** ﴾ أي : طالبون منه الخير راجون لعفوه ﴿ **كذلك العذاب** ﴾ قال ابن كثير : أي : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات ، وبدّل نعمة الله كفراً ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر** ﴾ أي : أعظم منه .
قال ابن كثير : أي : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق ﴿ **لو كانوا**

يعلمون ﴾ ولكنهم لا يعلمون ، ومن ثَمَّ يفعلون ما يفضي إلى هذا العذاب .

كلمة في السياق :

ما محلّ هذا المثل في سياق السورة ، وما هو الشبه بين اختبار المكذّبين بهذا القرآن واختبار أصحاب الجنة بجنتهم ؟

١ - المكذّبون بالإسلام يتصورون أن هذا التكذيب أكثر ربحاً لهم في الدنيا ، كما تصور أصحاب البستان أن منع المساكين أكثر ربحاً ، والواقع أن الأمر ليس كذلك ، وكما كان مآل أهل البستان الخسارة ، فالخسارة - أيضاً - هي مآل هؤلاء المكذبين ، ولقد رأينا أناساً تركوا الإسلام ودعوا إلى غيره طلباً لزعامة وجاه ، وإذا بالأمر ينقلب عليهم ، فأصبحوا وقد خسروا الزعامة والجاه ، بل ماتوا مقهورين . ولعذاب الآخرة أشق .

٢ - المكذبون أبطرتهم النعمة فكفروا ، وأصحاب الجنة أبطرتهم النعمة فقرروا المنع ونسوا الله عز وجل ، ففي المثل تهديد للمكذبين بزوال المال ، وموت العيال ، ومن هنا نفهم أن دنيا المكذبين شبّهت بالقصة بجنة أصحاب الجنة ، وكما أن أصحاب الجنة نسوا الله عز وجل ، وقرروا الاستيلاء عليها كاملة دون مراعاة أي حق ، فإن المكذبين نسوا الله عز وجل ، وقرروا الاستيلاء على دنياهم كاملة دون مراعاة أي حق ، وعاقبة الجميع واحدة في الدنيا ، وعذاب الآخرة أشق لمن لم يتب .

٣ - في ختم قصة أصحاب الجنة بقوله تعالى - حكاية عنهم - : **﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾** بيان لكون أصحاب الجنة تابوا وأنابوا ، وفي ذلك فتح باب لهؤلاء المكذبين أن يعترفوا بخطئهم ، ويتوبوا وينيبوا ، ثم تأتي فقرة رابعة هي آية واحدة تبيّن ما أعد الله عز وجل للمتقين .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة

وهي آية واحدة هي الآية (٣٤) وهذه هي :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (٣٤)

التفسير :

﴿ **إن للمتقين عند ربهم** ﴾ أي : في الآخرة ﴿ **جنات النعيم** ﴾ أي : جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص بخلاف جنات الدنيا . قال ابن كثير : لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل وخالفوا أمره ، بيّن أنّ لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وهؤلاء هم المتقون الذين رأينا في السورة ما أعد الله لهم في الآخرة ، والدليل على أن هؤلاء هم المتقون قوله تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ وكما رأينا في السورة جزاء المتقين ، فقد رأينا فيها جزاء المكذبين وما يستحقونه في الدنيا من عذاب . وهكذا فإن السورة تحدثت عن الرسول المنزل عليه الهدى ، ووردت عنه أقوال المكذبين ، وبيّنت أخلاق هؤلاء المكذبين ، وضربت لحالهم ودوافعهم مثلاً عرفنا فيه خسارتهم ، ثم عقبت على ذلك بذكر ربح المتقين ، ولكل ذلك صلاته بمحور السورة ، وكما أن للسورة صلاتها بمحورها فلها سياقها الخاص ووحدتها وتسلسلها .

فالسورة بدأت بنفي تهمة الجنون عن رسول الله ﷺ ، وأوعدت وأنذرت المتهمين ، ثم أمرت رسول الله ﷺ ألا يطيع هؤلاء المكذبين ، ثم ضربت مثلاً عرّفتنا به على دوافع التكذيب وخسارة أهله في الدنيا والآخرة ، ثمّ بيّنت ربح المصدقين ، ثمّ تأتي فقرة جديدة تبيّن سنة الله في عدم مساواة الكافرين بالمسلمين ، وتناقش هؤلاء المكذبين ، فلنر الفقرة الخامسة .

الفقرة الخامسة

وتمتد من الآية (٣٥) إلى نهاية الآية (٤٣) وهذه هي :

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

التفسير :

﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** ﴾ أي : أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا الحكم الأعوج ، وهو التسوية بين المطيع والعاصي .

كلمة في السياق :

١ - جاءت هاتان الآيتان بعد أن ذكر الله عز وجل جزاء المكذبين ، وجزاء المتقين فبيّنتا أن عدل الله يقتضي ذلك ، فكأنهما قالتا : إذا كنا لا نعذب العاصي المكذب المجرم ، ولا نكافىء المصدّق المتقي المسلم ، فإننا نكون قد سوّينا بين الجميع ، وهذا ينافي عدلنا ، فكيف مثل هذا الظن بنا ؟! فالآيتان أفهمتا الكافرين المكذبين المجرمين أنه لا بد من عقاب وثواب .

٢ - أفهمتنا الآيتان أن عند الكافرين المكذّبين تصوّراً هو : استواء الكافرين والمؤمنين عند الله عزّ وجلّ ، وهو واقع نراه ، إذ نرى الكثيرين لا يعبأون بما يعملون من شر ، ولا بما يعمل المسلمون من خير ، ويرون أنفسهم والمسلمين سواءً ، وقد فنَّد

الله عز وجل هذا الحكم الخاطىء .

٣ - قال تعالى في محور السورة : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وفي هاتين الآيتين بيّن أنه لا يتساوىٰ عنده المجرمون والمسلمون فلا مساواة بينهما .

٤ - وبعد أن سفّه الله عز وجل هذا التصور - أن المجرمين والمسلمين سواء - خاطب المكذّبين ثلاث خطابات :

الخطاب الأول :

﴿ **أم لكم كتاب** ﴾ أي : من السماء ﴿ **فيه تدرسون** ﴾ أي : تقرأون في ذلك الكتاب ﴿ **إن لكم فيه لما تخيّرون** ﴾ أي : أن ما تختارونه وتشتهونه لكم . قال ابن كثير : يقول تعالى : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف يتضمّن حكماً مؤكداً تدّعونه ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون** ﴾ وإذ لم يكن الأمر كذلك فلماذا تكذّبون رسول الله ﷺ فيما أخبركم به عن الله ، ولماذا لا تعملون ، ولماذا لا تسلمون ، ولماذا تتصورون أنكم والمسلمين سواء عند الله عز وجل ، وأن لكم النتيجة الحسنة والنصر الأكيد ؟ أقول : وما أكثر ما نسمع في عصرنا على لسان الكافرين أن النصر لهم ، وأن المستقبل لهم ، وأن الحتمية التاريخية بجانبهم ، وأن وأن ، وكل ذلك وَهْم ، فهم محكومون بسنن الله عزّ وجل التي بينها الله في هذا القرآن وجزاؤهم بعد ذلك النار .

الخطاب الثاني :

﴿ **أم لكم أيمان** ﴾ أي : عهود مؤكدة بالأيمان ﴿ **علينا بالغة إلى يوم القيامة** ﴾ أي : أنها تبلغ ذلك اليوم ، وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسَم عليه من أخذ ما يحكمونه ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ به لأنفسكم . قال ابن كثير : أي : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ... أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ﴿ **سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ أي : قل لهم من هو المتضمن المتكفل بهذا ، وإذ لم يكن لهم كفيل ، وإذ لم يكن الأمر كذلك ، فما بالهم يكذّبون فلا يسلمون ولا يتقون ولا يعملون .

الخطاب الثالث :

﴿ **أم لهم شركاء** ﴾ قال ابن كثير : أي : من الأصنام والأنداد ، وقال النسفي : أي : ناس يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم فيه ﴿ **فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين** ﴾ في دعواهم أنهم على حق ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ أي : فليأتوا بشركائهم ذلك اليوم . قال النسفي : (والجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر وصعوبة الخطب) . قال ابن كثير : يعني : يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام ، ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **ويدْعَون إلى السجود** ﴾ أي : ويدعى الكفار ثمّة إلى السجود توبيخاً لهم على تركهم السجود في الدنيا ﴿ **فلا يستطيعون** ﴾ ذلك بصيرورة ظهورهم طبقاً واحداً كما سنرى في الحديث الصحيح ﴿ **خاشعة** ﴾ أي : ذليلة ﴿ **أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ أي : يغشاهم صغار ﴿ **وقد كانوا يُدْعَون** ﴾ على ألسن الرسل ﴿ **إلى السجود** ﴾ في الدنيا ﴿ **وهم سالمون** ﴾ أي : وهم أصحّاء فلا يسجدون ، فلذلك منعوا من السجود ثَمَّ . قال ابن كثير : (ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خَرَّ لقفاه عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون) .

كلمة في السياق :

١ - بدأت الفقرة الخامسة بنفي المساواة بين المسلمين والمجرمين ، وأن المجرمين حكمهم في ذلك حكم فاسد ، ثمّ برهنت على ذلك فأثبتت أنه لا مستند لهم في زعمهم ، فلا وعد من الله ، ولا كتاب يشهد ، وليس مع الله شريك ، وهكذا أكّدت الفقرة ما ورد في السورة من استحقاق الكافرين العذاب واستحقاق المؤمنين الثواب ، وفي ذلك تفصيل لما ورد في المحور من وعد الله للمؤمنين ، ووعيده للكافرين المكذبين .

٢ - وفي الفقرة السادسة يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه الهدى ، ولذلك فإن الفقرة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث** ... ﴾ فالسورة تفصّل في محورها من خلال توجيه الموحى إليه ﷺ ، فقد

بدأت بخطابه بنفي تهمة الجنون عنه ، والثناء على أخلاقه ، ثم ثنّت بنهيه عن طاعة المكذّبين ، ثم وصفت هؤلاء المكذبين ، وضربت مثلاً لحالهم ، ثم أقامت عليهم الحجة ، ثم عاد السياق لتوجيه رسول الله ﷺ بتحديد المواقف له .

٣ - في المحور ثلاث قضايا رئيسية : هدى ينزله الله على أصدق خلقه يقف الناس منه موقفين : مؤمنين ومكذبين . والسورة تخاطب المنزل عليه هدى الله - وهو محمد ﷺ - في الرسالة الخاتمة في نفي ما يتهمه به المكذبون ، فتقيم الحجة عليهم ، وتحدد لرسول الله ﷺ مواقفه منهم ، وتريه أخلاقهم وتصوراتهم ، فلنر الفقرة السادسة والأخيرة في السورة وتبدأ بالكلام عن المكذبين ، آمرة رسول الله ﷺ أن يتركهم لعقوبة الله عز وجل .

☆ ☆ ☆

الفقرة السادسة

وتمتدّ من الآية (٤٤) إلى نهاية السورة أي : إلى نهاية الآية (٥٢) وهذه هي :

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

التفسير :

﴿ **فذرني ومن يُكذّب بهذا الحديث** ﴾ يعني : القرآن . قال النسفي : أي : كِلْه إليّ فإني أكفيكه ، والمراد كِلْ أمره إليَّ ، وخلِّ بيني وبينه ، فإني عالم بما ينبغي أن يُفعل به ومطيق له ، فلا تشغل قلبك بشأنه ، وتوكل عليَّ في الانتقام منه ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ قال النسفي : (سندنيهم من العذاب درجة درجة ، يقال : استدرجه إلى كذا أي : استنزله إليه درجة فدرجة ، حتى يورطه فيه ، واستدراج الله تعالى العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة ، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿ **من حيث لا يعلمون** ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج ، قيل : كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها) ، وقال ابن كثير في الآية : (وهذا تهديد شديد أي : دعني وإياه . أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمدّه في غيّه وأنظره ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر) ، وفسّر ابن كثير ﴿ **من حيث لا يعلمون** ﴾

فقال : أي : وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو في نفس الأمر إهانة ، وفسرها النسفي بقوله : (أي : من الجهة التي لا يشعرون أنّه استدراج قيل : كلما جدّدوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها) ﴿ **وأملي لهم** ﴾ أي : وأمهلهم ﴿ **إن كيدي متين** ﴾ أي : قوي شديد . قال ابن كثير : أي : عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي وأصرّ على معصيتي ، وقال في الآية : أي : أؤخرهم وأنظرهم وأمدهم ، وذلك من كيدي ومكري بهم .

كلمة في السياق :

١ - جاء في محور السورة قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وجاء في الآيتين اللتين مَرّتا معنا قوله تعالى : ﴿ **فذرني ومن يكذب بهذا الحديث** ﴾ فالآيتان توجهان رسول الله ﷺ كيف يكون موقفه من المكذبين ، وتعده أن الله عز وجل سيتولى أمر الانتقام منهم ، وصلة ذلك بالمحور واضحة .

٢ - بعد أن ذكر الله عز وجل موقف الكافرين من رسول الله ﷺ ، وكيف أنهم يتهمونه أنّه مجنون ، وبعد أن ردّ الله عز وجل عليهم ، ونهى رسوله ﷺ عن طاعتهم ، ومثّل لحالهم وأقام الحجة عليهم ، يأتي الأمر لرسول الله ﷺ أن يكل أمر المكذبين إلى الله عز وجل ، ثم تتجه السورة مرة ثانية لحوار المكذبين كما سنرى .

٣ - لاحظ صلة المثل الذي ذكره الله عز وجل في السورة بقوله تعالى فيها : ﴿ **وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ ففي قصة أصحاب الجنة نموذج لكيد الله المتين ، ولنعد إلى سياق السورة .

....

﴿ **أم تسألهم أجراً** ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ **فهم من مغرم** ﴾ أي : غرامة ودفع مال ﴿ **مثقلون** ﴾ فلا يؤمنون أي : لست تطلب أجراً على تبليغ الوحي فيثقل عليهم فيمتنعوا لذلك . قال ابن كثير : والمعنى : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى ، وهم يكذّبون بما جئتهم به لمجرد الجهل والكفر والعناد ﴿ **أم عندهم الغيب** ﴾ قال النسفي : (أي : اللوح المحفوظ عند الجمهور) ﴿ **فهم يكتبون** ﴾ منه ما يحكمون به .

كلمة في السياق :

أقام الله الحجة على المكذبين ههنا بتبيانه أنه لا صلة لهم بأمر الغيب حتى يكذبوا ، وأن رسول الله ﷺ لا يطلب منهم أجراً حتى يستثقلوا الإيمان ، وبهذا استكملت السورة نقاش المكذبين ، فأقامت الحجة على أن محمداً رسول الله ، وعلى أنهم يستأهلون العذاب ، وعلى أنه لا مبرر لهم في عدم الإيمان ، وإذ قامت الحجة عليهم يأتي الآن أمر لرسول الله ﷺ بالصبر .

....

﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ، لأنهم أمهلوا ولم يهملوا ﴿ **ولا تكن كصاحب الحوت** ﴾ أي : يونس - عليه السلام - حين ذهب مغاضباً على قومه دون إذن من ربه ، فصار المعنى : فاصبر لحكمة ربك ، ولا تتصرّف تصرفاً إلا بإذن منا ؛ أن يصيبك ما أصاب يونس عليه السلام ، إذ عوقب ﴿ **إذ نادى وهو مكظوم** ﴾ أي : مغموم مكروب ﴿ **لولا أن تداركه نعمة من ربه** ﴾ أي : رحمة من الله . أي : لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره ﴿ **لنُبِذَ** ﴾ من بطن الحوت ﴿ **بالعراء** ﴾ بالفضاء ﴿ **وهو مذموم** ﴾ أي : معاتب بزلته ، لكنه رُحم فنبذ غير مذموم ﴿ **فاجتباه ربه** ﴾ أي : فاصطفاه ربه لدعائه وعذره ﴿ **فجعله من الصالحين** ﴾ أي : من المستكملين لصفات الصلاح .

....

كلمة في السياق :

وهكذا أدّب الله رسوله ﷺ آمراً إياه أن يصبر على أذى المكذبين ، وألا يتصرف تصرفاً إلا بإذن ، وإلا استحق عقاباً كالعقاب الذي نزل بيونس عنيه السلام ، وحتى لا يتوهم متوهم في شأن يونس فقد ذكر الله من كمالاته وتكميل الله إياه في المحنة وبعد المحنة ، ثمّ في سياق الأمر بالصبر يذكر الله عزّ وجل موقفين للكافرين يقتضيان صبراً .

....

﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ أي : قارب الكفار من شدة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك ، أو يهلكوك لشدة

حنقهم عليك ﴿ **لما سمعوا الذكر** ﴾ أي : حين سمعوا القرآن ﴿ **ويقولون إنه لمجنون** ﴾ فهم ينظرون إليه شزراً بأعينهم ، ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون ﴿ **إنه لمجنون** ﴾ أي : لمجيئه بالقرآن .

كلمة في السياق :

١ - بيّنت هذه الآية نموذجين من مواقف الكفار يقتضيان من رسول الله ﷺ صبراً ، نموذجاً فعلياً وهو نظرهم شزراً إلى رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن ، أو نظرهم الذي يريدون به هلاكه ، ونموذجاً قولياً وهو قولهم عن رسول الله ﷺ : إنه مجنون .

٢ - مما ذكره الله عز وجل في آخر الآية ﴿ **ويقولون إنه لمجنون** ﴾ نعلم سبب ما جاء في أول السورة ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ وهذا يرينا صلة أول السورة بنهايتها .

٣ - من الآية الأخيرة نعرف مظهراً جديداً من مظاهر الكفر والتكذيب ، وهو الحقد الشديد على صاحب الدعوة والهدى ، بدل الإيمان به والتسليم ، وصلة ذلك بمحور السورة واضحة .

٤ - وكردّ على موقف الكافرين من رسول الله ﷺ إذا سمعوا الذكر ، تأتي الآية الأخيرة في السورة .

....

﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ أي : وما القرآن إلا موعظة للجن والإنس . لقد حكموا على رسول الله ﷺ بالجنون ، ونظروا إليه شزراً لأجل القرآن ، وما القرآن إلا موعظة للعالمين ، فكيف يحكم بالجنون على من جاء بمثله ؟ وذكر النسفي وجهاً آخر للآية فقال : (وما هو - أي : محمد عليه السلام - إلا شرف للعالمين ، فكيف ينسب إليه الجنون) ، والوجه الأول أقوى .

قال صاحب الظلال : (ولا بد قبل نهاية الحديث من لفتة إلى كلمة « للعالمين » ... هنا والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود ، ويقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة ، ويرصد المشركون لحربها كل ما يملكون ... وهي في هذا

الوقت المبكر ، وفي هذا الضيق المستحكم ، تعلن عن عالميتها . كما هي طبيعتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدّعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى . لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

كذلك أرادها الله . وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى . وكذلك تتجه إلى آخر الزمان . والله الذي أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيها . وهو المدافع عنها وحاميها . وهو الذي يتولى المعركة مع المكذبين . وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) .

كلمة في السياق :

رأينا محور السورة من قبل فلنر أجزاءه وما فصّلت السورة في كل منها :

١ - ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى** ﴾ قد رأينا في السورة أن هذا القرآن هو هدى الله للعالمين ، وأن محمداً ﷺ أنزل عليه هذا الهدى ، وقد أثنت السورة على رسول الله ﷺ ، وأمرته بما ينبغي أن يفعله .

٢ - ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وقد بينت السورة أن المتقين لهم الجنات وأنهم هم المهتدون .

٣ - ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وقد فصّلت السورة في مواقف المكذبين وأقوالهم ، وكيف يستدرجهم الله عز وجل ، وفصّلت في استحقاقهم العذاب ، وأقامت الحجة عليهم ، وسفّهت مواقفهم ، لأنها لا تستند على أساس ، وكل ذلك سار ضمن سياق خاص للسورة .

الفوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **والقلم وما يسطرون** ﴾ اتجاه إلى أن المراد بالقلم ، قلم القدرة ، والمراد بالمسطرين الملائكة ، وقد رجّحنا غير هذا الاتجاه ، ولكن بمناسبة هذا الاتجاه قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب قال يا رب وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر

وما هو كائن إلى الأبد » وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق عن الوليد ابن عبادة عن أبيه به ، وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي به وقال : حسن صحيح غريب ، ورواه أبو داود في كتاب السنة من سننه) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى عبد الرزاق عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبريني يا أم المؤمنين عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت : أتقرأ القرآن ؟ فقلت : نعم فقالت : كان خلقه القرآن . وهذا مختصر من حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث قتادة بطوله ، وسيأتي في سورة المزمل إن شاء الله تعالى وبه الثقة . وروى الإمام أحمد عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن . وروى الإمام أحمد عن رجل من بني سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن ! ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ قال : قلت : حدثيني عن ذاك قالت : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً ، فقلت لجاريتي : اذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبل فاطرحي الطعام ، قالت : فجاءت بالطعام ، قالت : فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت ، وكان نطع ، قالت : فجمعه رسول الله ﷺ وقال : « اقتصوا - أو اقتصي ، شك أسود - ظرفاً مكان ظرفك » قالت : فما قال شيئاً . وروى البخاري عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل ولا بالقصير . والأحاديث في هذا كثيرة ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل .

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عز وجل . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح مكارم الأخلاق » تفرّد به) .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ : (ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواح شتى :

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت في كيانه ، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا - قائل هذه الكلمة - ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة ، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة . من هذا المصدر . وهو ثابت . لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب ... تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن ... هو في ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر . أعظم بصدورها عن العلي الكبير . وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير . وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً . لا يتكبر على العباد ، ولا يتعاظم ، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه - من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفئاً لها ، كما يكون صورة حية منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحق ، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء . فتطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء . في تماسك وفي توازن ، وفي طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم . ثم يتلقى - بعد ذلك - عتاب ربه له ، ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته ، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . ويعلن هذه كما يعلن تلك ، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك ... وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم . والعبد الطائع . والمبلّغ الأمين) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **مَشّاء بنميم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ثبت في

الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : مَرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » الحديث وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم من طرق عن مجاهد به . وروى الإمام أحمد عن همام أن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتّات » رواه الجماعة إلا ابن ماجه من طرق عن إبراهيم به . وروى عبد الرزاق - بسنده - عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتّات » يعني نماماً) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عُتُلٍّ بعد ذلك** ﴾ قال ابن كثير : (أما العتل : فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » وقال وكيع : « كل جواظ جعظري مستكبر » أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث سفيان . وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار : « كل جعظري جواظ مستكبر جماع منّاع » تفرد به أحمد . قال أهل اللغة : الجعظري : الفظ الغليظ ، والجواظ : الجموع المنوع . وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم قال : سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم فقال : « هو الشديد الخلق المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام والشراب الظلوم للناس رحيب الجوف » وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة الجواظ الجعظري العتل الزنيم » وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين . وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « تبكي السماء من عبد أصحّ الله جسمه ، وأرحب جوفه وأعطاه من الدنيا هضماً ، فكان للناس ظلوماً ، قال فذلك العتل الزنيم » وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين ونص عليه غير واحد من السلف منهم مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم أن العتل : هو المصحح الخلق ، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك) .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **زنيم** ﴾ قال ابن كثير : (وأما الزنيم فروى البخاري عن ابن عباس ﴿ **عتل بعد ذلك زنيم** ﴾ قال : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين

أخواتها . وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم ، قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة قال : ومنه قول حسان بن ثابت يعني يذم بعض كفار قريش :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال آخر :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ **زنيم** ﴾ قال : الدعي الفاحش اللئيم ، ثم قال ابن عباس :

زنيم تداعاه الرجال زيـادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم** ﴾ قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ») .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » وهذا الحديث مخرَّج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق وله ألفاظ وهو حديث طويل مشهور ، وقد قال عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ قال : هو يوم القيامة ، يوم كرب وشدة رواه ابن جرير ثم روى عن ابن مسعود أو ابن عباس - الشك من ابن جرير - ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ قال : عن أمر عظيم كقول الشاعر : شالت الحرب عن ساق) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم**

شديد ﴾) .

٩ - بمناسبة ذكر يونس عليه السلام ، قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى » ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ قال ابن كثير : (وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة ... روى أبو عبد الله ابن ماجه عن بريدة بن الحصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رقية إلا من عين أو حمة » هكذا رواه ابن ماجه وقد أخرجه مسلم في صحيحه عن بريدة موقوفاً وفيه قصة . قال الترمذي : وروى هذا الحديث الإمام البخاري عن عمران ابن حصين موقوفاً : « لا رقية إلا من عين أو حمة » .

(طريق أخرى) روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » انفرد به دون البخاري . وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوذ الحسن والحسين يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة . ومن كل عين لامة » ويقول : هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام . أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث المنهال به .

(حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه) روى ابن ماجه عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مَرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة فما لبث أن لبط به فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له : أدرك سهلاً صريعاً قال : « من تتهمون به » قالوا عامر بن ربيعة قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ . إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة » ثم دعا بماء ، فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره وأمره أن يصب عليه . قال سفيان قال معمر عن الزهري وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه ، وقد رواه النسائي من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس كلاهما عن

الزهري به ، ومن حديث سفيان بن عيينة به أيضاً عن معمر عن الزهري عن أبي أمامة ويكفأ الاناء من خلفه .

(حديث أبي سعيد الخدري) روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك ، ورواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن .

(حديث آخر عنه) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد قال : « نعم » قال : باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين تشنيك والله يشفيك ، باسم الله أرقيك . ورواه عن عفان عن عبد الوارث مثله ، ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود من حديث عبد الوارث به) .

كلمة أخيرة في سورة (القلم) ومجموعتها :

رأينا صلة سورة (نٓ) بمحورها وبالسورة قبلها وبالسورة الأولى من مجموعتها ، ورأينا كيف أن المجموعة على أقوى رباط فيما بينها ، وتوضحت لدينا خلال عرضنا للمجموعة فكرة هي : أن المعاني الإجمالية في القرآن عرضتها سورة البقرة في آياتها التسعة والثلاثين الأولى ، ثم جاءت تتمة سورة البقرة لتخدم المعاني الواردة في الآيات الأولى هذه . وجاءت المجموعات تتوالى لتفصّل كل مجموعة هذه الآيات بشكل أو بآخر مع امتداداتها في سورة البقرة نفسها ، وقد تفصّل بعض سور المجموعات محاور أخرى من سورة البقرة . وهذا التفصيل المستند إلى محاور ضمن ترتيب معيّن يذكّرنا بالوحدة التي نراها في هذا الكون ؛ إذ ترجع الأشياء كلها إلى أصل واحد ، وإذ تتكامل الأشياء فيما بينها . فكما أنه في هذا الكون تجد أن الأشياء الكثيرة ترجع إلى أمهات ، وأن كل شيء في هذا الكون يكمل الآخر ، فكذلك هذا القرآن ، وكما أنك تجد في أجزاء هذا الكون كل على حدة ، معاني جديدة وعجائب كثيرة في الذرّة والخلية والأعضاء والأجسام والكتل ، فكذلك نجد هذا القرآن ، فالقرآن كتاب الله المسطور ، والكون كتاب الله المنظور ، وكلاهما تظهر فيه نفس الخصائص التي تدل على الله وصفاته وأسمائه .

....

وقد رأينا فيما مَرَّ معنا كيف أن المجموعات تفصّل بعيداً أو قريباً من بداية سورة

البقرة ، وكيف أن هناك مجموعات تفصّل آية فآية بلا فواصل ، ومجموعات أخرى تفصّل آية ثم تفصّل آية بعيدة ، ويربط بين الآيات رباط ، وكل ذلك يرينا مظاهر من الإبداع تشهد على أن هذا القرآن كتاب الله عز وجل .

....

ومجموعة سورة (نٓ) التي مَرّت تمثل المجموعة الشاملة التذكير ، فقد رأينا أنها فصّلت في الآيات التسعة والثلاثين من سورة البقرة كلها ، بينما نرى مجموعات تفصّل في حدود العشرين آية الأول فقط ، ومجموعات فصّلت في الآيات السبع الأولى فقط .

....

ومن الآن فصاعداً سنحاول أن نبرز معنى هو :

أن المجموعات وهي تفصّل في محورها تلفت النظر إلى كل ما له علاقة في هذا المحور في منطوقه ومفهومه ، وعباراته وإرشاراته وغير ذلك ، وهي في الوقت نفسه تبني وتبين ما يترتب على كل معنى من آثار عملية ، وأحياناً قد تفصّل في الجانب العملي الذي يترتب على معنى ولو لم تذكر هذا المعنى . ونكتفي الآن بهذا القدر عن سورة (نٓ) ومجموعتها ، وعمّا أوصلتنا إليه ، وذكّرتنا فيه من آفاق الوحدة القرآنية ، ولننتقل إلى المجموعة السادسة من قسم المفصّل .

☆ ☆ ☆

فهرس المجلد العاشر

الموضوع	الصفحة

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

﴿ سورة المجادلة ﴾ ٥٧٧٥

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆